سماحة آية الله العظمى المرجع
السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء السابع عشر

سورة الفاتحة - سورة البقرة - سورة آل عمران

دار القارئ

بسم الله الرحمن الرحیم

من هدى القرآن

كاتب:

آيت الله سيد محمد تقى مدرسى

نشرت فى الطباعة:

دار محبى الحسين (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

من هدى القرآن المجلد ۱۷

اشاره

سرشناسه:مدرسی، محمدتقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور:من هدی القرآن/ محمدتقی المدرسی

مشخصات نشر:تهران: دار محبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری:ج ۱۸

شابک:۱۸--ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸ -۱۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴ -۱۰-۶۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۹۱۰ -۰۶-۸۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸ -۰۳-۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸ ؛ ۱۸--ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷ -۱۷-۳۱۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸ -۱۳-۰۹-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸ -۰۹-۲۵-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸ -۰۵-X۱-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸ ۰۳-۳-ISBN۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸

وضعیت فهرست نویسی:فهرستنویسی قبلی

یادداشت:عربی

یادداشت:کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت:کتابنامه

موضوع:تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره:BP۹۸/م ۴م ۸ ۱۳۷۷

رده بندی دیویی:۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی:م ۷۷-۱۲۵۶۱

ص :۱

اشاره

سوره المزمل

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

عن أبی عبد اللّه الصادق-علیه السلام-قال :«من قرأ سوره المزّمل فی العشاء الآخره فی آخر اللیل کان له اللیل و النهار شاهدین مع سوره المزّمل، و أحیاه اللّه حیاه طیّبه،و أماته میته طیّبه».

تفسیر نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۴۵

ص:۵

الإطار العام

التوحيد هو قاعده الانطلاق و الهدف الرئيسی لکل رسالات اللّه،و یتمثل عمقه الأصیل فی علاقه الإنسان المخلوق بر به الخالق،و لقـد تمحورت کثیر من الآیات القرآنیه فیما تمحورت حول منهجه هـذه العلاقه،بالتأکیـد علیها کأصل من أصول الإسـلام،و بیان خلفیاتها و معطیاتها و تفاصیل برنامجها،و المتدبر فی سوره (المزّمّل)یجدها تعالج هذا الموضوع من زاویه قیام اللیل،و أقول: قیام اللیل لأنّ هذا التعبیر أوسع من قولنا:صلاه اللیل،و أقرب لما یعنیه السیاق و یندب إلیه.

١-ففی البدایه یخاطب اللّه رسوله المزّمل فارضا علیه قیام اللیل فرضا کالصـلاه و الصـیام و الجهاد،حیث قالوا:بأنّه-صلّی اللّه علیه و آله-قـد خصّ بوجوب قیـامه اللیل دون أمته،و یبیّن أنّ اللیل عنـده و بالتالی عنـد عباده الصالحین لیس کما یزعم الناس:فرصـه لاسترخاء النوم،لأنّها هزیع من عمر الإنسان ینبغی أن یکون مثل النهار ساحه سـعی نحو الفلاح و السعاده،و من ثمّ فإنّ الأصل فی حیاه الفرد الرسالی أنّه یقوم اللیل إلاّ قلیلا نصفه أو ینقص منه قلیلا،أو یزید علیه،إلاّ

أن تعترضه الأسباب و الأعذار الشرعيه من مرض و ضرب فى الأرض و قتال فى سبيل اللّه و ما أشبه،كما تبيّن الآيه الأخيره من السوره(الآيات ۴/۱).

۲-و يعتبر الربّ-عز و جل-ترتيل القرآن(قراءته بصوت حسن و تدبّر) من أهم البرامج فى قيام الليل،إلى حد يمكن اعتباره كافيا عن سائر برامج الليل، ذلک لأنّ القرآن هو الوسيله العظمى للاتصال بربّ العزه،و لأنّه تعالى لا يريد منّا قياما روحيّا مجرّدا،بل يريد علاقه تنعكس على كل أبعاد الحياه،حتى تتحول إلى نهج حياه من خلال تدبر القرآن و العمل بآياته(الآيات ۲۰/۴).

۳-و مع أنّ المؤمن يواجه مصاعب من هذا التكليف الإلهى حيث تحديات النفس و حب النوم إلاّ أنّ ناشئه الليل فى مقابل ذلک أنفذ إلى أغوار النفس«أشدّ وطأ»و أصدق حينما ينبعث الإنسان من النفس لإصلاح الآخرين«أقوم قيلا»أقوم لقول الإنسان و سلوكه على طريق الحق و السعاده،و بالذات إذا أخذنا بعين الإعتبار معادله الزمن اليومى المنشطره إلى وقتين:الليل و النهار،فإنّ البشر بحاجه ماسّه و هو يكابد مشاكل الحياه و تحدّياتها بالنهار إلى إراده التحدى و الاستقامه على الطريقه المثلى دون تأثّر بالطبيعه أو بعواملها تأثّرا سلبيّا،و ذلک يعرج إليه و يستلهمه المؤمنون من قيام الليل،فلا يشطّون فى سبح النهار الطويل عن الحق و الصواب قيد أنمله(الآيات ۷/۵).

۴-و إذا كان الجميع معنيّون بقيام الليل فإنّ الرساليين بالذات مخصوصون بهذا الفرض الإلهى،و يتركز الأمر عند القياده الرساليه إلى حدّ الوجوب بالنسبه للإمام المعصوم،و إلى قريب من ذلک عند سواه.و السبب أنهم المستأمنون على رساله اللّه و جنوده الذين يخوضون الصراع المبدئى الحضارى ضد الباطل،و يعلم اللّه كم هى التحديات و الضغوط و المشاكل التى يواجهها من يركب هذا الطريق،و بالتالى

كم هم بحاجه إلى زاد الإيمان و وقود التقوى.

و لن يفلح الرساليون فى صراعهم حتى يعرجوا إلى قمّه التوحيد،و التوكل على ربّ العزه،و الصبر على الأذى و الحق فى سبيل اللّه،و من هذا المنطلق تأتى أهميه قيام الليل،و يتضح دوره الأصيل فى المسيره الرساليه،باعتباره معراجا رئيسيا إلى تلك القمّه السامقه.

۵-و بعد أنّ يحذّر اللّه المكذبين أولى النعمه نفسه مذّكرا بالآخره و عذابه الشديد فيها يذكّرنا تعالى بأنّ بعثه حبيبه الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-إلينا مظهر لسنته الجاريه فى الحياه،حيث يبعث الرسل شهداء على الأمم(مبشرين و منذرين)محذرا إيّانا من معصيه أوليائه لأنّها تؤدى إلى الأخذ الوبيل فى الدنيا، كما انتهت بفرعون و ملئه و جنوده،و أعظم من تلك العاقبه عذاب يوم القيامه« يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً* السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ »لا ريب فيه،و إنّها لمن عظيم تذكره اللّه إلى خلقه« فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً ».

۶-و فى الخاتمه يبيّن لنا القرآن اهتمام الرعيل الأول بقيام الليل(و فى طليعتهم النبى الأعظم)الذين كانوا يقومون أدنى من ثلثى الليل و نصفه و ثلثه حسب الظروف،و يقدّمهم أسوه للأجيال بعد الأجيال،معالجا فى الأثناء موضوع الظروف الاستثنائيه و الأعذار الشرعيه التى تمنع من قيام الليل،و موجّها إيّانا إلى بعض التكاليف المفروضه،و داعيا إلى الاستغفار« إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ».

[سوره المزمل (۷۳): الآيات ۱ الى ۲۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . يٰا أَيُّهَا اَلْمُزَّمِّلُ (۱) قُمِ اَللَّيْلَ إِلاّٰ قَلِيلاً (۲) نِصْفَهُ أَوِ اُنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (۳) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ اَلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (۴) إِنّٰا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (۵) إِنَّ نٰاشِئَةَ اَللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلاً (۶) إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهٰارِ سَبْحاً طَوِيلاً (۷) وَ اُذْكُرِ اِسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (۸) رَبُّ اَلْمَشْرِقِ وَ اَلْمَغْرِبِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (۹) وَ اِصْبِرْ عَلىٰ مٰا يَقُولُونَ وَ اُهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (۱۰) وَ ذَرْنِي وَ اَلْمُكَذِّبِينَ أُولِي اَلنَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (۱۱) إِنَّ لَدَيْنٰا أَنْكٰالاً وَ جَحِيماً (۱۲) وَ طَعٰاماً ذٰا غُصَّةٍ وَ عَذٰاباً أَلِيماً (۱۳) يَوْمَ تَرْجُفُ اَلْأَرْضُ وَ اَلْجِبٰالُ وَ كٰانَتِ اَلْجِبٰالُ كَثِيباً مَهِيلاً (۱۴) إِنّٰا أَرْسَلْنٰا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شٰاهِداً عَلَيْكُمْ كَمٰا أَرْسَلْنٰا إِلىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (۱۵) فَعَصىٰ فِرْعَوْنُ اَلرَّسُولَ فَأَخَذْنٰاهُ أَخْذاً وَبِيلاً (۱۶) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ اَلْوِلْدٰانَ شِيباً (۱۷) اَلسَّمٰاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كٰانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (۱۸) إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شٰاءَ اِتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (۱۹) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اَللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طٰائِفَةٌ مِنَ اَلَّذِينَ مَعَكَ وَ اَللّٰهُ يُقَدِّرُ اَللَّيْلَ وَ اَلنَّهٰارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتٰابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا مٰا تَيَسَّرَ مِنَ اَلْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضىٰ وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي اَلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اَللّٰهِ وَ آخَرُونَ يُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ فَاقْرَؤُا مٰا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ آتُوا اَلزَّكٰاةَ وَ أَقْرِضُوا اَللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً وَ مٰا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اَللّٰهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً وَ اِسْتَغْفِرُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۰)

اللغه

۷[سبحا]:السبح:المنقلب و المنصرف،و أصل السبح من التقلّب و منه السابح فى الماء لتقلّبه فيه.

۸[تبتّل]:انقطع إلى اللّه،و أصله من تبلت الشيء قطعته.

ص:۹

۱۴[كثيبا]:الكثيب الرمل المجتمع الكثير.

[مهيلا]:هلت الرمل أهيله هيلا فهو مهيل إذا حرّك أسفله فسال أعلاه.

۱۶[وبيلا]:كلّ ثقيل وبيل،و منه كلأ مستوبل أى مستوخم لا يستمرأ لثقله،و منه الوبل و الوابل و هو المطر العظيم القطر،و منه الوبال و هو ما يغلظ على النفس،و الوبيل الغليظ من العصى.

ص:۱۰

قُمِ اللَّيلَ إِلاّ قَلِيلاً

بينات من الآيات:

[١] [يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ] لقد وقف المفسرون طويلا عند هذه الآيه،و اختلفوا فی معنی المتزمل،فقال بعضهم:المتزمل بعباءه النبوه،و المتحمل لأثقالها (١)،و علّق العلامه الطباطبائی علی هذا الرأی قائلا:و لا شاهد علیه (٢).و فی الکشّاف:کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله نائما باللیل متزملا-فی قطیفته فنبّه بما یهجّن إلیه الحاله التی کان علیها من التزمل فی قطیفته و استعداده للنوم،کما یفعل من لا یهمّه أمر و لا یعنیه شأن (٣)،و

روی فی الدر المنثور عن جابر قال: اجتمعت قریش فی دار الندوه،فقالوا:سمّوا هذا الرجل اسما نصدر الناس عنه،فقالوا:کاهن،قالوا:لیس بکاهن،قالوا:مجنون،قالوا:

لیس بمجنون،قالوا:ساحر،قالوا:لیس بساحر،قالوا:یفرّق بین الحبیب و حبیبه،

ص:١٢

١- ١) تفسیر مجمع البیان ج ١٠ ص ٣٧٧ عن عکرمه.

٢- ٢) تفسیر المیزان ج ٢٠ ص ٦٠.

٣- ٣) تفسیر الکشاف ج ۴ ص ۶۴۴.

فتفرّق المشركون على ذلك،فبلغ ذلك النبی صلی الله علیه و آله فتزمّل فی ثیابه و تدثّر فیها (۱)، و قیل کان یتزمّل بالثیاب أول ما جاء به جبرئیل خوفا حتی أنس به،و إنّما خوطب بهذا فی بدء الوحی و لم یکن قد بلّغ شیئا،ثم خوطب صلی الله علیه و آله بعد ذلک بالنبی و الرسول (۲).

و قبل أن نبیّن رأینا فی هذه الآیه الکریمه نسجّل بعض الملاحظات حول بعض من الآراء،فإنّ ما علّق به الزمخشری من حیث العباره(یهجّن...لا یهمّه أمر..

لا یعنیه شأن)و من حیث المعنی لا یلیق بمقام حبیب اللّه و صفوه أنبیائه و رسله و هو المعصوم،و المهتم بأمر الرساله إلی حدّ کاد یهلک نفسه من أجلها،و تحمّل من الأذی لها حتی خاطبه ربّه سبحانه:« طه* مٰا أَنْزَلْنٰا عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لِتَشْقیٰ* إِلاّٰ تَذْکِرَهً لِمَنْ یَخْشیٰ » (۳).

و کذلک لا یلیق بمقامه صلی الله علیه و آله ما

روی فی الدر المنثور من أنّه تأثّر بإعلام الجاهلیین سلبیا فتزمّل و تدثّر فی ثیابه!أمّا ما قیل من أنّ النبی صلی الله علیه و آله کان یتزمل خوفا أو ذهب إلی خدیجه قائلا:(زمّلونی زمّلونی..دثّرونی دثّرونی) أوّل ما اتصل باللّه عبر أمینه جبرئیل حتی أنس به..هذا الرأی الذی تبنّاه بعض المفسرین،فإنّه أبعد ما یکون عن طبیعه الأنبیاء و شخصیه سیدّهم الأعظم صلوات اللّه علیهم.

و السبب أنّ فیه شیئا من نسبه الشک فی صحه الرساله و الاتصال باللّه عنده صلی الله علیه و آله ،و هذا نقیض قول اللّه عنه:« وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِینِ* وَ مٰا هُوَ عَلَی الْغَیْبِ بِضَنِینٍ* وَ مٰا هُوَ بِقَوْلِ شَیْطٰانٍ رَجِیمٍ » (۴)

۱- ۱) تفسیر الدر المنثور ج ۶ ص ۲۷۶.

۲- ۲) تفسیر مجمع البیان/ج ۵ ص ۳۷۷.

۳- ۳) طه ۱/۳.

۴- ۴) التکویر ۲۳/۲۵.

و الذی یبدو لی أنّ کلمه«المزمل»تحتمل معنیین:

الأول:ما أشار إلیه عکرمه بأنّه المحتمل لأعباء النبوه،فإنّ المتصدی لأمر الرساله و مسئولیه التغییر بها أحوج ما یکون إلی قیام اللیل،یستمد منه روح الإیمان و إراده الاستقامه علی الصراط الملیء بالمصاعب و التحدیات.جاء فی المنجد:زمل زملا الشیء:حمله،ازدمل الحمل:حمله بمرّه واحده،الزمل:الحمل (۱).

الثانی:الذی لّف علیه ثیابه أو غطاءه علی وجه الوصف لحال النبی حین نزل الوحی علیه بهذه الآیات،و هو ظاهر اللفظ و فی الخطاب بهذه الکلمه فائدتان:

أولا:تلطّف و تعطّف و دلاله علی قرب الرسول من ربه حتی یخاطبه بمثل هذا التعبیر الذی یجری بین الأحبّه.

و ثانیا:التوسّع إلی کلّ من یتزمل للنوم،فإن الحدیث یشمله انطلاقا من قاعده:(إیّاک أعنی و اسمعی یا جاره)التی نزلت بها آیات الذکر الحکیم.

علی أنّ المعنی الأول هو الآخر یتسع لکلّ من تحمّل أعباء الدعاء إلی اللّه،و لیس فی هذا التعبیر أدنی مساس بعظمه الرسول صلی الله علیه و آله -کما زعم البعض-فإنّه بشر مثلنا یحتاج إلی الراحه و النوم.و لعل الرسول کان ینام أول اللیل لیقوم فی منتصفه و آخره،موصلا قیامه باللیل بصلاه الصبح کما نقل عنه،و یقوّی هذا الاحتمال اللّغه حیث جاء فیها:زمل الشیء بثوبه أو فیه:لفّه (۲).

[۲]و حیث ینتفض کلّ مزّمل علی نداء الوحی الإلهی المتوجه إلیه یجد نفسه

۱- ۱) المنجد:ماده زمل.

۲- ۲) المصدر.

أمام أمر هامّ.

[قم الليـل] و لم يقل:(صلّ)لأنّ التعبير بالقيام أشـمل من الصـلاه،فالقيام يشـمل الصـلاه المخصوصه و غيرها،و كـذلك الـدعاء و قراءه القرآن و التفكر و الاسـتغفار،و الذى يستتبع محاكمه الماضى بالمحاسبه الذاتيه و التفكير المنهجى فى المستقبل.إذن فالليل ليس لمجرد النـوم و الراحـه،كلّا..إنّمـا هـو فرصـه المـؤمنين الـذهبيه للعروج نحـو الكمـال الروحى و العقلى،و الاتصـال بربّ العالمين..و من ثمّ التخطيط السـليم للمسـتقبل، سواء مستقبل الآخره البعيد،أو مستقبل الغد القريب فى الدنيا، حيث السبح الطويل كلّ نهار.و يتميّز الليل عن النهار بهدوئه و صفائه،و كون الإنسان فيه بعيدا عن كثير من المؤثرات التى تواجهه فى النهار،و لذلك جعله اللّه ميعاد لقائه بعباده الصالحين.

إنّ الإسـلام يريـد لأتبـاعه أن يقودوا البشـريه،و يشـيّدوا على هـداه سـعادتها الخالـده،و ذلك بحاجه إلى العزيمه العاليه،و الإراده الصـلبه،و مناجاه اللّه الذى من عنده كلّ خير و سـعاده..و قيام الليل يؤمّن لهم كلّ ذلك،كما أنّ بلوغ ذلك الهدف رهين السعى المسـتمر نحوه و الـذى لاـ يكفيه النهـار ممّـا يـدعو المؤمنين إلى مواصـله السـعى فى النهـار بقيام الليل،بقيام الليل،فلا ينامون إلاّ قليلا،بلى:إنّ الهدف عظيم،و الفرصه قصـيره،فلا بدّ إذن من سعى مضاعف،يسخّرون فيه ما يمكنهم من طاقاتهم،و ينتهزون لأجله ما يمكن من الوقت.

[إِلاّ قَلِيلاً] من عمرهم يخصصونه لراحه أبدانهم كحاجه طبيعيه تفرض نفسها على كلّ

ص:١۵

مخلوق،و حيث يستريحون بـالنوم فليس لـذاته،بـل لينهضوا من بعـده إلى عمـل دؤوب و إنجازات عظيمه،فإذا بك تـدرس حياه أحدهم لتقسم إنجازاته على أيّام عمره تجده أحيانا يسبق الزمان بإنجازاته الكبيره،و على عكسهم أولئك الذين يستسلمون لحب النوم و الراحه،فإنّ واحـدهم يعيش ثمانين عاما فى ظاهر الأمر و لكنّك حينما تقيّم حياته على أساس الأعمال و المنجزات تجـده لم يعش أكثر من عشرين أو ثلاثين سنه،لأنّه كـان ينـام ساعات طويله فى اليوم،أمّا أوقات يقظته فإنّها تضـيع بين غفله و لهو و لعب.

بلى.إنّ اللّه يريد لنا أن نقوم النصف الآخر من أعمارنا،و الذى عاده ما يخسره الناس،قياما نعمره بالعمل الصالح،و أىّ عمل صالح أفضـل من التقرب إليه تعـالى،و التـدبر فى كتـابه،و اسـتثاره العقـل بايـآته فيه و فى الطبيعه؟ و إذا كان الأمر القرآنى«قم»ظاهر فى الوجوب بالنسبه إلى النبى و المعصومين -عليه و عليهم الصـلاه و السـلام-و محمول على الاسـتحباب لمن سواهم فـإنّ المتقين يتلقّونه على وجه الفرض عمليّا،بحيث يلتزمون قيام الليل كالتزامهم بالصـلوات اليوميه،انطلاقا من تحسس أهميه هذا الأمر و دوره فى حياتهم و شخصيتهم و حركتهم، و إيمانا بأنّ القرآن موجّهه آياته إلى كلّ فرد فرد،و إليهم بصوره أخص من العالمين.

[۴/۳]و بعـد أن أمر اللّـه تعـالى نـبيّه صـلى الله عليـه و آله و من خلالـه كـلّ مـؤمن بقيـام الليـل إلاّ قليلا كـأعلى و أفضـل نسـبه للقيام،يضعنا أمام ثلاثه خيارات أخرى:

[نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ] و قـد اختلف فى الضـمير المتصل بكلمه النصف هل هو عائد على الليل أو على القليل،و بالتالى اختلف نحويّا فى كون«نصفه»بدلا عن أيّهما؟فقال البعض

و من بینهم شیخ الطائفه:نصفه بدل من اللیل،کقولک:ضرب زیدا رأسه (۱)، و قیل:أنه بدل من القلیل،فیکون بیانا للمستثنی،و یؤید هذا القول ما

روی عن الصادق علیه السلام قال :«القلیل النصف،أو انقص من القلیل قلیلا،أو زد علی القلیل قلیلا » (۲)،و الأقرب-کما یبدو لی-أنّ الضمیر فی«نصفه»عائد إلی اللیل فیکون المعنی:قم کلّ اللیل إلاّ قلیلا،أو نصفه،أو أقل من النصف بالانقاص منه قلیلا،أو أکثر من النصف بالزیاده علیه.

و نستطیع أن نقول:بأنّ المقصود من اللیل فی قوله:«قم اللیل»هو الجنس، و أنّ المستثنی بعضه،فیکون المعنی:قم کلّ اللیالی إلاّ قلیلها و بعضها،و هی-کما عبّر صاحب المجمع-لیالی العذر کالمرض و غلبه النوم و علّه العین و نحوها (۳)، و یؤید ذلک ما

رواه محمد بن مسلم عن الإمام الباقر-علیه السلام-قال :سألته عن قول اللّه تعالی:«الآیه»قال:«أمره اللّه أن یصلّی کلّ لیله إلاّ أن تأتی علیه لیله من اللیالی لا یصلّی فیها شیئا » (۴)لعذر من الأعذار.

و السؤال:لما ذا أمر اللّه بالقیام علی شبه من التردّد بین أربعه خیارات دون تحدید؟لعله للأسباب التالیه:

۱-لأنّ الفرض المحدّد أمر مستحیل فی بعض الظروف حتی بالنسبه إلی الرسول و المعصومین الذین یجب علیهم قیام اللیل وجوبا شرعیّا عینیّا، ذلک أنّ الإنسان من الزاویه الواقعیه عرضه للظروف المتغیره التی لا یمکنه مقاومتها،کالمرض و الحرب و الظروف الأمنیه،

قال علیّ بن أبی طالب :«خیر اللّه نبیّه صلی الله علیه و آله فی هذه

۱- ۱) التبیان ج ۱۰ ص ۱۶۲.

۲- ۲) تفسیر مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۳۷۷.

۳- ۳) المصدر.

۴- ۴) تفسیر المیزان ج ۲۰ ص ۷۱ عن کتاب التهذیب.

الساعات القيام بالليل،و جعله موكولا-إلى رأيه،و كان النبى صلى الله عليه و آله و طائفه من المؤمنين معه يقومون على هذه المقادير،و شقّ ذلك عليهم،فكان الرجل منهم لا يدرى كم صلّى،و كم بقى من الليل،فكان يقوم الليل كلّه مخافه أن لا يحفظ القدر الواجب حتى خفّف اللّه عنهم بآخر السوره » (۱)الذى يشير القرآن فيه إشاره واضحه لواحد من أسباب تعدّد الخيارات.

۲-ثم أنّ وضع المكلّف أمام خيارات متعدّده تختلف فى ثقلها على النفس و فضلها عند اللّه،لا فرق بين درجه التكليف هل هى الوجوب أو الندب و الاستحباب،يكشف عن مدى إيمانه و إرادته حين يختار بنفسه أيّها شاء،و فى ذلك نوع من الامتحان الإلهى للمؤمنين.

۳-كما نهتدى من ذلك بالنسبه لغير النبى صلى الله عليه و آله إلى استحباب قيام الليل لا وجوبه كحكم شرعى،و قد اعتبر الفقهاء الاختلاف فى النصوص ضيقا وسعه، و كثره و قلّه،دليلا على الاستحباب،و ذلك أنّ الفرض الواجب يكون محدّدا.

و قيام الليل-كما تقدّمت الإشاره-لا ينحصر فى عدد من الركعات و الأذكار و حسب،بل هو برنامج متكامل للجسم و الروح و العقل،و ذلك بما يتضمّنه من صلاه و مناجاه و تلاوه للقرآن،يعرج من خلالها القائمون بالليل إلى آفاق الإيمان و المعرفه،و بالذات منها ترتيل القرآن الذى يحقّق تسامى الروح و انفتاح العقل معا، ممّا يسبّب فى آن واحد عروج الإنسان إلى مراتب الكمال.

و إنّ قراءه القرآن و تدبّر معانيه روح قيام الليل،فهو عهد اللّه للإنسان،و حبله الممدود من السماء إلى الأرض،و نهجه الذى يداوى به أدواءه و يصل إلى السعاده عبره،فمنه يستمدّ روح التوحيد و التوكل و الصبر،و من آياته يستلهم بصائر الهدى

۱- ۱) تفسير مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۷۷.

و الحق فی کلّ میدان من الحیاه،لینطلق بالنهار علی هدی من ربه،و بین یدیه بلسم لکلّ داء،و حلّ لکلّ مشکله،و رؤیه صائبه فی کلّ قضیه و حرکه فی الحیاه،فردیه أو اجتماعیه،و فی أیّ حقل من حقولها،بلی.إنّ قراءه القرآن بذاتها برکه و حسنه عظیمه،و لکنّ هدف القرآن أعظم من مجرد التبرک،بل إنّ خیره الأکبر لا یحصل إلاّ باستثاره العقل به،و تدبّر معانیه.أ و لم تسمع قول اللّه عزّ و جلّ:« کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَیْکَ مُبٰارَکٌ لِیَدَّبَّرُوا آیٰاتِهِ وَ لِیَتَذَکَّرَ أُولُوا الْأَلْبٰابِ »؟و التدبّر فیه لیس لمجرد الفهم و إنّما للعمل و التطبیق أیضا،و لهذا یربط القرآن نفسه بین ترتیله باللیل و السبح الطویل بالنهار.و لأنّ القراءه بذاتها لیست هدفا یأمرنا اللّه بقراءه آیاته علی وجه مخصوص هو الترتیل.

وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِیلاً و الترتیل هی القراءه الحسنه و المتأنّیه المصحوبه بالتفکر و التدبر،

فعن عبد اللّه بن سلیمان قال :سألت أبا عبد اللّه(الإمام الصادق علیه السلام)عن قول اللّه عزّ و جلّ:«الآیه»،قال«قال أمیر المؤمنین علیه السلام :بیّنه بیانا،و لا تهذّه هذّ الشعر، و لا تنثره نثر الرمل،و لکن أفزعوا قلوبکم القاسیه،و لا یکن همّ أحدکم آخر السوره » (۱)،و

قال الإمام الصادق علیه السلام :«إنّ القرآن لا یقرأ هذرمه(بسرعه) و لکن یرتّل ترتیلا،فإذا مررت بآیه فیها ذکر الجنه فقف عندها،و اسأل اللّه -عزّ و جلّ-الجنه،و إذا مررت بآیه فیها ذکر النار فقف عندها،و تعوّذ باللّه من النار » (۲)،و

قال-علیه السلام -:«هو أن تتمکّث فیه،و تحسّن به صوتک » (۳)،و عن أمّ سلمه:کان رسول اللّه یقطّع قراءته آیه آیه (۴)،و عن أنس

۱- ۱) تفسیر نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۴۶.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) المصدر ص ۴۴۷.

۴- ۴) المصدر.

قال:كان يمدّ صوته مدّا (۱)،و

يصف الإمام على-عليه السلام-المتقين كيف يتعاملون مع القرآن عند قيام الليل فيقول:«أمّا الليل فصافّون أقدامهم،تالين لأجزاء القرآن يرتّلونها ترتيلا،يحزّنون به أنفسهم،و يستثيرون به دواء دائهم،فإذا مرّوا بآيه فيها تشويق ركنوا إليها طمعا،و تطلّعت نفوسهم إليها شوقا،و ظنّوا أنّها نصب أعينهم،و إذا مرّوا بآيه فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم،و ظنّوا أنّ زفير جهنّم و شهيقها فى أصول آذانهم،فهم حانون على أوساطهم،مفترشون لجباههم و أكفّهم و ركبهم،و أطراف أقدامهم،يطلبون إلى اللّه تعالى فى فكاك رقابهم»و هذا ينعكس بالنهار على شخصياتهم ماديا و معنويا،حيث يضيف الإمام -عليه السلام-قائلا:«و أمّا النهار فحلماء علماء،أبرار أتقياء » (۲).

و المعنى اللغوى للترتيل يلتقى مع ما تقدّم،يقال: رتل الشيء:تناسق و انتظم انتظاما حسنا،فهو رتل،و رتّل الكلام:أحسن تأليفه إلى بعضه،و القرآن تأنّق فى تلاوته،و الرتل فى المصطلح العسكرى صفّ الجنود أو الآليات المتراص،و قيل:

خفض الصوت عند القراءه (۳).

[۶/۵]و يبيّن اللّه واحده من الخلفيات الأساسيه التى تكشف أهميه قيام الليل،و ذلك ببيان دوره الأساسى فى بناء الشخصيه الرساليه القادره على تحمّل مسئوليه الوحى،فالأمانه الإلهيه ثقيله لأنّها تخالف أهواء الإنسان و حبّه للراحه و الاسترسال،و الموقف السليم منها ليس الهروب من حملها،و إنّما العروج بالنفس إلى مستوى حملها بالتزكيه و التربيه و التعليم من خلال البرامج المختلفه،و من بينها و اهمّها قيام الليل على الوجه الذى أشارت إليه الآيات الآنفه.

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) نهج البلاغه خ ۱۹۳ ص ۳۰۴.

۳- ۳) المنجد/ماده رتل بإضافه و تصرف.

[إِنّٰا سَنُلْقِی عَلَیْکَ قَوْلاً ثَقِیلاً] قال عبد اللّه بن عمر:أی سنوحی إلیک قولا یثقل علیک و علی أمتک (۱)،و قیل «ثقیلا»:لا یحمله إلاّ قلب مؤیّد بالتوفیق،و نفس مؤیّده بالتوحید،و قیل:عظیم الشأن،کما یقال:هذا کلام رصین،و هذا الکلام له وزن إذا کان واقعا موقعه (۲)، و قیل هو:ثقیل فی المیزان یوم القیامه،و قال القرطبی:هو متّصل بما فرض من قیام اللیل،أی سنلقی بافتراض صلاه اللیل قولا- ثقیلا- یثقل حمله،لأنّ اللیل للمنام،فمن أمر بقیام أکثره لم یتهیّأ له ذلک إلاّ بحمل شدید علی النفس،و مجاهده الشیطان،فهو أمر یثقل علی العبد (۳)،و ذهب البعض إلی تفسیر مادیّ لمعنی الثقیل مستدلا بمرویّات غیر محقّقه کقول عائشه:إنّه کان لیوحی إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و هو علی راحلته فتضرب بجرانها (۴)(أی تضرب بمقدّم عنقها إلی مذبحها الأرض)و

فی روایه:

کانت تبرک الدابه علی الأرض من ثقل الوحی.و أنّ جبین الرسول صلی الله علیه و آله لیرفض عرقا (۵).

و الذی أختاره:أنّ الثقل هو الثقل المعنوی قبل أن یکون الثقل المادی،و إذا صحّت الروایات المتقدمه حول ما یترکه نزول الوحی من أثر مادیّ علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و علی دابته من باب« لَوْ أَنْزَلْنٰا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلیٰ جَبَلٍ لَرَأَیْتَهُ خٰاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْیَهِ اللّٰهِ »فإنّها مظاهر و دلالات علی الآثار و الحقائق المعنویه لیس إلاّ.

و لا ریب أنّ القرآن قول ثقیل باعتباره یحمّل الإنسان مسئولیات عظیمه کمسؤولیه الاستقلال و التغییر و التزکیه و تحدّی الباطل،و لذلک فالإنسان بحاجه إلی قیام اللیل

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۴۷.

۲- ۲) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۳۷۸.

۳- ۳) الجامع لأحکام القرآن ج ۱۹ ص ۳۸.

۴- ۴) تفسیر نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۴۷.

۵- ۵) المصدر.

لیسموا إلی احتماله،و هکذا تجد السیاق یبیّن الصله بین ثقل القرآن و بین قیام اللیل،فیبیّن أنّ الصلاه و التهجّد و الحاله النفسیه المنبعثه منها إذا نشأ کلّ ذلک باللیل کان أفضل منه إذا نشأ بالنهار.

إِنَّ نٰاشِئَهَ اللَّیْلِ و الناشئه فی اللغه من نشأ اللیل أی أحدثه،و اللّه:خلقه،و الحدیث أو الکلام:وضعه و ابتدأه،و سمّیت ساعات أول اللیل ناشئه لابتداء اللیل بها (۱)، و عندنا:ما ینشأ باللّیل من عباده روحانیه أو بصیره عقلانیه أو حکمه ربانیه.أمّا المفسرون فذهبوا إلی قولین:أحدهما:أنّها رکعتان بعد صلاه المغرب(لعلها الغفیله،و قیل غیر ذلک) (۲)،و الآخر:أنّها قیام اللیل،

ففی مجمع البیان عن الباقر و الصادق علیه السلام : هی القیام فی آخر اللیل إلی صلاه اللیل) (۳)، و هو الأقرب إلی سیاق السوره کما سبق.

هِیَ أَشَدُّ وَطْئاً و شده الوطأ بمعنی ثبات القدم الذی یعکسه ثقل الوطأه و شدّتها،فالوطأه الشدیده علی الأرض أثبت للقدم،قال قتاده:أثبت فی الخیر (۴)،و قال الفرّاء:أشد ثبات قدم،لأنّ النهار یضطرب فیه الناس،و یتقلّبون فیه للمعاش (۵).و لا ریب أنّ الاستقامه علی طریق الرساله أمر مستصعب بحاجه إلی الإراده الصلبه و الروح العالیه،حتی یواجه الإنسان بهما تحدیات الاستقامه علی الحق...و قیام اللیل

۱- ۱) المنجد/ماده نشأ.

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۴۸ نقلا عن الکافی.

۳- ۳) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۳۷۸.

۴- ۴) الدر المنثور ج ۶ ص ۲۷۸.

۵- ۵) التفسیر الکبیر ج ۳۰ ص ۱۷۵.

بقراءه القرآن و التدبر فيه و الدعاء و الاستغفار يعطى إراده الثبات و روح التحمل و عند هذه الآيه ينبغى أن ندرس حياه الأجيال الأولى من المسلمين الذين صنعوا المنجزات العظيمه فى التاريخ،و غيّروا مسيره الإنسانيه،فإنّهم لا ريب كانوا يستلهمون من قيامهم الليل و ما إلى ذلك همّتهم العاليه،و إرادتهم الصلبه، فكانوا رهبان الليل و فرسان النهار.

كما أنّ ناشئه الليل ثقيله على النفوس لأنّ القائم لأدائها يواجه تحدى النفس التى يغالبها النعاس،و تحن إلى الفرار من المسؤوليه،و تفضّل الراحه الجسديه على لقاء ربها الجبّار،و تواجه كذلك تحدى الشيطان الذى يوسوس إليها بالتسويف،لها بالنوم بعذر أو آخر،و هكذا يكون قيام الليل منطلقا لإصلاح جذرىّ فى النفس و المجتمع،فهو إذا عمليه صعبه،و قد أشار القرآن إلى هذا المعنى بقوله تعالى:

« وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاٰهِ وَ إِنَّهٰا لَكَبِيرَهٌ إِلاّٰ عَلَى الْخٰاشِعِينَ » (١).

و هكذا رأى بعضهم أنّ المراد من شدّه الوطأ صعوبه صلاه الليل ذاتها،قيل:

أثقل و أغلظ على المصلى من صلاه النهار،و هو من قولك:اشتدت على القوم و وطأه السلطان...فأعلم اللّه نبيّه أنّ الثواب فى قيام الليل على قدر شده الوطأه و ثقلها، و نظير

قوله صلى الله عليه و آله :«أفضل العبادات أحمزها » (٢)و قيام الليل حمز(صعب)لأنّه يخلق توازن الشخصيه عند الإنسان لتكون قائمه على أسس رشيده على قيم الوحى و هدى العقل و تجارب البشر،فإذا برهبان الليل طاهره ألسنتهم عن الغيبه و الشتم و سائر الأخطاء و الذنوب المنطقيه التى من بينها شهاده الزور،لأنّ قيامهم بالليل يزيل من قلوبهم العقد،و يزرع فيها التقوى،كما يجعلهم يفكّرون فى كلامهم قبل النطق به،و يزنونه بميزان الحق و الصواب،الأمر الذى يعلهم يصيبون الحق حين

١- ١) البقره ۴۵.

٢- ٢) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٧۶.

يتكلّمون،فإذا سكتوا تفكّروا،و إذا نطقوا تفجّرت الحكمه من جوانبهم،كما

وصفهم سيدهم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:«منطقهم الصواب » (۱).

وَ أَقْوَمُ قِيلاً- أى أنّهم أصوب للحق بجهاته المختلفه من غيرهم على الإطلاق،فهم الأقوم (يعنى الأفضل)،قال الفخر الرازى مفسرا الآيه:أحسن لفظا،و قال أنس:أصوب و أهيأ و أحدّ (۲)،و هذا أمر طبيعى لأنّ القائم بالليل يتصل بقول اللّه و وحيه(القرآن) و يؤسس به تفكيره و منطقه فى الحياه،و هو الذى يهديه للتى هى أقوم كما نعته عزّ و جل،و لأنّ إثاره العقل بالتفكير فى آيات اللّه ليلا يرسم السبيل للمنطق الأقوم عند السبح و الكلام فى النهار.

و إذا اعتبرنا القرآن من مصاديق القول الثقيل الذى ألقاه اللّه على رسوله و على أتباعه فإنّ ناشئه الليل التى تهيأ القلب لاستقباله تجعله أهيأ و أصلح لفهم معانيه و ثبوته فيه و العمل به.

[۷]إنّ مسئوليات الليل تتكامل-فى منهج المؤمن-مع مسئوليات النهار الذى يستوعب انتشارا واسعا،و سبحا طويلا.

إِنَّ لَكَ فِي النَّهٰارِ سَبْحاً طَوِيلاً- هناك رأيان كلاهما ينتهى لعلاج التوهّم بالتناقض بين مهام الإنسان فى الليل و مهامه فى النهار،فالإسلام يعتبر الإثنين يتكاملان:

۱- ۱) نهج البلاغه خ ۱۹۳ ص ۳۰۳.

۲- ۲) التفسير الكبير ج ۳۰ ص ۱۷۶.

الرأی الأول:السبح بمعنی:المهام و العمل،یقال:سبح القوم:تقلّبوا و انتشروا فی الأرض (۱)،فکأنّ القرآن یرید القول لنا بأنّ للمؤمن مسئولیتین:

إحداهما بالنهار علی عشرات المهام و الأمور،و الأخری باللیل تتحدد بقیامه،و مهما کانت المسؤولیه فی النهار کبیره طلب علم،أو جهاد فی سبیل اللّه،أو سعی للرزق الحلال)فإنّه من الخطأ استعاضه مسئولیه اللیل بالنهار،لأنّ العالم لو لم یخلص لکان ضرر العلم علیه و علی الناس أکبر من نفعه،و الذی یجعل العلم مفیدا،و العالم ملتزما برسالته فی الحیاه،فلا یزیّف الحقائق،و لا یبیع نفسه و علمه علی أیّه حکومه و طاغیه و مترف،هو الإیمان الذی یستلهمه من قیام اللیل.

إنّ حاجه المؤمن لقیام اللیل فی أیّ خندق کان هی حاجه ملحّه و أکیده،لأنّ سبحه الطویل بالنهار جسد لا بد له من عقل و روح لا یجدهما إلاّ فی الاتصال باللّه و إتباع وحیه.و إنّه لخطأ فظیع أن یقبل الإنسان علی سبح النهار الطویل و یخوض لججه من دون إعداد کاف،و إنّ الإمام علیّا علیه السلام لیؤکد بأنّ ما یصیر إلیه المتقون من الفضیله بالنهار إنّما هی ثمره قیامهم باللیل، و ذلک حینما قال و

قد وصف شأنهم باللیل کما سبق:«و أمّا النّهار فحلماء علماء،أبرار أتقیاء،قد براهم الخوف بری القداح،ینظر إلیهم النّاظر فیحسبهم مرضی،و ما بالقوم من مرض،و یقول:لقد خولطوا،و لقد خالطهم أمر عظیم!لا یرضون من أعمالهم القلیل،و لا یستکثرون الکثیر،فهم لأنفسهم متّهمون،و من أعمالهم مشفقون،إذا زکّی أحد منهم خاف ممّا یقال له،فیقول:أنا أعلم بنفسی من غیری،و ربی أعلم بی من نفسی.اللهم لا تؤاخذنی بما یقولون،و اجعلنی أفضل مما یظنّون،و اغفر لی ما لا یعلمون » (۲).

الرأی الثانی:السبح بمعنی الفراغ و الفرصه،قال الجبائی:إن فاتک شیء باللیل

ص:۲۵

۱- ۱) المنجد:ماده سبح.

۲- ۲) نهج البلاغه خ ۱۹۳ ص ۳۰۴.

فلک فی النهار فراغ تقضیه (۱)،و جدیر أن ننقل هنا ما قاله العلاّمه الطبرسی:إنّ مذاهبک فی النهار و مشاغلک کثیره،فإنّک تحتاج فیه إلی تبلیغ الرساله،و دعوه الخلق،و تعلیم الفرائض و السنن،و إصلاح المعیشه لنفسک و عیالک،و فی اللیل یفرغ للتذکره و القراءه،فاجعل ناشئه اللیل لعبادتک،لتأخذ بحظّک من خیر الدنیا و الآخره،و فی هذا دلاله علی أنّه لا عذر لأحد فی ترک صلاه اللیل لأجل التعلیم و التعلّم،لأنّ النبی صلی الله علیه و آله کان یحتاج إلی التعلیم أکثر ممّا یحتاج الواحد منّا،ثم لم یرض أن یترک حظّه من قیام اللیل (۲)،فلا یصح أن یتعلل المؤمن بشیء عن قیامه،ففی النهار فرصه کافیه للمهامّ الأخری،أمّا اللّیل فإنّه بالدرجه الأولی موضوع للقیام.

[۸]

فی حدیث معروف: إن شئت أن یکلّمک اللّه فاقرأ القرآن،و إن شئت أن تتکلّم مع اللّه فناجه، و هکذا المؤمنون فی قیامهم اللیلی تراهم یبادلون ربهم الحدیث، فمره یتلون الکتاب و أخری یذکرون ربهم بالدعاء،کما أمرهم اللّه فقال:

وَ اذْکُرِ اسْمَ رَبِّکَ و ذکر اللّه هو مخ العباده،بل هو الهدف الرئیسی فی الإسلام،لأنّ نسیانه تعالی سبب کلّ انحراف فی حیاه الإنسان.و قال:«اسم ربک»لأنّ المخلوق عاجز عن معرفه الذات و الاتصال بها مباشره،فجعل اللّه أسماءه ذرائع العباد و وسائلهم إلیه، و ذکر أسماء اللّه لیس بتلفّظ حرفها و حسب،بل بالإیمان بها و معرفته من خلالها،إذ لکلّ اسم منها انعکاس فی خلقه.

و لقوله:«اسم»بالإفراد دلاله علی الإطلاق الذی یفیده استخدام أیّ اسم من

۱- ۱) التبیان ج ۱۰ ص ۱۶۳.

۲- ۲) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۳۷۸.

أسـمائه الحسـنى،و هو الأقرب،لأنّ ذكر اللّه يتم بـذكر ایّ من أسـمائه،كما قال عزّ و جلّ: «قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى» (١).

و الـذكر الحقيقى ليس مجرد التلفّظ بأسـماء اللّه،بـل هو إضـافه إلى ذلـك تعميق الصـله به،فى آفـاق توحيـده،و الانقطاع إليه،و لذلك يردف اللّه مع الأمر بالذكر أمرا بالتبتّل.

وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً

روى أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام :«و أمّا التبتّل فإيماء بإصبعك السبّابه » (٢)،و

روى زراره و حمران عن أبى جعفر و عن أبى عبد اللّه-عليهما السلام -:«إنّ التبتّل هنا رفع اليدين فى الصلاه » (٣)،و

عن الإمـام الكاظم عليه السـلام قال :«التبتّل أن تقلّب كفّيك فى الـدعاء إذا دعوت » (۴)،و قد أشار جمله من المفسـرين إلى أنّ المعنى هو الإخلاص فى الدعاء،و ما الإيماء بالإصـبع،و رفع اليدين، و تقليب الكفّ إلا مظاهر له،فمثلها مثل الركوع و السـجود و القنوت،و الأصـل اللغوى للكلمه يهـدينا إلى هـذا المعنى،قـال شـيخ الطـائفه:فالتبتّـل الانقطاع إلى عباده اللّه، و منه:مريم البتول و فـاطمه البتول،لانقطـاع مريم إلى عبـاده اللّه،و انقطـاع فـاطمه عن القرين(لو لا على).و قيل:الانقطاع إلى اللّه تأميل الخير من جهته دون غيره (۵)، و أضـاف الفخر الرازى:و قيل:صـدقه بتله منقطعه من مال صاحبها،و قال الفرّاء:يقال للعابـد إذا ترك كل شـىء و أقبل على العباده قد تبتل،أى انقطع عن

ص:٢٧

١- ١) الإسراء ١١٠/.

٢- ٢) نور الثقلين/ج ۵ ص ۴۵٠.

٣- ٣) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٧٩.

۴- ۴) نور الثقلين/ج ۵ ص ۴۴٩.

۵- ۵) التبيان ج ١٠ ص ١۶۴.

كلّ شيء إلى أمر اللّه و طاعته (١)،و فى الدر المنثور عن قتاده:« وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً » قال:أخلص له الدعوه و العباده،و عن مجاهد:أى أخلص المسأله و الدعاء إخلاصا.

و اختلف فى«تبتيلا»لماذا جاء بهذه الصيغه،بينما يعتبر مصدر التبتل فى هذه الآيه،فذهب البعض إلى ما لا يليق بأدب الوحى و عظمته،إذ قالوا:لمراعاه الفواصل (٢)،و يبدو أنّ التبتل مصدر كلمه أخرى أشير إليها،فكانت العباده تحتمل معنين:الأول:الانقطاع الجدّى،و عبّر عنه بكلمه«و تبتل»،و الثانى:

الانقطاع المره بعد الأخرى،و عبّر عنه بالمصدر«تبتيلا»،على أنّ الكلمه الأولى جاءت بصيغه التفعّل،و الثانيه بصيغه التفعيل.و يبدو أنّ الكلمه تفيد التأكيد على التبتل و أن يكون حقيقيّا،فليس كلّ مظهر تبتّل يحسب تبتّلا عند اللّه، و التبتل على وزن التفعل الذى يعنى المداومه و العود إليه حينا بعد حين،و ذلك أنّ الإنسان عرضه للانحراف و للتأثر بالعوامل السلبيه فى كلّ لحظه..إذن فهو بحاجه إلى مداواه هذه المعضله بالإلحاح على الانقطاع إلى اللّه،و التبتّل إليه حينا بعد حين.

[٩]و يتعمّق ذكر اللّه و التبتل إليه فى نفس الإنسان و على جوارحه حينما يتأسسان على المعرفه به سبحانه،و غايه معرفته توحيده و التوكل عليه،و هذه هى الزاويه التى تنتظم من خلالها الآيه التاسعه فى سياق السوره حيث تعرفنا بربنا.

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ قال صاحب المجمع:أى ربّ العالم بما فيه لأنّه بين المشرق و المغرب،و قيل:

رب مشرق الشمس و مغربها (٣)،و الإطلاق هو الأقرب بصرف المعنى للمشرق

ص:٢٨

١- ١) التفسير الكبير/ج ٣٠ ص ١٧٨.

٢- ٢) الميزان ج ٢٠ ص ۶۵.

٣- ٣) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٧٩.

و المغرب و ما بينهما،فكلّ الكائنات بمفرداتها آيات على ربوبيته،و أنها مخلوقات له عزّ و جل.و فى الآيه تناسب بين الاشاره إلى حركه الشروق و الغروب الكونيه و بين اسم(الرب)باعتبارهما مظهر و آيه للربوبيه التى تعنى الإنماء و التجديد و الإضافه فى الخلق،كما هناك تناسب مع قيام الليل و السبح بالنهار لارتباطهما بشروق الشمس و غروبها.

و حيث يطوف الإنسان بنظره و فكره متدبّرا فى المشرق و المغرب و ما بينهما تتأكّد له حقيقه التوحيد،إذ يكتشف أنّ كلّ شيء مخلوق لا يصح الاعتماد عليه؛لأنّ له شروقا و غروبا،إلاّ الربّ الواحد الأحد الذى كان قبل الإنشاء،و يبقى بعد فناء الأشياء.

لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً و لا تتخذ غيره،لأنّ الغير متغيّر،لا ينبغى الاعتماد عليه؛لأنّ ما سوى اللّه عرضه للزوال و الفناء.قال العلامه الطبرسى:أى حفيظا للقيام بأمرك،و قيل:

فاتخذه كافيا لما وعدك به،و اعتمد عليه،و فوّض أمرك إليه تجده خير حفيظ و كاف (۱)،و فى فتح القدير:أى إذا عرفت أنّه المختص بالربوبيه فاتخذه وكيلا (۲).

[۱۰]و حاجه الإنسان الرسالى إلى التوكل على اللّه و توحيده و التبتل إليه و ذكره،و بالتالى حاجته إلى قيام الليل،حاجه ملحّه تفرضها مسيرته الجهاديه الصعبه،حيث التحدّيات التى يواجهها.و لو لا التوكل على اللّه و الاستمداد منه انحرف عن الصراط المستقيم شيئا كثيرا أو قليلا.

ص:۲۹

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) فتح القدير/ج ۵ ص ۳۱۸.

و من أعظم تلك التحدّيات و الضـغوط ما يقوله الأعداء ضد المؤمنين و بالخصوص قيادتهم،و ذلك أنّ الاعلام السلبى من أهمّ أسلحتهم الخطيره التى يوجّهون حرابها ضدهم،فإذا بهم يسعون لتشويه سمعه الرساليين،و على المؤمنين أن يواجهوا ذلك بالصبر و الهجران الجميل.

وَ اصْبِرْ عَلىٰ مٰا يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً- و الهجر الجميل هو المقاطعه بحكمه،و بعيـدا عن الإثاره،لأنّ الهجر حينما يخرج عن سياق الحكمه قد يتحوّل إلى صراع مادىّ حادّ فى ظروف غير مناسبه،ممّا يضر أكثر ممّا ينفع،قال الفخر الرازى:الهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه و هواه،و يخالفهم مع حسن المخالفه و المداراه و الإغضاء،و ترك المكافاه (١).

إنّ الإسـلام يريد للإنسان أن يبنى شخصـيته و مواقفه على أساس الاسـتقلال، فلا يتأثّر بردّات الفعل كالكلام السـلبى الذى يوجّه ضده،بل يمضـى قدما فى تنفيذ خطّته الحكيمه التى رسـمها لنفسه،دون أن يسـتفزّه الآخرون،و يسيّرونه حسب خطتهم،و يفرضوا عليه ساعه المعركه و طريقتها و أرضـها،و من هنا فإنّ الصبر لا يعنى عدم اتخاذ الخطوات اللازمه تجاه تحديات الأعداء،بل يعنى الانتظار حتى تحين الفرصه المناسبه حسب الخطه المرسومه،و كلّ ذلك يوفّره قيام الليل و التوكّل على اللّه.

و التعبير القرآنى دقيق للغـايه حيث قال تعالى:« وَ اصْبِرْ عَلىٰ مٰا يَقُولُونَ »أى أنّ ما يقوله الآخرون لا ينبغى أن يزلزل الرساليين عن مواقفهم الصـحيحه إلى غيرهـا، فقـد يصـعّد المسـتكبرون و المترفون حربهم الإعلاميه ضـدّ قيمه من القيم الإلهيه كالحجاب على أساس أنّه لون من ألوان الإرهاب،و هكذا الجهاد من أجل التحرّر

١- ١) التفسير الكبير/ج ٣٠ ص ١٨٠.

و الاستقلال...فيجب على الرساليين أن يصبروا و يتجرّعوا كلمات الشتم و التجريح،و ضغط الاعلام،لا ان يتنازلوا عن قيمهم و يداهنوا فيها.

و قد نستوحى من الهجر الجميل أنّه القائم على أساس العدل و الحكمه،فلا ينبغى أن يهجر المؤمن طرفا هجرا كاسحا،فيبخس الناس أشياءهم،و لا يعترف لهم بأيّه إيجابيه،أو يقطع صلته معهم إلى حدّ يحرم نفسه إيجابياتهم...و بتعبير آخر:

ينبغى أن ننصف الناس-حتى أعدائنا-من أنفسنا،فلا تصحب المقاطعه و الهجر عمليه إسقاط للآخرين بعيده عن حدود اللّه و شرائعه.

[۱۱]و يستلهم المؤمنون روح الصبر من أمرين هما:التوكل على اللّه،و الإيمان بأنّه سوف يجازى أعداءهم شرّ مجازات،فلما ذا الاستعجال و عدم الصبر ما دام الفوت غير ممكن؟!بلى.قد لا يعاصر جيل من المؤمنين انتقام اللّه من أعدائهم و أعداء الرساله،و قد لا ينتقم منهم فى الدنيا،و لكنّ الأمر واقع لا محاله إن فيها أو فى الآخره،حيث عذاب الخزى الذى يلحق بالمترفين و المستكبرين المكذّبين بالرساله.

وَ ذَرْنِى وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَهِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلاً أى المترفين الذين يعارضون الرساله،و يكذّبون بآيات اللّه.و كلمه«ذرنى» تفيد التهديد و الوعيد،كما تشير إلى معنى التوكل على اللّه نعم الوكيل،حيث ينبغى للمؤمن و هو يصبر على ما يقوله الأعداء أن يطمئن اطمئنانا تامّا بأنّ صبره لن يذهب هباء،لأنّ المتوكّل عليه سوف ينتقل له و للحق منهم.و لعلّ ذكر تنعّمهم يهدينا إلى أنّ العذاب الذى سيحلّ بهم يشمل تغيير ما هم عليه من النعيم،و إلى ذلك أشار صاحب الميزان فقال:و الجمع بين توصيفهم بالمكذبين و توصيفهم بأولى النعمه للإشاره إلى علّه ما يهدّدهم به من العذاب،فإنّ تكذيبهم بالدعوه الإلهيه و هم متنعّمون بنعمه ربهم كفران منهم بالنعمه،و جزاء الكفران سلب النعمه،و تبديلها

ص:۳۱

بالنقمه (۱).

و مهما استطال شوط الصبر فی تصور المؤمنین،و امتدّ ترف المکذّبین و نعیمهم،إلاّ أنّه قصیر بالقیاس إلی معادله الزمن الحقیقه عند اللّه،بل هو قصیر بالفعل،و الذی یدرس تاریخ الصراع بین الحق و الباطل یصل إلی قناعه راسخه بهذه السنّه الالهیه، تقول عائشه:لمّا نزلت«الآیه»لم یکن إلاّ قلیل حتی کانت وقعه بدر (۲)التی أذلّ اللّه فیها المشرکین،و قیل:نزلت فی المطعمین ببدر و هم عشره،و قیل:نزلت فی صنادید قریش المستهزئین (۳)،و أضاف الزمخشری فی الکشّاف:و کانوا أهل تنعّم و ترفّه (۴)،و ما ذلک إلاّ شاهدا و مصداقا لسنّه اللّه فی الحیاه التی تمتدّ إلی الوراء من أعماق التاریخ و إلی الأمام إلی المستقبل البعید.

[۱۴/۱۲]و یکشف لنا القرآن حجابا عن غیب ما أعدّ اللّه للمترفین المکذّبین من عذاب ألیم و مهین فی الآخره،یوم ترجف الأرض و الجبال.

إِنَّ لَدَیْنٰا أَنْکٰالاً وَ جَحِیماً قال صاحب المنجد:أنکال و نکول:القید الشدید من أیّ شیء کان، و حدیده اللجام (۵)،و قیل و هو الأقرب:الصنیع الفظیع من العذاب الذی یخشاه من یراه و یحذر منه،و نکّل به صنع به صنیعا یحذر غیره،و یجعله عبره له (۶)و لعلّ الکلمه تحمل فی طیّاتها معنی الشدّه و الانتقام و الإذلال،و القیود و الأغلال مظهر

ص:۳۲

۱- ۱) المیزان ج ۲۰ ص ۶۷.

۲- ۲) الدر المنثور ج ۶ ص ۲۷۹.

۳- ۳) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۳۸۰.

۴- ۴) الکشاف ج ۴ ص ۶۴۰.

۵- ۵) المنجد/ماده نکل.

۶- ۶) المصدر.

للتنكيل يرافقها عذاب الحريق بجهنم،و ما يلقاه الإنسان فى الآخره من أنواع العذاب ليست مفروضه عليه و آتيه من خارج القوانين و السنن الطبيعيه،بل هى من صنع يده،قدّمها لنفسه،فالكذب الذى يمارسه فى الدنيا يتحول إصررا و نادا عليه فى الآخره،و هكذا الغيبه و السرقه،و السباب،و أكل أموال الناس بالباطل..كلّها تصير أنكالا و جحيما.

وَ طَعٰاماً ذٰا غُصَّهٍ وَ عَذٰاباً أَلِيماً أى الطعام الذى لا يتهنّأ بأكله و لا طعمه و لا رائحته الآكلون،بل يصعب عليهم مضغه و بلعه لما فيه من العذاب و أسباب الأذى.قال أكثر المفسّرين:أنّ به شوكا،و قيل:لشده خشونته،و أوّله الزمخشرى و الرازى على أنّه شجره الزقوم،و بهذا النفس عبّر صاحب الكشاف:الذى لا يساغ يعنى الضريع و شجر الزقوم (1).

و من أنواع العذاب المذكوره فى الآيتين يتبيّن لنا بأنّها تأتى نقيضا لما هم فيه من النعمه و الراحه فى الدنيا كجزاء لتكذيبهم،و عدم شكرهم ربّهم عليها.

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبٰالُ أى تتحرّك باضطراب شديد،و ترجف الجبال معها أيضا،و تضطرب بمن عليها (2)،من هول ذلك اليوم،الأمر الذى يكشف عن عظمه الموقف و مدى رهبته، فما بالك بهذا الإنسان الضعيف فى يوم أحداثه ترجف بالأرض و الجبال؟!إنّه يكون أدنى من ريشه فى ريح عاصف يتقاذفها التيار الكاسح.

إنّ تصور هذا الموقف و الحضور عند هذه الحقيقه بالقلب يكفى وسيله يقتلع

١- ١) راجع الدر المنثور و الكشاف و المجمع و التفسير الكبير و التبيان عند الآيه.

٢- ٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٨٠.

الإنسان بها جذور الغرور بنفسه و قدرته فی شخصیته،و اتّکاله علی الدنیا و ما فیها، و یتعرّف عن طریقها علی ربه و قدرته المطلقه،فیؤمن به و برسالته بدل التکذیب کما هو شأن أولی النعمه المبطرین بها.

إنّ الجبال الراسیه و المتماسکه تستحیل یومئذ کذرّات الرمل نتیجه الرجف الشدید المتتالی الذی تتعرض له.

وَ کٰانَتِ الْجِبٰالُ کَثِیباً مَهِیلاً قال القمّی مثل الرمل (۱)،و فی مجمع البیان:أی رملا- متناثرا عن ابن عبّاس،و قیل:المهیل الذی إذا وطأته القدم زلّ من تحتها،و إذا أخذت أسفله أنهار أعلاه (۲)،و فی المنجد:انکثب الرمل:اجتمع و انتشر بعضه فوق بعض،و کل ما انصبّ فی شیء فقد انکثب فیه (۳)،و المهیل الذی یهال فیقع بعضه علی بعض، یقال:أهال التراب:إذا هدّه من أساسه فانهار علی بعضه منتثرا،و یسمّی التراب الناعم الذی تجمعه الریاح فی الصحراء کثیب،و جمعه کثبان،و من خصائصه أنّه سریع و سهل الانهیار و الانتشار و التطایر فی الهواء.و إذا کانت الجبال الصخریه الراسیه تستحیل کثیبا مهیلا فما بال الإنسان الضعیف عند ما ترجف به الأرض؟و لماذا یتحدّی قدره ربه؟! و العلاقه بین سیاق السوره عن قیام اللیل و بین الحدیث عن مشاهد عذاب الآخره هذه أنّ الخوف من أهوال ذلک الیوم یدفع المؤمنین إلی السعی من أجل الخلاص،و من ثمّ ینفخ فیهم روح القیام باللیل.و إنّها حقّا لتقضّ مضجع کلّ

ص:۳۴

۱- ۱) تفسیر القمی/ج ۲ ص ۳۹۲.

۲- ۲) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۳۸۰.

۳- ۳) المنجد/ماده کثب.

ذی لبّ و ضـمیر حیّین،إذ کیف تنـام عینه و هو مطالب باقتحام هـذه العقبات، و تجاوز أهوالها بنجاح؟! و ثمّه علاقه بین أمر اللّه للرسـول صـلی الله علیـه و آلـه بـالصبر علی مـا یقـوله المکـذّبون و بیـن کلامـه عمّـا أعـدّ لهـم مـن العـذاب؛و هی:أنّ عـدم التصبّر(الاستعجال)إنّما یندفع إلیه الإنسان بهدف الانتقام و ردّ الفعل،و المؤمن یصبر و لا یتعجّل لأنّه لا یخاف الفوت،و یعلم أن سوف یأتی الیوم الذی ینتقم اللّه(وکیله)له من أعدائه.

[۱۹/۱۵]و إلی جانب التحذیر من عذاب الآخره یحذّر اللّه المترفین و غیرهم من عواقب التکذیب التی تنتظرهم فی الدنیا،و ذلک من خلال التذکیر بالسنن الثابته فی الحیاه و مصیر إحدی الأمم التی عصت رسولها فأهلک اللّه أهلها و أخذهم أخذا وبیلا.

[إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَیْکُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَیْکُمْ کَمَا أَرْسَلْنَا إِلَی فِرْعَوْنَ رَسُولاً] أی یقوم بالشـهاده الحقّه فیکم،و یجسّـد القیم الإلهیه،ممّا یجعله میزانـا لمعرفه الحق و الباطل،و أسوه لمن أراد الهـدایه إلی الصـراط المسـتقیم.و قـد ذکر اللّه قوم فرعون لأنّ وجوه التشابه بین واقع أولئک و الواقع الذی عاصـره الرسول کثیره،و من أبرزها:أنّ المترفین هم الذین یمثّلون جبهه الباطل فی الصراع فی کلا المقطعین التاریخیین.

و کما أنّ للّه سـنه ماضیه فی حیاه المجتمعات فی إرسال الرسل فی الأمم بعد الأمم،و الأجیال بعد الأجیال، فإنّه-عزّ و جلّ-جعل سنّه الجزاء لا تنفک عنها أبـدا،فإذا ما اسـتجابت الأقوام لقیاده الرسول و قیم الرساله أجزیت خیرا و سـعاده فی الدنیا و الآخره،أمّا إذا عصت و کذّبت فستعرّض نفسها للانتقام و سوء العذاب،

ص:۳۵

كقوم فرعون الذين عصوا رسولهم موسى عليه السلام فاغرقوا و أهلكوا.

فَعَصىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنٰاهُ أَخْذاً وَبِيلاً أى أخذا شديدا منكرا،و فى الآيه تحذير للمشركين و لأمه محمد صلى الله عليه و آله من معصيته،و تلويح بأنّ سنّه الأخذ ليست منحصره فى زمان دون آخر،و لا فى قوم دون غيرهم.و إذ يذكّرنا القرآن بصوره من الانتقام الإلهى فى التاريخ فلكى يسدّ بابا من أبواب الشيطان الذى يوغل بالإنسان من خلاله فى الانحراف و الضلال البعيد،حيث يهمز فى أذنه و فكره:أنّ اللّه رحيم بعباده،و يستحيل أن يعذّبهم فى الآخره،و أنّ هذه الوعود ليست إلاّ لمجرد التخويف لا أكثر...و لهذا يوجّه اللّه الخطاب مباشره لمعاصرى الرسول و رساله الإسلام بأنّكم لا تستطيعون الهروب من سطوات اللّه إذا أراد الانتقام.

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدٰانَ شِيباً و ذلك لشده أهواله و رهبه مشاهده،قال القمّى:تشيب الولدان من الفزع حيث يسمعون الصيحه (1)، و

فى الدر المنثور عن ابن مسعود عن النبى-صلّى اللّه عليه و آله-قال: «إذا كان يوم القيامه فإنّ ربنا يدعو آدم فيقول:يا آدم!أخرج بعث النار،فيقول:أى ربّ إلاـ علم لى إلاّ ما علّمتنى:فيقول اللّه:أخرج بعث النار من كلّ ألف تسعمائه و تسعه و تسعين يساقون إلى النار سوقا مقرّنين كالحين، فإذا خرج بعث النار شاب كلّ وليد» (2)، و

فيه عن ابن عبّاس: فاشتدّ ذلك على المسلمين،فقال حين أبصر ذلك فى وجوههم:«إنّ بنى آدم كثير،و إنّ يأجوج و مأجوج من ولد آدم،و أنّه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه ألف رجل ففيهم

ص:36

1- 1) تفسير القمى/ج 2 ص 393.

2- 2) الدر المنثور/ج 6 ص 279.

و أشباههم جند لكم» (۱)، و

قد حذّر الإمام على بن أبى طالب علیه السلام من ذلك اليوم فقال:احذروا يوما تفحص فيه الأعمال،و يكثر فى الزلزال،و تشيب فى الأطفال (۲)،و كيف لا يشيب الوليد من أهواله و هو اليوم الذى يفصل اللّه فيه بين الخلائق و يقرّر مصائرهم،فمن صائر إلى الجنه و من صائر إلى النار خالدين فيها أبدا.

بلى إنّه يوم عظيم،بل هو أعظم يوم فى وجود العالمين إنسا و جنّا،و كيف لا يسرع الشيب إلى من يقف بين يدى جبّار السموات و الأرض ينتظر المسير إلى مصيره الأبدى،و بالذات أولئك المجرمون الذى سوّدوا صحائفهم بالسيئات و الفواحش،و بعدهم المذبذبون،أمّا المؤمنون و المتقون فإنّهم فى مأمن من رحمه اللّه،بل هو يوم سعادتهم و فرحتهم العظمى.أو ليسوا يلتقون حبيبهم و سيدهم ربّ العالمين؟ و الشيب ليس كنايه عن الشده و المحنه (۳)و حسب،بل لعله حقيقه ماديّه تقع يوم القيامه،حيث أنّ حوادث ذلك اليوم الفظيع أعظم من قدره احتمال جسد الإنسان،و لو لا أنّ اللّه لم يقدّر عليهم الموت لكانت كلّ حادثه منها تقضى عليهم جميعا.

إنّ الحوادث ذلك اليوم لا تنعكس فقط على الإنسان بل على الطبيعه الصامته أيضا،فتأخذ الرجفه الأرض و الجبال لرهبه الموقف،و هكذا تشقّق السماء.

اَلسَّمٰاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ

ص:۳۷

۱- ۱) التفسير الكبير/ج ۳۰ ص ۱۸۴.

۲- ۲) نهج البلاغه خ ۱۵۷ ص ۲۲۲.

۳- ۳) المصدر.

و لیس فی حدوث هذا الیوم شک و تردّد،لأنّه ممّا وعده اللّه الوفیّ المقتدر، و هذا ما یجعل التعبیر عن وقائع القیامه یأتی بصیغه الماضی فی الأغلب و کأنّها وقعت.

کَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً إذن فالأمر لیس کما یتمنّی الإنسان،و لا کما یضلّه الشیطان الغرور بأنّ وعوده تعالی للتخویف فقط،کلاّ.فوعود اللّه صادقه و واقعه لا محاله،و لا بأس أن نشیر هنا إلی أنّ بعض الفلسفات المادیّه ذهبت فی الضلال بعیدا حینما زعمت بأنّ الآخره لا واقع لها،و إنّما طرحتها الفلسفات الدینیه لکی تکون عاملا فی توجیه أتباعها نحو التقیّد بمبادئها لا غیر!و هذه الآیه الکریمه تردّ ردّا حاسما و ناسفا علی هذه الظنون و المزاعم الخاطئه بالتأکید علی أنّ وعد اللّه مفعول قطعا.

ثم یقول اللّه مشیرا إلی ما تقدّم من بیان الآیات الکریمه.

إِنَّ هٰذِهِ تَذْکِرَةٌ تذکّر الإنسان بالحق،و تثیر فیه العقل و کوامن الخیر التی تهدیه إلی ربّ العزه، و ترسم له الصراط المستقیم و النهج القویم إلیه سبحانه..فدور التذکره إذا هو بیان الخطوط العامه،و رسم معالم الطریق للإنسان،لا فرض خیار معیّن کرها،لأنّ الإختیار من خصائص الإنسان نفسه،فهو الذی یرید الحق و الباطل أو لا یرید.

فَمَنْ شٰاءَ اتَّخَذَ إِلیٰ رَبِّهِ سَبِیلاً قال الفخر الرازی:إنّ التذکره ما تقدّم من السوره کلّها،و اتخاذ السبیل عباره عن الإشتغال بالطاعه،و الاحتراز عن المعصیه (1)،و اختار صاحب المیزان تعمیم

ص:38

1- 1) التفسیر الکبیر/ج 30 ص 185.

التذكره على كلّ ما سبق،و خصّ صلاه الليل بالسبيل،لأنّها تهدى العبد إلى ربّه (1)،و الأصح:أنّ السبيل عموم الصراط المستقيم الموصل إلى رضوان اللّه،و قيام الليل خطوات فيه،إلاّ أنّ أبرز مصاديق السبيل القيم الإلهيه،و أظهرها القرآن، و القياده الرساليه،و مصداقها الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و أئمه الهدى-عليهم السلام- كما

جاء فى دعاء الندبه :ثم جعلت أجر محمد-صلواتك عليه و آله-مودّتهم فى كتابك،فقلت:« قُلْ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً » فكانوا هم السبيل إليك،و المسلك إلى رضوانك (2).

[20]و فى ختام السوره يعود القرآن للحديث عن قيام الليل،بالإشاره إلى برنامج القيام عند الرعيل الأوّل و بالذات عند أسوه المؤمنين و سيدهم حبيب اللّه النبى محمد-صلّى اللّه عليه و آله-و ببيان سماحه دين الإسلام و واقعيته،حيث يعتبر الظروف الحقيقيّه عاملا مؤثّرا فى التشريع،بحيث يرتفع التكليف بقيام الليل عن ذوى الأعذار المشروعه بصوره تامّه،أو يخفّف إلى حدّ الاكتفاء بقراءه ما يتيسر من القرآن،و ممارسه مجموعه من الواجبات العامه التى من بينها الصلاه و الزكاه و الإنفاق و الاستغفار.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ أى أقل من الثلثين،و أكثر من النصف بعض الأحيان.

وَ نِصْفَهُ أحيانا أخرى.

1- 1) الميزان/ج 20 ص 69.

2- 2) مفاتيح الجنان ص 533.

وَ ثُلُثَهُ أحيانا..و هـذا يعنى أنّه-صلّى اللّه عليه و آله-يطبّق أمر اللّه بقيام الليل، و الذى مرّ بيانه فى الآيات(۴/۲).و للآيه واحده من دلالتين:الأولى:أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله كان يقوم كلّ ليله باختلاف فى مدّه القيام بين ليله و أخرى،فمره يقوم أقلّ من الثلثين،و ثانيه يقوم النصف،و ثالثه الثلث،أو أنه-صلّى اللّه عليه و آله- كان ينهض لقيام الليل ثلاث مرات يستريح بينهما،كلّ ليله(أدنى من الثلثين، و منتصف الليل،و ثلثه).

و هناك روايه تشير إلى الاحتمال الثانى ذكرها العلاّمه الطوسى فى التهذيب:

قال الإمام الصادق عليه السلام و قد ذكر صلاه النبى صلى الله عليه و آله :«كان يؤتى بطهور و يخمّر عند رأسه(أى يغطّى بخمار)و يوضع سواكه تحت فراشه،ثم ينام ما شاء اللّه،و إذا استيقظ جلس،ثم قلّب بصره فى السماء،ثم تلا الآيات من آل عمران« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ.. »،ثم يستن(أى يعمل بسنّه السواك)و يتطهر،ثم يقوم إلى المسجد،فيركع أربع ركعات على قدر قراءته ركوعه و سجوده،و سجوده على قدر ركوعه،يركع حتى يقال:متى يرفع رأسه؟ و يسجد حتى يقال:متى يرفع رأسه؟ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء اللّه،ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات،ثم يقلّب بصره فى السماء ثم يستن و يتطهّر و يقوم إلى المسجد،فيصلى أربع ركعات كما ركع قبل ذلك،ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء اللّه،ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران،و يقلّب بصره فى السماء،ثم يستن و يتطهر و يقوم إلى المسجد فيوتر(يصلى الوتر)و يصلى الركعتين (يعنى ركعتى الشفع أو نافله الفجر)ثم يخرج إلى الصلاه » (۱).

و على خطى الرسول صلى الله عليه و آله كان خلّص أصحابه من الرعيل الأول يقومون

۱- ۱) نور الثقلين ج ۱ ص ۴۲۲.

اللیـل کمـا یقومه النبی صـلی الله علیه و آله تأسـیّا به،إذ جعله اللّه أسوه المؤمنین،و کـأنّ الآیه تبیّن معنی المعیّه بأنّها لیست مجرد الزعم،و لاـ الانتمـاء الـدینی و الاجتمـاعی الظـاهر لقیـاده الرسول و خطّه،بـل الصـحبه الحقیقیّه تتمثّل فی الإتباع العملی لقیادته و رسالته.

وَ طٰائِفَهٌ مِنَ اَلَّذِینَ مَعَکَ و نحن الأجیال الحاضـره-إذا فاتتنا صـحبه النبی-صـلّی اللّه علیه و آله- بالأبدان و معیّته فإنّنا نستطیع أن نکون معه باقتفاء أثره،و من أثره جهاده و قیامه باللیل قال الحسکانی:«الذین معک»علی و أبو ذر (۱).

وَ اللّٰهُ یُقَدِّرُ اَللَّیْلَ وَ اَلنَّهٰارَ قال صاحب المجمع:أی یقدّر أوقاتهما لتعملوا فیها علی ما یأمرکم به،و قیل:

لاـ یفوته علم ما تفعلون،و المراد:أنّه یعلم مقادیر اللیل و النهار،فیعلم القـدر الـذی تقومونه من اللیل (۲)،و لعل فی التقدیر إشاره إلی اختلاف اللیالی و الأیام فی الجانب الزمنی،حیث تطول و تقصر،و ربّنا هو الذی یعیّن المقادیر المختلفه.

عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ و فی معنی الإحصـاء قولاـن:أحـدهما:الظـاهر أی لن تعـدّوه،و الآـخر:لن تطیقـوا قیـامه،و هـو الأـقرب بـدلاله السـیاق،حیث یجری الحدیث مباشـره عن التوبه و التخفیف،و حیث یشـیر القرآن إلی جانب من الأعذار المشروعه التی تعیق عن قیام اللیل بصورته الأولیه..قال مقاتل:کان الرجل یصلی اللیل کلّه مخافه أن

۱- ۱) تفسیر البصائر/ج ۵۰ ص ۱۳۲ عن المجمع.

۲- ۲) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۳۸۱.

لاـ یصیب ما أمر به من القیام،فقال سبحانه: « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ »أی لن تطیقوا معرفه ذلک،و قال الحسن:قاموا حتی انتفخت أقدامهم،فقال:إنّکم لا تطیقون إحصاءه علی الحقیقه،و قیل معناه:لن تطیقوا المداومه علی قیام اللیل،و یقع التقصیر فیه (۱).

فَتٰابَ عَلَیْکُمْ أی رحمکم و تلطّف بکم،لأنّ من تاب اللّه علیه فقد رحمه.و إذا أخذنا بالمعنی الأصیل للتوبه و هو الرجوع فإنّ المعنی:یکون:أنّه تعالی بدی له أمر فعادلکم وحیه بحکم آخر غیر الحکم الأول الذی یقتضی قیام اللیل کلّه إلاّ قلیلا،أو الذی کان القیام فیه واجبا لا مستحبا (۲).

فَاقْرَؤُا مٰا تَیَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ و تأکید اللّه علی قراءه القرآن یهدینا إلی عظمته،و أنّ تلاوته و تدبّر معانیه روح قیام اللیل و من أهمّ أهدافه،حیث یعود الإنسان إلی کلام ربه و عهده إلیه،فیستلهم منه بصائر الحق،و مناهج حیاته فی کلّ بعد و جانب.إنّ غایه قیام اللیل هی تکامل الإنسان،تکاملا روحیّا بالتهجّد و التبتل و الصلاه،و تکاملا عقلیّا بالتفکّر فی خلق اللّه و تدبّر آیات قرآنه..نعم.إنّ الظروف قد لاـ تسمح بقیام اللیل علی صورته الأولیه،و لکن لا ینبغی للمؤمن أن یترک قراءه القرآن علی أیّه حال،و لو قراءه ما تیسر منه. فما معنی قول اللّه:« مٰا تَیَسَّرَ مِنْهُ »؟ لقد اختلف المفسرون و القرّاء فی القدر الذی تضمّنه هذا الأمر من القراءه،

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) مع أنه لا توجد روایات صریحه بأنّ قیام اللیل کان واجبا شرعیا علی المسلمین فی أول الدعوه،إلاّ أنّه محتمل،أو هکذا استقبلوه ثم تبیّن لهم غیر ذلک.

فقال سعید بن جبیر:خمسین آیه،و قال ابن عبّاس:مائه آیه،و قال السدّی:مائتا آیه،و قال جویبر:ثلث القرآن لأنّ اللّه یسّره علی عباده (۱)إشاره لقوله تعالی:

« وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ » (۲)،و لیس بین الأقوال الأربعه تناقض،لأنّ ما تیسّر هو ما یجده القارئ یسیرا علی نفسه،سواء کان آیه واحده أو القرآن کلّه،و إن کانت الکلمه فی ظاهرها إشاره إلی القلیل،و قد ذهب البعض بعیدا حینما فسّروا الآیه فی الصلاه و قال معناه:فصلّوا ما تیسّر من الصلاه،و عبّر عن الصلاه بالقرآن لأنّها تتضمّنه (۳).

و جدیر التساؤل عن السبب فی التیسیر بعد التشدّد فی منهجیه التشریع الإسلامی،الأمر الذی یکاد یصبح ظاهره فی أحکام اللّه لکثره شواهده،فقد فرض اللّه علی المؤمنین تقدیم صدقه بین یدی نجواهم الرسول (۴)ثم ألغیت الصدقه،و حرّم علیهم مقاربه أزواجهم حتی لیالی الصیام ثم أحلّها (۵)و فی الجهاد فرضه واجبا إذا کانت نسبه المؤمنین إلی أعدائهم تعادل واحدا إلی عشره،أی أنّهم یجب علیهم الجهاد و خوض الحرب إذا کانوا مائه و کان العدو ألفا،ثم خفّف الحکم بنسبه واحد إلی اثنین (۶)،و مثل ذلک أحکام عدیده و التی من بینها قیام اللیل الذی نحن بصدد الکلام عنه.

إنّ هذه الظاهره فی التشریع الإسلامی تهدینا إلی أنّ إصلاح الإنسان -و بالذات فی الانطلاقه-بحاجه إلی برنامج مرکّز و صعب حتی یصلح نفسه

۱- ۱) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۳۸۱.

۲- ۲) القمر ۴۰/.

۳- ۳) نقل هذا القول مجمع البیان ج ۱۰ ص ۳۸۱ و به قال صاحب الکشاف و الفخر الرازی.

۴- ۴) المجادله ۱۳/۱۲.

۵- ۵) البقره۱۸۷/.

۶- ۶) الأنفال ۶۶/۶۵.

إصلاحا جذريّا،كما المقاتل فی دورته العسكريه الأولی،فإذا ما استمرّ قطاره علی السكه يخفّف عنه،و هذه منهجيه الإسلام فی بناء أفراده و مجتمعه،و إذا صحّ هذا التحليل فإنّنا يجب أن نستفيد من ذلک فی حياتنا و مسيرتنا،ففی بدايه التغيير ينبغی أن تؤخذ الأمه بالشده حتی تذوب فی بوتقه الإيمان و العمل الرسالی،ثم يأتی دور التخفيف عنها شيئا ما.

و يلفتنا القرآن إلی خصيصه تشريعيه فی الإسلام و هی واقعيته،و أخذه ظروف المشرّع له بعين الإعتبار،فهو ليس نظاما قسريّا،بل تشريعا واقعيّا مرنا،و ذلک ممّا يؤكّد حقّانيته.

عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضیٰ يعيقهم مرضهم عن القيام،أو يجعله أمرا مكلّفا.و هذه كنايه عن المعوّقات البدنيه التی تصيب الإنسان بالضعف.

وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِی الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ طلبا للرزق.و الضرب فی الأرض كنايه عن التنقّل و الترحّل و السعی الحثيث،و علّل الرازی تخفيف الفرض علی هذا الفريق و من يلونهم(المقاتلين فی سبيل اللّه)قائلا:و أمّا المسافرون و المجاهدون فهم مشتغلون فی النهار بالأعمال الشاقّه،فلو لم يناموا فی الليل لتوالت أسباب المشقّه عليهم (1).

وَ آخَرُونَ يُقٰاتِلُونَ فِی سَبِيلِ اللّٰهِ إعلاء لكلمته،و إنفاذا لأمره،و تحكيما لشرعه،و دفاعا عن ثغور المسلمين،

۱- ۱) التفسير الكبير ج ۳۰ ص ۱۸۷.

و هؤلاء لا شك لهم من الأجر الشیء العظیم،و لعمری إنّ جهادهم بمثابه قیام اللیل أجرا و قدرا عند اللّه؛لأنّهم لو لا جهادهم و قتالهم لکان الأمر کما حکی اللّه تعالی:

«لَهُدِّمَتْ صَوٰامِعُ وَ بِیَعٌ وَ صَلَوٰاتٌ وَ مَسٰاجِدُ یُذْکَرُ فِیهَا اسْمُ اللّٰهِ کَثِیراً» (۱).قال الفخر الرازی:و من لطائف هذه الآیه أنّه تعالی سوّی بین المجاهدین و المسافرین للکسب الحلال (۲)،و هذا یؤیّد

قول رسول اللّه صلی الله علیه و آله :«أیّما رجل جلب شیئا إلی مدینه من مدائن المسلمین صابرا محتسبا فباعه بسعر یومه کان عند اللّه من الشهداء » (۳)،و هو تأکید لقول

الإمام الصادق-علیه السلام -:«الکادّ علی عیاله کالمجاهد فی سبیل اللّه »،و یؤکد اللّه مره أخری أمره بتلاوه القرآن.

فَاقْرَؤُا مٰا تَیَسَّرَ مِنْهُ و لو بضع آیات،المهم أن لا یترک المؤمن رساله ربه،لأنّه قد یستغنی عن قیام اللیل و لکنّه لا یستغنی عن بصائر الوحی فی حیاته مهما کانت الظروف.

وَ أَقِیمُوا الصَّلاٰهَ بممارسه شعائرها و فروضها،و حقیقیّا بالتزام مضامینها،و تحقیق أهدافها علی الصعید الشخصی و فی المجتمع.

وَ آتُوا الزَّکٰاهَ کنایه عن کلّ إنفاق واجب،یزکّی المؤمن نفسه و ماله بإعطائه.

وَ أَقْرِضُوا اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً

۱- ۱) الحج ۴۰/.

۲- ۲) التفسیر الکبیر ج ۳۰ ص ۱۸۷.

۳- ۳) المصدر عن ابن مسعود.

و هو كلّ إنفاق مستحبّ فی سبیل اللّه (۱)الذی لا یضیع عنده عمل عامل أبدا.

وَ مٰا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِکُمْ مِنْ خَیْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللّٰهِ فی الدنیا و الآخره.و فی الآیه إشاره لیس إلی العمل الصالح الذی یمهّد للمؤمنین آخرتهم و حسب،بل أنّ کثیرا من التوفیقات و البرکات التی ینالها الإنسان فی الدنیا،و هکذا المکاره التی تدفع عنه،لیست إلاّ نتائج قائمه علی مقدّمات سابقه بادر إلیها،و التی من بینها الإنفاق فی سبیل اللّه،فالمکروه الذی یرتفع عن المتصدّق إنّما ترفعه صدقته التی قدّمها قبل حدوثه..فالمنفق فی حقیقه الأمر یقدّم بإنفاقه خیرا لنفسه.

هُوَ خَیْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً حیث یتضاعف خیره و أجره بفضل اللّه تعالی،و کیف لا یتضاعف و المجازی ربّ المحسنین؟!بلی.إنّ الصدقه القلیله لا ینحصر خیرها و أجرها فی الدنیا،بدفع الشر عن صاحبها،و جلب البرکه و التوفیق إلیه،بل یمتدّ إلی الآخره أیضا،فاذا بالدرهم الواحد یستحیل جنه عالیه و حورا و نعیما لا ینقطع،بل یضاعفه اللّه یوما بعد یوم.

وَ اسْتَغْفِرُوا اللّٰهَ هناک قال و قد خفّف حکم قیام اللیل:«فتاب علیکم»و هنا یأمر المؤمنین بالاستغفار،ممّا یوحی لهم بأنّ ترک القیام باللیل غیر محمود عند ربهم فی حال وجود العذر،فکیف بترکه دونه؟!کما یثیر فی أنفسهم الشعور بالتقصیر،و من ثمّ یدفعهم للمزید من السعی و العمل الصالح و التقرب إلیه بالاستغفار.

۱- ۱) لقد مر تفصیل فی معنی القرض الحسن فی سوره الحدید الآیه(۱۱)فراجع.

إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ و هـذه الخاتمه تملأ القلوب أملا و طمعا فى غفرانه و رحمته تعالى،حيث أمرهم بالاستغفار،و أكّد إليهم بأنّه الغفور الرحيم،و كأنّ الخاتمه ضمانه بالإجابه بعد الأمر المتقدّم بالاستغفار،و لعل القرآن يريد أن يقول لنا بأن أداء المؤمن للفروض الواجبه-كإقامه الصلاه و الزكاه و الإنفاق-ينبغى أن لا يشحنه بالغرور و شعور الاكتفاء،فيقتصر على ذلك من دون المستحبات المشرّعه فى الدين و من بينها قيام الليل.

ص:۴۷

سوره المدّثر

اشاره

ص:۴۹

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

فضل السوره

فى كتـاب ثواب الأعمال بإسـناده عن أبى جعفر محمـد بن علىّ الباقر-عليه السـلام-قال :«من قرأ فى الفريضه سوره المـدّثّر كان حقّا على اللّه عزّ و جلّ أن يجعله مع محمّد-صلّى اللّه عليه و آله-فى درجه،و لا يدركه فى حياه الدنيا شقاء أبدأ إن شاء اللّه».

نور الثقلين/ج ۵ ص ۴۵۲

ص:۵۱

الإطار العام

بعـد أن يسـتنهض الوحى النبى المـدثر لتحمّـل أعباء الرساله بالإنـذار،و تكبير اللّه، و تطهير ثيابه من كلّ نجاسه ماديه و معنويه،و مقاطعه الرجز بالهجران،ينهاه عن المنّه على اللّه لأنّها تقطع الخير،و يأمره بالصبر له كضـروره تفرض نفسـها على كلّ داعيه حق و حامل رساله.أ و ليس يريد الثوره على الواقع المنحرف و المتخلف؟إذن يجب أن يتوقّع الكثير من المشاكل و الضـغوط المضاده فى هذا الطريق،و عليه يجب أن يتحمّل و يصبر كشرط للاستقامه و تحقيق الهدف(الآيات ۷/۱).

و لأنّ المؤمن يؤلمه تسـلّط الطغاه و المنحرفين من قوى سياسيه و اقتصاديه و اجتماعيه و عسكريه،و بالتالى يستعجل لهم الهلاك و الجزاء،فـإنّ القرآن يسـكّن ألمه هـذا بتوجيهنـا إلى يوم القيـامه حيث الانتقام الأعظم من أعـداء الرساله و المؤمنين، إذ ينقر فى الناقور إيذانا ببدء يوم عسـير لا يسـر فيه على الكافرين و أشباههم،يلاقون فيه ألوانا من العذاب الخالد الذى لا يطاق..و أنّى يطيق المخلوق الضعيف انتقام ربّ العزه؟!(الآيات ۱۰/۸).

ص:۵۲

و هكذا نهتدى إلى أنّ محور السوره-فيما يبدو لى-صراع الرسول مع مراكز القوه التى لا بد أن يتحدّاها بكلّ اقتدار.

و يعالج السياق طائفه من الأفكار الخاطئه التى يتشبّث بها المتسلّطون و المترفون لدعم مواقعهم القياديه،منها الزعم بأنّه لو لا رضا اللّه عنهم لما أوسع عليهم نعمه.

إذا فما فى يد الكفّار و الطغاه من نعيم ليس دليلا على حبّ اللّه لهم،و لا على صحه منهجهم فى الحياه..بلى.إنّ عندهم مالا ممدودا،و أتباعا كثيره و أبناء، و ممهّده لهم وسائل العيش الرغيد،الذى لا يشبعون منه،بل يطمعون فى زيادته..

و لكنّهم ضالون عن الصراط السوى،جاحدون لآيات اللّه..و بالتالى مستحقون لعذابه و انتقامه، و المقياس السليم للتقييم ليس الماده،بل القيم،و ليس الدنيا بل الآخره،و المترفون على عناد مع قيم الحق،و خاسرون فى الآخره،فهنالك لا يبقى لهم نعيم و لا أنصار،و لا مقام احترام كما هم فى الدنيا،بل يتبدّل واقعهم إلى قطع من العذاب الأليم و المهين،و تصبح كلّ نعمه أعطيت لهم وبالا عليهم حيث لم يؤدّوا شكرها..فهم أشدّ الناس عذابا لأنّهم قد أملى لهم من فضل اللّه،و من آلم ما يلقون عذابا الصعود المرهق(الآيات ١٧/١١).

و ليس إرهاقهم بالعذاب مجرد انتقام عبثى،بل هو انتقام متأسس على الحساب الدقيق و الحكمه و العدل،فإنّك حيث تحقّق فى سببه تجده منهجيتهم الخاطئه و الضاله فى الحياه،و التى ترتكز على التفكير المنحرف و التقديرات الخاطئه..فإنّها حقّا هى المسؤوليه عمّا يحلّ بهم من اللعن و القتل و العذاب،فهم الذين عبسوا و بسروا ثم أدبروا و استكبروا،و كان هذا موقفهم من الحق قيما و قياده و حزبا،بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما رموا الحق بالتهم الرخيصه الباطله،فقالوا:« إِنْ هٰذا إِلاّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ »،و قالوا:بل هو من صنع البشر و ليس رساله من اللّه..من دون دليل إلاّ

للطعن فيه و التهرب من مسئوليه الإيمان،و إلاّ لتضليل الناس عن طريق الهدى و سبيل الرشاد(الآيات ۲۵/۱۸).

من هنا حقّ لو عذّب اللّه الكفّار المعاندين باعتبارهم يبارزون ربّ العزه و يحاربون الحق،و بالذات كبراؤهم و الملأ المترفين منهم،كالحكّام الطغاه، و أصحاب الثروه،و أدعياء العلم،و لذلك يتوعّد الجبّار واحدهم بأشدّ العذاب، و يؤكّد ذلك لرسوله صلى الله عليه و آله و كل رسالى يقف على خط المواجهه و فى جبهه التحدى و الصراع ضد الباطل بأنّه سيصليه سقر،و هى أشد أقسام النار تلظّيا و حراره و رهبه بحيث لا يمكن لبشر أن يتصوّرها و يدرى ما هى،إلاّ أنّ القرآن يشير إلى بعض صفاتها الرهيبه حيث أنّها لا تبقى و لا تذر،لوّاحه للبشر..و منظر آخر مخيف منها يمثّله ملائكه غلاظ شداد النار نفسها فرقه منهم.

إنّهم تسعه عشر..هكذا يقول اللّه..فأمّا المؤمنون فإنّهم تقشعر جلودهم ثم تلين،و هكذا يزداد خوفهم و تقواهم لمجرد سماعهم قول ربّ العزه،لأنّ المهم عندهم حقيقه الأمر لا تفاصيله حتى يختلفون فى ألوان أولئك النفر الموكّلون بسقر من الملائكه،و لا فى أحجامهم و أوزانهم و عددهم..كما اختلف الكفّار و الذين فى قلوبهم مرض،و فتنوا أنفسهم قائلين:« مَا ذَا أَرَادَ اللّٰهُ بِهٰذَا مَثَلاً »؟!فضلّوا عن الهدف و الحكمه ألا و هى التذكره.(الآيات ۳۱/۲۶).

«كَلاّٰ وَ الْقَمَرِ* وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ* وَ الصُّبْحِ إِذٰا أَسْفَرَ» هكذا يقسم ربنا أقساما غليظه عظيمه مترادفه،و يؤكّد بأنّ القضيه كبيره و مشتمله على موعظه و إنذار عظيمين للبشر لو كانوا يعقلون..بل إنّها ركيزه أساسيه و ملحّه للإنسان فى مسيرته و مصيره،و ذلك أنّ تقدمه(فردا و أمه)و كذلك تأخّره رهين موقفه من حقائق هذه الذكرى الإلهيه للبشر(الآيات ۳۷/۳۳).

ص:۵۴

و فی سیاق الحدیث عن الآخره و عذاب سقر ینعطف بنا القرآن إلی آیه مهمه فی سوره،بل فی المنهجیه الإسلامیه بصوره عامه،و ذلک حینما یربط بین مستقبل الإنسان و حاضره و بین سعیه و مصیره و مؤکّدا بأنّه المسؤول عن نفسه،فهو الذی بیده حبسها فی العذاب کما بیده فک رهانها منه،و الدخول بها إلی جنّات الخلد و النعیم.و یضع اللّه الناس فردا فردا أمام حقیقه عظیمه و مهمه یجب أن یضعوها نصب أعینهم،و یتحرکوا فی الحیاه علی إیحاءاتها و مستلزماتها..ألا و هی أنّ الأنفس کلّها رهینه..رهینه شهواتها و ضلالها و قراراتها المنحرفه الخاطئه،إلا أن یعتصم البشر بحبل الإیمان و یتبع منهجه فیخلّصها اللّه من سجنها الخطیر،کما صنع و یصنع بأصحاب الیمین(الآیات ۳۹/۳۸).

و من خلال حوار قصصی یدور بین أصحاب الجنه و المجرمین-ینقله القرآن- تبصّرنا الآیات الربّانیه بأهمّ رکائز الجریمه التی تؤدّی إلی سقر و التی حذّرنا ربنا منها،و بذلک یجیب القرآن علی سؤال یفرض نفسه علی کلّ من یعرف حقیقه سقر، حیث یبحث عن النجاه من شرّها،و یسعی لتجنّب أسباب التورّط فیها،و هی أربعه أساسیه کما یقرّ المجرمون أنفسهم:(عدم کونهم من المصلین،و عدم إطعامهم المسکین،و خوضهم مع الخائضین،و التکذیب بالآخره)و ما ذا یرتجی لمن یوافیه الأجل،و یلقی ربه علی هذا الضلال البعید و الجریمه؟(الآیات ۴۷/۴۰).

و من یتورّط فی الذنوب الأربعه الکبیره التی مرّ ذکرها فإنّ مصیره النار لا محاله، لأنّه لا عمل صالح عنده ینجیه من العذاب،و لن تدرکه رحمه من اللّه و قد بارزه و حاربه،و لن یشفع له أحد،و لو استشفع له أحد-جدلا- فلن تنفعه شفاعه أبدا، لأنّ الشفاعه تنفع من تکون مسیرته العامه فی الحیاه مسیره سلیمه،ثم یرتکب بعض الذنوب و المعاصی..و لیس المجرمون کذلک(الآیه ۴۸).

و فی خاتمه السوره یستنکر القرآن علی المجرمین(الکفّار و مرضی القلوب) إعراضهم عن تذکره اللّه لهم و رحمته المتمثله فی آیات وحیه الهادیه،مع أنّهم مستقبلون أمرا عظیما و نارا لا تبقی و لا تذر..و لا خلاص لهم إلاّ بالإقبال علی التذکره،و العمل علی ضوء بصائرها و هداها!!إنّهم حقّا یشبهون-حیث یعرضون عن آیات اللّه-قطیع حمر انقضّ علیه لیث لا یدرون قسوره إلی أین یفرّون منه، و ما الحیله للخلاص..و الحال أنّ آیات اللّه علی عکس ذلک جاءت لتأخذ بأیدیهم إلی ساحل الأمن و الرحمه و السعاده،و أولی بهم أن یستقبلوها کما یستقبل الضمأی و المجدبون غیث السماء..« بَلْ یُرِیدُ کُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ یُؤْتیٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً »و لن یکون ذلک أبدا،« بَلْ لاٰ یَخٰافُونَ الْآخِرَةَ »و هذا فی الحقیقه-أعنی الکفر بالآخره و عدم حضورها فی وعی الإنسان- أکبر عامل فی الانحراف،و عدم الاهتمام بالتذکره و التأثّر بها(الآیات ۵۳/۴۹).

و یردّ القرآن علی أباطیل المدبرین عنه و المستکبرین علی الحق،الذین قالوا:

«إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ یُؤْثَرُ* إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ قَوْلُ الْبَشَرِ» ردّا موضوعیّا حاسما فی آیات ثلاث(۵۶،۵۵،۵۴)تبیّن فی نفس الوقت دور القرآن بأنّه التذکره باللّه و بالحق،و أنّ الإنسان مکلّف بالاستجابه لهداه،و لکنّه غیر مجبور علی ذلک بل مخیّر،و إن کان توفیق التذکّر و الهدایه لا یحصل« إِلاّٰ أَنْ یَشٰاءَ اللّٰهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْویٰ وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ »و معرفه هذه الحقیقه أمر ضروری بالنسبه للإنسان،لأنّها تحیی فیه روح التوکل علی اللّه و التضرع إلیه،و تبعده عن الغرور الناشئ من الاعتماد علی الذات.

خلاصه القول:إنّ الموضوع الرئیسی فی السوره تصدی الرسول لمراکز القوی الجاهلیه،و لکنّها تعالج أیضا قضایا هامّه أخری و هی:أنّ الغنی و القدره و سائر نعم اللّه مجرد ابتلاء،و لیست دلیلا علی رضا اللّه عن أصحابها،و أنّ الإنسان رهن سعیه،و أنّ علیه هو أن یسعی نحو الهدایه،و أنّه لا یکره علیها إکراها.

ص:۵۶

[سوره المدثر (۷۴): الآيات ۱ الى ۳۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . يٰا أَيُّهَا اَلْمُدَّثِّرُ (۱) قُمْ فَأَنْذِرْ (۲) وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ (۳) وَ ثِيٰابَكَ فَطَهِّرْ (۴) وَ اَلرُّجْزَ فَاهْجُرْ (۵) وَ لاٰ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (۶) وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (۷) فَإِذٰا نُقِرَ فِي اَلنّٰاقُورِ (۸) فَذٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (۹) عَلَى اَلْكٰافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (۱۰) ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (۱۱) وَ جَعَلْتُ لَهُ مٰالاً مَمْدُوداً (۱۲) وَ بَنِينَ شُهُوداً (۱۳) وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (۱۴) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (۱۵) كَلاّٰ إِنَّهُ كٰانَ لِآيٰاتِنٰا عَنِيداً (۱۶) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (۱۷) إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ (۱۸) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (۱۹) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (۲۰) ثُمَّ نَظَرَ (۲۱) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (۲۲) ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اِسْتَكْبَرَ (۲۳) فَقٰالَ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (۲۴) إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ قَوْلُ اَلْبَشَرِ (۲۵) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (۲۶) وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا سَقَرُ (۲۷) لاٰ تُبْقِي وَ لاٰ تَذَرُ (۲۸) لَوّٰاحَةٌ لِلْبَشَرِ (۲۹) عَلَيْهٰا تِسْعَةَ عَشَرَ (۳۰) وَ مٰا جَعَلْنٰا أَصْحٰابَ اَلنّٰارِ إِلاّٰ مَلاٰئِكَةً وَ مٰا جَعَلْنٰا عِدَّتَهُمْ إِلاّٰ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ وَ يَزْدٰادَ اَلَّذِينَ آمَنُوا إِيمٰاناً وَ لاٰ يَرْتٰابَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ اَلْكٰافِرُونَ مٰا ذٰا أَرٰادَ اَللّٰهُ بِهٰذٰا مَثَلاً كَذٰلِكَ يُضِلُّ اَللّٰهُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ وَ مٰا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاّٰ هُوَ وَ مٰا هِيَ إِلاّٰ ذِكْرىٰ لِلْبَشَرِ (۳۱)

ص:۵۷

وَ لِرَبِّکَ فَاصْبِرْ

هدی من الآیات:

فی البدایه تبیّن الآیات الکریمه أهم الصفات التی یجب توافرها فی کلّ منذر یتصدّی لهدایه الناس و تغییر الواقع بالرساله،و هی:تکبیر اللّه وحده،و تطهیر الثیاب من کلّ دنس و نجاسه،و مقاطعه الرجز بکلّ أشکاله و صوره،و عدم المنّه علی اللّه،و الصبر و الاستقامه فی الطریق الشائک،فالمنذر الرسالی لا یکون منذرا إلاّ إذا تحلّی بهذه الصفات اللازمه،و کذلک لا یمکنه تحقیق أهدافه(الهدایه و التغییر)إلاّ بها(الآیات ۱/۷).

ثم تنذر الکفّار بیوم عسیر علیهم لا یسر فیه، یوم الانتقام،الذی یشفی به اللّه صدور المؤمنین الذین یتذوّقون مراره الأذی منهم،و بالتالی یبعث فیهم روح الصبر و الاستقامه(الآیات ۸/۱۰).

و من هذا الوعید العام لکلّ الکافرین و مرضی القلوب،یخصّ اللّه بوعیده

ص:۵۹

أقطاب الضلال و أئمه الكفر..بصيغه الإفراد..و كأنّه يهدّدهم واحدا واحدا بالذات،لا فرق بين من عاصر النبی منهم و من يأتی بعدهم،مؤكّدا بأنّ ترفهم و ما هم فيه من نعمه ليس دليلا علی قربهم منه و سلامه منهجهم،كلاّ..بل هو كيد عظيم ضدهم كما يأتوا فی الآخره ما لهم من خلاق و لا نصيب سوی العذاب الأليم، لأنّهم جحدوا بالآيات و فكّروا و قدّروا فما أسوء ما فكّروا فيه و قدّروا فأصيبت مقاتلهم،و دفعوا أنفسهم فی نار سقر لا تبقی و لا تذر،عليها تسعه عشر من ملائكه اللّه الغلاظ الشداد(الآيات ۳۱/۱۱).

بينات من الآيات:

[۲/۱]مع اختلاف الكلمتين(المزمل و المدثر)فی معناهما،و استقلال السورتين فی موضوعهما و سياقهما،إلاّ أنّ البعض خلط بينهما إلی حدّ التطابق فی النصوص الوارده فی أسباب التنزيل ممّا يضعّف رواياتها عندی.قال تعالی:

يٰا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ لقد أجمع المفسرون علی أنّ«المدثر»هو رسول اللّه-صلّی اللّه عليه و آله و سلّم-سمّاه ربّه بذلك،

قال الكلبی عن أبی عبد اللّه الصادق-عليه السلام- قال :«يا كلبی كم لمحمد صلی الله عليه و آله من اسم فی القرآن؟»فقلت:اسمان أو ثلاثه، فقال:«يا كلبی له عشره أسماء»و عدّها إلیّ أن قال:«و يا أيّها المدثر و يا أيّها المزمل» (1)و وقع الاختلاف فی أنّه صلی الله عليه و آله لم سمّی مدثّرا،فمنهم من أول الظاهر، و منهم من بقی عليه،و تساءل:لما ذا تدثر الرسول بثيابه؟ فقال جابر عن رسول اللّه صلی الله عليه و آله أنّه قال:جاورت بحراء شهرا،فلمّا قضيت

۱- ۱) البرهان ج ۳ ص ۲۸.

جوارى نزلت فاستبطنت الوادى،فنوديت فنظرت أمامى و خلفى،و عن يمينى و عن شمالى فلم أر أحدا،ثم نوديت فرفعت رأسى فإذا هو على العرش فى الهواء-يعنى جبرئيل-فقلت:دثّرونى دثّرونى فصبّوا علىّ ماء،فأنزل اللّه عزّ و جلّ:

«الآيات من المدثر » (1)،و

فى الدر المنثور :«فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء على كرسى بين السماء و الأرض،فجئت رعبا فقلت:..إلخ » (2)و نقل الفخر الرازى أنّ نفرا من قريش آذوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و هم:أبو جهل،و أبو لهب،و أبو سفيان،و الوليد،و النضر بن الحرث،و أميه بن خلف،و العاص بن وائل فقالوا:إنّ محمدا لساحر،فوقعت الضّجّه فى الناس:أنّ محمدا ساحر،فلمّا سمع رسول اللّه صلى الله عليه و آله ذلك اشتد عليه،و رجع إلى بيته محزونا،فتدثر بثوبه،فجاءه جبرئيل عليه السلام و أيقظه،و قال:« يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » (3)،و ضعّف السيوطى ذلك فى أسباب النزول ص ۲۲۳،و لقد انتقدت فى سوره المزمل أسباب النزول هذه لما فيها من إشاره إلى شك أصاب الرسول فى رسالته،و ضعف فى الموقف قباله ضغوط المشركين، بلى.قد يكون النبى صلى الله عليه و آله حين نزول هذه الآيات متدثرا لأسباب عاديه.

و من المفسرين من تأول لكلمه المدثر غير ظاهرها فقال:إنّ المراد كونه متدثرا بدثار النبوه و الرساله،من قولهم ألبسه اللّه لباس التقوى،و زيّنه برداء العلم، و يقال:تلبّس فلان بكذا (4)،و قد نقل العلاّمه الطباطبائى هذا الرأى فى تفسيره و قوّاه (5)،و قيل:المراد به الاستراحه و الفراغ،فكأنّه قيل له:يا أيها المستريح

ص:۶۱

۱- ۱) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۸۴ و التبيان ج ۱۰ ص ۱۷۱،و الكشاف ج ۴ ص ۶۴۴ و التفسير الكبير ج ۳۰ ص ۱۸۹،و فى ضلال القرآن ج ۸ ص ۳۴۵،و الميزان ج ۲۰ ص ۸۳.

۲- ۲) الدر المنثور ج ۶ ص ۲۸۰.

۳- ۳) التفسير الكبير ج ۳۰ ص ۱۹۰.

۴- ۴) المصدر.

۵- ۵) الميزان ج ۲۰ ص ۷۹.

الفارغ قد انقضى زمن الراحه،و أقبل زمن متاعب التكاليف و هدايه الناس (1)، و هو بعيد عمّا نعرفه من خلق الرسول الذى ما كان ليستريح و لا ينى يجاهد لإعلاء كلمه اللّه قبل و بعد البعثه.

و فى اللغه:المدثر:المتفعّل من الدثار،إلاّ أنّ الثاء أدغمت فى الدال لأنّها من مخرجها،مع أنّ الدال أقوى بالجهر فيها عن التبيان،و هو المتغطى بالثياب عند النوم (2)،يقال:تدثر تدثرا،و دثره تدثيرا،و دثر الرسم يدثر دثورا إذا محى أثره (3)، و القوى عندى فى معنى المدثر ثلاثه آراء:

الأول:ظاهر الكلمه أى المتدثر بغطاء،فإنّ الوحى كان ينزل على رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى مختلف حالاته،راكبا و راجلا،و نائما و يقظا و..و..

الثانى:المتدثر بدثار النبوه،و قد بيّنا ما يشبه ذلك فى تفسير الآيه الأولى من سوره المزمل.

الثالث:المتكتّم و المتخفّى،و إنّما سمّى الدثار دثارا لأنّه يخفى النائم،من باب دثرت المعالم إذا انمحت و اختفت،و عليه يحتمل أن تكون سوره المدثر فاتحه المرحله العلنيه من الدعوه الإسلاميه،التى مرّت فى بدايتها بظروف السريه و الكتمان..و إذا صحّ هذا الرأى نكون قد وصلنا إلى حلّ للاختلاف بين المفسرين فى أنّه هل العلق هى أول ما نزل من القرآن أم سوره المدثر؟حيث يوصلنا هذا الرأى إلى أنّ العلق هى أول سوره نزلت على الإطلاق،أمّا المدثر فهى أول إيذان بإعلان الدعوه من اللّه.

١- ١) المصدر.

٢- ٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٣.

٣- ٣) التبيان ج ١٠ ص ١٧٢.

قُمْ فَأَنْذِرْ قال الرازی:فی قوله:«قم»وجهان:قم من مضجعک،و قم قیام عزم و تصمیم (۱)،و یتسع المعنی لقیام الجهاد و التغییر و الثوره لوصفه تعالی المتقاعسین و الساکتین بالقاعدین فی قوله« وَ فَضَّلَ اللّٰهُ الْمُجٰاهِدِینَ عَلَی الْقٰاعِدِینَ أَجْراً عَظِیماً » (۲)و هکذا فی مواضع أخری من القرآن (۳)،و الإنذار و التحذیر من عواقب الضلال و الانحراف إنّه من أهمّ أهداف الحرکه الرسالیه الأصیله و منطلقاتها،لأنّه یعکس فی الحقیقه تحسّس الطلائع بالواقع الفاسد،و من ثمّ تحرّکهم للتغییر إیمانا بالمسؤولیه الربّانیه.

بلی.قد یکون نفسه علی الطریق السوی،و لکنّ مسئولیته شامله لا تنحصر فی ذاته و حسب،بل هو کفرد من المجتمع مسئول عن واقعه،لیس من زاویه إنسانیه و دینیه فقط بل من زاویه واقعیه أیضا،فإنّ تخلّف مجتمعه و أمّته یؤثّر علیه شاء أم أبی،و إنّ القوانین و السنن الجزائیه تطال الجمیع دون استثناء..و لا ریب أنّ نشر القیم الصالحه،و توعیه المجتمع،و من ثمّ تغییر مسیرته نحو الصواب،یجعل الإنسان أقرب إلی أهدافه،و أقدر علی بلوغها بصوره أسرع و أفضل حیث یتحرّک فی محیط صالح ممهّد للنهضه و التقدم.

و من الناس من یتوانی عن أداء مسئولیته الاجتماعیه،و یتعلّل بفهمه الخاطئ لقول اللّه سبحانه:« یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلَیْکُمْ أَنْفُسَکُمْ لاٰ یَضُرُّکُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَیْتُمْ » (۴)و یزعم أنّه یأمر بالتقاعس و التساهل إزاء تخلّف المجتمع و انحرافه،

ص:۶۳

۱- ۱) التفسیر الکبیر ج ۳۰ ص ۱۹۰.

۲- ۲) النساء ۹۵.

۳- ۳) المائده ۲۴،التوبه ۴۶-۸۶.

۴- ۴) المائده ۱۰۵.

كلاّـ.أليس الظاهر القرآنى حجّه؟أ و ليس هذا القرآن ينادى فينا بالقيام و النهضه للتغيير؟أو ليس القرآن رساله اللّه إلى كلّ إنسان مكلّف؟أ و ليس الرسول صلى الله عليه و آله أسوه حسنه لنا جميعا..فقد قام و أنذر و أصلح بذلك مجتمعه و أسّس حضاره الإسلام.

إنّ الطلاق بين الأمه و رسالتها،و تقليد الشرق و الغرب،و سبات العقل،و حاله الفرديه و التفرق،و الجهل،و القعود عن الجهاد فى سبيل اللّه،و..و..كلّها خطوات نحو أسوء العواقب،و يجب علينا أن ننذر أنفسنا و أمتنا من مخاطرها،و أعظم ما ينبغى التحذير منه هو نسيان اللّه عزّ و جلّ فإنّه لمّا كان لاـ مخافه أشدّ من الخوف من عقاب اللّه كان الإنذار منه أجلّ الإنذار،كما يقول شيخ الطائفه (۱).

و علّق صاحب الميزان على أمر اللّه للنبى بالإنذار فقال:و التقدير:أنذر عشيرتك الأقربين لمناسبه ابتداء الدعوه كما ورد فى سوره الشعراء (۲)،و الأقرب إطلاق الإنذار،لأنّ التخصيص لا دليل عليه،مع أنّ سياق السوره وجوّها العام يوحيان إلى أنّه موجّه إلى الكفّار جميعا،و هكذا يوجب الإنذار لجميع الناس على كلّ مسلم.

[۷/۳]و بعد الأمر الإلهى بالقيام و الإنذار يبيّن القرآن أهمّ الصفات التى يجب توافرها فى المنذر،حتى يكون عند اللّه منذرا بتمام المعنى،و لكى تثمر جهوده و مساعيه..فليس المهم أن ينهض الواحد للجهاد و التغيير و حسب،بل الأهم أن يؤدّى دوره على الوجه الصحيح و الأكمل،و ذلك بالتزامه بخمس صفات فى شخصيته و مسيرته:

۱- ۱) التبيان ج ۱۰ ص ۱۷۱.

۲- ۲) الميزان ج ۲۰ ص ۸۰.

الأولی:تکبیر اللّه.

وَ رَبَّکَ فَکَبِّرْ إنّ المؤمن حینما یقوم منذرا للّه یواجه فی طریقه عشرات العقبات النفسیه و التحدیات الاجتماعیه،کما یواجه القوی المضاده اقتصادیه و سیاسیه و اجتماعیه، و واجبه تحدیها و رفض الخضوع لها،إلاّ أنّه یجد نفسه عاده أمام أحد خیارین:إما الانهزام و إما التحدی و النصر،فکیف یسیر باتجاه خیار التحدی؟إنّما یرتکز الإنتصار ذلک علی مدی رسوخ توحید اللّه فی نفسه،و ذلک بأن یکبّره فی وعیه و یعظّمه فی نفسه قبل أن یکبّره بلسانه،فآنئذ یصغر کل شیء دونه،و تتساقط فی داخله کل الأصنام.و هذا هو سر انتصار المؤمنین علی العقبات و التحدیات و الضغوط و القوی المضاده.و إنّها لصفه أصیله فیهم

یصفها الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام بقوله:«عظم الخالق فی أنفسهم فصغر ما دونه فی أعینهم » (1)،و علی ضوء هذه المعادله یجب أن نفهم معنی التکبیر فی حیاتنا الفردیه و الاجتماعیه و السیاسیه.

و إنّما تتعمّق هذه الحقیقه فی وعی الإنسان بالمعرفه السلیمه باللّه،و أنّه الکبیر المتعال،و أنّه فوق أن یوصف أو ترقی إلی ذاته کلمات البشر أو تصوّراته،و لهذا ورد فی معنی(اللّه أکبر)عن أئمه الهدی-علیهم السلام-أنّه أکبر من أن یوصف (2)، و فیما یلی ننقل روایه تبیّن نورا من أنوار عظمه اللّه عزّ و جلّ:

روی الإمام الصادق علیه السلام عن جدّه المصطفی-صلّی اللّه علیه و آله-أنّه قال :و الأشیاء کلّها فی العرش کحلقه فی فلاه،و إنّ للّه تعالی ملکا یقال له«خرقائیل»له ثمانیه عشر ألف جناح،ما بین الجناح إلی الجناح خمسمائه عام،فخطر له خاطر:هل فوق العرش شیء؟فزاده اللّه تعالی مثلها أجنحه أخری،فکان له ست و ثلاثون ألف

۱- ۱) نهج البلاغه خ ۱۹۳ ص ۳۰۳.

۲- ۲) المیزان ج ۲۰ ص ۸۰.

جناح،ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائه عام،ثم أوحى اللّه إليه:أيّها الملك طر، فطار مقدار عشرين ألف عام لم ينل رأس قائمه من قوائم العرش،ثم ضاعف اللّه له فى الجناح و القوه،و أمره أن يطير فطار مقدار ثلاثين ألف عام لم ينل أيضا،فأوحى اللّه إليه:أيّها الملك لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك و قوّتك لم تبلغ إلى ساق عرشى!فقال الملك:سبحان ربى الأعلى فأنزل اللّه عزّ و جلّ:« سَبِّحِ اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَى »فقال النبى:اجعلوها فى سجودكم (۱).

و لعل من مفاهيم تكبير اللّه أن يسعى الإنسان المؤمن لتحطيم كيان الضلال و الكفر،كى تتهاوى الأنظمه و المعادلات الاستكباريه،و تبقى كلمه اللّه هى العليا فى الواقع السياسى و الاجتماعى،و يكون هو الأكبر فى نفوس الناس و وعيهم، و تكبّره ألسنتهم بالغدوّ و الآصال،قال الفخر الرازى:و هكذا تنبيه على أنّ الدعوه إلى معرفه اللّه و معرفه تنزيهه مقدمه على سائر أنواع الدعوات (۲)،و الذى يريد أن يدعو الناس إلى التوحيد يجب عليه أن يسقط كلّ الأصنام فى نفسه بالتكبير أوّلا،ثم يقدم نفسه نموذجا حقيقيّا لرسالته،فإنّ ذلك يعظّم اللّه و يكبّره فى نفوس الآخرين.

و من معانى تكبير اللّه أن يتجرد الفرد الرسالى فى دعوته لربه،فلا يتخذ رسالته و سعيه وسيله لتكبير أحد دونه،كالحكومات الجائره،أو الذات و العشيره و القوميه..كما يصنع علماء السوء الذين يتخذون الدين ذريعه لمصالحهم و تضخيم أنفسهم فى المجتمع.

الثانيه:تطهير الثياب.

وَ ثِیابَکَ فَطَهِّرْ

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار ج ۵۸ ص ۳۴.

۲- ۲) التفسير الكبير للرازى/ج ۳۰ ص ۱۹۱.

و يبدو أنّ الثياب هى عموم ما يتصل بشخصيه الإنسان ظاهريّا،و لذلك مصاديق ذكر المفسرون بعضها و منها:

١-اللباس،فإنّه يجب على الـداعيه الرسالى أن يهتم بأناقته و نظافته فى جوّ العمل الرسالى الحادّ،و ليس صـحيحا أن ينسـى مظهره بحجه خوضه الصـراع الاجتمـاعى و السياسـى،و التحـديات المضاده،و لا بـد أن يعلم بأنّ تصـرفاته و سـلوكه و مظهره كلّ ذلك مقياس عند البعض و دليل على شخصيته و من ثمّ رسالته.

و تطهير اللباس يعنى رفع النجاسه عنه،و مراعات القواعد الصحيه العامه، و هناك روايات فسّرت التطهير بأنّه تقصير الثياب كى لا تعلق النجاسات و الأوساخ الأرضيه بها،

قال الإمام على عليه السـلام :«ثيابك ارفعها لا تجرها » (۱)و عن طاووس:و ثيابك فقصّـر،قال الزجّاج:لأنّ تقصير الثياب أبعد من النجـاسه، فـإنّه إذا انجرّ على الأـرض لم يؤمن أن يصـيبه ما ينجسه (۲)،فـالغرض إذن أن لاـ يطـال الأرض،و ليس كما فهم بعض المتزمّتين الـذين راحوا يقصّـرون ثيـابهم إلى قريب الركبه!و قيل فى معنى تطهير الثياب: اتخاذها من الحلال دون الحرام لأنّه نوع من الطهاره (۳).

۲-الأـزواج،قال فى المجمع:و قيل معناه:و أزواجك فطهّرهنّ من الكفر و المعاصـى حتى يصـرن مؤمنات (۴)،و لعـل فى قول الله عـن الزوجـات:« هُنَّ لِبٰاسٌ لَكُمْ » (۵)إشـاره إلى هـذا المعنى،و مـن النـاحيه الـواقعيه فـإنّ أسـره الإنسـان و بالـذات زوجه مظهر لشخصيته كما الثوب.

۱- ۱) نور الثقلين ج ۵ ص ۴۵۳.

۲- ۲) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۸۵.

۳- ۳) المصدر.

۴- ۴) المصدر.

۵- ۵) البقره ۱۸۷.

۳-و قیل أنّ البدن من مصادیق الثیاب باعتباره ثوب الروح و وعائها،و قیل معناه:و نفسک فطهّر من الذنوب،و الثیاب عباره عن النفس (۱)،یقال:طاهر الثیاب أی طاهر النفس منزّه عن العیب،و دنس الثیاب أی خبیث الفعل و المذهب (۲).

و لعلّ التکبیر هو عنوان الطهاره الباطنیه و وسیلتها،و أمر الله بتطهیر الثیاب بعد الأمر بالتکبیر یهدینا إلی ضروره الطهارتین الباطنیه و الظاهریه عند الداعیه الرسالی،فإنّ الآخرین و بالذات المغرضین منهم قد لا یجدون ثغره فی رساله المؤمن و مبادئه و حتی شخصیته الذاتیه و لکنّهم یجدون بعض الثغرات فی مظاهره (ثیابه)یطعنونه من خلالها،و یشوّهون شخصیته و سمعه رسالته عبرها.

الثالثه:مقاطعه الباطل مقاطعه تامه و شامله:

وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ أی اقطع صلتک به.و اختلف فی الرجز فقیل:هو الأصنام و الأوثان عن ابن عباس،و قیل:المعاصی عن الحسن،و قیل معناه:جانب الفعل القبیح و الخلق الذمیم،و قیل معناه:أخرج حبّ الدنیا من قلبک لأنّه رأس کلّ خطیئه (۳)، و قیل:اهجر ما یؤدّی إلی العذاب (۴)،و قال الرازی:الرجز العذاب،قال الله تعالی:« لَئِنْ کَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ »أی العذاب،ثم سمّی کید الشیطان رجزا لأنّه سبب للعذاب،و سمّیت الأصنام رجزا لهذا المعنی،فعلی هذا القول تکون الآیه

۱- ۱) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۳۸۵.

۲- ۲) المنجد ماده ثوب.

۳- ۳) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۳۸۵.

۴- ۴) التبیان ج ۱۰ ص ۱۷۳.

داله علی وجوب الاحتراز عن کلّ المعاصی (۱)،و مثله صاحب الکشّاف و المیزان.و

عن جابر قال:سمعت رسول الله. صلی الله علیه و آله یقول: «هی الأوثان » (۲).

و کلّ ما ذکره المفسرون صحیح،إلاّ أنّه مصادیق لشیء واحد هو الباطل، و أظهر مفردات الرجز التی یجب علی الداعیه الرسالی مقاطعتها التالیه:

ألف:علی الصعید الفردی..العقائد و الأفکار الباطله،و الأخلاق و الصفات السیئه،و الممارسات و السلوکیات الخاطئه.

باء:و علی الصعید الاجتماعی..الفواحش ما ظهر منها و ما بطن،کالزنا و السرقه و شهاده الزور و ظلم الناس و أکل أموالهم بالباطل..و یدخل فی الرجز الاجتماعی مجالس البطّالین و رفاق السوء،فإنّهما یفسدان أخلاق المؤمن، و یؤثّران سلبا علی مسیرته.

جیم:و علی الصعید السیاسی..التعاون مع الطاغوت و الحکومات الفاسده، و الرکون إلی الظالمین،و هکذا الانتماء إلی التجمّعات السیاسیه المنحرفه، و الخضوع للقیادات الضاله و الجائره.

الرابعه:عدم المنّه علی اللّه بل الإحساس الدائم بالتقصیر تجاهه.

وَ لاٰ تَمْنُنْ تَسْتَکْثِرُ و المؤمن الصادق لا یتبع جهاده و سعیه بالمنّ و الاستکثار أبدا،ذلک لأنّه یعدّ عمله الصالح شرفا وفّقه الله إلیه،و أنّه الذی یستفید من العمل فی سبیل الله فی

۱- ۱) التفسیر الکبیر ج ۳۰ ص ۱۹۳.

۲- ۲) الدر المنثور ج ۶ ص ۲۸۱.

الـدنيا و الآـخره و ليس العكس،لأـنّه المحتـاج إلى اللّه و الفقير لرحمته،و إلى ذلـك أشـار القرآن بقوله تعالى: «قُلْ لاٰ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاٰمَكُمْ بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰاكُمْ لِلْإِيمٰانِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ» (1).ثم إنّ المـؤمن إنّمـا يعمـل صالحـا لينـال ثواب اللّه و رضوانه،و المنّ يبطل الأجر فلما ذا يمنّ على ربه؟

قال الإمام على عليه السلام يوصى مالك الأشتر لمّا ولّاه مصر:«و إيّاك و المن على رعيّتك بإحسانك..فإنّ المن يبطل الإحسان » (2).ثم كيف يمنّ المؤمن على ربه و هو يعلم بـأنّه لو لاـ فضـله و رحمته لمـا صـدر منه الإحسـان و لمـا اسـتطاع إليه سبيلا؟! و لكلمه«تستكثر»معنيان يهتدى إليهما المتدبر:

الأـول:لاـ تمنّ على اللّه باسـتكثار عملـك،قـال الرازى:لا تمنن على ربك بهـذه الأعمال الشاقّه كالمسـتكثر لما تفعله..و نقل عن الحسن قوله:لا تمنن على ربك بحسناتك فتستكثرها (3).

الثانى:لا تمنّ على اللّه فإنّ ذلك يزيـدك عملا صالحا و أجرا بعـد أجر،فإنّ أصل المنّ هو القطع،و الذى يمنّ على ربه عمله فى سبيله فإنّه لا يستزيد عملا، و السـبب أنّه حينئذ يشعر بالاكتفاء و الإشباع فلا يجد حاجه تدعوه إلى المزيد من السعى و الاستكثار من الخير.و على الصـعيد الاجتماعى فإنّ المنّ على الناس يـدعوهم إلى النفور من الـداعيه،كما أنّ عدمه يدعوهم للالتفات حوله بكثره.و مـا أكثر مـا منع المن و لاـ يزال الخير و التكامـل عن الكثير من الناس!أمّا المؤمنون المخلصون و الواعون فإنّهم لا يمنّون على اللّه أبدا لعلمهم بأنّ الإنسان مهما عمل صالحا فإنّه قليل بالنسبه إلى أهدافه،و بالنسبه للجزاء الذى سوف يؤجره ربّه به على

١- ١) الحجرات ١٧.
٢- ٢) نهج البلاغه كتاب ٥٣ ص ۴۴۴.
٣- ٣) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٩۴.

أعماله.

الخامسه:الصبر و الاستقامه فی طریق الحق.

وَ لِرَبِّکَ فَاصْبِرْ و هذه الآیه تکشف لنا طبیعه المسیره الرسالیه بأنّها ملیئه بالضغوط و المشاکل، لأنّها الطریق إلی الجنه التی حفّت بالمکاره،و یجب علی کل داعیه إلی اللّه و کلّ مجاهد أن یعی هذه الحقیقه و قد اختار الانتماء إلی حزب اللّه و العمل فی سبیله،و من ثمّ یعدّ نفسه لمواجهه کلّ التحدیات و المکاره بسلاح الصبر و الاستقامه.

إنّ الذی یتصور طریق الحق خالیا من الأشواک یخطئ فهم الحیاه و سنن التغییر.أ و لست ترید بناء کیان الحقّ علی إنقاض الباطل؟بلی.فأنت إذن فی صراع جذریّ مع الباطل بکلّ أثقاله و امتداداته..مع النظام الفاسد،و الطاغوت المتسلّط،مع الثقافه التبریریه،مع الاعلام التخدیری،مع التربیه الفاسده،مع العلاقات المتوتّره بین الناس..و بکلمه:مع تخلّف المجتمع الفاسد الذی تسعی لعلاجه،فلا بد أن تتوقّع ردّات الفعل المضاده،و الضغوط و التحدیات المتوالیه و المرکّزه فی طریقک.

و حیث یحتدم الصراع و یصعّد مرحله بعد مرحله تتضاعف التحدیات و الضغوط،الأمر الذی یضع الرسالی(فردا و حرکه)أمام خیارین:الهزیمه أو الصمود،و خیاره الأصیل هو الاستقامه،فیجب إذن أن یصبر لربه،و الذی یعنی عدّه أمور:

الأول:أن یجعل صبره خالصا لوجه اللّه،لا یرید إلاّ رضوانه و ثوابه.

الثانی:أن یستقیم علی الحق حتی لقاء ربه عزّ و جلّ،کما قال اللّه:« وَ اعْبُدْ

رَبَّکَ حَتّٰی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ » (۱)،فالصبر إذن لیس له حدّ کما یزعم البعض الذین یبرّرون هزیمتهم و تراجعهم،بل یجب أن یصبر المؤمن و یصبر حتی یلقی ربه.

الثالث:أن یصبر لحکم ربه و یسلّم لقضائه بعد أن یقوم بما ینبغی عمله ثم یترک الأمر للّه یقدّر فیه ما یشاء،و هذا معنی التسلیم للّه و التفویض إلیه،و هو درجه عالیه من الیقین تضمّد جراحات الداعیه،و تطمئنه بأنّ اللّه لیس بغافل عما یلاقیه، و هو رقیب علی کلّ شیء،و سوف ینتقم فی المستقبل من أعدائه،و تتضمّن الآیه تحذیرا موجّها إلی الکفّار و المعاندین بالانتقام،و هذا ما یفسّر العلاقه بینها و بین الآیات القادمه.

[۸-۱۰] فَإِذٰا نُقِرَ فِی النّٰاقُورِ فی المنجد:الناقور جمعه نواقیر،و هو العود أو البوق ینفخ فیه،و النقر هنا بمعنی النفخ،و کانت هذه الآله تستخدم قدیما لجمع الناس و الجیوش فی المناسبات، و الذی یقصد بالناقور فی هذه الآیه الصور،الذی ینفخ فیه إسرافیل مرّه فیصعق من فی السموات و الأرض،و أخری فیبعثون للحساب و الجزاء،و هو کهیئه البوق.

و قد اختلف المفسرون فی النفخه هذه هل هی الأولی أو الثانیه،فقوّی صاحب التبیان کونها الأولی،و قال:قیل:أنّ ذلک فی أول النفختین،و هو أول الشده الهائله (۲)،و قیل:أنّها النفخه الثانیه (۳).

و الأقرب عندی حمل النقر علی الإطلاق،فإنّ کلا النفختین عسیرتان علی الکافرین،فأمّا الأولی فإنّها تسلبهم ما فی أیدیهم من نعیم و حیاه،و أمّا الثانیه

۱- ۱) الحجر ۹۹.
۲- ۲) التبیان ج ۱۰ ص ۱۷۴.
۳- ۳) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۳۸۵.

فهی تبعثهم للوقوف بین یـدی جبّـار السـموات و الأـرض للحسـاب و الجزاء.و لا ریب أنّ النفخه التی یعقبها الحساب أعسـر من الأخری التی تمیت الناس فقط.

و قد یکون التعبیر مجازیا أیضا،بحیث یصیر النقر فی الناقور کنایه عن یوم الانتقام..کما نقول قرعت طبول الحرب.

فَذٰلِکَ یَوْمَئِذٍ یَوْمٌ عَسِـیرٌ* عَلَی الْکافِرِینَ غَیْرُ یَسِـیرٍ فهو یوم عسـر مطلق لا یسـر فیه علی الکافرین،أمّا المؤمنون فإنّهم مخصوصون بلطف اللّه و رحمته،ممّـا یهـدینا إلی أنّ الجزاء و الانتقام الإلهی قائم علی أساس الحکمه و التـدبیر الـدقیق.و من الآیتین مجموعه یتبیّن أنّ ذلک الیوم بذاته عسیر جدا لما فیه من أحداث و مواقف عظیمه لو لا أنّه تعالی ییّسره علی المؤمنین.

و حضـور ذلـک الیـوم فی وعی المـؤمنین،و بالـذات الطلائـع و القیـادات الرسـالیه الـذین یخوضـون الصـراع،و یواجهون آلاـف الضـغوط و التحـدیات،من شـأنه أن یثبّتهم علی الطریقه،و یصبّرهم علی الأذی فی جنب اللّه،إذ لا یخشون الفوت فیسـتعجلوا، بل هم علی یقین بـأنّ فی ضـمیر المسـتقبل یوم انتصـار علی الأعـداء و انتقام حتمیّ منهم للحق،و أنّ السبیل لـدفع عسـره تجرّع آلام الجهاد من أجل الحق،و الصبر للّه فی الحیاه الدنیا.

[۱۶/۱۱]و لیس بالضـروره أن یتحقّق هذا الوعد غدا أو بعد غد،و لیس صـحیحا أن نشـکّک فیه لو تأخّر عنا قلیلا و نترک الجهاد فی سبیـل اللّه،أو إنـذار الکفّار..کلاّ..فـإنّ تـدبیر الأـمور بیـد اللّه ذی الحکمه البالغه و العلم المحیط،و خطأ أن یعترض أحـد علی تقدیراته،بل یجب أن نسـلّم له تسـلیما مطلقا بأنّه یفعل ما فیه الخیر و الصـلاح،أمّا نحن فقاصرون عن إدراک حکمه کلّ قضاء و قدر،فلعلّه آخر طاغیه یتسلّط علی رقاب الناس،و یعیث الفساد فی الأرض،أو جعل أمر شعب من

الشعوب رهن أسره فاسده طاغيه يتوارثون الحكم و الظلم فليفعل ربنا ما يشاء مسلّمين بقضائه كما أمرنا بذلك و قال:

ذَرْنِی وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِیداً انّ حمل أمانه الرساله و من ثمّ مسئولیه الإنذار و التغییر واجب إنسانی شرعی، مکلّف به کلّ مؤمن،بل کلّ إنسان عاقل مستطیع،أمّا متی و کیف یتغیّر النظام الحاکم،و ینتصر أهل الحق علی حزب الشیطان،فإنّه أمر یختصّ به ربّ العزّه، و ما ینبغی لنا الإیمان به حکمته البالغه،و بذلک نزداد صبرا و استقامه.

و للآیه عده تفاسیر أهمها و أقربها:

الأول:أنّها وعید للکفّار،أی دعنی و إیّاه فإنّی کاف له فی عقابه،کما یقول القائل:دعنی و إیّاه،و عن مقاتل:معناه:خلّ بینی و بینه فأنا أفرد بهلکته (۱).

الثانی:أنّها إشاره إلی أصل خلقه الإنسان،فمعناه:دعنی و من خلقته فی بطن أمّه وحده لا مال له و لا ولد (۲)،شبیه قوله تعالی:« وَ لَقَدْ جِئْتُمُونٰا فُرٰادیٰ کَمٰا خَلَقْنٰاکُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ » (۳)،و فی ذلک إشاره لطیفه إلی أنّه تعالی سوف یسلب منه ما أعطاه من النعیم،فهو فی الأصل کان وحیدا جاء إلی الدنیا لا شیء معه،فمنّ اللّه علیه بالأموال الممدوده و البنین الشهود.

الثالث:أنّها طعن فی نسب الولید بن المغیره بصوره خاصه إذ کان مجهول

۱- ۱) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۳۸۷.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) الأنعام ۹۴.

الوالد،

فعن زراره و حمران و محمّد بن مسلم عن الإمام الصادق علیه السلام قال :«إنّ الوحید ولد الزنا » (۱)،و

قال زراره :ذکر لأبی جعفر-علیه السلام-عن أحد بنی هشام أنّه قال فی خطبته:أنا ابن الوحید(یعنی المتمیّز المنقطع عن النظیر، و هکذا کان هذا الأموی یفتخر بالولید الذی لعنه اللّه من فوق عرشه)،فقال الباقر علیه السلام:«ویله لو علم ما الوحید ما فخر بها»فقلنا له:و ما هو؟!قال:«من لا یعرف له أب » (۲).

و قیل معناه:دعنی و من خلقته متوحدا بخلقه لا شریک لی فی خلقه..هکذا فی مجمع البیان و التفسیر الکبیر (۳)،و عن أبن عبّاس:کان الولید یسمّی الوحید فی قومه (۴)،قال الفخر الرازی:و کان یلقّب بالوحید،و کان یقول:أنا الوحید بن الوحید،لیس لی فی العرب نظیر،و لا لأبی نظیر،فالمراد« ذَرْنِی وَ مَنْ خَلَقْتُ » أعنی«وحیدا»و طعن کثیر من المتأخرین فی هذا الوجه،و قالوا:لا یجوز أن یصدّقه اللّه فی دعواه:أنّه وحید فی هذا الأمور..ذکر ذلک الواحدی،و الکشّاف،و ردّ علیه ثلاثه ردود (۵).

و لقد کان الولید بن المغیره من طغاه الجاهلیه المترفین،الذین أقبلت علیهم الدنیا بزینتها(المال و البنون)کما وصف اللّه بقوله:

وَ جَعَلْتُ لَهُ مٰالاً مَمْدُوداً و ما دام اللّه هو الذی جعله فإنّه قادر علی سلبه و الذهاب به، لأنّه لم یجعله إلاّ

ص:۷۵

۱- ۱) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۳۸۷.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) راجع مجمع البیان ج ۱۰ ص ۳۸۷ و التفسیر الکبیر ج ۳۰ ص ۱۹۸.

۴- ۴) المصدر الأول.

۵- ۵) التفسیر الکبیر ج ۳۰ ص ۱۹۸.

لحكمه بالغه.و المال الممدود هو الكثير و المتنامى،قال الطبرسى فى المجمع:ما بين مكه إلى الطائف من الإبل المؤبّله-المجمّعه-و الخيل المسوّمه،و النعم المرحله، و المستغلّات التى لا تنقطع غلّتها،و الجوارى و العبيد و العين الكثيره،و قيل:الذى لا تنقطع غلّته عن سنه حتى يدرك غلّه سنه أخرى فهو ممدود على الأيّام،و كان له -يعنى الوليد-بستان بالطائف لا ينقطع خيره فى شتاء و لا صيف (۱).

وَ بَنِينَ شُهُوداً إذا كان له عشره أولاد«شهودا»حضورا معه بمكه،لا يغيبون لغناهم عن ركوب السفر للتجاره (۲).و قد كانت كثره الأولاد-الذكور بالذات-تعدّ من أكبر النعم فى ذلك العصر بالخصوص بسبب العادات و الظروف الاجتماعيه و الأمنيه الحاكمه.أضف إلى ذلك أنّ مشيهم مع والدهم و سيدهم يعطيه عزه و هيبه بين الناس،فكيف إذا كان نفسه شيخ عشيره و صاحب جاه و ثروه؟!و إلى هذا المعنى أشار الرازى فقال:إنّهم رجال يشهدون معه المجامع و المحافل (۳).

و كلمه«بنين»شامله تتسع لأكثر ممّا تتسع إليه كلمه الأولاد،فهى تشمل الأولاد من الصلب،و الأولاد بالتبنّى،و الأتباع،لأنّ بين التابع و المتبوع علاقه التبنّى ذات الطرفين،و ما أكثر أولئك المصلحيّين الذين تحلّقوا حول الوليد،و لا يزالون يتبعون المترفين طمعا فى أن يصيبهم فتات من طعامهم.

ثم أنّه تعالى حيث أراد به كيدا فتح عليه أبواب الخيرات كى يلقاه فى الآخره و ما له من خلاق، فبالإضافه لنعمتى المال الممدود و البنين الشهود بسط له من فضله ما مهّد به سبل العيش الرغيد و ذلل العقبات.

۱- ۱) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۸۷.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) التفسير الكبير ج ۳۰ ص ۱۹۸.

وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً قال فى المنجد:مهّد الفراش:بسطه و وطّأه،و الأمر سوّاه و سهّله و أصلحه،و تمهّد الرجل:تمكّن،و المهده جمعها مهد و هى ما انخفض من الأرض فى سهوله و استواء (۱)بحيث يتمكّن الناس من المشى عليها بسهوله و راحه.

و على مثل هذا أجمع المفسرون،قال الرازى:أى و بسطت له الجاه العريض و الرياسه فى قومه،فأتممت عليه نعمتى المال و الجاه،و اجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا،و لهذا يدعى بهذا فيقال:أدام اللّه تمهيده،أى بسطته و تصرّفه فى الأمور (۲)،و من التمهيد صحه البدن و راحه البال و ما أشبه.و المفعول المطلق «تمهيدا»يفيد التأكيد و المبالغه فى الاستغراق.

و كانت هذه النعم داعيه إلى الشكر و الإيمان لكلّ عاقل و صاحب ضمير حى، فهى بمثابه عامل يعبّد طريق الهدايه للإنسان و يمهّده له لو تفكّر و عقل،و لكنّ الوليد كان مريض القلب،و لذلك كان يزداد ضلالا و إصرارا على الكفر بنسبه طرديه كلّما توالت عليه النعم،و السبب أنّ غير المؤمن يقف عند حدّ الدنيا،و تسيطر عليه الروح الماديه بحيث يصبح جمع حطامها هدفا بذاته،فإذا به يفكّر فى الاستزاده بدل العمل على الشكر لصاحب النعمه.

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ أمّا المؤمن فإنّه يتطلّع عند كلّ نعمه إلى توفيق الشكر و أداء حقّها للّه و إلى الناس،و

صدق رسول اللّه صلى الله عليه و آله حينما قال فى حقّ طالب الدنيا :«منهومان لا يشبع طالبهما:طالب العلم،و طالب الدنيا » (۳)

«فاما طالب العلم فيزداد رضى

۱- ۱) المنجد ماده مهد بتصرف.

۲- ۲) التفسير الكبير ج ۳۰ ص ۱۹۹.

۳- ۳) كنز العمّال ح ۳۸۹۳۲.

الرحمن،و اما طالب الدنيا فيتمادى فى الطغيان » (۱)و

بئس العبد عبد له طمع يقوده إلى طبع) (۲)(أى طبع قلبه بالرين)، و

صدق الإمام على عليه السلام إذ قال :«أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع » (۳)و إنّما أعشى قلب الوليد تقادم الخير عليه و طمعه فى زيادته،و إنّه لمكر اللّه بالمترفين،الذى يزيدهم ضلالا عن الحق،و خساره فى الدنيا و الآخره،فلا يشكر ربه و لا هو يصل إلى غايته(الزياده)لأنّ توسيع اللّه على أحد ليس مطلقا أبدا بل له حدّ و قيد،و ليس خارجا عن سننه و قوانينه فى الحياه، فكيف يزيد من لا يؤدّى شكر النعمه و هو القائل:« لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِي لَشَدِيدٌ » (۴)؟!قال صاحب التبيان:أى لم يشكرنى على هذه النعم،و هو مع ذلك يطمع أن أزيد فى إنعامه و التمهيد و التوطئه و التذليل و التسهيل.

كَلاّٰ أى لن يكون ذلك أبدا،فهذه كلمه تفيد النفى القاطع و العنيف،و السبب هو عناده للآيات الربّانيه.

إِنَّهُ كٰانَ لِآيٰاتِنٰا عَنِيداً و معاندتها يمنع الزياده لسببين:

الأول:السبب الغيبى،فإنّه تعالى يدافع عن رسالاته و آياته،و ينتقم للحق من جاحديه،بالإهلاك و الاستئصال تاره،و بالقحط و سلب البركه تاره أخرى.

الثاني:السبب الظاهر و ذلك أنّ آيات اللّه هى النهج القويم الذى يهدى

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار ج ۱ ص ۱۸۲.

۲- ۲) المصدر ج ۷۷ ص ۱۳۵.

۳- ۳) المصدر ج ۷۳ ص ۱۷۰.

۴- ۴) إبراهيم ۷.

الإنسـان إلى كـلّ خير مـادى و معنوى،و يأخـذ بيـده إلى الرفاه و النموّ الاقتصادى لو عمل بها و طبّقها فى حياته،و حيث يعانـدها الكفّار و مرضـى القلوب فكيف يستزيدون،و كيف توطّأ لهم سـبل العيش،و تمهّد أسـباب السـعاده؟!قال المفسرون:و لم يزل فى نقصان-يعنون الوليد-بعد قوله:«كلاّ»حتى افتقر و مات فقيرا (۱)،و قال العلاّمه الطبرسى عند تفسيره للآيه:أى لا يكون كما ظن،و لا أزيده مع كفره (۲)،و إلى مثله ذهب الزمخشرى فى الكشّاف.

و العناد مرحله من الكفر و النفور تشـبه الجحود،فإنّ الإنسان حينما يكفر بالحق يكفر تاره لأنّه لمّا تتوفّر الآيات الدالّه عليه،أو لأنه يكفر للتهرب من مسـئوليه الإيمـان به،و لكنّه يكفر تاره بلا مبرّر سوى محاربه اللّه و الاسـتهزاء بآياته و هـذا هو العناد..أو تأخـذه العزّه بالإثم،و يخلط بين الأمور كأن يكفر بالإسـلام و القرآن لصـراع شخصـىّ بينه و بين الـداعيه إلى اللّه،قال الرازى: و قوله:«إنّه كان»يدل على أنّه من قديم الزمان كان على هذه الحرفه (۳).

[۳۱-۱۷]و معانده آيات اللّه و من ثمّ محاربته ليس تمنع عن العنيد النعمه و الخير و حسب،بل و تؤدّى به إلى الشر و العذاب فى دنياه و آخرته.

سَـأُرْهِقُهُ صَـعُوداً أى سـأجعله يتكلّـف الصـعود حـتى يرهـق إرهاقـا شديـدا،و الصـعود كنـايه عن المشـقّه،ففى التحقيق نقلا عن التهذيب:و يقال لأرهقنك صعودا،أى لأجشّمنّك مشقه من الأمر،لأنّ الارتفاع فى صعود أشق من الانحدار فى هبوط،و منه اشتق

۱- ۱) التفسير الكبير ج ۳۰ ص ۱۹۹.

۲- ۲) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۸۷.

۳- ۳) التفسير الكبير ج ۱۰ ص ۱۹۹.

تصعّد فی ذلک الأمر أی شقّ علیه (۱).

و لا ریب أنّ من یعانـد آیات اللّه و شـرائعه ثم یتبع هواه و شـرائع البشـر فإنّه سـیلاقی أنواع المصاعب و المشاکل باعتباره یسـبح خلاف قوانین اللّه و سـنن الطبیعه، فهو علی شبه ممّن یصعد الجبال الرفیعه الوعره یرهقه الصعود.أ تری کم لقیت و لا تزال تلاقی أمتنـا الإسـلامیه من العقبـات کالتمزق و الظلم و التخلف الحضاری حینما هجرت کتاب ربها؟فهی إذا حقیقه واقعیه یواجهها کلّ من یعاند آیات ربه فردا أو مجتمعا أو أمه و فی الجانبین المادی و المعنوی.

و لا ینتهی الأمر عنـد هـذا الحد،بل یمتد العذاب إلی الآخره و یتجلّی بصوره أشد و أکثر و أوضح حیث یتبیّن للمعاندین خطأهم الکبیر فی صوره جبل مخیف من العذاب،

قال الإمام الصادق علیه السـلام : «صعود جبل فی النار من نحاس یحمل علیه (الکافر)لیصعده کارها،فإذا ضرب بیدیه علی الجبل ذابتا حتی تلحق بالرکبتین،فإذا رفعهما عادتا،فلا یزال هکذا ما شاء اللّه » (۲)،و

فی فتح القدیر عن النبی صـلی الله علیه و آله قال :«الصـعود جبل فی النار یصـعد فیه الکافر سـبعین خریفا ثم یهوی،و هو کذلک فیه أبدا » (۳)،و

عن الإمام الباقر-علیه السـلام-قال :«إنّ فی جهنم جبلا یقال له صـعود،و إنّ فی صعود لوادیا یقال له سقر،و إنّ فی سقر لجبّا یقال له هبهب،کلّمـا کشف غطاء ذلـک الجب ضـجّ أهل النار من حرّه، و ذلک منازل الجبّارین » (۴)،و یقال للألم الـذی یصل إلی الرأس صعود لأنّه یرتفع إلیه و لأنّه شدید أثره،و ربما تتسع الکلمه إلی معنی التزاید فإنّ العذاب الإلهی فی تصاعد مستمر.

ص:۸۰

۱- ۱) التحقیق فی کلمات القرآن ج ۶ ص ۲۷۳.
۲- ۲) تفسیر البصائر ج ۵۰ ص ۴۳۰.
۳- ۳) فتح القدیر ج ۵ ص ۳۲۹.
۴- ۴) تفسیر البصائر ج ۵۰ ص ۴۳۰ عن روضه الواعظین.

و يبين القرآن السبب الرئيسيّ الآخر الذی يؤدّی بالإنسان إلی الشقاء و العذاب فی الحياه و هو أولا:فقدانه برکه رسالات اللّه و آياته،و ثانيا:اتباعه المناهج البشريه الضاله،و اعتماده علی فکره الضّحل و تقديره الخاطئ.

إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ و التفکير هو تقليب وجوه الرأی،بينما التقدير هو تحويل التفکير إلی خطه بعد الدراسه،يقال فکّر فی الأمر و تفکّر،إذا نظر فيه و تدبّر،ثم لمّا تفکّر رتّب فی قلبه کلاما و هيّأه،و هو المراد من قوله:«و قدّر» (1)، و فی تفسير الميزان قال العلاّمه الطباطبائی:و التقدير عن تفکير نظم معانی و أوصاف فی الذهن بالتقديم و التأخير، و الوضع و الرفع لاستنتاج غرض مطلوب،و قد کان الرجل يهوی أن يقول فی أمر القرآن شيئا يبطل به دعوته (2).و لقد توهّم الوليد بتفکيره و تقديره أنّ تهمه السحر ستدحض الحق..و ليس الأمر کذلک.

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ و لقد ذمّ اللّه تفکيره لأنّه فکّر فکرا يحتال به للباطل،و لو فکّر علی وجه طلب الرشاد لم يکن مذموما بل کان ممدوحا (3)،لأنّ التفکير و التخطيط بإعمال العقل علی ضوء المعلومات و المعطيات أمر حسن بذاته،و إنّما جاءت رسالات اللّه و بعث الأنبياء لغرض إصلاح الناس و هدايتهم باستثاره العقول.

بلی.إنّ العقل بذاته وسيله خير و صلاح،و هو يعمل لصالح الإنسان،و لکن بشرط أن يکون خياره الأول صحيحا،أمّا لو اختار الباطل ثم استثار عقله فی هذه

1- 1) التفسير الکبير ج 30 ص 200.

2- 2) الميزان/ج 20 ص 86.

3- 3) التبيان ج 10 ص 177 بتصرف.

القناه فلن يجنى من تفكيره و تقديره سوى الضـلال و العذاب،و يسـمّى ذلك بالمكر و هى حيل الشيطان،و هكذا الفكر،و ذلك أنّه سـلاح ذو حـدّين،يكون تـاره لصالـح صـاحبه و خير البشـريه إذا كان قائما على أساس العقل،و يكون أخرى أداه لـدمارها و وسيله لإشعال الحروب،كما تفعل خبرات القوى الاستكباريه فى هذا العصر.

إنّ الإنسان قادر على نيل الحياه بالتفكير و التقدير إذا اختار مسـبقا هدفا نبيلا و اتخذ فكره وسـيله لتحقيقه، فالمهم ليس أن تفكّر و تقـدّر بل الأهم لما ذا تمارس التفكير و التقدير،و إلى ذلك يوجّهنا القرآن بطرح السؤال:«كيف قدّر»مكرّرا؟ و يصف علىّ بن إبراهيم القمّى حاله الوليـد عند ما فكّر و قدّر و يقول:نزلت فى الوليد بن المغيره و كان شـيخا كبيرا مجرّبا من دهاه العرب،و كان من المستهزئين برسول اللّه صلى الله عليه و آله ،و

كـان رسـول اللّه صـلى الله عليه و آله يقعـد فى الحجره و يقرأ القرآن فـاجتمعت قريش إلى الوليـد بن المغيره،فقـالوا:يـا أبـا عبد الشـمس ما هذا الذى يقول محمد أشعر هو أم كهانه أم خطب؟فقال:دعونى أسمع كلامه،فدنا من رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال:يا محمد أنشدنى من شـعرك،قال:«ما هو شـعر،و لكنّه كلام اللّه الذى ارتضاه لملائكته و أنبيائه»فقال:اتل علىّ منه شيئا،فقرأ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله حم السـجده،فلمّا بلغ قوله« فَإِنْ أَعْرَضُوا (يا محمّـد أعنى قريشا) فَقُلْ (لهم) أَنْـذَرْتُكُمْ صٰاعِقَةً مِثْلَ صٰاعِقَةِ عٰادٍ وَ ثَمُودَ »فاقشعرّ الوليد،و قامت كلّ شعره فى رأسه و لحيته،و مرّ إلى بيته و لم يرجع إلى قريش من ذلك،فمشوا إلى أبى جهل فقالوا:يا أبا الحكم إنّ أبا عبد الشـمس صبا إلى دين محمد أ ما تراه لم يرجع إلينا؟فغدا أبو جهل فقال له:يا عم نكست رؤوسـنا و فضـحتنا و أشـمتّ بنا عدوّنا و صبوت إلى دين محمد،فقال:ما صبوت إلى دينه،و لكنى سمعت منه كلاما صعبا تقشعرّ منه الجلود، فقال أبو جهل:أ خطب هو؟قال:لا.إنّ الخطب كلام متصل و هذا كلام منثور

و لاـ يشبه بعضه بعضا،قال:أ فشعر هو.؟قال:لا.أما أنّى قد سمعت أشعار العرب بسيطها و مديدها و رملها و رجزها و ما هو بشعر،قال:فما هو؟قال:دعنى أفكّر فيه،فلمّا كان من الغد قالوا:يا أبا عبد الشمس ما تقول فيما قلناه؟قال:

قولوا هو سحر فإنّه أخذ بقلوب الناس (۱). لقد انتهى به تفكيره القائم على أساس العناد إلى هذه النهايه الخاطئه،فتفوّه بهذا الباطل،و كان من الممكن أن يوصله العقل إلى ساحل الأمن و الهدى،و لكنّه لم يفكّر و يقدّر حينما فكّر و قدّر بمنهجيه موضوعيه و منطلقات سليمه،إنّما مارس كلّ ذلك بهدف تضليل الآخرين،و تبرير ما هو عليه من الباطل و الضلال لنفسه أمام وجدانه أولا ثم للناس المغرورين به، فأوقع نفسه فى الشقاء،و استحقّ بذلك اللعنه و العذاب.

ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ و تكرار اللعنه بالقتل عليه دلاله على استحقاقه ضعفا من العذاب،الأول على عناده الآيات الربانيه،و الآخر على اتباعه هواه و بنات فكره بدل تشريع اللّه،أو يكون أحدهما جزاء التفكير المنحرف،و الثانى جزاء التقدير الخاطئ.قال العلاّمه الطبرسى:هذا تكرير للتأكيد،أى لعن و عذّب،و قيل:لعن بما يجرى مجرى القتل،و قيل:معناه لعن على أىّ حال قدّر ما قدّر من الكلام،كما يقال:

لأضربنه كيف صنع،أى على أىّ حال كان عليه (۲).

بلى.إنّ الناقد المنصف لا يستطيع إلاّ التسليم بصدق الرسول،و أنّ الرساله حق،و لكنّ الوليد و أمثاله من المترفين و أعداء الحق لم يكونوا كذلك،بل سعوا إلى الانتقاد عبر منهجيه خاطئه تتركّز على العزّه بالإثم،و المواقف العدائيه السابقه،

۱- ۱) تفسير القمى ج ۲ ص ۳۹۳.

۲- ۲) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۸۸.

و هـذه من المؤثرات السـلبيه على نـتيجه أىّ بحث و تفكير،و لعـلّ السـبب يعود إلى حـالتهم الاجتمـاعيه إذ هم من المسـتكبرين الـذين يبنون كيـانهم على أسـاس الظلم و اسـتثمار المحرومين و قهر المستضـعفين،فـأنّى لهم القبول بقيـاده ربّانيه تفتخر بأنّها من الفقراء،و تسعى من أجل إسعاد المحرومين،و تحرير المستضعفين من نير المترفين.

ثُمَّ نَظَرَ و الأقرب أنّ النظر هنا بمعنى إعمال الفكر و البصر،فإنّ الطغاه المستكبرين حينما يريدون تضليل الناس عن الحق يفكّرون و يقدّرون أولا ثم ينظرون مفتّشـين عن ثغرات و أساليب لبثّ أفكارهم و تقديراتهم و نشـرها بين الناس،فوسائل الاعلام المضلله من إذاعات و تلفزه و صـحافه و حتى وسائل التثقيف و التربيه التى تروّج ثقافه الباطل،و تبثّ الإشاعات ضـد المؤمنين و القيادات الرساليه..إنّها لا تتحدث اعتباطا،بل هناك وراء القناع خبراء إعلاميون و نفسيون و سياسيون و..و..

يخطّطون للتضـليل،و هـذه سـمه للأنظمه الفاسده..فإلى جانب فرعون كان هامان و جنود كثيرون متخصـصون فى كلّ فى جانب من الجوانب،و من قصه قريش و أبى جهل مع الوليد يتضح أنّه من قياداتهم و عقولهم المدبّره،و هناك إشارات إلى هذا التفسـير وجـدتها لـدى بعض المفسـرين ففى البصائر:أى نظر فى وجوه قومه (۱)،و فى الميزان:أى ثـم نظر بعـد التفكير و التقـدير نظر من يريد أن يقضى فى أمر سئل أن ينظر فيه (۲).

و بعـد أن اختمرت الفكره الشـيطانيه فى رأسه بـدأ حركته نحو الإنتاج و الإخراج كى تكون أمضـى أثرا فى نفوس الآخرين،فإذا بكلّ ملامحه مشحونه بأمارات الحقد

۱- ۱) البصائر ج ۵۰ ص ۳۶۲.

۲- ۲) الميزان ج ۲۰ ص ۸۷.

و الغيظ على الرساله و الرسول صلى الله عليه و آله .

ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ و هذه المظاهر الخارجيه و أخرى غيرها ملامح لحالات نفسيه من الحقد و العناد يعكسها القرآن بأسلوبه التصويرىّ البديع،و إنّها لطبيعه فى الإنسان أن تبدو على مظهره علامات مخبره بحيث يقول علماء النفس أنّك تستطيع قراءه داخل الإنسان بمظاهره،و

فى الحديث الشريف قال أمير المؤمنين عليه السلام :«ما أضمر أحد شيئا إلاّ ظهر فى فلتات لسانه و صفحات وجهه » (۱).

قال القمى:العبوس للوجه،و البسور إلقاء الشدق (۲)،و عن قتاده قال:قبض ما بين عينيه و كلح (۳)،و فى فقه اللغه للثعالبى:إذا زوى ما بين عينى الرجل فهو قاطب عابس،فإذا كشّر عن أنيابه مع العبوس فهو كالح،فإذا زاد عبوسه فهو باسر مكفهر (۴)،و ذكر اللغويون الاستعجال كواحد من معانى البسور يقال:بسر الغريم أى تقاضاه قبل الأجل،و بسر الدمّل:عصره قبل نضجه،و بسر الفحل الناقه قبل الضبعه أى قبل أن تطلب اللقاح (۵)،فكان الباسر فى وجه أحد يستعجل به الأذى و الشر،و بذلك قال الراغب فى مفرداته (۶).

و قد تعبّر عن العبوس و البسور المفردات و التصرفات التى تصدر عن الإنسان بقلمه و فيه و مواقفه،فالطاغوت قد يعبّر عن عبوسه و بسوره وجهه،و قد تظهر فى قمعه

۱- ۱) نهج البلاغه حكمه ۲۶ ص ۴۷۲.

۲- ۲) تفسير القمى ج ۲ ص ۳۹۴ بتصرف.

۳- ۳) الدر المنثور ج ۶ ص ۲۸۳.

۴- ۴) فقه اللغه للثعالبى ص ۱۴۰.

۵- ۵) البصائر ج ۵۰ ص ۲۸۰ و إلى مثله ذهب صاحب المنجد.

۶- ۶) مفردات الراغب ماده بسر.

الجنونی للمعارضه و الجماهیر،و ما یقصّه القرآن الکریم عن الولید بن المغیره لیس إلاّ شاهدا علی طبیعه الموقف الذی یتخذه المترفون فی کلّ مکان و زمان ضد الدعوات الإصلاحیه،فإنّهم باعتبارهم بؤره الفساد فی المجتمع أول المتضررین بهذا التغییر، و لهذا یکونون طلیعه المعارضه للحق.

ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَکْبَرَ بلی.إنّه فکّر فی الموقف من الرساله،کان یرید الوصول إلی أفضل طریقه للمعارضه و التضلیل..بل و تبریر کفره أمام عقله و ضمیره،و لکنّه کلّما أعمل فکره و نظره کلّما تجلّت له الحقیقه و عاد بصره خاسئا و هو حسیر،و کان من المفروض أن یقبل علی الإیمان بالحق،و یتواضع له عن مراتب النفور و الاستکبار و الاعتزاز بالإثم،إلاّ أنّه أصرّ علی الکفر من لحظته الأولی فازداد إدبارا،و حیث اختار موقف الکفر فکّر مره أخری لتبریر موقفه من الحقّ المبین،فما وجد تهمه أصلح-فی نظره-من قذف الرساله بالسحر.

فَقالَ إِنْ هٰذا إِلاّٰ سِحْرٌ یُؤْثَرُ و لکلمه«یؤثر»هنا معنیان ربما أرادهما السیاق معا:

الأول:ینقل عن الآخرین،و قد اتفق أکثر المفسرین علیه،أی یؤثره عن غیره من القوی القادره علیه کالسحره و الشیاطین،من قولهم:اثرت الحدیث اثره أثرا إذا حدّثت به عن قوم فی آثارهم،و منه قولهم:حدیث مأثور عن فلان.

الثانی:تمیل إلیه النفوس و تفضّله علی غیره،قال فی المجمع:و قیل هو من

الإیثار،أی سحر تؤثره النفوس،و تختاره لحلاوته فیها (۱)،و بذلک سعی الطاغیه للتقلیل من شأن أمرین مهمّین:أحدهما:معجزه القرآن العظیمه بظاهره و محتواه، و الآخر:ظاهره الاستجابه للرساله الجدیده و الدخول فی دین الرسول،و من ثمّ کان الولید-کما هو حال أیّ طاغیه و مترف-یسعی لتحقیق عده أهداف خبیثه من وراء هذه الشائعه الضاله:

۱-تبریر هزیمتهم فی الصراع المبدئی و الحضاری مع الإسلام بقیمه و قیادته و حزبه.

۲-تضلیل الناس عن الحق و وضع حدّ لزحفهم باتجاه الدخول فی الدین الجدید.

و قد جعل تهمه القرآن بالسحر مدخلا إلیه لحلّ عقده تواجه کلّ من یحارب الذکر الحکیم،ألا و هی أنّ آثار الحکمه و العلم الإلهیه واضحه فی آیاته.و إنّها لتهدی کلّ ذی لبّ منصف إلی کونها متنزّله من عند ربّ العزه،و باعتراف الولید نفسه حینما قال:سمعت منه-یعنی الرسول صلی الله علیه و آله -کلاما صعبا تقشعرّ منه الجلود..لا خطب و لا شعر،فمستحیل إذن أن ینسبه إلی المخلوقین من دون مقدّمه، فالمسافه بینه و بین کلام المخلوقین لا تحدّ و فضله علیه لا یوصف،و هو کفضل اللّه علی سائر خلقه..و من هذه المقدمه انطلق إلی ما أراد قوله بالضبط.

إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ قَوْلُ الْبَشَرِ فمتی ما أوصل هذه القناعه إلی أذهان الناس تقدّم خطوات أساسیه فی الصراع ضد الرساله الربانیه فی زعمه،و من أجل هذا الهدف جنّد طاقاته..ففکّر و قدّر..

۱- ۱) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۳۸۸.

أنّه يستطيع إلى ذلك سبيلا،و غاب عنه أنّ معجزه القرآن أعظم من أن يحجب نورها تقدير الإنس و الجن لو تظاهروا،فكيف بجاهل سفيه كالوليد بن المغيره؟! « ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ »؟! من هنا فشلت كلّ جهوده و مساعيه الراميه إلى تضليل الناس عن الحقّ و حجبهم عن نوره،بل و حكم على نفسه بتفكيره و تقديره الخاطئين بالخساره و باللعنه التى خلّدها القرآن فى الأجيال بعد الأجيال فى الدنيا،و جرّ نفسه إلى الهلاك و العذاب المهين فى الآخره،و أعظم منه غضب اللّه الذى توعّده بسقر فقال:

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ قال فى التبيان:أى ألزمه جهنم،و الاصطلاء إلزام موضع النار..و أصله اللزوم (1)،و صلى الكفّار بالنار جعلها أكثر و أشد مساسا بهم،

قال الإمام الصادق عليه السلام :«ان فى جهنم لواديا للمتكبرين يقال له سقر،شكا إلى اللّه عزّ و جلّ حرّه،و سأله أن يأذن له أن يتنفّس فتنفّس فأحرق جهنم » (2)،و عن ابن عباس قال:سقر أسفل الجحيم،نار فيها شجره الزقوم (3)،و إنّها من رهبتها و ما تتميّز به من الصفات لا يستطيع بشر أن يتصوّر مداها و يعى حقيقتها.

وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا سَقَرُ و فى هذه الصيغه استثاره للإنسان نحو السعى إلى المعرفه و لو بصوره إجماليه، و القرآن يبيّن بعض صفات سقر فيقول:

لاٰ تُبْقِي وَ لاٰ تَذَرُ

1- 1) التبيان ج 10 ص 180.

2- 2) نور الثقلين ج 5 ص 457.

3- 3) الدر المنثور ج 6 ص 283.

قيـل:لاـ تبقيهـم أحيـاء فهى تميتهم،و لاـ تـترك لأبـدانهم أثرا فهى لاـ تـذرهم،أى أنّ لهـا أثرين:الأـول على الروح،و الآـخر على الجسم،و قيـل:أنّ الكلمتين مترادفتين فى المعنى مختلفتين فى الـدرجه و الأـثر،و ذكرهمـا معـا يفيـد المبالغه و التأكيـد،و قال فى التبيان:قيل:لا تبقى أحـدا من أهلها إلا تناولته،و لا تـذره من العـذاب (١)،و فى الميزان قـال العلاّمه الطباطبائى:لا تبقى شـيئا ممّن نـالته إلاّ أحرقته،و لا تـدع أحـدا ممّن ألقى فيها إلاّ نالته،بخلاف نار الـدنيا التى ربما تركت بعض ما ألقى فيها و لم تحرقه (٢)،و عن مجاهـد قال:لا تحيى و لا تميت (٣)،و اسـتدل صاحب الميزان على هذا الرأى بقوله تعالى:« اَلَّذِی یَصْلَی النّٰارَ الْکُبْریٰ* ثُمَّ لاٰ یَمُوتُ فِیهٰا وَ لاٰ یَحْییٰ » (۴)،و الأقرب عندى أنّ معنى«لا تبقى»لا تدع أحدا من الناس الذين فيها باقيا بل تفنيهم جميعا،و معنى«لا تـذر»أى لا تـذر شـيئا من أىّ واحـد منهم، فالأول يشـمل كلّ من فيها،و الثانى يتسع لكلّ جزء ممّن فيها،و هو أعظم،و هذه -فيما يبدو لى-صـفه النار مع قطع النظر عن صـفه جهنم التى يجدّد اللّه فيها ما تحرقه النار،فلا منافاه بينها و بين قوله سـبحانه« لاٰ یَمُوتُ فِیهٰا وَ لاٰ یَحْییٰ »إذ الحديث عن النار هنا جاء بقدر فهمنا لها و حسب مقاييسـنا.و لعل من المعانى:أنّ سـقر من حيث شده العذاب و نوعيته لا تبقى من يلقى فيها،و من حيث المده و الملازمه فإنّها لا تترك أهلها أبدا،و هذا يهدينا إلى أنّ أهلها من الخالدين فى العـذاب،فلاـ تترك سـقر أهلهـا بـل يبقون خالـدين فى العـذاب،لأـنّ الاـحتراق هناك ليس احتراقا عاديا و إنّما هو احتراق يشـبه الاحتراق الذرى الذى لا ينتهى،و اللّه العالم.

و صفه أخرى لسقر هو تلويحها أهلها.

١- ١) التبيان ج ١٠ ص ١٨٠.

٢- ٢) الميزان ج ٢٠ ص ٨٨.

٣- ٣) الدر المنثور ج ۶ ص ٢٨٣.

۴- ۴) الأعلى ١٣/١٢.

لَوّٰاحَةٌ لِلْبَشَرِ فی المنجد:ألاح فلانا أهلکه (۱)فهی المهلکه للبشر،و یقال:لوّح فلانا بالعصا و السیف و السوط و النعل:علاه بها و ضربه (۲)،و قیل:المعطشه،تقول العرب:

إبل لوحی،و رجل ملواح أی سریع العطش،و یقال لمن ضربته الشمس و غیّرت لونه لوّحته تلویحا،و کأنّ سقر من حرارتها تغیّر جلود أهلها و وجوههم.

و حین یرد المجرمون وادی سقر یستقبلهم ملائکه غلاظ شداد..هم مالک و ثمانیه عشر،أعینهم کالبرق الخاطف،و أنیابهم کالصیاصی،یخرج لهب النار من أفواههم،ما بین منکبی أحدهم مسیره سنه،تسع کفّ أحدهم مثل ربیعه و مضر، نزعت منهم الرحمه،یرفع أحدهم سبعین ألفا فیرمیهم حیث أراد من جهنم (۳).

عَلَيْهٰا تِسْعَةَ عَشَرَ و تحتمل الآیه معان عده:

الأول:المعنی الظاهر و هو أنّ خزنه سقر هذه عدتهم،و لیس ذلک بالقلیل إذا کانت صفتهم کما ذکر صاحب المجمع،بل إنّه تعالی قادر أن یجعل علیها واحدا یدیر شؤونها و یعذّب أهلها أشد أنواع العذاب.

الثانی:أنّ التسعه عشر خزنه وادی سقر فقط،و لبقیه أجزاء جهنم خزنه آخرون.

الثالث:أنّ العدد المذکور هم بمثابه القوّاد و المدراء،و تحت إمرتهم ما لا یدرک

۱- ۱) المنجد ماده لوح.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۳۸۸.

عـددهم إلاّـ اللّه من الملاـئكه،و إلى هـذا المعنى إشـاره فى قول اللّه:« وَ مٰا یَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّکَ إِلاّٰ هُوَ »،و الجهل بهـذه الحقائق هو الـذى دفع المشـركين إلى الاسـتهزاء، و كفرهم بالغيب..قـال أبـو جهـل يومـا:يـا معشـر قريش!يزعم محمـد أنّ جنود اللّه الـذين يعـذّبونكم فى النـار تسـعه عشـر،و أنتم أكثر النـاس عـددا،أ فيعجز مائه رجل منكم عن رجل منهم؟! (۱)،و قـال رجل من قريش يدعى أبا الأشد:يا معشـر قريش!لا يهولنّكم التسـعه عشـر،أنا أدفع عنكم بمنكبى الأيمن عشـره،و بمنكبى الأيسـر التسعه (۲)فأنزل اللّه:«الآيه ۳۱».

وَ مٰا جَعَلْنٰا أَصْحٰابَ النّٰارِ إِلاّٰ مَلاٰئِکَهً إنّ اللّه يمتحن عباده بما يشاء،و ممّا يمتحنهم به أمرهم بالإيمان بالغيب،و كلّما كان الغيب أشدّ غموضّا كلّما صعب الإيمان به،و كان أرفع درجه فى القرب من اللّه،و لذلك

جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السـلام :«إنّا صبّر و شـيعتنا أصبر منا»(قال الراوى)قلت:جعلت فداك!كيف صار شيعتكم أصبر منكم؟! قـال:«لأنّا نصبر على ما نعلم،و شـيعتنا يصبرون على ما لا يعلمون » (۳)،و لقد جعل اللّه الإيمان بالغيب ركنا أساسـيا فى الشخصـيه الإيمانيه،و من هـذا المنطلق أخفى كثيرا من الحقائق كالموت و البرزخ و الآخره،فأمّا الكفار و المشـركون و الذين فى قلوبهم مرض فـإنّ الغيب يزيـدهم فتنه و نفورا،ليس لأنّـه لاـ واقعيه له،فالآيـات الهـاديه إليه كثيره،و إنّما لأنّ الإيمان به درجه رفيعه من العلم و الإيمـان،لاـ يصـل إليهـا إلاّـ عبـاد اللّه المتميّزون المتقون« اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰهَ » (۴)،و سبيل المؤمنين إلى اليقين بالغيب أمران:

ص:۹۱

۱- ۱) أسباب النزول للسيوطى ص ۲۲۴.

۲- ۲) المصدر أخرجه السدى.

۳- ۳) موسوعه بحار الأنوار ج ۷۱ ص ۸۰.

۴- ۴) البقره ۳.

أحدهما:الآيات و الحجج الهاديه إليه،فمن آثار الحكمه و العلم و النظام المتجليه فی الكون يهتدون إلی الإيمان بربهم،و من شواهد سنّه الجزاء فی التاريخ و الواقع يؤمنون بالجزاء الأعظم فی الآخره،فهم لا ينتظرون أن تلامس جلودهم النار،و تبصر أعينهم الملائكه،و يقعون فی قبضه الموت حتی يؤمنوا بكلّ ذلك،إنّما يكتفون بظهور الآيات و الحجج..و هذه من أهمّ الخصائص التی تميّز العاقل عمّن سواه.

الثانی:إيمانهم باللّه عزّ و جلّ كما وصف نفسه و تجلّی فی كتابه و خلقه بأسمائه الحسنی،فهم يؤمنون باللّه القادر،القاهر،العليم،الرحمن الرحيم و..و..إيمانا قائما علی اليقين و المعرفه.و متی ما بلغ الإنسان هذه الغايه صار مسلما بكلّ الحقائق الغيبيه،فلا يشك فی الجنه و النار و ما فيهما من النعيم و العذاب،لأنّ اللّه الذی وعدنا بهما مطلق القدره لا يعجزه شیء أبدا،و لا يدخل فی نفق الجدال و الشك فی عدد أصحاب النار و صفاتهم،بل يسلّم بما يسمعه عن اللّه تسليما مطلقا.و لأنّ الكفّار و المشركين و مرضی القلوب لم يبلغوا هذه الغايه الأساسيه صاروا إلی الشك فی حقائق الغيب،بل فی حقائق الشهود أيضا،فإذا بواحدهم يشك فی أصل وجوده، كما فعل السوفسطائيون! إنّ المؤمن ليس مسلّما للّه بفعله و قوله فقط،بل هو مسلّم بعقله و علمه أيضا، ففی سلوكه و مواقفه لا يخالف الحق،و فی داخله لا يثير أدنی تساؤل شكّی حول آيات ربه..و هذه من أهم مرتكزات الإيمان و الإسلام،كما قال اللّه:« فَلاٰ وَ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتّٰى يُحَكِّمُوكَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِی أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » (1)..بلی.قد لا ندرك خلفيات بعض الأحكام الإلهيه،و قد لا نستوعب بصوره تامه بعض الحقائق،و لكنّ ذلك ليس مبرّرا للكفر بها أبدا فی منطق الإسلام و لا عند العقلاء،و هذه قيمه علميه مسلّمه و من صفات الراسخين فی

١- ١) النساء ٦٥.

العلم،قال تعالى:« هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتٰابَ مِنْهُ آیٰاتٌ مُحْکَمٰاتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتٰابِ وَ أُخَرُ مُتَشٰابِهٰاتٌ فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ مٰا تَشٰابَهَ مِنْهُ ابْتِغٰاءَ الْفِتْنَهِ وَ ابْتِغٰاءَ تَأْوِیلِهِ وَ مٰا یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ وَ الرّٰاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا وَ مٰا یَذَّکَّرُ إِلاّٰ أُولُوا الْأَلْبٰابِ » (۱)،فالراسخون فی العلم-غیر أهل البیت-قد لا یدرکون تأویل بعض الآیات و لکنّهم لا یکفرون بها،فذلک لیس من منطق العقلاء و أصحاب الألباب،و إلاّ لکان الکفر باللّه أولی من کلّ شیء لأنّنا قاصرون عن إدراک کنهه و معرفه ذاته! إنّ فی قلوب الکفّار و المشرکین لمرضا عضالا هو کفرهم باللّه،و ذلک الکفر الذی تأباه عقولهم و فطرتهم و من ثمّ اتباعهم الباطل بصوره مفضوحه،و لذا فإنّهم یبحثون دائما عمّا یبرّر لهم هذا الموقف،فإذا بهم یختلفون فی عدد الملائکه و ألوانهم و أشکالهم،بدل أن یسلّموا لآیات الذکر الحکیم.و ما ذا ینفعهم الاطّلاع علی ذلک؟هل ینجیهم من عذب النار؟کلاّ..

وَ مٰا جَعَلْنٰا عِدَّتَهُمْ إِلاّٰ فِتْنَهً لِلَّذِینَ کَفَرُوا فهی من جهه تزیدهم ضلالا و نفورا،و من جهه أخری تظهر حقیقه معدنهم و شخصیتهم،کما تظهر النار طبیعه المعدن ذهبا و غیره،بینما ترفع هذه الآیه و ما تبیّنه من حقیقه المؤمنین درجه رفیعه فی الإیمان..حیث الیقین و التسلیم بآیات اللّه و وعوده.

لِیَسْتَیْقِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتٰابَ قیل هم الیهود و النصاری،و سبب استیقانهم أنّه مذکور فی کتابهم(التوراه

۱- ۱) آل عمران ۷.

و الإنجیل)أنّ هـذه عـدّه ملائکه سـقر،و حیث یبیّنها القرآن فـذلک یـدعوهم للیقین بأنّه من عند اللّه،و الأقرب حمل المعنی علی أنّهم العلماء الذین حملوا رساله اللّه،أو الذین أعطوا الکتاب،و الکتاب هنا کنایه عن العلم الذی یسطّر فیه.و إنّما یستیقنون لأنّ ما تطرحه الآیه تکشف لهم عن حقیقه جدیـده من الغیب تزیدهم إیمانا باعتبار کلّ حقیقه من الغیب یؤمنون بها یرتفعون بها درجه فی معراج الیقین.

وَ یَزْدٰادَ الَّذِینَ آمَنُوا إِیمٰاناً لأنّ المؤمن کلّما اطّلع علی شیء من الغیب کلّما تکاملت معرفته به،و لا ریب أنّ هذه المعرفه تعکس أثرها الروحی فی شخصیته،فیزداد خوفا من ربه،و إیمانا به، و عملا بأحکامه و شرائعه.

وَ لاٰ یَرْتٰابَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتٰابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ أی یصلون إلی مرتبه من الإیمـان لا شک معها،و هـذه من الـدرجات الرفیعه،لأنّ القلیل من المؤمنین هم الذین یستطیعون تطهیر قلوبهم من رواسب الشک و التردد.

و إذا بلغ أحد ذلک فإنّه یتجاوز کلّ ابتلاء و فتنه لأنّ

«الشکوک و الظنون لواقح الفتن،و مکدّره لصفو المنائح و المنن» کما قال الإمام زین العابدین علیه السلام (۱).

وَ لِیَقُولَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یعنی المنافقین و ضعاف الإیمان،الذین یخالط إیمانهم الشک و الریب و الشرک.

وَ الْکٰافِرُونَ مٰا ذٰا أَرٰادَ اللّٰهُ بِهٰذٰا مَثَلاً و بکلمه:إنّ الحکمه من وراء ذکر عده التسعه عشر ابتلاء الناس لیعلم من

۱- ۱) الصحیفه السجادیه/مناجاه المطیعین.

يؤمن بـالغيب فيزداد درجه فى إيمـانه حتى يبلغ مسـتوى اليقين الـذى لا ريب معه، و ليعلم المنافق و الكافر بالغيب فيزداد شكّا و ضلالا.و هكذا نجد هذه الحكمه فى سائر شرائع الدين.

و إشـاره القرآن لسؤال الكـافرين و مرضـى القلوب:« مٰا ذٰا أَرٰادَ اللّٰهُ بِهٰـذٰا مَثَلاً » يكشف عن جهلهم و مـدى ضـلالهم و طريقتهم الاسـتهزائيه بالآيات،فإنّ هدفهم من وراء ذلك ليس البحث عن الحق،بل هو مجرد السؤال كطريق للهروب من مسئوليه الإيمان،و تشـكيك أنفسـهم و المؤمنين فى الحق..فهم لا يعلمون الغيب حينما راحوا يشكّكون فى صحه قول اللّه عن عدّه أصحاب النار،و لا يسـتطيعون انكار ذلك إذ لا دليل عنـدهم على خلافه..و لـذلك تساءلوا عن الخلفيات لهذه الحقيقه.و لو أجابهم القرآن ببيان سرّ هذا العدد لاختلقوا سؤالا آخرا،و هكذا.

كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ أى أنّ ما طرحته الآيات هو مثل حىّ للضـلال و الهدايه،فالحقيقه التى بيّنها اللّه فى كتـابه واحـده،و المعطيات لـدى الفريقين و من بينها العقل و الإراده واحـده،إلاّ أنّ الموقف مختلف تماما،و هـذه الصوره العمليه للموقفين تكشف عن أنّ الهـدى و الضـلاله و إن كانا بيـد اللّه إلاّ أنّ العامل الرئيسـى فيهما هو الإنسان نفسه..بإرادته و اختياره،و ليس كما يزعم الجبريه أبدا.

وَ مٰا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاّٰ هُوَ لأنّهم غيب مسـتور،و لأنهم من الكثره بحيث لا يسـتطيع عـدّهم أحـد،فكيف و ربنا يخلق كلّ لحظه من ملائكته ما لا يحصـيه إلاّ هو سبحانه و تعالى؟!ففى الأخبار أنّ لكلّ قطره غيث تنزل من السماء إلى الأرض ملكا موكّلا بها،و أنّه عزّ

و جلّ خلق ملكا اسمه الروح له ألف رأس فی كلّ رأس ألف لسان و كلّ لسان ينطق بألف لغه يسبّح اللّه تعالی،فيخلق اللّه بكلّ تسبيحه من تسبيحاته ملكا يسبّح اللّه إلی يوم القيامه،أی أنّه يخلق عند كلّ تسبيحه واحده مليارد ملك(سبحان اللّه).

وَ مٰا هِیَ إِلاّٰ ذِكْریٰ لِلْبَشَرِ قيل:أنّ الضمير عائد إلی سقر،و قيل:عائد إلی عدّه الملائكه،و كلاهما صحيحان لأنّ الحقيقه واحده،فكلاهما ذكری للناس و متصلان بموضوع الجزاء و العذاب. فالمهم إذا أن يتذكّر الإنسان ربه و حقائق الغيب،لا أن يجادل فی القشور..و

قد حذّرنا أمير المؤمنين علیّ بن أبی طالب عليه السلام من النار مبيّنا صفه واحد من خزنه جهنم فقال:«و اعلموا أنّه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر علی النار، فارحموا نفوسكم،فإنّكم قد جرّبتموها فی مصائب الدنيا.أ فرأيتم جزع أحدكم من الشوكه تصيبه،و العثره تدميه،و الرمضاء تحرقه؟فكيف إذا كان بين طابقين من نار،ضجيع حجره،و قرين شيطانه؟!أعلمتم أنّ مالكا إذا غضب علی النار حطم بعضها بعضا لغضبه،و إذا زجرها توثّبت بين أبوابها جزعا من زجرته..فاللّه اللّه معشر العباد!و أنتم سالمون فی الصحه قبل السقم،و فی الفسحه قبل الضيق، فاسعوا فی فكاك رقابكم من قبل أن تغلق رهائنها » (1).

١- ١) نهج البلاغه خ ١٨٣ ص ٢٦٧.

[سوره المدثر (۷۴): الآيات ۳۲ الی ۵۶]

اشاره

كَلاّ وَ اَلْقَمَرِ (۳۲) وَ اَللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (۳۳) وَ اَلصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (۳۴) إِنَّها لَإِحْدَى اَلْكُبَرِ (۳۵) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (۳۶) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (۳۷) كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَهٌ (۳۸) إِلاّ أَصْحابَ اَلْيَمِينِ (۳۹) فِی جَنّاتٍ يَتَساءَلُونَ (۴۰) عَنِ اَلْمُجْرِمِينَ (۴۱) ما سَلَكَكُمْ فِی سَقَرَ (۴۲) قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ اَلْمُصَلِّينَ (۴۳) وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ اَلْمِسْكِينَ (۴۴) وَ كُنّا نَخُوضُ مَعَ اَلْخائِضِينَ (۴۵) وَ كُنّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ اَلدِّينِ (۴۶) حَتّى أَتانَا اَلْيَقِينُ (۴۷) فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَهُ اَلشّافِعِينَ (۴۸) فَما لَهُمْ عَنِ اَلتَّذْكِرَهِ مُعْرِضِينَ (۴۹) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَهٌ (۵۰) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَهٍ (۵۱) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَهً (۵۲) كَلاّ بَلْ لا يَخافُونَ اَلْآخِرَهَ (۵۳) كَلاّ إِنَّهُ تَذْكِرَهٌ (۵۴) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (۵۵) وَ ما يَذْكُرُونَ إِلاّ أَنْ يَشاءَ اَللّهُ هُوَ أَهْلُ اَلتَّقْوى وَ أَهْلُ اَلْمَغْفِرَهِ (۵۶)

ص:۹۷

كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ

هدى من الآيات:

«كلاّ»..بهذا الردّ القاطع و العنيف يواجه القرآن أباطيل الكفّار فى شأن الوحى،إذ زعموا أنّه سحر يؤثر،و أنّه قول البشر،و يوجّهنا إلى ثلاث من آيات اللّه فى الطبيعه،و هى القمر،و حين إدبار الليل،و عند إسفار الصباح،فعند ما يتدبّر الإنسان فى هذه الآيات تتجلّى له ذات الحقيقه العظمى التى تهدى إليها آيات الذكر و هى حقيقه التوحيد،بل يجدها شهادات هاديه إلى الإيمان بالرساله..و كأنّها تقرأ عليه الآيات الثلاث(۳۵،۳۶،۳۷)من المدثر،و هكذا نجد القرآن فى كثير من آياته يربط بين التفكّر فى الطبيعه و الإيمان بالحق المنزل فى الكتاب،ذلك أنّ القرآن ينطق بسنن اللّه فى الخليقه،و الكائنات تجسّد آيات اللّه فى القرآن،و هنا و هناك نجد تجلّيات أسماء اللّه سواء بسواء،و كلّ واحد منهما يهدى إلى الآخر،فكما أنّ آياته تكشف عن حقائقها و الأنظمه الحاكمه فيها،و تفسّر ظواهرها،فإنّها هى الأخرى تهدى إلى الإيمان به(الآيات ۳۱/۳۴)من خلال توافقها مع الكتاب،

و تمثيلها لما فيه.

و لأنّ سبيل الكتاب قويم و قائم على التوازن بين السلب و الإيجاب فإنّه يؤكد صدق آياته« إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ* نَذِيراً لِلْبَشَرِ »و ذلك مباشره بعد أن يسفّه مزاعم الكفار حول الرساله،مؤكّدا بأنّ الموقف منها هو العامل الرئيسى فى تقدّم البشريه أو تأخّرها،و ذلك أنّ النفس البشريه رهينه فى سجن الجهل و الظلم و الهوى و الشيطان و..و..و سعيها لا يزيدها إلاّ ارتهانا و قيودا على قيودها،إلاّ أن تفك رهانها و تصلح سعيها بالسير على هدى ذكر اللّه و نذيره للبشر و هو كتابه الكريم،كما فك رهانهم به أصحاب اليمين(الآيات ۳۹/۳۵).

و من خلال حوار بين هذا الفريق المفلح و بين المجرمين الذين سلكوا سقر المحرقه و المخزيه يبيّن لنا القرآن معالم الطريق إليها،فهى و إن كانت فى الآخره دركه من النار إلاّ أنّها منهجيه عمليه فى الدنيا تتمثّل فى ترك الصلاه،و عدم مساعده المحتاجين و الضعفاء،و الخوض مع الخائضين،و التكذيب بالآخره،و لقاء اللّه على هذا الضلال البعيد،و الذى لا ريب أنّ أحدا لا يشفع لصاحبه عند اللّه،بل لا تنفعه فيه شفاعه الشافعين(الآيات ۴۸/۴۰).

و يستنكر ربنا على الكفّار حماقتهم و استحمارهم بالإعراض عن التذكره التى جاءت لإنقاذهم من سقر الجهل و التخلف و الضلال فى الدنيا و من سقر النار فى الآخره،و لكنّ هزيمه الإنسان أمام هوى نفسه و همزات الشيطان،و عدم حضور الآخره فى وعيه،هما اللذان يدفعانه إلى الإعراض عن التذكره المبينه (الآيات ۵۳/۴۹).

و لأنّ المقياس السليم لمعرفه الحق ليس موقف الناس،بل معرفته بذاته،فإنّ إعراض المجرمين عن القرآن لا يعنى من قريب و لا بعيد أنّه باطل،و لا يغيّر من

واقعه..«كلاّ»إنّه تـذكره اقبـل عليه النـاس أو أدبروا عنه،فمن شـاء تـذكّر به ربّه و الحق،« وَ مٰا يَذْكُرُونَ إِلاّ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ »بلطفه و توفيقه(الآيات ۵۶/۵۴).

بينات من الآيات:

[۳۷-۳۲]إنّ الرسـاله الإلـهيه ذكرى للبشـر،و لكـنّ الكفّـار-و بالـذات المـترفين و أصـحاب السـلطه منهم-يخشـون من الاـعتراف بهـا،لأنّهـا تفضـح مـا هم عليه من الإثم و الضـلال،و لـذلك تجـدهم لا يعترفون؛تمنعهم عن ذلك عزّه الجاهليه،كما أنّها تفرض عليهم مجموعه من المسؤوليات و التنازلات كمسؤوليه الإنفاق فى سبيل اللّه،و الطاعه للرسول صـلى الله عليه و آله ،و التنازل عن السـلطه،و ذلك ممّا لا تطيقه أنفسـهم الضـيقه المسـتكبره..فلا بـدّ إذا من إخراج لموقفهم الباطل من هذه الذكرى،و لما فكّروا و قـدّروا بهـذه الخلفيّه الثقيله تمخّضت أفكارهم و تقـديراتهم عن نتائج خاطئه،فزعموا أنّ الرساله«سـحر يؤثر»و أنّها ليست«إلاّ قول البشـر»، و حتى إنـذار اللّه لهم بالسـقر لم ينفعهم،بل اتخـذوه تبريرا جديـدا لكفرهم،حيث قالوا بأنّ العـدد المـذكور عن حرّاسـها التسـعه عشـر:عـدد قليل يمكن مواجهتهم! و هكذا يفعل كلّ مترف و متسلّط،لا تزيده الحجج إلاّ لجاجا،إذ يبحث فيها عن تبرير جديد يزعم أنّه يسوغ له الكفر و حتى الاستهزاء حتى أنّك تجد مثلا بعض المتصوّفه يستهزئ بالنار و يقول:سوف أطفئها بطرف ردائى! و هكذا توالت كلمات القسم فى السياق لعلنا نستجيب لها،و نفكّر جدّيا بأمر لعقاب.

كَلاّ وَ الْقَمَرِ قيل:معناه ليس الأمر على ما يتوهّمونه من أنّهم يمكنهم دفع خزنه جهنم

و غلبتهـم (۱)،و قـال الرازی و هـو بعيـد:إنّه إنكـار-بعـد أن جعلهـا ذكری-أن تكون لهم ذكری لأنّهم لا يتـذكرون (٢)،و مثله الزمخشـری فی الكشّـاف.و وجه اسـتبعاد هـذا الرأی أنّ نفی الـذكری بعـد إثباتهـا بقوله:« وَ مٰا هِیَ إِلاّٰ ذِكْریٰ لِلْبَشَرِ »يحتاج إلی تبعيض و تخصيص يفرد الكفّار و مرضی القلوب عن عموم البشر،و لا دليل عليه.

و الأفضـل أن نقول:إنّ كلمه«كلاّ»تـأتی لردع الإنسـان عن الجهـل و الغفله و عن مجمل الأفكار الباطله التی كان أولئك يؤمنون بها،لأنّها تأتی فی سياق الجدال مع الخصم فيتأوّل-عند السامع-إلی نفی أفكاره.

و قسم اللّه بهـذا الكوكب كقسـمه بـأیّ شـیء آخر يعطيه أهميه و شأنـا فی وعی الإنسان المؤمن بالـذات،و نحن علی ضوء هـذه الإشاره الإلهيه القرآنيه ينبغی أن نتحرك لفتـح آفاق من المعرفه بهـذا الكوكب و أهميته،و علاقه القسم به بما يريـد بيانه القرآن فی هذه الآيه و سياقها.

إنّ القمر و هكذا الليل بإدباره و الصـبح عند تنفّسه كلّ هذه الظواهر الكونيه تهدينا عند التفكر فيها إلی عظمه الرساله،و أنّها فعلا لإحـدی الكبر،و أنّ أباطيـل الكفّـار ليست صـحيحه أبـدا.و لعلّ القسم بالقمر جاء للأغراض التاليه:أنّ الحقيقه-و جزء منها رساله اللّه-قضيه واقعيه لا تنتفی بمجرد إنكارها،كما أنّ القمر و الحقائق الأخری لا تنمحی من واقع الوجود بإنكار البعض لها.

و هكـذا تبقی الرسـاله كـالقمر المنير تفرض نفسـها علی ظلاـم الكفر أنّی حـاولوا إنكارها.إنّهـا رسـاله عظيمـه لـو وعـوا حقيقتها لتذكّروا بها،و عرفوا كم هی إنذار شديد و عظيم للبشر.

۱- ۱) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۹۱.

۲- ۲) التفسير الكبير ج ۳۰ ص ۲۰۸.

وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ قال أكثر المفسرين أنّ«أدبر»بمعنى ولّى و ذهب،أى قسما بالليل إذ سحب ذيوله مؤذنا بطلوع الفجر.و فى التفسير الكبير قال قطرب:إذا أقبل بعد مضىّ النهار (۱)،على أساس أنّه يقع فى دبر النهار و يحلّ ظلامه على خطى رحيله الأخيره، و هذا رأى بعيد،و قد عجز البعض عن إدراك وقع«إذ»فى هذه الآيه و دورها فى أداء المعنى،فافترض ما يشاء،و اعترض على قول اللّه سبحانه.قال القرطبى بعد بيان الاختلاف فى القراءات و المصاحف:و اختار أبو عبيد إذا أدبر(و ليس إذ) قال:لأنّها أكثر موافقه للحروف التى تليه،أ تراه يقول: وَ الصُّبْحِ إِذٰا أَسْفَرَ ، فكيف يكون أحدهما«إذ»و الآخر «إذا»؟و ليس فى القرآن قسم تعقبه«إذ» و إنما يتعقّبه«إذا» (۲)و يبدو لى أن«إذ»هنا ظرفيه لا شرطيه كما فى«إذا أسفر»،فيكون المعنى أنّه تعالى يقسم باللحظه المباشره لجمع الليل فلول ظلامه، و كأنّه يريدنا أن نعيش ظاهره إدبار الليل و بزوغ الفجر.

وَ الصُّبْحِ إِذٰا أَسْفَرَ أى أضاء و انبلج نوره،لأنّ الصبح له مراحل يتدرج عبرها و يتضح شيئا فشيئا،حتى تطلع الشمس فتطرد كلّ فلول الظلام،و تكشف للناظر عن وجه الطبيعه من حوله،و فى اللغه:سفرت المرأه سفورا كشفت عن وجهها فهى سافر، و أسفر مقدّم رأسه:انحسر عنه الشعر،و انسفر الغيم تفرّق (۳)فأبدى وجه السماء، و يقال للصبح أسفر لأنّه حينما يتشعشع نوره يكشف عن نفسه و عن الطبيعه بكلّ وضوح.و ربّنا يقسم به فى مرحله الإسفار و ليس فى أىّ مرحله أخرى من مراحله،

۱- ۱) التفسير الكبير ج ۳۰ ص ۲۰۹.

۲- ۲) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ۱۹ ص ۸۴.

۳- ۳) المنجد ماده سفر.

لتعلّق شرط«إذا»بها بالذات.

و حينما يلتفت الإنسان ببصره إلى هذه الظواهر الكونيه الثلاث،و يتفكّر فيها بعقله،فإنّه يجدها آيات هاديه إلى حقيقه التوحيد و الربوبيه العظمى،و إلى ذات الحقيقه بتفاصيلها تهديه آيات القرآن،و حديثه عن سقر و ملائكتها و تذكّره بها،ممّا يؤكّد أنّ الذى خلق هذا الكون هو الذى أنزل ذلك التشريع،و أنّه إذا كانت هذه الظواهر و أمثالها كبيره فى نفس الإنسان و عظيمه فإنّ القرآن و الآخره واحده من أعظم الحقائق المنذره.

إِنَّهٰا لَإِحْدَى الْكُبَرِ قال القرطبى:روى عن ابن عباس«إنّها»أى إنّ تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه و آله « لَإِحْدَى الْكُبَرِ »أى لكبيره من الكبائر (۱)،و ليس فى السياق ما يؤيّد هذا الرأى، بالذات إذا وصلنا الآيه بما يليها،و قيل:إنّ قيام الساعه لإحدى الكبر (۲)،و هذا صحيح مسلّم به إلاّ أنّه لا دليل عليه لا فى النص و لا فى السياق،و قيل:يعنى سقر،و فيه وجه لأنّها واحده من أعظم شعب النار،و أكبر النذر للناس،و قد ذكرت و قيل:آيات القرآن لإحدى الكبر فى الوعيد (۳)،و هو أقرب الآراء و المصاديق إلى الآيه.كما أوّلها أئمه الهدى فى الولايه،عن أبى الحسن الماضى قال:

«الولايه» (۴)باعتبارها سنام الإسلام،و واحده من أكبر أركانه و أهمها،و

عن الباقر عليه السلام قال :«يعنى فاطمه عليها السلام » (۵)لأنّ ولاءها و حبّها جزء من تولّى

ص:۱۰۳

۱- ۱) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ۱۹ ص ۸۵.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۳۱.

۴- ۴) نور الثقلين ج ۵ ص ۴۵۸.

۵- ۵) تفسير القمّى ج ۲ ص ۲۹۶.

اللّه و رسوله و حبهما بإجماع كل المذاهب الإسلاميه التى تواترت أحاديث فضلها فى كتبهم.ثم يقول اللّه:

نَذِيراً لِلْبَشَرِ عن كلّ ضلال و تقصير و ذنب،و إنّما يتمّ الإنذار ببيان العواقب السيئه لكلّ ذلك،و بيان طريقه تجنّبها.و قد اختلف فى من هو النذير إلى أقوال أقربها ثلاثه:

أحدها: أنّه النار التى ما جعل اللّه أصحابها إلاّ ملائكه،و الثانى:أنّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله،و الثالث:و هو أقربها جميعا:أنّه القرآن باعتباره المنذر الأعظم و الثقل الأكبر على مرّ الدهور و الأجيال.

لِمَنْ شٰاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ فالرساله الإلهيه إذا لا جبر فيها لأحد على اختيار طريقها،بل الناس بالخيار بين الإيمان و الكفر،و التقدّم و التأخر،و على هذا الأساس يجب على كلّ مصلح ممارسه التغيير و الإنذار فى مجتمعه و أمّته.هذا واحد من معانى الآيه و هناك تفاسير خرى:

الأول:فمن شاء أن يتقدم فى الإيمان بالرساله فيكون من السابقين أو يتأخّر فيكون من اللاّحقين فإنّ القرآن نذير له.

الثانى:أنّ«سقر»نذير و جزاء لكلّ من تقدّم إلى أئمه الهدى و نهجهم فأمن أو تأخّر فكفر بهم لا فرق.

و

عن أبى الفضيل عن أبى الحسن عليه السلام قال :«كلّ من تقدّم إلى ولايتنا تأخّر

عن سـقر،و كلّ من تأخّر عن ولايتنا تقـدّم إلى سـقر » (۱)،و إلى قريب من هـذا المعنى أشـار ابن عبـاس بقوله:من شاء اتبع طاعه اللّه،و من شـاء تأخّر عنها (۲)،و قال العلاّمه الطبرسـى:و قيل أنّه سـبحانه عبّر عن الإيمان و الطاعه بالتقـدّم لأنّ صاحبه متقـدّم فى العقول و الدرجات،و عن الكفر و المعصيه بالتأخّر لأنّه متأخّر فى العقول و الدرجات (۳).

الثـالث:التقـدم و التأخر الحضاريين فى الـدنيا،و التقـدم و التأخر فى الـدرجات فى الآخره،فإنّهما مرهونان بموقف الإنسان(فردا و مجتمعـا و أمّه و بشـريه)من كتاب اللّه و ذكراه للبشـريه،فإن اسـتمعت للنـذر و اتبعت الآيات وصـلت إلى السـعاده فى الـدّارين و تقدّمت مسيرتها،و إلاّ صارت إلى الشقاء و التخلف و واقع المسلمين فى التاريخ و الآن خير دليل على هذه الحقيقه،فهم لمّا اتبعوا القرآن سعدوا و تقدموا و قادوا ركب الحضاره البشريه،و لكنّهم الآن حيث هجروه تورّطوا فى أنواع المشاكل و البلاء،و

صـدق رسول اللّه صـلى الله عليه و آله حينمـا قـال:«القرآن هـدى من الضـلاله، و تبيـان من العمى،و اسـتقاله من العثره،و نور من الظلمه،و ضـياء من الأـحزان، و عصـمه من الهلكه،و رشـد من الغوايه،و بيـان من الفتن،و بلاـغ من الـدنيا إلى الآخره،و فيه كمال دينكم(قال الإمام الصادق عليه السلام)فهذه صفه رسول اللّه للقرآن و ما عدل أحد عن القرآن إلاّ إلى النّار » (۴).

[۴۷/۳۸]و مع أنّنا نقول بأنّ للرساله الإلهيه دورا أساسـيا فى تقـدم البشـريه أو تخلّفها و لكن بشـرط أن يسـعى الإنسان جاهـدا فى العمل بها.

ص:۱۰۵

۱- ۱) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۹۱.

۲- ۲) الدر المنثور ج ۶ ص ۳۸۵.

۳- ۳) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۹۰.

۴- ۴) موسوعه بحار الأنوار ج ۹۲ ص ۲۶.

کُلُّ نَفْسٍ بِمٰا کَسَبَتْ رَهِینَهٌ و تأکید القرآن علی هذه الحقیقه فی کثیر من المواضیع و بصیغ مختلفه ینطلق من کونها بصیره أساسیه یجب علی الإنسان وعیها فی حیاته،إذ هی روح المسؤولیه، و الدافع الحقیقی لتحمّلها..فمتی ما آمن أحد بالعلاقه بین واقعه و بین سعیه و مستقبله و بین سعیه فی الحیاه تحمّل مسئولیته بتمامها.و من الآیه الکریمه نهتدی إلی البصائر التالیه:

ألف:أنّ فکره الجبر فکره خاطئه،فإنّ اللّه قد جعل مصیر البشر بأیدیهم و لم یشأ أن یحتّم علیهم مصائرهم،بل إنّهم هم الذین یرتهنون أنفسهم فی النار بسعیهم السیء کالمجرمین أو یفکّون أسرهم و یصیرون إلی الجنه بأعمالهم کأصحاب الیمین،و هذا من أبرز مظاهر العداله و الحکمه الإلهیه.

قال الامام الصادق علیه السلام یعظ واحدا من أصحابه :«اقصر نفسک عما یضرها قبل أن تفارقک،واسع فی فکاکها کما تسعی فی معیشتک،فإنّ نفسک رهینه بعملک » (1)باء:أنّ هذه القاعده جاریه علی کلّ نفس بدون استثناء أو تمییز بین أبیض و أسود،أو ذکر و أنثی،أو عربی و أعجمی،فلا قیمه أسمی من العمل الصالح.

هکذا یشرّع اللّه لعباده،و ذلک یعنی أنّ کلّ الفلسفات الضیقه العنصریه و العرقیه و القومیه و..و..مرفوضه.

جیم:أنّ أغلب المآسی التی تصیب النفس و تصبح رهینه لها هی من کسبها و سعیها،کما قال ربنا سبحانه:« وَ مٰا أَصٰابَکُمْ مِنْ مُصِیبَهٍ فَبِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ وَ یَعْفُوا عَنْ کَثِیرٍ » (2)،فالحوادث إنّما نذوق طعمها لقلّه انتباهنا و ضعف وعینا بأمور الحیاه

1- 1) مجمع البیان ج 10 ص 458.

2- 2) الشوری 30.

و قوانينها، و الأمراض إنّما تتسلّل إلى أجسادنا لعدم اهتمامنا و القواعد الصحّيه، و التخلّف و التمزّق و سيطره الطغاه و الظالمين،و حتى الزلازل و الانهيارات و سائر الكوارث الطبيعيه..إنّها جميعا من عند الإنسان نفسه،و هكذا الجزاء الأخروى، فإنّ أصحاب النار هم المسؤولون عن تورّطهم فيها لما أقدموا عليه من الجرائم و السيئات،كما أنّهم كانوا قادرين قبل انقضاء فرصه العمر على افتداء أنفسهم و فكك أسرها بعمل الصالحات،كأصحاب اليمين الذين يمتازون عن سائر الناس بذلك.

إِلاّ أَصْحٰابَ الْيَمِينِ

قال الإمام الباقر عليه السلام :«نحن و شيعتنا أصحاب اليمين،و كلّ من أبغضنا أهل البيت فهم المرتهنون » (۱)،و

فى الكشّاف:و عن على عليه السلام أنّه فسّر أصحاب اليمين بالأطفال،لأنّهم لا أعمال لهم يرتهنون بها (۲)،و رجّحه الرازى فى تفسيره، و ليست هذه إلاّ مصاديق لحقيقه واحده،فالأصل من اليمن نقيض الشؤم،كما مرّ علينا فى سوره الواقعه عند قول تعالى:« فَأَصْحٰابُ الْمَيْمَنَهِ مٰا أَصْحٰابُ الْمَيْمَنَهِ* وَ أَصْحٰابُ الْمَشْئَمَهِ مٰا أَصْحٰابُ الْمَشْئَمَهِ » (۳)،و إرجاع التعبير إلى أصله يجعله يتسع لمصاديق أخرى كثيره.و قد استثنى ربّنا أصحاب اليمين باعتبارهم من دون كلّ الناس ليسوا رهائن لأنّ كسبهم و سعيهم محمود،بل هم فى نعيم واسع مقيم.

فِى جَنّٰاتٍ يَتَسٰاءَلُونَ* عَنِ الْمُجْرِمِينَ و السؤال ما هى أهميه التساؤل عن المجرمين بالنسبه لأصحاب الجنه؟ أولا:لإنّ ذلك يزيد المؤمنين لذّه بالنعم ماديه و معنويه،فكما أنّ تحسس الغنى

۱- ۱) تفسير البصائر ج ۵۰ ص ۴۳۲.

۲- ۲) الكشّاف ج ۴ ص ۶۵۵.

۳- ۳) الواقعه ۹/۸.

لأوضاع الفقراء يزيده شعورا بفضل اللّه عليه فإنّ أصحاب اليمين تزداد لذّتهم بنعم الجنه و نعمه الهدايه حينما يطّلعون على نقيضهم.

ثانيا:هذا الحوار المستقبلی نافع للمؤمنين فی الدنيا،لأنّه يكشف لهم عن مكامن الخطر،و معالم طريق النار،ممّا يمكّنهم من تجنّب الأخطاء و المزالق،فإنّ المعرفه بها لا تقلّ أهميه عن المعرفه بالصواب و الحق.و الذی يسعی لبناء شخصيه إيمانيه فی نفسه ينبغی له أن يعرف صفات أهل النار ليتجنّبها.

مٰا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ أیّ شیء(عمل و منهج)قادكم إلی النار؟ و إجابتهم تبيّن معالم الشخصيه المجرمه من جهه،و تؤكّد عمليا ارتهان كلّ نفس بكسبها من جهه أخری،فما هی الأسباب التی أدّت بهم إلی الجريمه و من ثمّ إلی عذاب سقر؟ أولا:تركهم الصلاه.

قٰالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ و الآيه تشمل التاركين للصلاه من الأساس كالكفّار و الممسوخين من المسلمين،كما تشمل أولئك الذين يمارسون طقوس العباده و لكنّهم لا يلتزمون بقيمها و أهدافها،و هم الذين قال عنهم ربّنا: « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاٰتِهِمْ سٰاهُونَ » (1)،فإنّهم عند اللّه ليسوا من عداد المصلين،لأنّ تارك الصلاه إنّما يصبح مجرما لأنّه ترك أعظم دافع نحو الخير و أفضل رادع عن الشر و هو الصلاه،

١- ١) الماعون ۵/۴.

قال تعالی:« إِنَّ الصَّلاٰةَ تَنْهیٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَ الْمُنْکَرِ » (۱)و ذلک أنّها عمود الدین، و روح الإیمان،وصله التقرب باللّه.

قال الإمام علی علیه السلام یعظ محمد بن أبی بکر :«و اعلم یا محمد أنّ کلّ شیء تبع لصلاتک،و أعلم أنّ من ضیّع الصلاه فهو لغیرها أضیع » (۲)،و

قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله :«لا یزال الشیطان یرعب من بنی آدم ما حافظ علی الصلوات الخمس، فإذا ضیّعهنّ تجرّأ علیه و أوقعه فی العظائم » (۳).

و قد أعطی أئمه الهدی بعدا سیاسیا و اجتماعیا لهذه الآیه،من خلال تفسیر ترک الصلاه فی ترک الانتماء إلی حزب اللّه و رفض القیاده الرسالیه،

قال إدریس بن عبد اللّه سألته-یعنی الإمام الصادق علیه السلام -عن تفسیر هذه الآیه،قال:«أی لم نک من أتباع الأئمه علیهم السلام » (۴)،و

قال :«أما تری الناس یسمّون الذی یلی السابق فی الحلبه المصلی؟!أعنی حیث قال:الآیه»لم نک من أتباع السابقین (۵)،و هذا واضح فی نصّ الآیه الکریمه عند قوله:«من المصلین»..

فالمصلون إذا خط و حزب و قیاده،و عدم الانتماء إلیهم یستوجب عذاب سقر..و من هذه الفکره نهتدی إلی أنّ التفرّج علی الصراع بین الحق و الباطل فی المجتمع دون الانتماء إلی فریق الحق مسأله مرفوضه فی الإسلام.

و مع أنّ الکفار و المشرکین کافرون بأصول الدین إلاّ أنّ اللّه یشیر إلی کفرهم بالصلاه و هی فرع من فروع الدین کواحده من الکبائر.لما ذا؟!لأنّها عمود

ص:۱۰۹

۱- ۱) العنکبوت۴۵/.

۲- ۲) موسوعه بحار الأنوار ج ۸۳ ص ۲۴.

۳- ۳) المصدر ج ۸۳ ص ۲۰۲.

۴- ۴) البرهان ج ۴ ص ۴۰۴.

۵- ۵) المصدر.

الدين،و لأنّ الكفّار يحاسبون على الفروع أيضا،فالقانون واحد لا فرق فيه بين المؤمنين و الكفار.

ثانيا:عدم إطعام المسكين.

وَ لَمْ نَکُ نُطْعِمُ الْمِسْکِینَ و المسكين أشدّ حاجه من الفقير،لأنّه الذى يسكنه الفقر و لا يملك قوت يومه، و مساعده هذه الطبقه من الناس واجب شرعى إنسانى اجتماعى يفرضه الإسلام كما يفرضه العقل و العرف،فحينما يصل العوز بفرد من الأفراد إلى حدّ الضروريات الأوليّه كالطعام اللازم للحياه فإنّ المجتمع مسئول أمام اللّه عن رفع حاجته بأيّه طريقه ممكنه.

و قد عكس الإسلام هذا المبدأ فى نظامه الاقتصادى و تشريعاته الجنائيه و القضائيه،بحيث رفع حدّ السرقه عمّن تدفعه إليها الحاجه الضروريه و قد تخلّف مجتمعه عن أداء مسئوليته تجاهه.و اعتبر دراسه الأحوال الشخصيه و الظروف الاجتماعيه و الاقتصاديه جزء من نظامه القضائى فى المجتمع.و تأخذنا الآيه الكريمه حينما نتدبّرها ضمن سياقها(صفات المجرمين)إلى أبعد من ذلك حينما تعتبر الإنسان الذى لا يتحمل مسئوليه الفقراء و المساكين(فردا و مجتمعا)هو مجرما أيضا،لأنّ اندفاع المسكين إلى ممارسه السرقه و الفساد تحت مسّ الجوع و الحاجه ليس بأعظم جريمه من جريمه عدم إسعافه من قبل ذوى الاستطاعه.

إنّ موقف الإسلام الحازم و الواضح من مساعده المساكين و المحرومين جزء من نهجه الأقوم لعلاج مشكله الظلم و الطبقيه،و قد ربط القرآن بين العاقبه(سلوك سقر)و بين الأسباب(الآيات ۴۸/۴۳)لبيان أنّ عذاب سقر ليس إلّا سلوكيات

و أخلاق تتجسّد فى الآخره.و لتقريب الفكره نقول:لو افترضنا(سقرا)سجنا ذا أربعه جدران من نار فإنّ كلّ واحده من صفات المجرمين الأربع تمثّل واحدا منها.

ثالثا:الاسترسال مع التيّار.

وَ كُنّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ قال قتاده:معناه كلّما غوى غاو للدخول فى الباطل غوينا معه،أى كنّا نلوّث أنفسنا بالمرور فى الباطل كتلويث الرجل بالخوض،فلمّا كان هؤلاء يخرجون مع من يكذّب بالحق مشيّعين لهم فى القول كانوا خائضين معهم (۱)و مثّل لذلك ابن زيد فقال:نخوض مع الخائضين فى أمر محمد صلى الله عليه و آله و هو قولهم:كاذب،مجنون، ساحر.. (۲).

الاستقلال من أهمّ أهداف الإنسان فى الحياه،باعتباره محتوى التوحيد،و جوهر العبوديه للّه،و لباب حريه الإنسان..من هنا كان الخوض مع الخائضين و الاسترسال مع التيار الغالب أنّى اتجه كان ذلك جرما عظيما يرتكبه الإنسان فى حقّ نفسه،و هو يعتبر كذلك من مصاديق الشرك باللّه،الذى يستوجب عند اللّه أشدّ العذاب،لأنّه عامل رئيسى من عوامل خطأ الإنسان و انحرافه و ضلاله (۳).

و قد جاءت رسالات اللّه تهدى الإنسان إلى ذاته،و معرفه كرامته عند اللّه، و آفاق عالمه الكبير،بينما الشيطان،و أولياؤه يريدون تضليل الإنسان عن نفسه، و تجهيله بقيمتها و كرامتها و دورها المرسوم فى انتخاب الخير و محاربه الشر،و من هنا

۱- ۱) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۸۶.

۲- ۲) فتح القدير ج ۵ ص ۳۳۳.

۳- ۳) لقد بيّنا دور حسّ التوافق الاجتماعى السلبى فى كتابنا المنطق الإسلامى أصوله و مناهجه ص ۲۱۹/۲۴۰.

نجد الطغاه و المترفين اليوم قد تسلّحوا بأجهزه إعلاميه فائقه الكفاءه من أجل سلب الإختيار من الإنسان الفرد،و قولبه شخصيته ضمن القنوات التى يختارونها له، و تلقّى المواقف و الأفكار الجاهزه من خلال وسائل السلطه.و لقد استطاعت الأنظمه الاستكباريه فى الغرب ربط شعوبها بوسائلها الإعلاميه بالخصوص فى القضايا السياسيه،فهى تخوض حينما خاضت حكوماتها و أحزابها.و الشاشه الصغيره و شبكات الصحف الكبيره أصبحت اليوم آلهه تعبد من دون اللّه،و تفرض آراءها على الناس فى شتّى الأمور.و حتى اختيار لون فستان زوجته،و تسريحه شعرها، و طبيعه العلاقه معها،يستمده الإنسان الغربى من وسائل الدعايه و الاعلام لا من اختيار حرّ مستقل.

أمّا كيف يؤدّى حس التوافق إلى الجريمه؟فالأمر واضح جدا،إذ أنّ الفرد الذى فقد الاستقلال سوف يشارك مجتمعه فى أخطائه حينما يتجه مركبه صوب الجريمه و الضلال،فإذا فسد أخلاقيّا فسد معه،و إذا شنّ حربا ظالمه على الآخرين خاض فى دمائهم كما يخوضون،و إذا جلس مجالس الغيبه و البهتان و النميمه أدلى بدلوه فى لهو الحديث و لغوه دون أن يملك شجاعه المعارضه.

رابعا:التكذيب بالآخره.

وَ كُنّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ* حَتّى أَتانَا الْيَقِينُ و اليقين هنا بمعنى العلم،و قد فسّرت الكلمه بالموت لأنّ الإنسان حينما يموت يرتفع عن بصره كلّ حجاب،فيرى الآخره و الجزاء و كلّ الحقائق التى ذكّرت بها رسالات اللّه عين اليقين.و فى الآيتين إشاره إلى أنّ فرصه النجاه قائمه ما دام حيّا، فلو وقع فى خط الباطل و الاجرام ثمّ تاب و أصلح قبل الموت نفعه ذلك و إلاّ فلا.

و حيث لا يعلم الإنسان موعده مع الموت و لقاء ربه و جزائه فإنّه ينبغى له ملازمه

الطاعه و العمل الصالح بلا انقطاع،فلعلّه و قد فكّر فی المعصیه و واقعها وافاه الأجل فصار إلی سوء العاقبه.هکذا

أوصی أمیر المؤمنین ابنه الحسن-علیهما السلام- محذرا إیّاه من الموت:«فکن منه علی حذر أن یدرکک و أنت علی حال سیئه، قد کنت تحدّث نفسک منها بالتوبه،فیحول بینک و بین ذلک،فإذا أنت قد أهلکت نفسک » (۱).

و یعتبر الإسلام التکذیب بالآخره و جزائها من أهم العوامل التی تدعو البشر إلی التحلّل من المسؤولیه،و الإفراط فی الانحراف و الذنوب،و التعبیر القرآنی الوارد فی الآیه دقیق جدا إذ یقول اللّه« نُکَذِّبُ بِیَوْمِ الدِّینِ »و کأنّ التکذیب بالآخره وسیله إلی کلّ تکذیب.بلی.إنّ خشیه العقاب تردع الإنسان من مخالفه القوانین،و من لا یخشی عقاب ربه کیف یلتزم بشرائعه؟من هنا یؤکّد العلماء علی ضروره القوانین الجزائیه،لأنّها ضروره ملحّه فی تنظیم علاقات المجتمع.

و قد أطلق اللّه علی یوم القیامه أسماء کثیره قد تتّفق فی حیثیّاتها الأولیّه، و لکنّها بلا شک تختلف فی إیحاءاتها النفسیه و المعنویه،بحیث یمکن لنا القطع بأنّ التعبیر ب«یوم الدین»فی هذا السیاق أصلح من أیّ تعبیر آخر،و نکتشف ذلک فی المفردات ضمن السیاق الذی ترد فیه.

و لأنّ سیاق سوره المدثر عن تبلیغ الرساله و تکذیب الکفّار و مرضی القلوب بحقائق الدین کان من الحکمه التأکید علی«یوم الدین»بالذات،لبیان أنّ الدین هو المحور و المیزان فی الآخره،و أنّ حقائقه التی یکذّب بها أعداء الرساله سوف یأتی الیوم الذی یجلیها،و بالتالی التأکید علی أنّ التدیّن ضروره مصیریه لکلّ إنسان.

[۴۸/۵۳]و یبیّن لنا القرآن صفه خامسه لأصحاب سقر هی فی الحقیقه

۱- ۱) نهج البلاغه ک ۳۱ ص ۴۰۰.

عامل رئیسیّ من عوامل الجریمه و المعصیه،و هو الفهم الخاطئ لمفهوم الشفاعه الذی تنادی به کلّ رسالات اللّه،حیث التمنّیات التی تحوّلها إلی مبرّر لممارسه الخطایا.

و إذا کان هذا الفهم تبلور لدی الیهود فی نظریه البنوّه و شعب اللّه المختار،و لدی النصاری فی نظریه الفداء،فإنّ بعض المسلمین أیضا انزلق إلی مثل هذه المفاهیم و التمنیات،و لکن بقوالب و تعابیر مختلفه،فقال البعض أنّ المسلمین خیر أمّه أخرجت للناس،و أنّ اللّه لا یعذّب أمّه فیها حبیبه النبی محمد صلی الله علیه و آله ،و قال فریق:

انّ الأولیاء یشفعون له الخطایا من دون قید و شرط،و القرآن ینسف کلّ هذه التمنّیات الباطله حتی لا یدع مجالا للإنسان یفرّ عبره عن تحمّل المسؤولیه،و قد حذّر أئمه الهدی من هذا الفهم الخاطئ للشفاعه،

قال أبو بصیر :دخلت علی حمیده أعزّیها بأبی عبد اللّه فبکت،ثم قالت:یا أبا محمد لو شهدته حین حضره الموت و قد قبض إحدی عینیه ثم قال:«ادعوا لی قرابتی و من لطف لی»فلما اجتمعوا حوله قال:

«إنّ شفاعتنا لن تنال مستخفا بالصلاه » (1).

و الآیه القرآنیه قویه فی وقعها.

فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَهُ الشَّافِعِینَ لأنّ أحدا لا یشفع لهم،و علی افتراض ذلک لا تنفعهم،فکیف و أنّ أولیاء اللّه لا یشفعون إلاّ لمن ارتضی ربّ العزه؟و إنما عبّر القرآن بهذه الصیغه لینسف تصوراتهم الخاطئه و المغرقه فی الأمانی،و لیس لبیان أنّ أحدا قد یتقدّم للشفاعه فی المجرمین،بلی.إنّ الشفاعه حقیقه واقعیه و لکنّها تنفع من تکون مسیرته الکلّیه مسیره صحیحه فتسقط عنه سیئاته الجانبیه،و لا تکون مسیره الإنسان العامه سلیمه إلاّ بالإقبال علی رساله اللّه،و اتباع رسله و أولیائه،من هنا یستنکر اللّه علی الکفار

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار ج ۸۲ ص ۲۳۶.

و المشركين إعراضهم عن تذكرته فى الوقت الذى يتطلّعون إلى ذلك.

فَمٰا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ قال مقاتل:الإعراض عن القرآن من وجهين:أحدهما الجحود و الإنكار، و الوجه الآخر ترك العمل بما فيه (١)،مع أنّ التذكره إنّما جاءت من أجل نجاتهم (البشر)بتعبير القرآن،و ليس ضدهم،فحقّ أن يستنكر القرآن موقفهم اللئيم من إحسان اللّه إليهم بالرساله،و أن يشبّههم بالحمير وصفا لواقعهم و حطّا من قدرهم.

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ و الاستنفار من النفور المختلط بشعور الخوف و الخطر،و الكلمه دخلت مصطلحا فى علم العسكريه،يقال:استنفر الجيش إذا توقّع و تأهّب لدفعه،و فى المنجد:

المستنفر الشارد المذعور (٢)،و الكلمه على وزن مستفعل ممّا يهدينا إلى أنّ المعرضين عن التذكره يزيد أحدهم الآخر إعراضا و نفورا عن الحق،كما يزيد أفراد القطيع من حمار الوحش بعضهم بعضا ذعرا و شرودا من سطوه الأسد الهصور حينما يهجم عليهم.

و القسوره على الأقرب اسم الأسد حينما ينقضّ على طريدته،من القسر بمعنى القهر، أى أنّه يقهر السباع،و الحمر الوحشيه تهرب من السباع (٣)كأشدّ ما يكون، و سمّى الرامى و الصيّاد قسوره لأنّه بسهمه يصطاد الصيد و يقهره،و تقول العرب لكلّ رجل قوىّ شديد قسوره لأنّه يصرع الأقران،و يخافه الآخرون،و ما أبلغه من تشبيه تصويرىّ رائع.

و لعلّ سائلا يسأل:لما ذا يفرّ البشر من التذكره؟و الجواب:إنّ وجدان

۱- ۱) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ۱۹ ص ۸۸.

۲- ۲) المنجد ماده نفر.

۳- ۳) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ۱۹ ص ۸۹.

الإنسان و عقله يرفضان كفره و عصيانه،و يعيش المجرم صراعا دائما معهما و لكنّه قد عقد عزمه عى المضيّ قدما مع شهواته،فيتهرب من الوعظ و الإرشاد حتى لا يدعم جانب عقله و وجدانه،لأنّ الرساله تكبح جماح الهوى،و تحدّد تصرفّات النفس بالأحكام و النظم،و تحمّله كامل المسؤوليه فی كلّ بعد من أبعاد الحياه الفرديه و الاجتماعيه.

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً قال ابن عبّاس:كانوا يقولون:إن كان محمد صادقا فليصبح عند كلّ رجل منّا صحيفه فيها براءته و أمنه من النار،قال مطر الورّاق:أرادوا أن يعطوا بغير عمل،و قال الكلبی:قال المشركون:بلغنا أنّ الرجل من بنی إسرائيل كان يصبح عند رأسه مكتوبا ذنبه و كفّارته،فاتنا بمثل ذلک،و قيل:أنّ أبا جهل و جماعه من قريش قالوا:يا محمد!ائتنا بكتب من ربّ العالمين مكتوب فيها:إنّی قد أرسلت إليكم محمدا صلی الله عليه و آله .نظيره:« وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّکَ حَتّٰى تُنَزِّلَ عَلَيْنٰا كِتٰاباً نَقْرَؤُهُ » (١).

و ما يريدونه محمول علی ثلاثه أوجه:

الأول:أنّهم يريدون مشاهده الرساله الإلهيه تتنزّل فی قرطاس يلمسونه، و يكون متميّزا معجزا من كلّ جهاته،و ما ذلک إلّا شرط تبريریّ للفرار من مسئوليه الإيمان و الطاعه للرسول،و قد فضح اللّه هذه النوايا الخفيّه،و كشف عمّا فی قلوبهم من مرض فقال:« وَ لَوْ نَزَّلْنٰا عَلَيْکَ كِتٰاباً فِی قِرْطٰاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ » (٢).

الثانی:أنّ الخضوع لقياده الآخرين،و بالذات الخضوع الشامل لجوانب

١- ١) المصدر ص ٩٠ بتقديم و تأخير.

٢- ٢) الأنعام/٧.

الحیاه،کما فی الأطروحه الإسلامیه للقیاده،من أصعب الأمور علی الإنسان، باعتباره یفرض علیه الخروج من شحّ النفس و حبّ الذات، و یحدّد مواقفه و تصرفّاته،هذا فی سائر الناس،أمّا إذا کان من المترفین و أصحاب الوجاهه فالأمر أثقل علیه و أصعب،حیث تتوق نفسه للرئاسه علی الآخرین،بینما النظام الإسلامی یفرض علیه الانصیاع لأوامر القیاده الرسالیه،و ربما التنازل عن المراکز الاجتماعیه التی لا یستحقّها و الأموال التی جمعها من غیر حلّها..و هذا ما لا یطیقه أبو جهل و أمثاله،لذلک تری کلّ واحد منهم یتمنّی لو یکون هو الرسول الذی یختاره اللّه فینزل علیه وحیه،و من ثمّ یفرض قیادته علی الناس،و یوجب علیهم الخضوع له.

قال مجاهد:أرادوا أن ینزل علی کلّ واحد منهم کتاب فیه من اللّه عز و جل:إلی فلان بن فلان (۱).و فی الآیه اعتراف ضمنی من المشرکین و الکفّار بأنّ الرساله فضل عظیم،تمنّاها کلّ واحد منهم لنفسه لما فیها من الشرف.

الثالث:أنّ هذه الآیه کشفت عن عقده مستعصیه عند الإنسان لا بدّ من الجهاد حتی یتغلّب علیها،و هی تلک العقده التی أشارت إلیها آیات عدیده فی الذکر تبیّن طلبات الکفّار الإعجازیه،مثل قوله سبحانه:« وَ قٰالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّٰی تَفْجُرَ لَنٰا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً* أَوْ تَکُونَ لَکَ جَنَّهٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهٰارَ خِلاٰلَهٰا تَفْجِیراً* أَوْ تُسْقِطَ السَّمٰاءَ کَمٰا زَعَمْتَ عَلَیْنٰا کِسَفاً أَوْ تَأْتِیَ بِاللّٰهِ وَ الْمَلاٰئِکَهِ قَبِیلاً » (۲)،و قالوا:« مٰا لِهٰذَا الرَّسُولِ یَأْکُلُ الطَّعٰامَ وَ یَمْشِی فِی الْأَسْوٰاقِ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ إِلَیْهِ مَلَکٌ فَیَکُونَ مَعَهُ نَذِیراً » (۳)،فهذه الآیات و نظائرها تکشف عن عقده أساسیه عند الإنسان و هی أنّه ینتظر ما یجبره علی اتباع الحق جبرا، فتراه دائم الطلب بما یراه علّه لإیمانه أو یسوّف الإیمان و العمل الصالح إلی أیّام یزعم أنّه یجد فیها ما

۱- ۱) الجامع لأحکام القرآن للقرطبی ج ۱۹ ص ۹۰.

۲- ۲) الإسراء ۹۲/۹۰.

۳- ۳) الفرقان/۷.

يكون سببا تامّـا لهما.و كما تتجلّى هـذه الطبيعه فى الإنسان الفرد فإنّها قـد تتجلّى فى شعب كامل و أمه كامله،و ثابت عمليّا فى تاريخ البشر و لـدى علماء النفس أنّ بعض الشعوب تنتظر حاله الكره على القانون حتى تلتزم به،و هو انتظار سخيف،إذ شرف الإنسان و كرامته(فرد أو أمّه)يتمثّل فى انتخابه الحر للخير و الفضيله، و ليس فى تحويله إلى أداه طيّعه لإراده قاهره حتى و لو استخدمت فى الطريق الصحيح.

هكذا كانت الهدايه من مسئوليه الإنسان ذاته،أن يختارها،و يسعى جاهدا إليها،و يجأر إلى ربه لتوفيقه إليها..و يكون دليله فى كلّ ذلك عقله الذى يميّز له و بوضوح كاف سبيل الهدى عن طريق الضلال،ممّا لا يدع له مجالا للتبرير،و هو أكبر حجه للّه عليه،و لعلّ الكلمه التاليه توحى بذلك:

كَلاّ ليس تبريرهم مقبولا،و ليس سبب استمرارهم على الكفر عدم وجود هذا الشرط أو ذاك.

و قوله فى الآيه السابقه« كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ »إشاره إلى كون هذه الصفه مرتكزه فى كلّ فرد فرد من البشر إلاّ ما شاء اللّه،و إلاّ من ينتصرون عليها و يصلحون أنفسهم.

ثم يبيّن ربّنا بقول فصل العامل الرئيسى فى موقف الكفّار من قيم الدين و قياده الرسول،ألا و هو عدم حضور الآخره فى وعيهم.

بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ إذن فطلبهم صحفا منشّره و المعجزات الأخرى ليس إلاّ تبريرا لموقفهم،و غطاء لشىء آخر هو عدم الخوف من الآخره،فالآخره إذن ليست فكره مجرّده يكفى

الإنسـان أن يلقلق بهـا لسـانه،و يحفظها فى ذاكرته،بل هيه حقيقه كبيره يجب أن يتفاعل معها عمليّا،فتعكس آثارها فى سـلوكه و شخصيته،و أظهر آيات ذلك الخوف من الآخره،بالخوف من عذاب اللّه و غضبه،فإنّها أحقّ بأن يخافها البشر.

و عـدم الخـوف مـن الآـخره قـد يكـون نـتيجه للكفر المحض بهـا،و قـد يكـون نـتيجه للأفكـار التـبريريّه الـتى ينسـجها الإنسـان بخياله،كالشرك باللّه،و أفكار الفداء الخاطئه.

[۵۶/۵۴]ثم يقول اللّه:

كَلاّـ إِنَّهُ تَـذْكِرَهٌ أى أنّ الإـعراض و النفور عن القرآن لاـ يصـيّره باطلاـفهو بآيـاته و حقـائقه يـذكّر البشـر بأعظم الحقائق،بل بها كلّها،إذ فيه تبيان لكلّ شىء.

و الرسول هو الآخر مصـداق للتـذكره،حيث يقوم بـذات الأهـداف التى جاء من أجلها القرآن،و أعظمها تذكير الإنسان بربّه عزّ و جلّ،عبر الأدلّه و الآيات التى تثير فيه العقل و توقظ الضـمير و لكن من دون جبر،فالرسول ما عليه إلاّ البلاغ المبين،و القرآن ليس دوره إلاّ بيان الحق و الباطل معا،و وضع الإنسان بكلّ وجوده المادى و المعنوى أمام الإختيار.

فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ بإرادته و وعيه،فإنّ أىّ اختيار آخر مرفوص عند اللّه،و لا ينفع صاحبه بشـىء لا فى الدنيا و لا فى الآخره،و لعمرى إنّهـا لمن أظهر الآيـات على أنّ الرسـاله حق، أن تعترف للإنسـان بحرّيّته و اختيـاره و مسـئوليته،و أن لاـ يمـارس معه أىّ لون من ألـوان الإـكراه إذ« لاـ إِكْراهَ فِى الـدِّينِ »انطلاقـا من حـاجته هـو إلى الحق،و ليس العكس.و هـذه فى نفس الوقت خصـيصه تميّز الرساله الإلهيه عن الدعوات البشريه

المرتکزه علی الجبر و الإکراه،و من ثمّ تجاهل دور الإنسان و حقّه فی تعیین مصیره.

و توازن الآیات بین الجبر و التفویض،لأنّ بصیره القرآن تهدی إلی أمر بین أمرین،و ذلک من خلال تذکیرنا بحقیقه مهمّه بقرار الإنسان و اختیاره فی الحیاه، ألا و هی أنّ مشیئته لا تکون إلاّ باللّه.أ و لیس اللّه خلق الإنسان و أسبغ علیه نعمه ظاهره و باطنه،فلو لا ـ خلقه هل کان شیئا حتی یشاء؟ثم إنّه منحه العقل و الإراده، و وفّر له فرصه المشیئه،و لو کان الإنسان کالحجر لا یملک عقلا أو إراده فهل کان یشاء شیئا؟و عند ما وفّرت له فرصه المشیئه و فی لحظه المشیئه لو لا نور التأیید الذی ینمّی إرادته لم یکن یمضی فی مشیئته قدما فی مقاومه جواذب الشهوه و رکائز النقص و العجز و الجهل التی هو فیها.ألیس کذلک؟و حینما تکون الهدایه محور المشیئه أ فیمکن للإنسان أن یبلغها من دون تذکره ربه و توفیقه؟ بلی.و هکذا قرار الإنسان مرکّب من أمرین:أحدهما متصل به،و الآخر متصل بربه،فحیث یختار الهدایه و یسعی إلیها سعیها یهدیه اللّه و یبارک سعیه، و هذا معنی

قول الإمام الصادق علیه السلام :«لا جبر و لا تفویض،و لکن أمر بین أمرین» (قال المفضّل)قلت:ما أمر بین أمرین؟قال:«مثل رجل رأیته علی معصیه فنهیته فلم ینته، فترکته ففعل تلک المعصیه،فلیس حیث لم یقبل منک فترکته کنت أنت الذی أمرته بالمعصیه » (۱)،و

قال-علیه السلام -:«اللّه تبارک و تعالی أکرم من أن یکلّف الناس ما لا یطیقونه(یجبرهم)،و اللّه أعزّ من أن یکون فی سلطانه ما لا یرید » (۲)(فیفوّض لهم الأمر).

و

قال الإمام علیّ بن موسی الرضا علیه السلام لمّا سأله المأمون:یا أبا الحسن!الخلق

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار ج ۵ ص ۱۷.

۲- ۲) توحید المفضل ص ۳۶۰.

مجبورون؟:«اللّه أعـدل من أن يجبر خلقه ثم يعـذّبهم»قال:فمطلقون؟قال:«اللّه أحكم من أن يهمل عبـده و يكله إلى نفسه » (۱)،و هذا البيان العميق للأئمه -عليهم السلام-فى شأن إراده الإنسان و قراره هو الحق الذى تهدينا إليه الأدلّه و الحجج البالغه،و أهداها وجـدان الإنسـان نفسه و تجـاربه الشخصـيه،فـإنّ الجبريّه و إن جادلوا عن رأيهم إلاّ أنّ كلّ واحـد واحـد منهم يعلم علم يقين أنّه الذى يقرّر ما يريد لا يكرهه أحد على ذلك،و إنّ المفوّضه ليعلمون بأنّ الأمور ليست كلّها بأيديهم.

وَ مٰا يَذْكُرُونَ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوىٰ وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَهِ أى أنّه-عزّ و جلّ-أهل أن يتقيه خلقه و يخافوه،و أهل أن ترجى رحمته و مغفرته،و هـذه اللمسه القرآنيه الأخيره تضع الإنسان على الصـراط السوىّ بين الخوف و الرجاء،كما وضـعته الآيات بين الجبر و التفويض،على أنّ مغفره اللّه تسبق غضبه.

ص:۱۲۱

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار ج ۵ ص ۵۹.

سوره القیامه

اشاره

ص:۱۲۳

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم

فضل السوره

عن أبی جعفر(الإمام الباقر)علیه السلام قال :«من أدمن قراءه«لا أقسم» و کان یعمل بها بعثه اللّه عزّ و جلّ مع رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله-من قبره فی أحسن صوره،و یبشّره و یضحک فی وجهه حتی یجوز علی الصراط و المیزان» نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۶۱

ص:۱۲۵

الإطار العام

أَ يَحْسَبُ الْإِنْسٰانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ؟أىّ شىء فى كيانه يدل على العبثيه و اللهو؟ خلقه أطوارا،أم فطرته القويمه،أم نفسه اللوّامه التى تبصّره بنفسه رغم المعاذير التى يلقيها،أم الحجج البالغه و أعظم بها كالقرآن الذى تكفّل الربّ بجمعه و بيانه؟ هكذا تترى آيات السوره تعمّق فى وعينا المسؤوليه التى تتجلّى فى يوم القيامه حيث يسوّى اللّه حتى البنان،و حيث تترى فيه الفواقر و الدواهى..و لا يجد الإنسان مفرّا و لا وزرا يلجأ إليه.

هكذا نهتدى إلى محور السوره المسؤوليه،و هدفها تعميق الشعور بها،و الآيه التى تتجلّى بها قوله سبحانه:« بَلِ الْإِنْسٰانُ عَلىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ».

و تفصيل هذه الحقيقه أنّ القرآن يذكّرنا فى مطلع السوره بحقيقتين:القيامه و النفس اللوّامه،و يربط بينهما على أساس أنّهما مظهر للمسؤوليه،فكما يستحثّ الإيمان بالقيامه الإنسان لتحمّلها فإنّ النفس اللوامه هى الأخرى تقوم بذات الدور

من بعد آخر،إذ تقف أمام تراجعاته،و تنهره عن التقصير فی أداء الواجب،و عن اقتحام الخطیئات(الآیات ۱-۲).

و یستنکر السیاق زعم الإنسان أنّه لن یبعث تاره اخری بعد أن یصیر أشلاء موزّعه و رمیما.هل یحسب أنّ قدره اللّه محدوده مثله؟کلاّ..قدرته تفوق تصوّر البشر..فهو لیس قادرا علی جمع عظامه و حسب،و إنّما یقدر أن یسوّی بنانه أیضا، و الإنسان حینما یراجع نفسه و یتفکّر فی آیات قدره اللّه فی الطبیعه فإنّه یعرف تلک الحقیقه،و لکنّه إنّما یخترع تلک الأفکار تبریرا للهروب من عرصه المسؤولیه، و الإیمان بالرساله التی تحدّد تصرفاته و لا تجعله مطلقا یتّبع الهوی کما یرید..

و یؤکّد القرآن مره أخری أنّ هذه هی الخلفیه الحقیقه لسؤاله عن القیامه (الآیات ۳-۶).

و یداوی ربّنا هذا المرض المستعصی فی النفس البشریه بالتأکید للإنسان أنّه و إن استطاع موقّتا(فی الدنیا)تبریر ضلاله و الفرار من المسؤولیه تحت غطائه فإنّه لن یجد فی المستقبل مفرّا من ربه حینما تقوم القیامه« فَإِذٰا بَرِقَ الْبَصَرُ* وَ خَسَفَ الْقَمَرُ* وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ »و عبر قنطره الدنیا الفانیه إلی دار الاستقرار عند اللّه،فهنالک یجد نفسه وجها إلی وجه مع حقیقه أمره حیث یجد ما عمل محضرا أمامه (الآیات ۱۷-۱۳).

و یثیر الوحی فینا حسّ النقد الذاتی،عن طریق تذکیرنا بحقیقه وجدانیه مسلّمه،ألا و هی بصیره الإنسان علی نفسه،فإنّه قبل الآخرین شاهد علیها و عالم بواقعها،مهما توسّل بالأعذار و التبریرات الواهیه،و إنّما یؤکّد القرآن هذه الحقیقه لأنّ المراقبه الذاتیه أعظم أثرا،و أرسخ للتقوی فی شخصیه الفرد (الآیات ۱۴-۱۵).

ص:۱۲۷

ثم ينعطف السياق إلى الحديث عن القرآن نفسه،داعيا الرسول إلى عدم التعجّل به من قبل أن يقضى إليه وحيه،مؤكدا تكفّله تعالى بجمعه و قرآنه ثم بيانه للناس..و هذا ممّا جعل المفسرين يتحيّرون فى فهم العلاقه بين سياق السوره و بين هذا المقطع،إلاّ أنّ هناك علاقه متينه سنتعرّض لإيضاحها فى البيّنات (الآيات ۱۶-۱۹).

و تهدينا الآيات إلى واحد من عوامل الانحراف و عدم تحمّل المسؤوليه عند الإنسان،و الذى لو استطاع التغلب عليه لاهتدى إلى الحق،و سقط الحجاب بينه و بين الآخره،ألا و هو حبّ العاجله(الدنيا)على حساب الآخره،و البحث عن النتائج الآنيه و إنكار الجزاء الآجل و لو كان الأفضل،بل و لو كان مصيريّا بالنسبه إليه،فهو يعيش لحظته الراهنه دون التفكير فى المستقبل،و هى نظره ضيّقه خطيره.

و حين يفشل الإنسان فى الموازنه بين الحاضر و المستقبل،و بين الدنيا و الآخره فإنّه يخسرهما معا(الآيات ۲۰-۲۱).

و الحلّ الناجع لهذه المعضله عند البشر يتمّ بإعاده التوازن بينهما إلى نفسه،و لأنّ العاجله شهود يعايشه بوعيه و حواسه فإنّ حاجته الملحّه إلى رفع الغيب إلى مستوى الشهود عنده،و لذلك يضعنا القرآن أمام مشاهد حيّه من غيب الآخره حيث الناس فريقان:فريق السعداء الذين تجلّل وجوههم النضاره،و يصلون إلى غايه السعاده بالنظر إلى ربّهم عزّ و جلّ،و فريق البؤساء الخاسرين أصحاب الوجوه الباسره، الذين ينتظرون بأنفسهم العذاب و الذلّه(الآيات ۲۲-۲۵).

و يمضى بنا السياق شوطا آخر يحدّثنا فيه عن لحظات الموت الرهيبه حيث تبلغ النفس التراقى فيعالج الإنسان سكرات الموت حيث يلفّ ساقا بساق،و يقبض كفّا و يبسط أخرى،بلى.إنّه أوّل مشهد من الآخره،و النافذه على عالمها الواسع.

ص:۱۲۸

و كما أنّ تكذيب أحد بهذه الحقيقه لا- يدفعها عنه و لا يغيّر من شأنها فإنّ التكذيب بالآخره هو الآخره لا يغيّر قدر ذرّه من أمرها،لأنّها حقيقه واقعه و قائمه(الآيات ۲۶ -۲۹).

و لأنّ مشكله الإنسان ليس إنكار الموت،و لا زعم القدره على دفعه،بل الشك فيما بعده أو الكفر به، انعطف القرآن نحو إنقاذه من حيره الشک فی المستقبل و الجهل به،و كأنّه يحلّ لغزا رجع صداه فی أكثر النفوس البشريه،ببيان أنّ مسيرته فی الحياه لا تنتهی بالموت،و إنّما الموت جسر إلى عالم أبديّ أوسع،هو عالم لقاء اللّه و الحساب و الجزاء بين يديه،و ذلک ممّا يعمّق الشعور بالمسؤوليه فی النفس (الآيه ۳۰).

و غياب هذه الحقيقه من وعی الإنسان هو المسؤول عن عدم تصديقه به و صلاته له،و هو يدفعه إلى التكذيب،و ركوب مطيّه الغرور.و انّ من يكون على هذه الصفات أولى له الموت من الحياه،و العذاب من الرحمه(الآيات ۳۱-۳۵).

و يرجعنا القرآن إلى الجذر الأصيل لكفر الإنسان بالبعث و الجزاء:إنّه جهله بقدره ربه سبحانه،فليتفكّر فی أصل خلقته حين كان« نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنىٰ* ثُمَّ كٰانَ عَلَقَةً »فخلقه اللّه و سوّاه،متكاملا فی ذاته،و متكاملا مع الجنس الآخر بأن خلق« مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثىٰ »فهذه آيه واضحه للعقل على قدره اللّه« عَلىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتىٰ »،لأنّ أصل الخلق أعجب و أدلّ على قدرته تعالى من الإعاده (الآيات ۳۶-۴۰).

[سوره القيامه (۷۵): الآيات ۱ الى ۴۰]

اشاره

بسْم اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِيم . لاٰ أُقْسِمُ بِيَوْمِ اَلْقِيٰامَهِ (۱) وَ لاٰ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اَللَّوّامَهِ (۲) أَ يَحْسَبُ اَلْإِنْسٰانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظٰامَهُ (۳) بَلىٰ قٰادِرِينَ عَلىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنٰانَهُ (۴) بَلْ يُرِيدُ اَلْإِنْسٰانُ لِيَفْجُرَ أَمٰامَهُ (۵) يَسْئَلُ أَيّٰانَ يَوْمُ اَلْقِيٰامَهِ (۶) فَإِذٰا بَرِقَ اَلْبَصَرُ (۷) وَ خَسَفَ اَلْقَمَرُ (۸) وَ جُمِعَ اَلشَّمْسُ وَ اَلْقَمَرُ (۹) يَقُولُ اَلْإِنْسٰانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ اَلْمَفَرُّ (۱۰) كَلاّٰ لاٰ وَزَرَ (۱۱) إِلىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ اَلْمُسْتَقَرُّ (۱۲) يُنَبَّؤُا اَلْإِنْسٰانُ يَوْمَئِذٍ بِمٰا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (۱۳) بَلِ اَلْإِنْسٰانُ عَلىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَهٌ (۱۴) وَ لَوْ أَلْقىٰ مَعٰاذِيرَهُ (۱۵) لاٰ تُحَرِّكْ بِهِ لِسٰانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (۱۶) إِنَّ عَلَيْنٰا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (۱۷) فَإِذٰا قَرَأْنٰاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (۱۸) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنٰا بَيٰانَهُ (۱۹) كَلاّٰ بَلْ تُحِبُّونَ اَلْعٰاجِلَهَ (۲۰) وَ تَذَرُونَ اَلْآخِرَهَ (۲۱) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نٰاضِرَهٌ (۲۲) إِلىٰ رَبِّهٰا نٰاظِرَهٌ (۲۳) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بٰاسِرَهٌ (۲۴) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهٰا فٰاقِرَهٌ (۲۵) كَلاّٰ إِذٰا بَلَغَتِ اَلتَّرٰاقِيَ (۲۶) وَ قِيلَ مَنْ رٰاقٍ (۲۷) وَ ظَنَّ أَنَّهُ اَلْفِرٰاقُ (۲۸) وَ اِلْتَفَّتِ اَلسّٰاقُ بِالسّٰاقِ (۲۹) إِلىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ اَلْمَسٰاقُ (۳۰) فَلاٰ صَدَّقَ وَ لاٰ صَلّى (۳۱) وَ لٰكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلّى (۳۲) ثُمَّ ذَهَبَ إِلىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطّى (۳۳) أَوْلىٰ لَكَ فَأَوْلىٰ (۳۴) ثُمَّ أَوْلىٰ لَكَ فَأَوْلىٰ (۳۵) أَ يَحْسَبُ اَلْإِنْسٰانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (۳۶) أَ لَمْ يَكُ نُطْفَهً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنىٰ (۳۷) ثُمَّ كٰانَ عَلَقَهً فَخَلَقَ فَسَوّى (۳۸) فَجَعَلَ مِنْهُ اَلزَّوْجَيْنِ اَلذَّكَرَ وَ اَلْأُنْثىٰ (۳۹) أَ لَيْسَ ذٰلِكَ بِقٰادِرٍ عَلىٰ أَنْ يُحْيِيَ اَلْمَوْتىٰ (۴۰)

اللغه

۴[بنانه]:البنان الأصابع،واحدها بنانه.

۱۱[لا وزر]:لا ملجأ يلجأون إليه،و الوزر ما يتحصّن به من جبل أو غيره.

۲۴[باسره]:کالحه متغیّره،و قال الراغب فی معنی البسور:أنّه إظهار العبوس قبل أوانه و فی غیر وقته،و یدلّ علی ذلک قوله عزّ و جلّ:« تَظُنُّ أَنْ یُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ ».

۲۵[فاقره]:هی الکاسره لفقار الظهر،و قیل:الفاقره الداهیه و الآبده.

۲۶[التراقی]:العظام المکتنفه بالحلق.

۲۷[راق]:طبیب.

۳۳[یتمطّی]:جاء فی مفردات الراغب:أی یمدّ مطاه أی ظهره،و المطیّه ما یرکب مطاه من البعیر،و قد امتطیته رکبت مطاه،و المطو الصاحب المعتمد علیه،و تسمیته بذلک کتسمیته بالظهر.

ص:۱۳۲

بَلِ الْإِنْسٰانُ عَلىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَهٌ

بينات من الآيات:

[۱-۲]حتی یتعمّق الإیمان عند الإنسان و یتحمل مسئولیاته فی الحیاه لا بد أن یستثار فیه حافزان:وعی الآخره مما تعنیه من بعث و جزاء،ثم نفسه اللوّامه التی تثیر فی داخله النقد الذاتی بما یعنی ردعه عن اقتحام الخطیئه،فالمسئولیه إذا هی الجذر الأصیل الذی تلتقی فیه فکره القیامه و حقیقه النفس اللوّامه،من هنا یذکّرنا القرآن بهما جنبا إلی جنب فی سیاق علاجه لموضوعها.

لاٰ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيٰامَهِ* وَ لاٰ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوّٰامَهِ و إنّ لکلمه«القیامه»تعبیرا عن الآخره هنا إیحاء نفسیّا خاصّا،یذکّر الإنسان بالبعث فی واحد من أعظم مشاهد تلک الحیاه حیث القیام من وهده القبر للحساب و الجزاء.و القیام أظهر تجلّیات الحیاه إذ لا یقوم الشیء حتی یستوی تماما و یکتمل.

ص:۱۳۴

و لقد مضى الكلام عن كلمه«لا»فى القسم،و خلاصه القول:أنّها تفيد معنى القسم،و أنّ ما يليها من كلام فى منزله من الوضوح لا داعى معها إلى القسم (۱)أو أنّ ما وراءها من حقيقه نقسم بها عظيمه نجلّها عن القسم،و هما معا يفيدان معنى التفخيم.و لا حاجه للحديث هنا عن اختلاف المفسرين فى تفسير هذه الصيغه القرآنيه لكونه نقل فى مواضع أخرى سبقت.

أمّا عن النفس اللوّامه فهناك أقوال كثيره،فعن قتاده:(أنّها النفس) الفاجره يقسم بها (۲)،و عن ابن عباس قال:المذمومه (۳)،و هما رأيان بعيدان جدّا تخالفهما النصوص التى جرى استخدام الكلمه فيها على وجه الإيجاب،كما يخالفهما المعنى اللغوى للوّامه،و عن مجاهد:تندم على ما فات و تلوم عليه (۴)،و عن الحسن قال:إنّ المؤمن لا تراه إلاّ يلوم نفسه،و إنّ الفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه (۵).

و الذى أختاره و تدلّل عليه النصوص أنّ فى الإنسان نفسين:أحدهما تختار الباطل و الفساد و هى الأمّاره،و الثانيه تدعو إلى الحق و الصلاح و هى اللوّامه، و نعبّر عنها فى الأدب الحديث بالضمير و الوجدان،و هذه النفس تستيقظ داخل الإنسان لتعاتبه على عدم العمل بالحق،و تنهره عن اقتحام الباطل.و إنّما عبّر القرآن عنها بصيغه المبالغه(فعّاله) لأنّها كثيره الملامه لصاحبها و النصيحه إليه،فإذا ما استجاب لها نمت و أخذت موقعها و دورها الإيجابى فى حياته،و إذا أدمن الصدّ عن نداءاتها و مخالفتها تباطأت عن العمل فلا تعود تلومه على خطاياه كثيرا.

۱- ۱) راجع سوره الواقعه عند الآيتين(۷۵-۷۶)و ما يليها.

۲- ۲) الدر المنثور ج ۶ ص ۲۸۷.

۳- ۳) المصدر.

۴- ۴) المصدر.

۵- ۵) المصدر.

و برامج الإسلام تهدف تنميه هذه النفس،و تعتمد عليها فی کثیر من تشریعاته جنبا إلی جنب اعتماده علی العقل،و هکذا یکون للإنسان محکمتان:محکمه نفسه اللوّامه،و محکمه الآخره،

قال الإمام الصادق علیه السلام :«ألا فحاسبوا أنفسکم قبل أن تحاسبوا،فإنّ فی القیامه خمسین موقفا کلّ موقف مقام ألف سنه » (۱)،و

قال الإمام السجّاد علیه السلام :«ابن آدم!لا تزال بخیر ما کان لک واعظ من نفسک،و ما کانت المحاسبه من همّک » (۲).

و لأنّ النفس اللوّامه تقوم بدورها فی حیاه الإنسان تجعل الرسالات الإلهیه و المواعظ الخارجیه تلقی تجاوبا منه،و إلاّ فهی لا تؤثّر شیئا إذا عطّل العقل و مات الضمیر،

قال الإمام الصادق علیه السلام :«من لم یجعل له واعظا من نفسه فإنّ مواعظ الناس لن تغنی عنه شیئا » (۳).

[۳-۴]و کما أنّ القیامه یوم البعث و جمع العظام فإنّ النفس اللوّامه آیه وجدانیه علی القیامه باعتبارها صوره مصغره عن تلک المحکمه العظمی،بل إنّها تصبح بلا مبرّر لو لا أنّ الإنسان سیلاقی حسابه الأوفی فی یوم من الأیام. من هنا یکون کفر البشر بالآخره مع وجود النفس اللوّامه فیه موضع استنکار،و دلیل ضلال فیه مبین،ما توحی به الآیه:

أَ یَحْسَبُ الْإِنْسٰانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظٰامَهُ و المتتبع لموارد استخدام کلمه(حسب)علی صیغها المختلفه فی القرآن یجد أنّها تعنی الظن و الزعم الذی لا أساس له،و ذلک یعنی أنّ تشکیک الإنسان بالآخره لا

ص:۱۳۶

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۷۰ ص ۶۴.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) المصدر/ص ۷۰.

مبرّر له أبدا،و إنّما يعتمد على التمنيات الواهيه،و الخيال البعيد،كما توحى الآيه بأنّ مشكله الإنسان ليست فى عدم إيمانه بخطئه،إذ أنّه إن لم يعترف به للناس فإنّه لا يستطيع الفرار منه أمام محكمه الضمير،و لكنّ مشكلته كفره بالحقيقه الثانيه ألا و هى القيامه،التى تعنى البعث و الحساب و الجزاء،و ذلك أنّه لا يستطيع استيعاب حقيقه العوده إلى الحياه بعد أن يموت و يصير أشلاء موزّعه و عظاما باليه تستحيل ذرّات تراب مع الأيام.

و جذر هذا التصور نجده حينما نبحث عنه فى جهل الإنسان بقدره ربه التى لا تحدّ،و تقييم شؤون الخلائق بما فيها البعث و النشور من خلال قياساته الذاتيه و قدراته المحدوده،دون أن يعرف أنّ للكائنات العظيمه التى خلقها اللّه من جبال و وهاد و أراضى و بحار و سموات و مجرّات..أنّ لها مقاييس أخرى لا تقاس بذاته.

و لهذا فإنّه حيث يجد نفسه عاجزه عن جمع عظام الموتى يحسب الأمر مستحيلا، أمّا لو عرف ربّه لتغيّر تصوّره و موقفه،و آمن بالآخره مصدّقا قول ربه:

بَلىٰ قٰادِرِينَ عَلىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنٰانَهُ عن سعيد بن جبير قال:سألت ابن عبّاس عن الآيه فقال:لو شاء لجعله خفّا أو حافرا..و لكن جعله اللّه خلقا سويّا حسنا جميلا (1)،و عنه قال:نجعلها كفّا ليس فيه أصابع (2)،و الأقرب منه أن تكون التسويه هنا بمعنى الخلق الكامل، بإعاده البنان على خلقها و كمالها الأوّل بعد الموت و التحلّل فى التراب،و هذا ردّ على شك الإنسان فى قدره اللّه على جمع الأعظم المتفرّقه الرميمه،أى أنّه تعالى ليس قادرا على جمعها و حسب،بل هو قادر على كسوها لحما و إعاده الحياه إليها.و إذا

١- ١) الدر المنثور ج ۶ ص ٢٨٧.

٢- ٢) المصدر.

كانت اليدان من خصائص الحضاره البشريه فإنّ الأصابع هى ميزه اليد عند الإنسان بما فيها من دقه و قوه و أناقه،و خصوصا البنان الذى يقوم بدور عظيم فى حياه الإنسان.

و قد اعتبر البعض هذه الآيه سبقا فى بيان حقيقه علميه يستفاد منها كثيرا فى القانون الجنائى،و هى:اختلاف خطوط أطراف الأصابع من إنسان إلى آخر، و التى أصبحت بذاتها علما مستقلا يسمّى بعلم البصمات،ترتكز عليه الدوائر الأمنيه فى مكافحه الجريمه و معرفه المجرمين.

و تعبير اللّه فى الآيه الثالثه«نجمع عظامه»يهدينا إلى أنّ الإنسان مهما تحلّل فى التراب إلاّ أنّه لا يتحوّل إلى العدم، بل يبقى أجزاء و ذرأت صغيره متفرقه هنا و هناك،و الخلق الثانى بالبعث يبدأ بجمعها إلى بعضها عبر قوانين و إراده إلهيه تجعل ذرأت كلّ فرد و عضو و جزئياته تجتمع و تلتحم مع بعضها،و اللّه العالم.

[۶-۵]أمّا سبب كفر الإنسان بالآخره فهو أنّه لا يريد الالتزام بالشرائع و الحدود،بل يريد أن يطلق العنان لأهوائه و شهواته و من ثمّ لا يتحمّل مسئوليه فى الحياه.

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسٰانُ لِيَفْجُرَ أَمٰامَهُ قال الإمام الصادق عليه السلام :«أى يكذّبه » (۱)،و على هذا أجمع جلّ المفسرين، قال العلامه الطبرسى:فالفجور هو التكذيب (۲).و قال الفخر الرازى:أى يكذّب بما أمامه من البعث و الحساب،لأنّ من كذّب حقّا كان فاجرا (۳).و الذى يبدو لى

۱- ۱) البرهان ج ۴ ص ۴۰۶.
۲- ۲) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۹۵.
۳- ۳) التفسير الكبير ج ۳۰ ص ۳۱۸.

أنّ الکلمه بمعناها الأصلی و هو الشق و التحطیم،و إنّما سمّی الفجر فجرا لأنّه یشقّ الظلام و یحطّمه،و الفجور فی الأخلاق و السلوک مثل ذلک،حیث أنّ الفاجر لا یلتزم بقیمه و لا قانون،بل یشق عصا المجتمع و الشرع باقتحام اللذات و الخطایا، و لا یرید أمامه شیئا یعیقه أبدا،و هذا التفسیر لا یعارض حدیث الامام و لا أقوال المفسرین لأنّ التکذیب مقدمه و مصداق للفجور.و لم أجد من المفسرین من قال ذلک،إلاّ إشاره عند الرازی إذ قال:من أنکر المعاد بناء علی الشهوه فهو الذی حکاه اللّه تعالی بقوله«الآیه»،و معناه:أنّ الإنسان الذی یمیل طبعه إلی الاسترسال فی الشهوات،و الاستکثار من اللذات،لا یکاد یقرّ بالحشر و النشر،و بعث الأموات،لئلاّ تنغّص علیه اللذات الجسمانیه،فیکون أبدا منکرا لذلک (1).

و الضمیر فی«أمامه»إمّا أن یعود إلی یوم القیامه،أو إلی اللّه عزّ و جلّ،حیث أنّ الفاجر یمارس فجوره فی حضور و شهاده اللّه،أو یکون عائدا علی الإنسان نفسه باعتباره یفجر أمام ضمیره و بشهاده من جوارحه التی تدلی بشهادتها علیه عند الحساب.و الأصح أنّ الضمیر یرجع إلی الإنسان،لأنّ الحدیث حوله و سائر الضمائر ترجع إلیه،و لعل هذا جعل ذلک مستساغا بینما یقال عاده:أمام نفسه.

یَسْئَلُ أَیّٰانَ یَوْمُ الْقِیٰامَهِ لأنّ الکفر بالقیامه هو الذی یبرّر له التحلّل من المسؤولیه،فهو فی سعی حثیث و جدل دائم من أجل إنکارها،و صناعه قناعه و لو داهیه لنفسه و للآخرین بذلک، فسؤاله لیس سؤال استهزاء و سخریه فقط،بل هو سؤال تبریر و جدل أیضا.و إنّها لصفه کلّ من یترک العمل بالحق و یخالف القیم،إذ لا بد من تبریر لموقفه،فکیف إذا کان فجورا؟

1- 1) المصدر ص ۳۱۹.

و لصيغه السؤال هذه استبعاد و تسويف بالتوبه،قال الزجّاج:و يجوز أنّه يريد أن يسوّف التوبه،و يقدّم الأعمال السيئه (۱)،و قيل معناه:أنّه يتعجّل المعصيه ثم يسوّف التوبه،و يقول:أعمل ثم أتوب (۲).

[۱۳-۷]و يبقى المكذّب بالآخره مسترسلا مع أهوائه و شهواته،فى فجور بعد فجور،لأنّه لا يحسب حسابا للقاء ربه،و وقائع القيامه التى تطبع آثارها المذهله و الرهيبه عليه و على الطبيعه من حوله،فهنالك لا يجد مفرّا من حكومه اللّه و جزائه، لأنّ الوضع يختلف فى الآخره عن الدنيا،حيث تنتهى فرصه الامتحان و الحريه.

فَإِذٰا بَرِقَ الْبَصَرُ قال فى التبيان:يقال برق البرق إذا لمع،و أمّا برق بالكسر فمعناه تحيّر،و قال الزجّاج:برق إذا فزع،و برق إذا حار (۳)،و فى المجمع قال أبو عبيده:برق البصر:

إذا شقّ و انشد (۴)،و قال العلاّمه الطبرسى:أى شخص البصر عند معاينه ملك الموت،فلا يطرف من شده الفزع،و قيل:إذا فزع و تحيّر من شده أهوال القيامه (۵)،و قال الرازى بعد أن نقل رأى الزجّاج:و الأصل فيه أن يكثر الإنسان من النظر إلى لمعان البرق،فيؤثّر ذلك فى ناظره،ثم يستعمل ذلك فى كلّ حيره، و إن لم يكن هناك نظر إلى البرق (۶). و ما أختاره أنّ بروق البصر يحمل معنى الحيره و الدهشه لحاله الذهول و الخوف التى تصيب الإنسان لسبب من الأسباب.و إنّه يحدث بعض الأحيان نتيجه الإرهاق أو الصدمات الروحيه و الماديه أن يرى الواحد

۱- ۱) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۹۵.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) التبيان ج ۱۰ ص ۱۹۲.

۴- ۴) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۹۴.

۵- ۵) المصدر/ص ۳۹۵.

۶- ۶) المنجد/ماده برق.

أمام ناظريه ما يشبه النجوم الصغيره،و لعلّ هذه الظاهره لون من بروق البصر.و في المنجد:برق برقا تحيّر و دهش فلم يبصر،البرقة:الدهشه و الخوف (۱).و بصر الإنسان يبرق يوم القيامه..و مع أنّه يبرق عند الموت إلّا أنّ حمل المعنى على القيامه أقرب إلى السياق فالحديث عنها،و المشاهد التاليه متصله بها لا بالموت.

وَ خَسَفَ الْقَمَرُ قال الزمخشري:ذهب ضوؤه،أو ذهب نفسه (۲)،و جاء الفعل معلوما بينما يقال عاده خسف ببناء الفعل للمجهول،و لعلّه للدلاله على أنّه في الحالات الطبيعيه يحجب نوره بعوامل خارجيه كوقوع الأرض بينه و بين الشمس في حركتها السنويه، ممّا يتسبب في حجب شعاعها عنه و وقوع ظل الأرض عليه.أمّا في الآخره فإنّ القمر نفسه يخسف و لا يخسف بشيء خارجي،فهو فاعل الخسف و ليس غيره.

و مشهد مريع آخر يلفت القرآن نظرنا إليه،و هو اختلال النظام الكوني في الحياه،و من مظاهره جمع الشمس و القمر،و هذه النتيجه حتميه و طبيعيه في ذلك اليوم،فالكون و النظام إنّما أوجدهما اللّه للإنسان، و حيث ينتهي دوره في الدنيا ينتهي معه كلّ متعلّق به.

وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ و علماء الفلك يدركون الآثار التي يخلّفها مثل هذا الأمر على الكائنات،و ما هو أعظم و أرهب بالنسبه للإنسان من هذه الأحداث الكونيه تلك الحقائق التي يمثّلها يوم القيامه و يكشف عنها،و أهمّها حقيقه الجزاء و المسؤوليه،التي طالما كذّب بها

۱- ۱) المنجد/ماده برق.

۲- ۲) الكشّاف/ج ۴ ص ۶۶۰.

و سعى للفرار منها بشتى الحيل و الذرائع،فهناك يجد نفسه وجها لوجه أمامها و لا سبيل له للهرب منها.

يَقُولُ الْإِنْسٰانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ و إنّما يكشف القرآن للإنسان مشاهد الآخره حتى يزرع التقوى فى نفسه فيضع بذلك حدا لفجوره و غروره،و لأنّ المعرفه بالمستقبل و الإيمان بحقائقه يخلّف توازنا فى مسيرته الدنيويه الحاضره،فهو إنّما يفجر زعما منه بأن سيجد مهربا من المسؤوليه.

كَلاّٰ لاٰ وَزَرَ أى ملجأ و مأوى.قال المبرّد و الزجّاج:أصل الوزر الجبل المنيع،ثم يقال لكل ما التجأت إليه و تحصّنت به وزر (1)،و منه الوزير الذى يلجأ إليه فى الأمور (2)، يقال وزرت الحائط،إذا قويت بأساس يعتمد عليه،و قال الحسن:لا جبل،لأنّ العرب إذا دهمتهم الخيل بغته قالوا:الوزر،يعنون الجبل (3).

و فى الآخره لا يجد أحد مفرّا و لا ملجأ من جزائه،و عذاب ربه،بلى.هناك مفر واحد فقط ينفع الإنسان،و هو أن يفر إلى ربه الذى منه العذاب،و إليه المصير، و لا يكون ذلك فجأه،إنّما يحتاج الأمر إلى تمهيد فى الدنيا قبل الآخره.

إِلىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ قال صاحب المجمع:أى ينتهى الخلق يومئذ إلى حكمه و أمره،و قيل«المستقر»:

١- ١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ٢٢١.

٢- ٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩۵.

٣- ٣) التبيان ج ١٠ ص ١٩۴.

المكـان الـذى يسـتقرّ فيه المؤمن و الكافر،و ذلك إلى اللّه لا إلى العباد (١).و الأصـح إطلاـق الكلمه كى تتسع إلى كلّ المعانى الموحيه بهـا هـذه العباره،كالقرار،و المصـير، و المقر،و الحكم،و الأمر..إلـخ،و فى ذلك تنبيه للإنسان على أنّ الـدنيا ليست محلاّ للخلود و الاسـتقرار،و لاـ محطه أخيره،فيجب أن يكيّف نفسه مع هـذه الحقيقه الهـامه،و ليس معنى الآـيه أنّ المسـتقر دون ذلك اليوم ليس للّه« فَلِلّٰهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولىٰ » (٢)،و لكن حكمته اقتضت أن تكون لنا الحريه فى الـدنيا،و يومئذ يكشف لنا الغطاء بصوره أوضـح و أجلى عن هيمنته و سـلطانه المطلقين،و نكتشف فيمـا نكتشف علمه و إحـاطته التامّين حينما يعرضـنا للحساب و الجزاء فنجد أنّه أحصى كلّ صغيره و كبيره لنا و علينا.

يُنَبَّؤُا الْإِنْسٰانُ يَوْمَئِذٍ بِمٰا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ فى التبيان و مثله المجمع:أى يخبر الإنسان يوم القيامه بأوّل عمله و آخره فيجازى به،و قيل:بما قـدّم من العمـل فى حيـاته،و مـا سـنّه فعمـل به بعـد موته من خير أو شـر، و قيـل:بما قـدّم من المعاصـى(على الطاعات)و أخّر من الطاعات (٣)(على المعاصى).

قال الإمام الباقر عليه السـلام :«بما قدّم من خير و شـر،و ما أخّر ممّا سنّ من سـنّه،ليسـتنّ بها من بعده،فإن كان شـرا كان عليه مثل وزرهم،و لا ينقص من وزرهم شىء،و إن كان خيرا كان له مثل أجورهم،و لا ينقص من أجورهم شىء » (٤).

و حضور مشهد الحساب الأخروى فى وعى الإنسان فى الدنيا له دور كبير فى

ص:۱۴۳

۱- ۱) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۹۵.
۲- ۲) النجم/۲۵.
۳- ۳) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۹۵.
۴- ۴) تفسير القمّى ج ۲ ص ۳۹۷.

بعثه على التقوى و الطاعه،و ممارسه النقد الذاتى البنّاء.و إنّ اللّه قادر أن يجازى الناس مباشره بعد بعثهم و لا أحد يسأله عمّا يفعل،و لكنّه يأبى إلاّ أن يجلى علمه و عدالته لخلقه.

[۱۵-۱۴]و السياق مهّد السبيل للحديث عن البصيره الأساسيه التى تعتبر محورا هامّا فى السوره،و هى وعى الإنسان بمسؤوليته عبر استثاره نفسه اللوّامه،التى تجعله عليها شاهدا و رقيبا ممّا يصلح مسيرته و يوجّهه إلى تحمّل المسؤوليه بتمام المعنى،فلا يمارس الخطيئه لأنّها تحتاج إلى التبريرات و الأعذار،و هى لا تنفع شيئا عند اللّه و لا عند محكمه نفسه.

بَلِ الْإِنْسٰانُ عَلىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ* وَ لَوْ أَلْقىٰ مَعٰاذِيرَهُ و هنا نهتدى إلى عدّه بصائر:

/۱يهدف الإسلام عبر منهجه التربوى تنميه وازع الضمير عند الإنسان كضمانه أساسيه لالتزامه بالشرائع.من هنا فإنّ القرآن يذكّره بالحقائق الوجدانيه المره بعد الأخرى.

/۲كما أنّ الإنسان لا يجد مفرّا من حكومه اللّه يوم القيامه و لا تنفعه الأعذار، فإنّه حين يراجع ذاته(ضميره و عقله)يواجه نفس الموقف،حيث يعلم بأنّ الأعذار التى يقدّمها لا واقع لها،فهى قد تخدع غيره و لكن لن تخدع وجدانه.

/۳إنّ الأعذار التى يلقيها الإنسان أكثرها كاذبه،يلجأ إليها لتبرير أخطائه و سلوكيّاته المنحرفه،و هى لا تغيّر من الواقع شيئا لا عند اللّه و لا عنده.و ورود الكلمه بالجمع«معاذيره»فيه دلاله على أنّه يتقن فنّ صناعه التبرير،و أنّه حينما يريد تبرير موقف أو عمل ما متصل به لا يكتفى بعذر واحد بل يختلق أعذارا كثيره.

و هـذه البصـائر تنسف الثقافه التبريريه التى هى أهم أسـباب التخلف و الاجرام،ذلك لأنّ الإنسان الـذى خلق فى أحسن تقويم،و أنشات نفسه على فطره الاسـتقامه،ثم زوّد بالنفس اللوّامه التى تراقب انحرافه بمقياس دقيق،إنّه لا يقفز -مره واحده-من قمّه الحق إلى حضيض الباطل،إنّما يهبط إليه عبر سلّم التبرير و تقديم الأعذار، فإذا بنفسه الأمّاره بالسوء تسوّل له الخطيئه،تقول له مثلا:أنّى لـك النقـاء الكامـل،أنت طيّب أكثر من اللازم،و لا يمكنك أن تعيش من دون ظلم أحـد،كل الناس يظلمون بعضـهم..و هكـذا يقدّم الأعذار لانحرافه حتى يبتعد كلّيّا عن طريق الحق و يتسافل إلى الحضيض.

و إذا عرف الإنسان الـدور السـلبى للأعذار و أنّها غطاء رقيق لارتكاب الجرائم الخطيره و أنّها لا تعنى شـيئا،فإنّ ذلك يساهم فى استقامته على الحق.

قال الإمام الصادق عليه السـلام :ما يصـنع أحدكم أن يظهر حسـنا و يسرّ سيئا، أليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنّه ليس كذلك؟و اللّه سبحانه يقول:«الآيه»إنّ السريره إذا صلحت قويت العلانيه (۱)،و

قال عليه السـلام :«ما يصـنع الإنسان أن يعتذر إلى الناس خلاف ما يعلم اللّه منه،إنّ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله كان يقول من أسـرّ سـريره ردّاه اللّه رداءهـا،إن خيرا فخير،و إنّ شـرا فشـر » (۲).و اختلـف فى تـاء«بصــيره» فقيـل أنّهـا للتـأنيث و تعـود على الجوارح،فكأنّ الآيه تقول:إنّ جوارح الإنسان على نفسه بصيره،و قيل:هى للمبالغه فإنّ العرب تقول:فلانه علاّمه،و فلان علاّمه.

و الذى يبدو لى إضافه إلى ذلك أنّها راجعه إلى النفس،فنفس الإنسان عليه بصيره،و لم أجد من المفسرين من قال ذلك.

و قد اعتمد الفقه الإسلامى هذه البصيره القرآنيه فى تحديد بعض التشريعات

۱- ۱) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۹۶.

۲- ۲) المصدر.

و التكاليف،بإيكال تشخيص موضوعها و حكمها إلى الإنسان نفسه من دون حاجه إلى مراجعه الفقيه أو المختص،

قال زراره :سألت أبا عبد اللّه(الإمام الصادق عليه السلام):ما حدّ المرض الذى يفطر صاحبه؟قال:«بل الإنسان على نفسه بصيره،هو أعلم بما يطيق » (۱)،و

فى روايه أخرى :«هو أعلم بنفسه،ذاك إليه » (۲)،و قد ذهب بعض الفقهاء فى فهمه لهذه الآيه إلى حدّ القول:بأنّ كلام المختص ليس حجّه ملزمه دائما،فلو أمره بالصيام على أساس أنّ المرض لا يضره و لكنّه ارتأى الضرر فله الحق فى مخالفته،و العكس كذلك صحيح.

[۱۹-۱۶]لكى تتبلور نظره الإنسان إلى نفسه،و تتميّز فى وعيه حوافز الخير و الصلاح عن شهوات الشر و الفساد،لا بد أن يعى الآخره و أهوالها،و ينتبه إلى نفسه اللوّامه،و يستضىء بالقرآن الذى هو حجه ظاهره فيما العقل حجه باطنه،و هما يلتقيان فى الحق و فى إعطاء الإنسان مقياسا سليما فيه.من هنا ينعطف السياق إلى الحديث عن تبليغ الرساله داعيا النبى صلى الله عليه و آله إلى عدم الاستعجال بالقرآن.

و قد تحيّر المفسرون فى العلاقه بين الآيات(۱۶-۱۹)و بين السياق العام للسوره،حتى قاد الجهل بعضهم إلى آراء بعيده كلّ البعد عن حقيقه الرساله،فزعم بأنّ القرآن تعرّض إلى التغيير عن مواضعه،إذ لا ينبغى أن ترد الآيات المذكوره فى مثل سوره القيامه،و قال آخرون بأنّ الحديث هنا ليس عن القرآن و إنّما هو عن كتاب الإنسان الذى يلقاه يوم القيامه منشورا،فقال القفال:و أنّ قوله:

«الآيه ۱۶»ليس خطاب مع الرسول صلى الله عليه و آله بل هو خطاب مع الإنسان المذكور فى قوله:« يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ »فكان ذلك للإنسان حالما يتبأ بقبائح أفعاله،و ذلك بأن يعرض عليه كتابه،فيقال له:« اِقْرَأْ كِتابَكَ كَفىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً »

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) المصدر.

فإذا أخذ فی القرآن تلجلج لسانه من شده الخوف،و سرعه القراءه فیقال له:« لاٰ تُحَرِّکْ بِهِ لِسٰانَکَ »فإنّه یجب علینا بحکم الوعد و بحکم الحکمه أن نجمع أعمالک علیک،و نقرأها علیک،فإذا قرأناه علیک« فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ »بالإقرار بأنّک فعلت تلک الأفعال (۱).و مثل ذلک قال العلاّمه البلخی و نصّ کلامه:و إنّما أراد قراءه العباد لکتبهم یوم القیامه،یدلّ علی ذلک ما قبله و ما بعده،و لیس منه شیء یدل علی أنّه القرآن،و لا شیء من أحکام الدنیا (۲).

و الذی یبدو لی فی الصله بین الآیات ما سبق من أنّ القرآن-إلی جانب یوم القیامه و النفس اللوّامه-حجه علی الإنسان و محکمه لعمله،یکشف للإنسان الحق عند ما یرجع إلی آیاته،و یعرض نفسه علیها،و ینبغی للرسول أن لا یستعجل به بهدف إکمال الحجه علی الناس،بل یجب أن یتبع ما یقضی إلیه بشأنه،فإنّ ذلک یکفی لهدایه من یرید الهدایه و یبحث عنها، أمّا الذین لا یریدون تحمل المسؤولیه، و یسعون دائما لإلقاء الاعذار و التبریرات(فلا یخافون یوم القیامه،و لا یسمعون ملامه أنفسهم)فإنّ الاستعجال بالقرآن و عرضه کله علیهم مره واحده لا یغیّر فی حیاتهم شیئا أبدا،و السبب أنّ مشکلتهم لیست قلّه الآیات،بل کونهم لا یریدون الإیمان و تحمل المسؤولیه،فلما ذا العجله إذا؟ کما أنّ علاج الإنسان المشتمل علی کثیر من الصفات السلبیه،کالجدل، و حب الراحه،و التبریر،و إراده الفجور،و من ثمّ التکذیب بالقیامه و بما تعنیه من مسئولیه فی الدنیا،و بعث و حساب و جزاء فی الآخره،إنّ علاجه من کلّ هذه الأدواء لا یتم مره واحده،بل لا بد من منهجیه تربویه مخططه و متدرجه،تنتشله من حضیض الباطل إلی قمّه الحق لتسمو به فی آفاق الکمال و الهدی.و هذا یقتضی

۱- ۱) التفسیر الکبیر ج ۳۰ ص ۲۲۲.

۲- ۲) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۳۹۷.

التدرج فی طرح الإسلام علیه.

لاٰ تُحَرِّکْ بِهِ لِسٰانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ

قال ابن عباس: کان النبی صلی الله علیه و آله إذا نزل علیه القرآن عجل بتحریک لسانه لحبّه إیّاه،و حرصه علی أخذه و ضبطه مخافه أن ینساه،فنهاه اللّه عن ذلک (۱)، و

فی الدر المنثور عن مجاهد قال: کان الرسول صلی الله علیه و آله یستذکر القرآن مخافه النسیان،فقیل له:کفیناک یا محمد (۲)، و علی هذا الرأی مؤاخذات عدّه:

أوّلها:أنّ نهی الرسول صلی الله علیه و آله عن فعل شیء ما لا یعنی إتیانه له منذ قبل، فلیس صحیحا أنّه کان یخشی النسیان و هو علی یقین بأنّ اللّه یلهمه القرآن و یثبّته فی قلبه،و قد نهی اللّه نبینا الأکرم صلی الله علیه و آله عن أمور کثیره من قبیل إطاعه الکفّار و المنافقین فهل نفهم من ذلک أنّه خضع لهم؟حاشا لحبیب اللّه.و من ذلک قوله تعالی:« یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ اتَّقِ اللّٰهَ وَ لاٰ تُطِعِ الْکٰافِرِینَ وَ الْمُنٰافِقِینَ إِنَّ اللّٰهَ کٰانَ عَلِیماً حَکِیماً » (۳).

ثانیها:أنّه تعالی بیّن لنبیه صلی الله علیه و آله بأنّه لا ینسی فقال:« سَنُقْرِئُکَ فَلاٰ تَنْسیٰ » (۴)،و الزعم بأنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله کان قد خشی النسیان یعنی(و العیاذ باللّه)أنّه شک فی وعد اللّه و کلامه هذا له.

ثالثها:أنّ القرآن یشیر بوضوح إلی باعث النبی علی التفکیر فی الاستعجال بالقرآن،و هو خشیته من أن تحول الظروف دون أن یجمع القرآن و یقرأ علی الناس و تبیّن معانیه لهم.أو کان شدید الاهتمام بهدایه الناس بالقرآن حتی کاد

۱- ۱) المصدر

۲- ۲) الدر المنثور/ج ۶ ص ۲۸۹.

۳- ۳) الأحزاب/۱.

۴- ۴) الأعلی/۶.

يهلك نفسه،حتى قال ربنا سبحانه:« فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلىٰ آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً » (۱).

و يبدو أنّ الذين اخطؤوا فی فهم الآيه قادهم إلى ذلک التصوير الفنّیّ فی تعبير القرآن:« لاٰ تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ »،و الذی هو أسلوب شائع فی آياته الكريمه.

إِنَّ عَلَيْنٰا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ أی جمع آياته فلا يضيع شیء منها،و الكلمه تتسع إلى معنى التأليف و النظم ممّا يهدينا إلى أنّه تعالى حفظ القرآن عن التحريف بزياده أو نقيصه،و تكفّل هو بتأليف آياته سورا سورا،فليس ترتيبه على هذه الطريقه التی بين أيدينا من فعل المسلمين،بل من فعل رسول اللّه صلى الله عليه و آله بأمر اللّه عزّ و جلّ،الذی تكفّل إضافه إلى ذلک بقراءته للناس بالكيفيه الصحيحه التی يريدها هو أن يقرأ بها كتابه.و لعل فی ذلک إشاره إلى بطلان فكره القراءات السبع،و أنّها من عند القرّاء أنفسهم ما أنزل اللّه بها من سلطان.بلى هناک قراءه صحيحه علّمها اللّه لنبيه فعلّمها بدوره المسلمين.

و قول اللّه تعالى:«إنّ علينا»لا يعنی أنّه بذاته يجمعه و يقرأه،كلاّ..بل أنّه سبحانه قد هيّأ الأشخاص الذين يقومون بهذا الدور و الظروف التی تساعد على تحقّق هذه الغايه،فلم يتوفّ نبيّه حتى بلغ كامل رسالته و قرأها للناس،بل و كتبت بأمره مبيّنا ترتيب السور و الآيات.

و تجدر الإشاره هنا إلى أنّ الإمام علی عليه السلام كان أوّل من كتب كامل القرآن و جمعه فی حياه الرسول صلى الله عليه و آله و بعده،و هذا من أهمّ الأدوار الحضاريه التی قام بها

۱- ۱) الكهف/۶.

-عليه السلام-،لأنّ اندثار القيم الحضاريه لأىّ أمّه يعنى نهايه الأمّه،فقد تنحرف مسيرتها و مسيره قيادتها لفتره من الزمن فتبقى القيم ضمانه العوده، أمّا لو خرقت القيم نفسها فلا ضمانه لعودتها..و هذا ما يجعل تعهّد اللّه بجمع القرآن و بقرآنه و بيانه ضروره حكيمه تقتضيها حكمته البالغه باعتبار الإسلام دين الإنسان إلى يوم القيامه،لا يجوز له أن يبتغى غيره،فكيف يسمح ربنا اللطيف أن تضيع على البشريه فرصه الهدايه بتحريف القرآن؟ فَإِذٰا قَرَأْنٰاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ قال فى المجمع:أى قرأه جبرئيل عليك بأمرنا« فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ »أى قراءته، و المعنى:اقرأه إذا فرغ جبرئيل عن قراءته،و قيل:أى فاعمل بما فيه من الأحكام و الحلال و الحرام (1)،و فى النصوص أنّ القرآن أنزل جمله واحده على الرسول فى ليله القدر فى شهر رمضان،فكان يأمره اللّه حسب حكمته بقراءته على الناس فى المناسبات المختلفه.و كانت الحكمه الإلهيه تفرض على الرسول التحرك فى المجتمع على ضوء ما يقضى إليه من الآيات و بقدره،ليبنى المجتمع الإسلامى النقى،و من ثمّ الأمه الإسلاميه الحنيفه على ضوء آيات الوحى،و يتمّ-بالتالى-تثبيت فؤاد النبى و سائر المؤمنين عبر القرآن،و هكذا لم ينزل القرآن لمجرد قراءته و حفظه،بل حتى يطبّقه الناس و يتبعوا هداه فى الحياه.

و هذا يهدينا إلى أنّ اللّه يوفّق الإنسان لفهم آيات الذكر بما يتم عليه حجته البالغه،فإن آمن و اتبع هداه نوّر قلبه بالمزيد من المعرفه،و إن كفر جعل قلبه قاسيا، و طبع عليه بكفره.

و لعل فى ذلك بصيره يحتاجها كل داعيه رسالى ألا و هى ضروره تحدى انفعالاته

ص:150

1- 1) مجمع البيان/ج 10 ص 397.

و ردود فعله،بل يجب أن يتبع خططه الحكيمه،و ينتظر بكلّ خطوه و موقف الإذن و الأوان المناسب.

قال الإمام الصادق-عليه السلام -:يا مفضّل!إنّ القرآن نزل فی ثلاث و عشرين سنه،و اللّه يقول:« شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ »،و قال:« إِنّا أَنْزَلْناهُ فِی لَيْلَهٍ مُبارَكَهٍ إِنّا كُنّا مُنْذِرِينَ »،و قال:« لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَهً واحِدَهً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ »،قال المفضل:يا مولای!فهذا تنزيله الذی ذكره اللّه،و كيف ظهر الوحی فی ثلاث و عشرين سنه؟قال:نعم يا مفضل! أعطاه القرآن فی شهر رمضان،و كان لا يبلّغه إلاّ فی وقت استحقاق الخطاب،و لا يؤدّيه إلاّ فی وقت أمر أو نهی (1).

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ إيضاح معانيه،و بيان حقائقه و تأويلاته،حتی لا تبقی للإنسان حجه علی اللّه، و لكی تكون للّه الحجه البالغه عليه فی الدنيا و الاخره.أمّا كيف يبيّن ربّنا قرآنه الكريم لكافّه الناس فلعل من أسبابه:أنّه يقيّض الدعاه إليه، و الأدلاء عليه،و أهل البصائر النافذه لتفسيره و بيانه،ثم أنّ للّه حجتين علی الإنسان واحده باطنه هی عقله،و أخری ظاهره هی رساله اللّه و رسله،و هما يلتقيان فی وجدان كلّ إنسان سوی،فما يأمر به القرآن من قيم الصدق و العدل و الإحسان يأمر به العقل أيضا،و هذا من سبل بيان القرآن لأنّه يتطابق و وجدان الإنسان و فطرته و عقله و العرف العام عند العقلاء.

و هناك سبب آخر لبيان القرآن:أنّه يفسّر بعضه بعضا،فلا تكاد كلمه تذكر

1- 1) تفسير البصائر/ج 50 ص 569.

فى سياق إلاّ و يفسّرها ذات السياق قبله و بعده،ببيان مصاديقها و أمثلتها التاريخيه و شواهدها الواقعيه،فلا يدع الناس فى حيره من أمرها،و أبرز مثل لذلك سوره الإخلاص حيث تأتى كلّ كلمه فيها تفسيرا لما سبقتها،فتفسير«قل»يأتى بما بعده من قوله:«هو اللّه»،و تأويل«هو»:«اللّه»،و تفسير الصمد هو أنّه لم يلد و لم يولد،كما أنّ مجملات القرآن فى سوره تفسّرها مفصّلاتها فى سور أخرى،و هكذا جعل اللّه القرآن ميّسرا للذكر بسبل شتى.

[۲۰-۲۵]و لكن هل يقتنع الإنسان بذلك البيان و يلزم نفسه بالحجج؟ كَلاّ لأنّه يريد أن يفجر أمامه،و من ثمّ لا يتبع عقله باعتباره يحدّد سلوكه و أفعاله، و إنّما يتبع هواه،و تابع الهوى لا يعرف حدّا و لا قيمه.و عنوان اتباع الهوى هو حبّ الدنيا الذى يترتّب عليه ترك الآخره.

بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَهَ* وَ تَذَرُونَ الْآخِرَهَ و هذا هو جذر كلّ خطيئه عند الإنسان،كما

بيّن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى حديثه المشهور :«حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئه ».و قد قال اللّه:«العاجله»و لم يقل:

(الدنيا)لأنّه يريد الحديث عن صفه عند البشر هى التى تدعوه للهث وراء حطام الدنيا و ترك الآخره،و هى كونه يحب كلّ مقدّم معجّل،و يقدّمه على كلّ مؤخّر مؤجّل،دون النظر إلى المصلحه العامه و الأساسيه فى أيّهما تكون،فقد يختار دينارا معجّلا على ألف مؤجّله،مع أنّه قد لا يجد دليلا ينفى ما فى المستقبل.

و علاج هذه المعضله البشريه يتم بإيجاد التوازن فى وعيه بين الحاضر و المستقبل، و ينتهج القرآن من أجل ذلك نهج التذكره و التصوير لمشاهد الآخره ممّا يزيدها

حضورا فی وعیه،و هذا ما نقرأه فی الآیات التالیه.

وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ نٰاضِرَهٌ و الکلمه تتسع لجمیع معانی الحسن و الجمال و البشر التی تعبّر عن نفس مطمئنه راضیه تفیض سرورا و أملا برحمه اللّه.قال فی المنجد:نضر الوجه نعم و حسن و کان جمیلا،فهو ناضر و نضر و نضیر،و النضر جمع نضار،و أنضر:الذهب و الفضه،یقال:

« تَعْرِفُ فِی وُجُوهِهِمْ نَضْرَهَ النَّعِیمِ »أی بریقه و رونقه (1).و وجوه المؤمنین یوم القیامه ناضره فرحا و سرورا بلقاء ربهم،و رضوانه،و جزائه الحسن،و غایه ذلک نظرهم إلی ربهم حیث یعرفون من أسماء ربهم الحسنی،و یرون من آیات بهائه و جلاله، و ینتظرون من آلائه و نعمائه ما یجعلهم فی بحبوحه الرجاء،و عنفوان الرضا، و مهرجان الحبّ و القرب،و شلاّل لا ینقطع من نور اللّه البهی.

إِلیٰ رَبِّهٰا نٰاظِرَهٌ قال العلاّمه الطبرسی:اختلف فیه علی وجهین:

الأول:أنّ معناه نظر العین،و اختلف من حمله علی نظر العین علی قولین:

أحدهما:أنّ المراد إلی ثواب ربها«ناظره»أی هی ناظره إلی نعیم الجنه حالا بعد حال فیزداد بذلک سرورها.

الآخر:أنّ النظر بمعنی الرؤیه،و المعنی تنظر إلی اللّه معاینه،رووا ذلک عن الکلبی و مقاتل و عطاء و غیرهم،و عموم رأی أهل السنه،(وردّ علی هذا الرأی فقال:)و هذا لا یجوز،لأنّ کلّ منظور إلیه بالعین مشار إلیه بالحدقه و اللحاظ،

۱- ۱) المنجد/ماده نضر.

و اللّه يتعالى عن أن يشار إليه بالعين،كما يجلّ سبحانه عن أن يشار إليه بالأصابع.

الثانى:أنّه الانتظار،و اختلف من حمله على هذا المحمل على أقوال:

ألف:

أنّ المعنى منتظره إلى ثواب ربها،و روى ذلك عن مجاهد و الحسن و سعيد بين جبير و الضحّاك و هو المروى عن على عليه السلام ، و ساق ما قاله شيخ الطائفه من الردّ على من اعترض على إمكان تعدّى النظر بإلى.

باء:أنّ معناه مؤمّله لتجديد الكرامه،كما يقال:عينى ممدوده إلى اللّه تعالى، و إلى فلان،و أنا شاخص الطرف إلى فلان.

جيم:المعنى أنّهم قطعوا آمالهم و أطماعهم عن كلّ شيء سوى اللّه تعالى (۱).

و ما يبدو لى أنّ النظر هنا بكلا المعنيين المجازى و الحقيقى،فأمّا المجازى فإنّ المؤمنين يوم القيامه يتأمّلون من ربهم الثواب و الكرامه،و يقطعون أملهم إلاّ منه، و..و..و أمّا الحقيقى فإنّهم ينظرون إلى ربهم ببصائرهم لا أبصارهم من خلال آياته و نوره الذى يتجلّى لهم إكراما منه تعالى لعباده المتقين.

أمّا النظر إلى ذات اللّه فهو مستحيل،و القول بذلك يستدعى التجسيد،و هو من الثقافه الشركيه التى تسربّت إلى بعض المسلمين من الثقافات الدخيله.

و كيف يجوز النظر إلى اللّه و العين لا تستوعب بعض آياته؟هل نظرت إلى عين الشمس لحظات؟هل تفكّر فى أن تحدق فى الشمس من قرب أو لا تحترق عينك؟ و الشمس آيه صغيره متناهيه فى الصغر إذا قيست بأنوار قدس الرب!لقد تجلّى اللّه للجبل فجعله دكّا،فكيف يتحمّل هذا البشر الضعيف تجلّيات الرب إلاّ بقدر ما

۱- ۱) مجمع البيان ج ۱۰ ص ۳۹۸ مع تصرف ترتيبا و تنقيطا و اختصارا.

يشاء اللّه سبحانه و تعالی عن وصف الواصفین.

جاء فی الحدیث عن صفوان عن ابن حمید قال :ذاکرت أبا عبد اللّه(الإمام الصادق علیه السلام)فیما یروون من الرؤیه(لذات اللّه عزّ و جلّ)فقال:«الشمس جزء من سبعین جزء من نور الکرسی،و الکرسی جزء من سبعین جزء من نور العرش،و العرش جزء من سبعین جزء من نور الحجاب،و الحجاب جزء من سبعین جزء من نور السر،فإن کانوا صادقین فلیملئوا أعینهم من الشمس لیس دونها سحاب!! » (۱).

وَ وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ بٰاسِرَهٌ و هی وجوه المجرمین حیث القیامه موعدهم مع الفضیحه و العذاب و الذل، و بسور وجوههم یحکی باطن نفوسهم المنطویه علی الیأس و التشاؤم و الخوف ممّا ستلاقیه.

تَظُنُّ أَنْ یُفْعَلَ بِهٰا فٰاقِرَهٌ قال فی المنجد:الفاقره جمعها فواقر:الداهیه الشدیده،فکأنّها تکسر فقر الظهر،و الفقره:الأمر العظیم (۲)،و إنّ المجرمین یوم القیامه لیساورهم هاجس و رعب ینتظرهم من الدواهی،و هذا الهاجس یعدّ عذابا عظیما بذاته.

[۲۶-۳۰]تلک هی حقائق یوم القیامه التی یجب علی الإنسان أن یتذکرها دائما،باعتبار الإیمان بها یجعله متوازنا فی التفکیر،و یسوقه نحو التسلیم للحق و العمل به،و لکنّ الحجب تحول بینه و بین الإیمان بذلک المستقبل فیکذّب به،و لکن هل

ص:۱۵۵

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۴ ص ۴۴.

۲- ۲) المنجد/ماده فقر.

یغیّر تکذیبه من الحقائق شیئا؟کلاّ..فلیکذّب بالموت فهل یمکنه أن یلغیه،أو یجد مفرّا من ملاقه؟بالطبع کلا..فحرکته نحونا و حرکتنا نحوه سنّه حتمیه،و کذلک بالنسبه لمواقف القیامه.و عند ما یواجه الإنسان المحنه الفاقره فی الدنیا تتساقط الحجب من عینیه فیری الحقائق بوضوح و یعترف بها بصراحه،و یندم حتی الأعماق علی ما کذّب به،و لا محنه أعظم من الموت،و لا ساعه أشدّ علی الإنسان فی الدنیا من ساعه السکرات.

کَلاّٰ إِذٰا بَلَغَتِ التَّرٰاقِیَ و هی عظم وصل بین ثغره النحر و العاتق من الجانبین (۱)،و قال صاحب المجمع:التراقی جمع الترقوه،و هو مقدّم الحلق من أعلی الصدر،تترقّی إلیه النفس عند الموت،و هناک تقع الحشرجه (۲)،و یقال:بلغت الروح التراقی کنایه عن صعودها و قرب خروجها من البدن و مفارقتها له،و لعلّها حقیقه یعانیها المیت عند سکرات الموت.

وَ قِیلَ مَنْ رٰاقٍ أی و قال أهله:من راق؟أی طبیب شاف یرقیه و یداویه،و قیل:تختصم ملائکه الرحمه و ملائکه العذاب أیّهم یرقی بروحه (۳)،و به قال الرازی و الزمخشری و صاحب تفسیر فتح القدیر.و لعل المعنی من الرقیه(الأدعیه و التعویذات التی تکتب فی قرطاس للتشافی بها)و کأنّ المعنی أنّ أهله أو هو نفسه یسألون عمّن یکتب له ذلک طمعا فی الشفاء.

۱- ۱) التفسیر الکبیر ج ۳۰ ص ۲۳۰.

۲- ۲) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۴۰۰.

۳- ۳) المصدر/ص ۴۰۱.

وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِرٰاقُ ظن يقين يصل إلى حدّ التصور و شبه الرؤيه،فإنّه حينئذ يعاين حقيقه الموت و الآخره فإذا به يقبض يدا و يبسط أخرى، و هكذا يعالج سكرات الموت بروحه و حركاته اليائسه.

وَ الْتَفَّتِ السّٰاقُ بِالسّٰاقِ عن قتاده:هما ساقاه عند النزع،أما رأيته كيف يضرب بإحدى رجليه على الأخرى؟و قال الحسن:هما ساقاه إذا التفّتا فى الكفن،و قيل:إذا مات يبست ساقاه و التصقت إحداهما بالأخرى (۱)،و عن الشعبى و أبى مالك:لأنّه يذهب بالقوه فيصير كجلده يلتفّ بعضها ببعض،و قيل:يضطرب فلا يزل يمدّ إحدى رجليه و يرسل الأخرى.و لعلّ الآيه كنايه عن الشدائد و الصعاب التى يواجهها الإنسان عند الموت،و قد وجدت إشاره إلى هذا المعنى فى تفسير القرطبى قال:أى فاتصلت الشده بالشده،شده آخر الدنيا بشده أوّل الآخره،قاله ابن عباس و الحسن و غيرهما..و قال الضحاك:اجتمع عليه أمران شديدان..و العرب لا تذكر الساق إلاّ فى المحن و الشدائد العظام،و منه قولهم:قامت الدنيا على ساق،و قامت الحرب على ساق (۲).

و حينما يفارق الإنسان هذه الدنيا بما فيها و من فيها فإنّه لا يصير إلى العدم،و إنّما ينتقل من فراقها إلى لقاء عظيم بربه.

إِلىٰ رَبِّکَ يَوْمَئِذٍ الْمَسٰاقُ

۱- ۱) التفسير الكبير ج ۳۰ ص ۲۳۲.

۲- ۲) الجامع لأحكام القرآن/ج ۱۹ ص ۱۱۲.

قیل:یعنی إلیه المنتهی أو غایه سوق الملائکه لکلّ نفس، و هو صحیح،و لکن یبدو لی أنّ«المساق»هنا یعنی المصیر،حیث أنّ الأنفس بعد الحساب تسوقها الملائکه إلی مأواها و مصیرها،فامّا تسوق الإنسان ملائکه الرحمه إلی الجنه،و امّا تسوقه ملائکه العذاب إلی النار،و إلی اللّه وحده و بیده الأمر بکلا المساقین،فما أحوجه إلی معرفه هذه الحقیقه و الإیمان بها،فإنّ ذلک یبعث فیه روح التسلیم إلیه و السعی إلی القرب منه.

[۳۵-۳۱]و حین لا یؤمن الإنسان بلقاء ربه ینحرف عن الصراط المستقیم و یترک الواجبات التی علیه.

فَلاٰ صَدَّقَ وَ لاٰ صَلّٰی* وَ لٰکِنْ کَذَّبَ وَ تَوَلّٰی قیل:لا صدّق بما له ذخرا عند اللّه،و لا صلّی الصلوات التی أمره اللّه بها (۱)، و الأصح حمل التصدیق هنا علی معناه الأصلی،و هو تصدیق الإیمان بالعمل و الباطن بالظاهر و العکس،و هذا الفهم یجعل الکلمه تتسع لکثیر من المفردات و المصادیق و من بینها الإنفاق.کما أنّ الصلاه رمز الصله و القرب مع الخالق و رمز التواصل مع الخلق،و هکذا الآیتان تفسّران بعضهما،فالتکذیب نقیض التصدیق،و التولی نقیض التواصل،و المکذّب بالحق یرتکب ذنبین:أحدهما عدم التصدیق و الصلاه، و الآخر التکذیب و التولی،و ابتعاد الإنسان عن الحق لیس یقطع علاقته باللّه و برسوله فقط،و إنّما یفسد علاقته بالناس أیضا،فهو یرکب مطیه الغرور و التکبر بینهم.

ثُمَّ ذَهَبَ إِلیٰ أَهْلِهِ یَتَمَطّٰی

ص:۱۵۸

۱- ۱) المصدر/ص ۱۱۳.

أصل التمطّی تمدّد البدن من الکسل،و هو من لوی مطاه أی ظهره.قالوا:

إنّه إشاره إلی التبختر علی نهج القرآن فی ذکر الصفات بالتصویر الظاهر.و لعلّه أعمّ من ذلک حیث یدل علی حاله اللامسؤولیه و الإشتغال باللهو و اللعب عن الجد و الاجتهاد.

ثم یتوعد اللّه من تکون صفاته التی مرّ ذکرها بالعذاب بعد العذاب فیقول:

أَوْلیٰ لَکَ فَأَوْلیٰ* ثُمَّ أَوْلیٰ لَکَ فَأَوْلیٰ

قال عبد العظیم بن عبد اللّه الحسنی :سألت محمد بن علی الرضا علیه السلام عن قول اللّه عزّ و جلّ:«الآیتین»قال:«یقول اللّه عزّ و جلّ:بعدا لک من خیر الدنیا، و بعدا لک من خیر الآخره » (۱).

و أصل الکلمه وعید و تهدید،و معناه:أنّ المکروه یقترب منک و أنت صاحبه و

جاءت الروایه :أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله أخذ بید أبی جهل ثم قال له:« أَوْلیٰ لَکَ فَأَوْلیٰ ثُمَّ أَوْلیٰ لَکَ فَأَوْلیٰ »فقال أبو جهل:بأیّ شیء تهددنی؟لا تستطیع أنت و لا ربّک أن تفعلا بی شیئا،و إنّی لأعزّ أهل الوادی،فأنزل اللّه سبحانه کما قال له رسول اللّه، و قال القرطبی:و قیل:معناه الویل لک.

[۳۶-۴۰]و یستنکر القرآن علی الإنسان شذوذه عن الحق و کفره به؟ أَ یَحْسَبُ الْإِنْسٰانُ أَنْ یُتْرَکَ سُدیً کلّ شیء فی حیاه الإنسان یهدیه إلی إحاطه تدبیر اللّه به، و شمول رعایته

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۶۶.

لحیاته،و إلاّ لأعدمت أو تحوّلت جحیما لا یطاق،و أبرز ذلک خلقته:کیف حملته ید اللطف من صلب أبیه حیث کان حیوانا منویّا لا یری إلی رحم أمه،و أجری له من الطعام و الشراب،و ضمن له من السلامه و الأمن حتی أصبح علقه،ثم رعاه و حماه و ربّاه حتی جعله خلقا سویّا..فهل یعقل أن یترک فی المستقبل سدی و هو لم یترک کذلک سلفا،بل لا شیء فی کیانه ترک بلا هدف أو غایه؟ أَ لَمْ یَکُ نُطْفَهً مِنْ مَنِیٍّ یُمْنیٰ* ثُمَّ کٰانَ عَلَقَهً فَخَلَقَ فَسَوّٰی* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَیْنِ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثیٰ و کما أنّ هذه المراحل حتمیه بالنسبه للإنسان فإنّ الآخره هی الأخری حتمیه، و الفکره هذه تفسّر ربط القرآن الدائم بین الحدیث عن الآخره و الحدیث عن مراحل خلقه الإنسان و أطواره،التی یهتدی المتدبر فیها إلی معرفه ربه حیث هی آیات لطفه و حکمته و قدرته.و بعد تفکّر البشر فی نفسه و خلقه یجب أن یطرح علی نفسه هذا السؤال الحاسم:

أَ لَیْسَ ذٰلِکَ بِقٰادِرٍ عَلیٰ أَنْ یُحْیِیَ الْمَوْتیٰ و لن یجد أحدنا جوابا لهذا السؤال إلاّ أن یقول:بلی.و حینئذ سیؤمن بیوم القیامه و حقائق الآخره،لأنّ الشک فی فکره الآخره منبعث من الجهل بقدره اللّه النافذه التی لا تحدّ.

سوره الإنسان

اشاره

ص:۱۶۱

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

فضل السوره

روى عن أبى جعفر(الإمـام الباقر)-عليه السـلام-قال :من قرأ سوره «هل أتى»فى كلّ غـداه خميس زوّجه اللّه من الحور العين مأه عذراء و أربعه آلاف ثيّب،و كان مع محمّد-صلّى اللّه عليه و آله-.

نور الثقلين/ج ۵ ص ۴۶۷

ص:۱۶۳

الإطار العام

تفكّر حين لم تكن شيئا مذكورا ثم خلقك اللّه الحكيم المقتدر من نطفه أمشاج.تفكّر فى هدف ذلك هل هو سوى الابتلاء؟ هكذا تفتتح سوره الإنسان التى تزرع فى النفس خشيه الآخره،و تجعلها معراجا للشخصيه إلى التكامل و السمو حتى تبلغ درجه الأبرار،الذين تصبغ شخصيتهم الفذّه صفه الوفاء بالنذر،و الخوف من يوم القيامه،و الإيثار،و الترفّع عن شهوه المدح و حب التسلّط على الآخرين.

و تمضى آيات السوره المباركه التى نزلت فى شأن أهل الرسول -عليهم الصلاه و السلام-تمضى فى بيان نعيم الجنه التى تختمها بوصفها بالملك الكبير،و بأنّ ربّهم الرحمن يسقيهم شرابا طهورا.

و لكى لا يعيش الإنسان فى أحلام التمنّى و التظنّى يذكّره السياق بأنّ ثمن الجنه الصبر لحكم اللّه،و الاستقامه ضد ضغوط الآثمين و الكفّار،و ذكر اللّه بالليل

ص:۱۶۴

و النهار.

و يبيّن أنّ الضالين و الظالمين انتهوا إلى هذه العاقبه السوأى بسبب تركهم ذكر يوم القيامه ذلك اليوم الثقيل.و فى خاتمه السوره يذكّرنا الربّ بأنّ الإنسان حرّ فى اتخاذ سبيل اللّه بتلك المشيئه التى منحه اللّه إيّاها،و أنّ مشيئته باللّه العظيم الحكيم فى عطائه و جزائه.

[سوره الإنسان (۷۶): الآيات ۱ الى ۳۱]

اشاره

بِسْمِ اَللَّهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . هَلْ أَتىٰ عَلَى اَلْإِنْسٰانِ حِينٌ مِنَ اَلدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (۱) إِنّٰا خَلَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشٰاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنٰاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (۲) إِنّٰا هَدَيْنٰاهُ اَلسَّبِيلَ إِمّٰا شٰاكِراً وَ إِمّٰا كَفُوراً (۳) إِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ سَلاٰسِلَ وَ أَغْلاٰلاً وَ سَعِيراً (۴) إِنَّ اَلْأَبْرٰارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كٰانَ مِزٰاجُهٰا كٰافُوراً (۵) عَيْناً يَشْرَبُ بِهٰا عِبٰادُ اَللّٰهِ يُفَجِّرُونَهٰا تَفْجِيراً (۶) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخٰافُونَ يَوْماً كٰانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (۷) وَ يُطْعِمُونَ اَلطَّعٰامَ عَلىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً (۸) إِنَّمٰا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اَللّٰهِ لاٰ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزٰاءً وَ لاٰ شُكُوراً (۹) إِنّٰا نَخٰافُ مِنْ رَبِّنٰا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (۱۰) فَوَقٰاهُمُ اَللّٰهُ شَرَّ ذٰلِكَ اَلْيَوْمِ وَ لَقّٰاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً (۱۱) وَ جَزٰاهُمْ بِمٰا صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً (۱۲) مُتَّكِئِينَ فِيهٰا عَلَى اَلْأَرٰائِكِ لاٰ يَرَوْنَ فِيهٰا شَمْساً وَ لاٰ زَمْهَرِيراً (۱۳) وَ دٰانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاٰلُهٰا وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُهٰا تَذْلِيلاً (۱۴) وَ يُطٰافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوٰابٍ كٰانَتْ قَوٰارِيرَا (۱۵) قَوٰارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهٰا تَقْدِيراً (۱۶) وَ يُسْقَوْنَ فِيهٰا كَأْساً كٰانَ مِزٰاجُهٰا زَنْجَبِيلاً (۱۷) عَيْناً فِيهٰا تُسَمّٰى سَلْسَبِيلاً (۱۸) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ إِذٰا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (۱۹) وَ إِذٰا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً (۲۰) عٰالِيَهُمْ ثِيٰابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَسٰاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقٰاهُمْ رَبُّهُمْ شَرٰاباً طَهُوراً (۲۱) إِنَّ هٰذٰا كٰانَ لَكُمْ جَزٰاءً وَ كٰانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (۲۲) إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ اَلْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (۲۳) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لاٰ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (۲۴) وَ اُذْكُرِ اِسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (۲۵) وَ مِنَ اَللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (۲۶) إِنَّ هٰؤُلاٰءِ يُحِبُّونَ اَلْعٰاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَرٰاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (۲۷) نَحْنُ خَلَقْنٰاهُمْ وَ شَدَدْنٰا أَسْرَهُمْ وَ إِذٰا شِئْنٰا بَدَّلْنٰا أَمْثٰالَهُمْ تَبْدِيلاً (۲۸) إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شٰاءَ اِتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (۲۹) وَ مٰا تَشٰاؤُنَ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اَللّٰهُ إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً (۳۰) يُدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ اَلظّٰالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً (۳۱)

اللغه

۲[أمشاج]:مختلطه،و مشجت هذا بهذا أى خلطته، و واحد الأمشاج مشيج.

۷[مستطيرا]:أى فاشيا منتشرا ذاهبا فى الجهات بلغ أقصى المبالغ.

۱۰[قمطریرا]:الشدید فی الشر،و قد اقمطر الیوم اقمطرارا و یوم قمطریر و قماطر کأنّه قد التفّ شرّه بعضه علی بعض.قال الحسن البصری فی هذا الیوم:

ما أشدّ اسمه و هو من اسمه أشدّ.

۱۳[زمهریرا]:هو أشدّ ما یکون من البرد.

۱۵[قواریرا]:زجاجیّه.

ص:۱۶۸

۲۸[و شددنا أسرهم]:أی أحکمنا خلقهم بتنظیم الأجهزه،فإنّ الأسر أصله الشد،و منه سمّی الأسیر أسیرا لأنّه یشدّ بالحبال.

بينات من الآيات:

[۴-۱]إذا عرف الإنسان ربه عرّفه اللّه بنفسه.كذلك إذا عرف نفسه عرف ربه، حيث أنّه حين يتفكّر فيها لا- يجد فيها إلّا آيات الصنع و شواهد التدبير.

و أهم أثاره علميه يلقيها القرآن على الإنسان:حقيقه حدوثه بعد العدم،و أنّه أصبح شيئا مذكورا بعد أن كان خاملا مجهولا.

هَلْ أَتىٰ عَلَى الْإِنْسٰانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً و هذه الأثاره التى تنفذ فى أغوار الإنسان،و التى تعبر عنها صيغه الاستفهام، إنّها تجعلنا عند ما نتفكّر فى أبعادها نعيش وعى الصيروره الزمنيه فى نشأتنا،هذا الوعى الذى يزيد العقل،و يقضى على الغرور،و يرفع الإنسان إلى مستوى الحكمه.

و قد اختلفوا فی حرف«هل»،فقال بعضهم:أنّه هنا بمعنی(قد)،و قال آخرون:بل هو استفهام تقریری،یعرف السائل الجواب سلفا،و إنّما یطرح الکلام لأخذ الإقرار من الطرف الآخر.

و یبدو لی أنّ الکلمات تبقی بمعناها اللغوی عند الاستعمالات الأدبیه المختلفه،إلاّ أنّ هدف الاستخدام یختلف حسب السیاق،فهل هنا-مثلا- جاء بمعنی الاستفهام،أمّا لما ذا جاء الاستفهام؟فهو لیس شأن الکلمات إنّما هو شأن الذی استخدمها.و یکون مثل ذلک فی عالم المادیات:السیاره التی تقوم بحمل الإنسان.أمّا إلی أین و لما ذا یتحرک الإنسان؟فهذا لیس شأنها إنّما هو شأنه.

و لقد فسّر أئمه الهدی هذه الآیه عده تفاسیر ممّا کشف عن أبعادها المتنوّعه،

فعن مالک الجهنی قال :سألت أبا عبد اللّه الإمام الصادق علیه السلام عن قوله:«الآیه» فقال:«کان مقدّرا غیر مذکور » (1)،و

عن زراره قال سألت أبا جعفر(الإمام الباقر)-علیه السلام-عن قوله:«الآیه»فقال:«کان شیئا و لم یکن مذکورا » (2)،و

عن الباقر علیه السلام قال :«کان مذکورا فی العلم،و لم یکن مذکورا فی الخلق » (3).و هکذا روایات أخری کثیره تهدینا إلی أنّ الإنسان یمرّ قبل وجوده المادی فی الحیاه بمرحلتین هما:

الأولی:عالم التقدیر فی علم اللّه.

الثانیه:عوالم النشأه،مثل عالم الأشباح(الأرواح)،عالم الذرّ،عالم

1- 1) نور الثقلین/ج 5 ص 468.

2- 2) المصدر.

3- 3) المصدر.

الأصلاب،ثم عالم الأرحام،فعالم الدنيا،و فى تلك العوالم و قبل عالم الدنيا كان الإنسان شيئا-فى علم اللّه-و لم يكن مذكورا عند الخلق لضآلته المتناهيه.

إِنّٰا خَلَقْنَا الْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَهٍ أَمْشٰاجٍ أى مختلطه،

قال الإمام الباقر عليه السلام :«ماء الرجل و المرأه اختلطا جميعا » (1)، كما أنّها مختلطه من الناحيه المعنويه إذ تحمل الصفات الوراثيه و النفسيه و الشكليه من الطرفين بما يمثّلانه من امتداد فى التاريخ و المجتمع كالأجداد و الآباء و الأخوال، و

قد أشار الإمام على عليه السلام إلى هذا المعنى إذ وصف الإنسان بقوله:«و محطّ الأمشاج من مشارب الأصلاب » (2)،و من ناحيه ثالثه يعيش الإنسان ثنائيه هامه،فهو فى البدايه خليط من تطلّعات الفطره و العقل و الإيمان،و شهوات الهوى و الجهل و الجحود،بين جنود الرحمن،و أعوان الشيطان.

و هكذا كلّ شىء فى الإنسان يحتمل نزعتين،و صبغتين،و منهجين، و وجهتين:الحق و الباطل،اللّه أو الشيطان،العقل أو الجهل،الإيمان أو الجحود، الجنه أو النار،و يبدو أنّ هذه الثنائيه أقرب إلى كلمه الأمشاج لأنّ شأن الثنائيات (الاختلاط بين ماء الرجل و ماء المرأه،أو بين مختلف العوامل الوراثيه من الآباء و الأمّهات)مقدمه لهذه الثنائيه،و يدلّ على ذلك بيان حكمه الابتلاء بعد بيان الثنائيه.

نَبْتَلِيهِ و لا يصدق الابتلاء فى حياه الإنسان حتى يكون مختارا،و ذلك بأن تكون

1- 1) المصدر/ص 469.

2- 2) المصدر نقلا عن نهج البلاغه.

خلقته خليطا من نزعتين و تطلّعين:أحدهما الخير و الآخر الشر.و من الضروری للإنسان و هو یمارس الحیاه و نعمه الوجود أن یعرف بأنّ الابتلاء جزء من وجوده، من دونه تصبح حیاته بلا معنی بلا روح و بلا هدف..تماما کتفّاحه فاسده لا طعم لها و لا رائحه،أو کماء آسن لا ینفع سقیا و لا طهورا.

و إطلاق کلمه الابتلاء یدلّنا علی أنّ الإنسان ممتحن بکلّ شیء یتصل به خیرا کان أو شرا،و أوّل ما یبتلی به نعمه الخلق،فهل یشکر ربه علیها حیث خلقه و أوجده و لم یکن شیئا مذکورا أم یقابله بالجحود و الکفران؟

قال الإمام الباقر علیه السلام :

«إنّ النبیّ قال لعلیّ علیه السلام :قل:ما أوّل نعمه أبلاک اللّه عزّ و جلّ و أنعم علیک بها؟ قال:أن خلقنی جلّ ثناؤه و لم أک شیئا مذکورا،قال:صدقت » (1) و حیث أراد ربنا امتحان الإنسان و فرّ من جهته الشروط و المستلزمات التی تجعل البشر مسئولا عن الامتحان فتکون حجه علیه عند ما یکفر،و وسیله لصالحه عند ما یرید الإیمان و الشکر.

فَجَعَلْنٰاهُ سَمِیعاً بَصِیراً و السمع و البصر نافذتان لعقل الإنسان علی الخلیقه،و هما أهمّ أدوات المعرفه عنده،و بالتالی أبرز وسائل الإختیار،فبسمعه یتلقّی نصائح الآخرین و تجاربهم، و ببصره و بصیرته یری و یقلّب وجوه الأمور ثم یختار لنفسه الموقف و الطریق،و ذلک یکفی دافعا یحمّله المسؤولیه و یقیم علیه الحجه،و لکنّ اللّه أبی إلاّ أن تکون له الحجه البالغه علیه فهداه السبیل مبیّنا له الحق و الباطل و الصواب و الخطأ.

إِنّٰا هَدَیْنٰاهُ السَّبِیلَ

1- 1) المصدر.

فمعالم الطريق الصحيح بيّنه و واضحه للبشر،هداه اللّه إليها بالفطره و العقل و الرسالات و الرسل،و لكنّه لم يجبره لكى لا يتنافى و حكمه الابتلاء،و إنّما جعل القرار موكولا إليه يختار أحد الطريقين.

إِمّٰا شٰاكِراً يتبع فطرته و عقله و هدى ربه،الذى هو السبيل الذى يسّره له،فيشكره على كلّ نعمه و من شكره طاعته.

وَ إِمّٰا كَفُوراً لا يسمع نداء الحق،و لا يبصر الطريق و لا يسلكه،فلا يشكر ربه على نعمه، و إنّما عبّر اللّه بالشكر و الكفر عن الهدى و الضلال لأنّهما الأساس و المعول،فكلّ ضلال و كفر و انحراف فى حياه البشر هو كفران لنعم اللّه عليه،و كلّ هدى و إيمان و عمل صالح هو شكر.

قال حمران بن أعين :سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قوله عزّ و جلّ:«الآيه»قال:

«إمّـا آخذ(بالسبيل)فهو شاكر،و إمّا تارك فهو كافر » (1).و حينما يكفر الإنسان بربه و نعمه فإنّه يصير إلى عذاب شديد أعدّه لكلّ كفور.

إِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ سَلاٰسِلَ وَ أَغْلاٰلاً وَ سَعِيراً قال القرطبى:السلاسل:القيود فى جهنم طول كل سلسله سبعون ذراعا (2)، و قال الرازى:السلاسل تشدّ بها أرجلهم،و أمّا الأغلال فتشدّ بها أيديهم إلى

ص:۱۷۴

۱- ۱) المصدر.

۲- ۲) الجامع لأحكام القرآن/ج ۱۹ ص ۱۲۳.

رقابهم (۱).و لعل السلاسل ما يشد بها المجرمون إلى بعضهم و يسحبون بها،بينما الأغلال ما يقيّد بها الواحد من يديه و رجليه و رقبته.و هذا جزاء مناسب للكافرين، لأنّهم يسيئون الاستفاده من الحريه المعطاه إليهم فی الدنيا فيقيّدون فی الآخره.

و سلاسل الآخره و أغلالها تجسيدات لمثلها فی الدنيا، لأنّ من يخالف قيم الحق و سبيل الهدى و يتبع المناهج البشريه يتورّط فی أغلال العبوديه و العقد و المشاكل المختلفه.

[۵]أمّا الشاكرون الذين يهبهم ربّهم وسام الأبرار فإنّهم يتحررون من سلاسل الضلال و أغلاله و سعيره فی الدنيا فقط،بل و يكسبون الحريه الكامله فی الآخره و الثواب الجزيل جزاء شكرهم و اتباعهم رساله اللّه عزّ و جلّ.

إِنَّ الْأَبْرٰارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كٰانَ مِزٰاجُهٰا كٰافُوراً قيل:هو جمع بر،و فی الصحاح:و جمع البر الأبرار،و فلان يبرّ خالقه و يتبرّره أی يطيعه (۲).و القرآن يفسّر معنى«الأبرار»من خلال بيانه لصفاتهم،و هذا يقرّب المعنى و يرسّخه فی الأذهان بصوره أوضح و أفضل.

و ما يشربه الأبرار فی الجنه مختلط طعمه و مزاجه بصفات الكافور الحسنه،و هو اسم عين ماء فی الجنه عن ابن عبّاس (۳)،و قال سعيد عن قتاده:تمزج لهم بالكافور،و تختم بالمسک،و قيل:أراد كالكافور فی بياضه و طيب رائحته و برده، لأنّ الكافور لا يشرب (۴)،و قال مقاتل:ليس بكافور الدنيا،و لكن سمّى اللّه

ص:۱۷۵

۱- ۱) التفسير الكبير/ج ۳۰ ص ۲۴۰.

۲- ۲) الجامع لأحكام القرآن/ج ۱۹ ص ۱۲۵.

۳- ۳) المصدر.

۴- ۴) المصدر.

ما عنـده بما عندكم حتى تهتدى لها القلوب (۱).و من فوائد الكافور طبعه البارد، و تسـكينه للعطش،و حين يمتزج بشراب يكون أنفع للجسم. و قوله«من كأس» كنايه عمّا فى الكأس من الشراب.

[۶] عَيْناً يَشْرَبُ بِهٰا عِبٰادُ اللّٰهِ لما ذا استـخدمت هنا كلمه«بها»أ و ليس الإنسان يشـرب من العين و ليس بالعين؟قالوا:إنّ الكلمه قد أشربت معنى الارتواء أى يشربون منها و يرتوون بها..أمّا عن هذه العين

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام :قال: «هى عين فى دار النبىّ صلى الله عليه و آله تفجّر إلى دور الأنبياء و المؤمنين » (۲).

يُفَجِّرُونَهٰا تَفْجِيراً فمتى ما أرادوا توجهوا تلقاء العين التى لا تزال مختومه ففجّروها-بإذن اللّه- و شربوا من باكوره رفدها الطاهر ما شاؤوا.

و فى تفسـير القرطبى:إنّ الرجل منهم ليمشـى فى بويتاته و يصـعد إلى قصوره، و بيده قضيب يشير به إلى الماء فيجرى معه حيثما دار فى منازله على مسـتوى الأرض فى غير أخدود (۳).و إلى مثل هـذا الجزاء تتطلّع النفوس بصوره فطريه،من هنا يوجّهنا القرآن إلى حقيقه هـامه و هى أنّ ذلـك النعيم لم يصـل إليه الأبرار عبثـا و من دون سـعى،و إنّمـا لمـا جسّـدوا فى حيـاتهم من صـفات الخير،فإنّ ما عند اللّه لا ينال بالتمنّى و التظنّى بل بالسعى و الاجتهاد.

ص:۱۷۶

۱- ۱) المصدر/ص ۱۲۶.

۲- ۲) نور الثقلين/ج ۵ ص ۴۷۷.

۳- ۳) الجامع لأحكام القرآن/ص ۱۲۶.

[۷] یُوفُونَ بِالنَّذْرِ أی نـذر و عهد یقطعونه علی أنفسـهم،و أظهر مصادیق النذر فی حیاه الإنسان عهده الذی أخذه اللّه منه،و تعهّد هو بالوفاء به فی المیثاق الأول فی عالم الـذر، حیث قطع علی نفسه بتوحیـد ربه و طاعته و تولّی أولیائه،و قد بیّن أئمه الهدی هذا المعنی،

قال الإمام الرضا علیه السلام :«یوفون بالنذر»الذی أخذ علیهم من ولایتنا (۱)،و

عنه قـال :«یوفون للّه بالنـذر الـذی أخـذ علیهم فی المیثـاق من ولایتنـا » (۲)،و حینمـا تنبنی شخصـیه المجتمع علی أسـاس الوفاء بالتعهّـدات فـذلک ممّا یزیـد الثقه و الاطمئنان بینهم،و یجعل المجتمع مهیّأ للتقـدم و التحضّـر،لأنّ الحضاره فی حقیقتها مجموعه من القیم التی یؤمن بها المجتمع و یتعهّـد الوفاء بها، و أصل الحضاره تکاثف الجهود،و تراکم الإنجازات،و ترکّز الخبرات،و کلّ أولئک رهین الثقه المتبادله و التی یزرعها الوفاء بالعهود.

أمّـا لما ذا یلتزم الأبرار بالعهـد و یوفون بالنـذر فلأنّهم یعیشون أهوال القیامه فیخشونها،و یرتفعون إلی الحاله الجـدّیه التی یتطلّبها مثل ذلک الیوم! وَ یَخٰافُونَ یَوْماً کٰانَ شَرُّهُ مُسْتَطِیراً

قال الإمام الصادق علیه السلام :«عابسا کلوحا » (۳)،و عن علی بن إبراهیم قال:

«المستطیر العظیم» (۴).فـالخوف الحقیقی من الآـخره إذا هو الـذی یتحوّل إلی إیمـان یردع الإنسـان عن الخیانه و نقض العهـد و الکذب و کلّ خطیئه،و یدفعه إلی کلّ

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۷۷.

۲- ۲) المصدر/ص ۴۷۸.

۳- ۳) المصدر/ص ۴۷۷.

۴- ۴) المصدر/ص ۴۷۸.

فضیله و صفه حسنه فی الدنیا،و بتعبیر آخر:إنّ الخوف من الآخره وقود الإنسان فی مسیرته الصاعده نحو الکمال.و هکذا تجد القرآن یذکّرنا بها المره بعد الأخری لتصبح جزء من کیاننا الثقافی،و مزیجه مع شخصیّاتنا،و صبغه أساسیه لحیاتنا.

[۸]و صفه أخری تقرّب الأبرار إلی ربهم و إلی ذلک النعیم الکبیر هی تحمّل المسؤولیه الاجتماعیه تجاه الضعفاء و أهل الحاجه بالرغم من حاجتهم الماسّه إلی الطعام.

وَ یُطْعِمُونَ الطَّعٰامَ عَلیٰ حُبِّهِ مِسْکِیناً وَ یَتِیماً وَ أَسِیراً قیل:«علی حبه»أی علی حبّ اللّه،و هذا صحیح من ناحیه المعنی،أمّا سیاق الکلام فیدلّ علی حبّ الطعام(لأنّه أقرب إلی الضمیر،و لأنّ حبّ اللّه (و وجهه)ذکر فی الآیه التالیه بصوره مستقلّه لأهمیته فلا داعی للتکرار..).

و هذا یعنی أنّ المراد من حبّ الطعام هنا:أنّ الأبرار لا یطعمون الآخرین من فاضل طعامهم،بل ممّا یطعمونه أنفسهم و إلی حدّ الإیثار،بحیث یتصدّقون بما عندهم و ینفقونه مع حاجه و حبّ إلیه،و هذه من أرفع مراحل التضحیه و العطاء، و یؤکّد ذلک أنّ الإنفاق ممّا تحبه النفس من شروط القرآن لبلوغ درجه البر،کما قال سبحانه:« لَنْ تَنٰالُوا الْبِرَّ حَتّٰی تُنْفِقُوا مِمّٰا تُحِبُّونَ ».

[۹]قد یکون الإنفاق بهدف الاستکبار و التعالی علی الآخرین و بسط السلطه علیهم.إنّه إنفاق المنّ و الریاء،و لکنّ الأبرار یخلصون فی إنفاقهم.

إِنَّمٰا نُطْعِمُکُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ لاٰ نُرِیدُ مِنْکُمْ جَزٰاءً وَ لاٰ شُکُوراً إنّ الأبرار لا یتطلّعون إلی شیء وراء إنفاقهم و خدماتهم للآخرین إلاّ رضی اللّه

و ثوابه،ممّا يعكس تمحّض التوحيد فى أنفسهم،فلا يطالبون حتى بكلمه الشكر (شكرا و أحسنتم)و ما إلى ذلك،

قال الإمام الصادق عليه السلام :«و اللّه ما قالوا هذا، و لكنّهم أضمروه فى أنفسهم فأخبر اللّه بإضمارهم،يقولون:لا نريد جزاء تكافوننا به،و لا شكورا تثنون علينا به،و لكنّا إنّما نطعمكم لوجه اللّه و طلب ثوابه » (۱)، و هذا ما يجعلهم فى عطاء دائم،لأنّه لا ينقطع بسبب عدم مجازات الآخرين لهم أو حتى وقوفهم من إحسانهم موقفا سلبيّا.

[۱۰]كيف يتجرّد الأبرار من حبّ الذات إلى هذه الدرجه الساميه؟كيف ينتزعون من أنفسهم حبّ الأموال التى يحتاجونها لطعامهم و قد فطرت الأنفس على حبّ المال،و بالذات حينما يكون ثمن أهمّ حاجه عند الإنسان حاجه الطعام؟ و أعظم من هذا كيف يسيطرون على غريزه حبّ السلطه و العلوّ فى الأرض التى هى أعظم غريزه عند الإنسان،و كانت وراء خروج آدم(عليه السلام)من الجنه، حتى تراهم لا يبحثون عن كلمه شكر تقال لهم،أو أىّ جزاء من أىّ نوع يكافؤون به؟ الجواب:إنّهم يعيشون أهوال القيامه،و كلّ همّهم النجاه منها.إنّهم يعيشون -إذا-عالما آخر له همومه و تطلّعاته المختلفه عن هذا العالم المادىّ المحدود، و هم يعرفون أنّ ثمن النجاه فى ذلك اليوم الرعيب الرهيب الفظيع إنّما هو باتقاء شح الذات و إيثار الضعفاء و المحتاجين،إذ أنّ المسؤوليه الاجتماعيه تجاه المحرومين و البؤساء ليست اختياريه يتحمّلها الإنسان أو لا يتحمّلها،و إنّما هى واجب دينى يتصل بمصيره فى الآخره،و عاقبته عند اللّه،و إذا ما دخلت هذ الحقيقه إلى وعى الإنسان فسوف لن يتوانى فى أدائها.

۱- ۱) المصدر نقلا عن أمالى الصدوق.

إِنّٰا نَخٰافُ مِنْ رَبِّنٰا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً أى شديدا و عسيرا،قال الأخفش القمطرير:أشد ما يكون من الأيّام و أطوله فى البلاء (۱)،و قال الكسائى:يوم مقمطر إذا كان صعبا شديدا (۲).

و يجدر بنا أن ننقل هنا شأن نزول السوره حسب الرواه و المفسرين من كلّ الفرق الإسلاميه،لكى نعرف أنّ هذه الصفات المذكوره فى القرآن قد جسّدها فعلا بشر أمثالنا،قد خلقوا من لحم و دم و كانت فيهم الحاجات و الغرائز فتغلّبوا عليها بحول اللّه و قوته و بفضل وعى الآخره.إنّهم ذريّه رسول اللّه فاطمه و بعلها و بنوها و خادمتهم فضّه عليهم السلام.

قال العلامه الطبرسى:نزلت فى علىّ و فاطمه و الحسن و الحسين -عليهم السلام-و جاريه لهم تسمّى فضّه،و

هو المروى عن ابن عبّاس و مجاهد و أبى صالح،و القصه طويله جملتها أنّهم قالوا: مرض الحسن و الحسين فعادهما جدّهما و وجوه العرب،و قالوا:يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذرا؟فنذر صوم ثلاثه أيّام إن شفاهما اللّه سبحانه،و نذرت فاطمه(عليها السلام)و كذلك فضه، فبرءا و ليس عندهم شيء،فاستقرض على-عليه السلام-ثلاثه أصوع من شعير من يهودى،و روى:أنّه أخذها ليغزل له صوفا،و جاء به إلى فاطمه فطحنت صاعا منها فاختبزته و صلّى على عليه السلام المغرب و قرّبته إليهم فأتاهم مسكين يدعوهم و سألهم فأعطوه و لم يذوقوا إلاّ الماء،فلمّا كان اليوم الثانى أخذت صاعا و طحنته و اختبزته و قدّمته إلى على عليه السلام فإذا يتيم بالباب يستطعم فأعطوه و لم يذوقوا إلاّ الماء،فلما كان اليوم الثالث عمدت الباقى فطحنته و اختبزته و قدّمته إلى على عليه السلام فإذا أسير بالباب يستطعم فأعطوه و لم يذوقوا إلاّ الماء،فلمّا كان اليوم الرابع و قد قضوا

۱- ۱) الجامع لأحكام القرآن/ج ۱۹ ص ۱۳۵.

۲- ۲) المصدر.

نذورهم أتی علی و معه الحسن و الحسین-علیهم السلام-إلی النبی -صلّی اللّه علیه و آله-و بهما ضعف فبکی رسول اللّه صلی الله علیه و آله و نزل جبرئیل بسوره:

«هل أتی» (۱).

[۱۱] فَوَقٰاهُمُ اللّٰهُ شَرَّ ذٰلِکَ الْیَوْمِ وَ لَقّٰاهُمْ نَضْرَهً وَ سُرُوراً قال الحسن و مجاهد:نضره فی وجوههم و سرورا فی قلوبهم،و قوله«فوقاهم» یدلّ علی أنّ النجاه من عذاب ذلک الیوم و الفوز بجنه اللّه و رضوانه نتیجه لأمرین هما:الخوف من الآخره و العمل الخالص لوجه اللّه:و

فی الروایه عن الإمام الباقر علیه السلام :قال:«قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله یؤتی یوم القیامه برجل فیقال له:احتج، فیقول:یا ربّ خلقتنی و هدیتنی فأوسعت علی،فلم أزل أوسع علی خلقک و أیسّر علیهم لکی تنشر علیّ هذا الیوم رحمتک و تیسّره؟فیقول الربّ جلّ ثناؤه و تعالی ذکره:صدق عبدی أدخلوه الجنه » (۲).

[۱۲]و هکذا یؤکّد ربّنا-سبحانه-علی أنّ ثمن نعیم الآخره الصبر فی الدنیا فیقول:

وَ جَزٰاهُمْ بِمٰا صَبَرُوا علی الطاعه،و عن المعصیه،و عند المصائب و النوائب.

جَنَّهً وَ حَرِیراً و لعلّ فی الآیه إشاره إلی أنّ إخلاص الإنسان فی عمله،و خروجه من حبّ

۱- ۱) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۴۰۵ بنقل صاحب نور الثقلین.

۲- ۲) نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۷۹.

الذات(حبّ التظاهر و الإطراء)عند الإنفاق بالذات،بحاجه إلى إراده عاليه و صبر عظيم يقاوم بهما تحدّيات النفس و الشيطان.

[۱۳-۱۹]و يفصّل القرآن فی بیان نعیم جنه الأبرار تشویقا لنا فی الرغبه إلیها و العمل علی الفوز بها.

مُتَّكِئِينَ فِيهٰا عَلَى الْأَرٰائِكِ جمع أريكه،و هی الأسرّه المحشوّه علی أفضل وجه.

لاٰ يَرَوْنَ فِيهٰا شَمْساً وَ لاٰ زَمْهَرِيراً و الشمس كنايه عن الحرّ،أمّا الزمهرير فهو البرد الشديد،

قال الإمام الرضا علیه السلام :«إنّ الشمس و القمر آیتان من آیات اللّه،یجریان بأمره،مطیعان له، و ضوؤهما من نور عرشه،و حرّهما من جهنم،فإذا كانت القیامه عاد إلی العرش نورهما،و عاد إلی النار حرّها،فلا یكون شمس و لا قمر » (۱)،فالجنه إذا مكيّفه أجواؤها بر بيع دائم.

وَ دٰانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاٰلُهٰا ليس لأنّ فيها شمسا و حرّا،بل هی كنايه عن تناسب أشجار الجنه و حاله الرفاه المهيّأه لأهلها بحيث تغطّی فوقهم.و لكنّها فی نفس الوقت قريبه ثمارها إليهم،ميسّره عليهم تناولها.

وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُهٰا تَذْلِيلاً

۱- ۱) المصدر/ص ۴۸۰.

و المفعول المطلق«تذليلا»يفيد التأكيد و المبالغه،أی أنّها مذلّله أيّما تذليل،

قال رسول اللّه صلی الله عليه و آله :«من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذی يشتهيه من الثمار بفيه و هو متكئ،و إنّ الأنواع من الفاكهه ليقلن لولیّ اللّه:يا ولیّ اللّه كلنی قبل أن تأكل هذه قبلی » (1).

و حيث تغمر الأبرار فرحه الفوز و البهجه بما فی حياتهم من النعيم يتقدّم إليهم خدمهم من الولدان بأوانی و أكواب فی غايه الروعه معدنا و منظرا و شرابا.

وَ يُطٰافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَهٍ مِنْ فِضَّهٍ وَ أَكْوٰابٍ كٰانَتْ قَوٰارِيرَا و لعلّ الآنيه المطاف بها هی التی يستقلّ الولدان فيها أكواب الشراب،أو التی يكون فيها الشراب الذی يصبّ فی الأكواب بعدئذ،أو هی أوانی الأكل و الفواكه التی يحملها الولدان إلی أولياء اللّه عزّ و جل.بينما الأكواب هی الكؤوس التی لها مقبض و عروه،و فی صنعتها الرائعه تتجلّی قدره اللّه و كرامته لأوليائه.

قَوٰارِيرَا مِنْ فِضَّهٍ

قال الإمام الصادق عليه السلام :«ينفذ البصر فی فضّه الجنه كما ينفذ فی الزجاج » (2)،و عن قتاده قال:صفاء القوارير فی بياض الفضه (3)و قال ابن عبّاس:لو أخذت فضه فضربتها حتی جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها،و لكنّ قوارير الجنه بياض الفضه فی صفاء القوارير (4)و لن يستطيع بشر تصوّر شیء من نعيم الجنه علی حقيقتها أبدا.

1- 1) المصدر 481/.

2- 2) مجمع البيان/ج 10 ص 410.

3- 3) الدر المنثور/ج 6 ص 300.

4- 4) المصدر.

ثم يشير القرآن إلى صفه أخرى فى الأكواب التى يطاف بها على المؤمنين فيقول:

قَدَّرُوهٰا تَقْدِيراً قال ابن عبّاس:أتوا بها على قدرهم،لا يفضلون شيئا،و لا يشتهون شيئا بعدها،و عن مجاهد:أنّها ليست بالملأى التى تفيض،و لا ـ ناقصه بقدر،و قال ابن عبّاس:قدّرتها السقاه (۱)،و قيل:قدّروها فى أنفسهم قبل مجيئها على صفه فجاءت على ما قدّروا،و الضمير فى قدّروها للشاربين (۲).و الذى يبدو لى أنّ المراد من الآيه هنا أنّ الأكواب التى يطاف بها مقدّره و محكمه من كلّ جوانبها،فى شكلها و حجمها و شرابها و عددها و كلّ شىء.قال الزمخشرى:فإن قلت ما معنى كانت فى قوله:« كٰانَتْ قَوٰارِيرَا »؟قلت:هو من يكون فى قوله:«كن فيكون»أى تكوّنت قواريرا بتكوين اللّه،تفخيما لتلك الخلقه العجيبه الشأن،الجامعه بين صفتى الجوهرين المتباينين (۳).

وَ يُسْقَوْنَ فِيهٰا كَأْساً كٰانَ مِزٰاجُهٰا زَنْجَبِيلاً ـ و الزنجبيل يعطى ما يمزج إليه نكهه طيّبه،كما أنّه بذاته فيه فوائد كثيره،قال فى التبيان:الزنجبيل ضرب من القرفه،طيّب الطعام،يلذع اللسان،يربى بالعسل،يستدفع به المضار،إذا مزج به الشراب فاق فى الإلذاذ،و العرب تستطيب الزنجبيل جدّا (۴).و ربّنا يقول:

ص:۱۸۴

۱- ۱) المصدر ۳۰۱/.

۲- ۲) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۴۱۰.

۳- ۳) الكشّاف/ج ۴ ص ۶۷۰.

۴- ۴) التبيان/ج ۱۰ ص ۲۱۴.

عَيْناً فِيهٰا قيل:«فيها»عائده إلى الكأس،و قيل:يعنى فى الجنه.

تُسَمّٰى سَلْسَبِيلاً قال فى المجمع:و السلسبيل الشراب السهل اللذيذ،يقال:شراب سلس و سلسال و سلسبيل،قال ابن الأعرابى:لم أسمع السلسبيل إلاّ فى القرآن،و قال الزجّاج:هو صفه لما كان فى غايه السلاسه (۱)،و فى الكشّاف:يعنى أنّها فى طعم الزنجبيل،و فيه لذعه،و لكن نقيض اللذع و هو السلاسه (۲).

وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدٰانٌ مُخَلَّدُونَ قيل:يعنى ملبسون الخلده و هى ضرب من القرط من الذهب أو الفضه، و يبدو لى أنّ«مخلّدون»بمعنى أنّهم يبقون على نضاره الغلام دائما لا يتداركهم شباب و لا هرم،و إنّما يبقيهم اللّه كذلك لأنّ خدمه الصغار على هذا السنّ ألذّ لأهل الجنه من خدمه غيرهم،و الولدان فى تطواف دائم يترقّبون أمر المؤمنين لهم،على استعداد تامّ لخدمتهم،بل أنّ مجرّد تطوافهم أمامهم يبعث فيهم البهجه و السرور،لما يمثّله الولدان من نعمه الخدمه،و لمنظرهم الأنيق و الجميل.

إِذٰا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً قال العلامه الطبرسى:إنّما شبّههم بالمنثور لانتثارهم(و توزّعهم)فى الخدمه، فلو كانوا صفّا لشبّهوا بالمنظوم (۳).كما أنّ للؤلؤ حينما ينثر منظرا رائعا فى الجمال

۱- ۱) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۴۱۰.
۲- ۲) الكشّاف/ج ۴ ص ۶۷۲.
۳- ۳) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۴۱۱.

و الجاذبيه خصوصا فى المروج الخضراء،و تنقّل الولدان للخدمه من موقع لآخر يعطى المنظر روعه جديده كما يتجلّى اللؤلؤ بتحريكه.

[۲۰-۲۲]و لا ينتهى نعيم الأبرار إلى هذا الحدّ فهو كبير جدّا،و واسع بحيث لا يستطيع بشر أن يستوعب تعداده و بيانه،و إلى هذه الحقيقه يهدينا القرآن الكريم.

وَ إِذٰا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً و حتى نفهم معنى كلمه«كبيرا»يجب أن ننظر إليها على أساس أنّها تعبير عن أربعه أمور،هى:الكثره،و الحجم،و التنوّع،و العظمه.و تكرار كلمه«رأيت» يأتى لبيان أنّك مهما تكرّر بنظرك و تعيد الرؤيه فإنّك لا تستطيع أن تصل إلى حدّ ملك الأبرار من النعيم فى الجنه،و إنّما تعلم بصوره مجمله أنّه نعيم و ملك كبير.

و كفى به عظمه وسعه أنّه يزداد مع الزمن بفضل اللّه و كرمه المتتابع على أهل الجنه.

قد أشار الإمام الصادق عليه السلام فى حديث له الى تفسير الكبير بالعظمه،

قال عباس بن يزيد :قلت لأبى عبد اللّه-عليه السلام-و كنت عنده ذات يوم:أخبرنى عن قول اللّه عزّ و جلّ:«الآيه»ما هذا الملك الذى كبّر اللّه عزّ و جلّ حتى سمّاه «كبيرا»؟!قال:إذا أدخل اللّه أهل الجنه الجنه أرسل رسولا إلى ولىّ من أوليائه،فيجد الحجب على بابه،فتقول له:قف حتى نستأذن لك،فما يصل إليه رسول ربه إلاّ بإذن،فهو قوله عزّ و جلّ:«الآيه » (1)،و

قال -عليه السلام-مبيّنا معنى الآيه :«لا يزول و لا يفنى » (2)،و قيل:هو أنّهم:

لا يريدون شيئا إلاّ قدروا عليه (3)،و

عن الحسن البصرى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۴۸۱.

۲- ۲) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۴۱۱.

۳- ۳) المصدر.

قال: «أدنى أهل الجنه منزله الـذى يركب فى ألف ألف من الخـدمه من الولدان المخلّدين على خيل من ياقوته حمراء لها أجنحه من ذهب » (۱).

و عن أبى جعفر(الإمـام البـاقر)-عليه السـلام-قـال :إنّ رسـول اللّه صـلى الله عليه و آله سـئل عن قول اللّه عزّ و جـلّ:« يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْداً »فقـال:يـا على إنّ الوفـد لاـ يكون إلاّ ركبانا إلى قوله:فقال على-عليه السـلام-يا رسول اللّه أخبرنا عن قول اللّه عزّ و جـلّ:« غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهٰا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ »بمـا ذا بنيت يـا رسول اللّه؟فقـال:يا على تلك غرف بناها اللّه عزّ و جلّ لأوليائه بالـدر و الياقوت و الزبرجـد،سـقوفها الذهب محبوكه بالفضه،لكلّ غرفه منها ألف باب من ذهب.على كلّ باب منها ملك موكّل به،فيها فرش مرفوعه بعضها فوق بعض من الحرير و الديباج بألوان مختلفه و حشوها الكافور و العنبر،و ذلك قول اللّه عزّ و جلّ:« وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ».إذا أدخـل المؤمن إلى منـازله فى الجنه،و وضع على رأسه تاج الملك و الكرامه،ألبس حلل الـذهب و الفضه و الياقوت و الـدر منظومه فى الإكليل تحت التاج،قال:فألبس سـبعين حلّه حرير بألوان مختلفه و ضـروب مختلفه منسوجه بالذهب و الفضه و اللؤلؤ و الياقوت الأحمر،فذلك قوله عزّ و جلّ:

« يُحَلَّوْنَ فِيهٰا مِنْ أَسٰاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِبٰاسُهُمْ فِيهٰا حَرِيرٌ »،فإذا جلس المؤمن على سـريره اهتزّ سـريره فرحا،فإذا اسـتقرّ لولىّ اللّه عزّ و جلّ منازله فى الجنان اسـتأذن عليه الموكّل بجنانه ليهنّئه بكرامه اللّه عزّ و جلّ إيّاه،فيقول له خدّام المؤمن من الوصفاء و الوصائف:مكانك فإنّ ولىّ اللّه قد اتّكى على أريكته، و زوجته الحوراء تهيّأ له فاصبر لولىّ اللّه (۲).

عٰالِيَهُمْ ثِيٰابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ

۱- ۱) الدر المنثور/ج ۶ ص ۳۰۱.

۲- ۲) نور الثقلين/ج ۵ ص ۴۸۲.

قـال شـيخ الطـائفه:السـندس الـديباج(الحرير)الرقيـق الفـاخر الحسـن، و الإسـتبرق:الـديباج الغليـظ الـذى لـه بريـق (۱).و فى«عـاليهم»اختلفوا،فمنهم من جعلهـا ظرفـا بمنزله قولـك:فوقهم ثيـاب سـندس،و منهم من جعلها حالا فهو بمنزله قولك:يعلوهم ثياب سندس،و

روى عن الإمام الصادق عليه السلام :«تعلوهم الثياب فيلبسونها » (۲).

وَ حُلُّوا أَسٰاوِرَ مِنْ فِضَّهٍ و التحليه بمعنى الزينه،أى زيّنوا بإلباسـهم حلالاـ أسـاور من فضه،و يعلم اللّه كم هو جمـال تلك الأساور التى صنعتها يد القدره الإلهيه و أبدعتها،و كم هو الرونق و الجمال الذى تعطيه للابسها حينما يتزيّن بها.

وَ سَقٰاهُمْ رَبُّهُـمْ شَرٰاباً طَهُـوراً قـال فى المجمع:أى طـاهرا من الأقـذاء،لم تدنّسـها الأيـدى،و لم تدسـها الأرجـل كخمر الـدنيا،و قيل:طهورا لا يصير بولا نجسا،و لكنّه يصير رشحا فى أبدانهم كريح المسك،و إنّ الرجل من أهل الجنه يقسم له شهوه مائه رجل من أهل الدنيا،و أكلهم و نهمتهم،فإذا أكل ما شاء سـقى شـرابا طهورا فيطهّر بطنه، و يصـير ما أكل رشحا يخرج من جلده،أطيب ريحا من المسك الأذفر،و يضمر بطنه،و تعود شهوته.رواه أبو قلابه.و قيل:

«يطهّرهم من كلّ شـيء سوى اللّه، إذ لا طاهر من تدنّس بشـيء من الأكوان إلاّ اللّه» عن الصادق عليه السلام (۳).و قد يكون هو شراب نهر الكوثر الذى يعطيه اللّه لأهل الجنه بيد رسوله صلى الله عليه و آله و وليه

۱- ۱) التبيان/ج ۱۰ ص ۲۱۷-۲۱۸.

۲- ۲) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۴۱۱.

۳- ۳) المصدر.

أمير المؤمنين علیه السلام قبل دخولهم إلی الجنه فیطهّرهم من کل عیب و دنس.و قال الرازی:و إنّه المطهّر (1).

و یبـدو لی أنّ اللّه سـبحانه و تعالی هو الذی یسـقی الأبرار ذلک الشـراب بصوره غیبیه،لا عن طریق الولدان،إکراما لهم منه عزّ و جلّ.و لکن ما هذا الشـراب الطهور الذی یسـقیهم الربّ بیده؟هل شراب سائل کالماء و الخمر و العسل و اللبن، أم هو شراب الودّ و القرب و الحبّ و النجوی؟ لأنّ الأدب القرآنی أدب تصویری یهـدینا من ظاهر الأحـداث إلی غیب الحقائق فإنّ لنا أن نتصوّر أنّ الشـراب الربّانی لیس مجرد شـراب مادی،و حتی لو کان کذلک فإنّه حین یکون الساقی هو الربّ الباقی فإنّه یتحول من نعمه مـادیه إلی درجه معنویه دونهـا کـلّ درجه،فأیّ کرامه أعظم من إقامه صـله قریبه بین العبـد هـذا المخلوق المتضاءل المتناهی فی الضـعف و العجز و بین الربّ العظیم المتعال،و أیّ نشاط یسـری فی نفس العبد هذا،و أیّ جمال یغمر فؤاده،و أیّ سـکینه تغشـی نفسه، و أیّ عزّه تحیط کیانه..سبحان اللّه!لا علم لنا،و لا ندری ما نقول.

إنّ مثل الإمام زین العابدین-علیه السلام-حریّ بوصف تلک اللحظات التی یقترب العبد فیها من الربّ حین یقول:

«فقـد انقطعت إلیـک همّتی،و انصـرفت نحوک رغبتی،فأنت لا غیرک مرادی،و لک لا لسواک سـهری و سـهادی،و لقاؤک قرّه عینی،و وصـلک منی نفسـی،و إلیـک شوقی،و فی محبتـک و لهی،و إلی هواک صـبابتی،و رضاک بغیتی، و رؤیتک حاجتی،و جوارک طلبی،و قربک غایه سؤلی،و فی مناجاتک روحی و راحتی،و عندک دواء علّتی،و شـفاء غلّتی،و برد لوعتی،فکن أنیسی فی

۱- ۱) التفسیر الکبیر/ج ۳۰ ص ۲۵۴.

وحشتي...و لا تقطعني عنك،و لا تبعدني منك،يا نعيمي و جنتي،و يا دنياي و آخرتي » (۱).

و

في مناجاه كريمه أخرى يقول-عليه السلام -:«...و غلّتي لا يبرّدها إلّا وصلك،و لوعتي لا يطفيها إلّا لقاؤك،و شوقي إليك لا يبلّه إلّا النظر إلى وجهك،و قراري لا يقرّ دون دنوّي منك،و لهفتي لا يردّها إلّا روحك،و سقمي لا يشفيه إلّا طبّك،و غمّي لا يزيله إلّا قربك...فيا منتهى أمل الآملين،و يا غايه سؤل السائلين،و يا أقصى طلبه الطالبين،و يا أعلى رغبه الراغبين...

أسألك أن تنيلني من روح رضوانك،و تديم عليّ نعم امتنانك » (۲).

و نلاحظ أنّ إيحاء الآيات ينتهي إلى هدف واحد هو بيان أنّ الأبرار في راحه تامّه عند ربّهم في الآخره،«متكئين،دانيه،ذلّلت،يسقون،يطوف عليهم، و سقاهم ربّهم»و ذلك لأنّهم في الدنيا يتعبون أنفسهم في خدمه الناس و بالأعمال الصالحه لوجه اللّه،و يمسّهم من ذلك الكثير من التعب،و ليس أنسب لتسكين أنفسهم و إشباع تطلعاتهم من بيان ما يصيرون إليه من الراحه في الآخره.

إِنَّ هٰذٰا كٰانَ لَكُمْ جَزٰاءً وَ كٰانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً و هذا جواب نيتهم الخالصه لوجهه تعالى و قولهم:« إِنَّمٰا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ لاٰ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزٰاءً وَ لاٰ شُكُوراً »،فحيث ترفّعوا عن أيّ رياء و مطمع مادىّ من وراء عملهم الصالح و إنفاقهم في سبيل اللّه جازاهم ربّهم على ذلك خير الجزاء و شكر سعيهم بأفضل الشكر.

۱- ۱) مناجاه المريدين/الامام السجاد/مفاتيح الجنان.

۲- ۲) مناجاه المفتقرين/المصدر.

و إنّ تحسيس المؤمن فى الجنه بأنّ كلّ تلك النعم العريضه الواسعه هى شكر لأعماله و جزاء إخلاصه إنّ هذا التحسيس بذاته كرامه جديده لأهل الجنه و نعمه كبيره،إذ يجعلهم فى نهايه الراحه النفسيه أنّ اختيارهم فى الدنيا كان صائبا و أعمالهم كانت مقبوله.

[۲۶-۲۳]و حيث حدّثنا ربّنا عن نعيم الأبرار فإنّ نفوسنا لا ريب ستتوق إليه،و القرآن يستجيب لهذه الصفه الفطريه بتوجيه تمنيات الإنسان و تطلعاته ضمن قناتها الصحيحه حيث العمل بالمنهج الحق الموصل إلى ذلك النعيم،و من هذا المنطلق تأتى الإشاره إلى القرآن الكريم.

إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً أى منجّما و ليس دفعه واحده،و ذلك يتماشى مع هدف القرآن،و هو بناء شخصيه الأبرار فى كلّ الأبعاد،حتى يرتقى إلى قمّه ذلك الرضوان و النعيم الإلهى السامقه درجه درجه.و من أراد الوصول إليها فإنّ الطريق واحد،و هو أن يترك الأمانى و الظنون المجرده إلى السعى و الاجتهاد على هدى كتاب الأبرار و السمو عبر معراج آياته.و هذا بحاجه إلى الصبر على العقبات،فإنّ طريق الجنه عموما محفوف بالمكاره فكيف إذا كان الهدف هو أعلى درجاتها و أفضلها(درجه الأبرار)؟ إنّ بلوغ هذا الهدف العظيم يستدعى الحقائق التاليه:

أولا:التسليم المطلق لقضاء اللّه و قدره،و سننه فى الخليقه و شرائعه.

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ و حكم اللّه هو تدبيره لخلقه و رسالته إلى الناس،و المؤمن بحاجه إلى الاستقامه

و التحمّل کی یجنی ثمار التوکّل علی ربه و التسلیم لأمره و رسالته،فقد نطبّق رساله اللّه و لکن لیس بالضروره أن نحصل علی النتائج مباشره؛إذن یجب أن ندع الاستعجال و نفوّض أمرنا إلی اللّه سبحانه دون أن نتأفّف علی ما یقدّره الرب أو نضجر من طول الانتظار.ثم إنّ تطبیق القرآن یستلزم روح الصبر،لأنّه یضع الإنسان أمام قرارات صعبه و تحدیات کثیره فی ذاته و فی المحیط، و تجرّع مراره الصبر علی کلّ ذلک ضروره أساسیه لبلوغ أهداف الرساله و تطلّعاتها.

ثانیا:الاستقامه أمام الضغوط،لأنّ الإنسان حینما یقرّر العمل بالقرآن و تغییر نفسه و واقعه علی هدی آیاته فسوف تتوالی علیه الضغوط المختلفه من قبل الآخرین الذین لا یریدون الإصلاح و لا التغییر اجتماعیّا و سیاسیّا،و بالذات أولئک الذین تقوم مصالحهم علی أساس الواقع المتخلّف و الفاسد کالمترفین و أصحاب السلطه،أو الذین تتعارض أفکارهم و ثقافتهم المبدئیه مع خط الرساله و قیمها.

أمّا وسائلهم فی الضغط فهی تختلف فقد تکون مباشره،کما یفعل الحکّام و الطغاه ضد المؤمنین تاره بالترغیب و تاره بالترهیب،و قد تکون عبر الاعلام و المواقف الاجتماعیه و الاقتصادیه و..و..،و لا بد لکلّ مؤمن یختار طریق الحق أن تکون هذه الصوره الواقعیه حاضره فی وعیه،حتی لا یتفاجأ من جهه،و لکی یستعدّ نفسیّا و عملیّا لمواجهتها.

وَ لاٰ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ کَفُوراً قال الزمخشری:معناه:و لا تطع منهم راکبا لما هو إثم داعیا لک إلیه،أو فاعلا لما هو کفر داعیا لک إلیه،لأنّهم إمّا أن یدعوه لمساعدتهم علی فعل ما هو إثم أو کفر،أو غیر إثم و لا کفر،فنهی أن یساعدهم علی الإثنین دون الثالث (۱).

ص:۱۹۲

۱- ۱) الکشّاف/ج ۴ ص ۶۷۴.

و الذی یظهر لی أنّ الآیه تشمل المنافقین الذین یتظاهرون بالإسلام و لکنّهم یرتکبون الإثم و یریدون الباطل،کما تشمل الکفّار الذین یبالغون فی الکفر و یعادون الحقّ بصوره صریحه و ظاهره.

ثالثا:الروحیّه العالیه،و ذلک لأنّ هزیمه الإنسان و انتصاره و استقامته و تراجعه کلّ أولئک یرتکز علی قوه إرادته و صلابه شخصیته،فعلی المؤمنین أن یشحذوا عزائمهم،و یوفّروا إرادتهم،و ینمّوا قوه شخصیاتهم،حتی یرتفعوا إلی مستوی الالتزام بالرساله و مقاومه التحدیات فی الدنیا،و إلی مستوی الأبرار و نعیمهم فی الآخره.و ذکر اللّه الدائم و صلاتهم باللیل هما معراج المؤمنین إلی تلک الفضیله و المنزله،لذا یدعو القرآن رسول اللّه و کلّ فرد مؤمن إلی الذکر و الصلاه.

وَ اذْکُرِ اسْمَ رَبِّکَ بُکْرَهً وَ أَصِیلاً* وَ مِنَ اللَّیْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَیْلاً طَوِیلاً و البکور هو أول الصباح،و الأصیل هو أول اللیل و أصله،و المراد هو المداومه علی الذکر نهارا و لیلا.و قیل:«بکره»یعنی صلاه الصبح،و«أصیلا»یعنی صلاتی الظهر و العصر،«و من اللیل»إشاره إلی صلاتی المغرب و العشاء اللتان تقعان فی بعض اللیل من أوله،

« وَ سَبِّحْهُ لَیْلاً طَوِیلاً »یعنی«صلاه اللیل» (1)روی ذلک عن الإمام الرضا علیه السلام . و تأکید اللّه علی مفردات معینه فی الآیتین لحکمه،فقد قال اللّه:(اذکر،اسجد،و سبح)و کلّها تتمحور حول قیمه التوحید و تأکید العبودیه للّه،و ذلک هو سر الفضیله و التسامی علی الضغوط و التحدیات التی تدعو الإنسان إلی الشرک.

[۲۷-۳۱]و بعد أن فصّل لنا القرآن الحدیث عن الأبرار الذین یختارون

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۸۹.

سبیل الشکر و الهدی،و أنّ إیمانهم بالیوم الآخر و خوفهم منه عامل رئیس فی اختیارهم طریق الحق و سلوکهم السلیم فی الحیاه،یؤکّد لنا بأنّ مشکله الکفّار التی دعتهم إلی الإثم و الضلال تتمثّل فی حبهم الشدید للدنیا و کفرهم بالآخره.

إِنَّ هٰؤُلاٰءِ یُحِبُّونَ الْعٰاجِلَهَ وَ یَذَرُونَ وَرٰاءَهُمْ یَوْماً ثَقِیلاً و من الآیه نفهم أنّ حبّ الدنیا هو الحجاب الذی یحول بین الإنسان و بین الإیمان بالآخره،و أنّ الطریق لخرق هذا الحجاب هو حضور یوم القیامه العصیب فی وعیه بتذکّر مواقفه الرهیبه و مشاهده الثقیله.

نَحْنُ خَلَقْنٰاهُمْ وَ شَدَدْنٰا أَسْرَهُمْ قال صاحب المجمع:الأسر أصله الشدّ،و منه قتب مأسور:أی مشدود،و منه الأسیر:لأنّهم کانوا یشدّونه بالقید،و قولهم:خذ بأسره بشدّه (1)،« وَ شَدَدْنٰا أَسْرَهُمْ »أی قوّینا و أحکمنا خلقهم عن قتاده و مجاهد،و قیل:أسرهم:أی مفاصلهم عن الربیع،و قیل:أوصالهم بعضها إلی بعض بالعروق و العصب،و لو لا إحکامه إیّاها علی هذا الترتیب لما أمکن العمل بها و الانتفاع منها،و قیل:

جعلناهم أقویاء عن الجبائی،و قیل معناه:کلّفناهم و شددناهم بالأمر و النهی کیلا یجاوزوا حدود اللّه،کما یشدّ الأسیر بالقید لئلّا یهرب (2).

و لعل المعنی هو ظاهر الأسر،فإنّ ذلک یتناسب مع الشطر الثانی للآیه، و ینسجم مع السیاق،فحیث بیّن اللّه حبّ الکفار للعاجله،و من ثم ترکهم الآخره و الالتزام بأوامر اللّه و نواهیه،و إطلاقهم العنان لأنفسهم فی الأهواء و الشهوات،أراد

1- 1) مجمع البیان/ج 10 ص 412.

2- 2) المصدر/ص 413.

أن يؤكّد بأنّه لا يعصى عن غلبه أبدا.و هذا ما يستدعى التأكيد على حاكميه اللّه فى الإنسان و هيمنته عليه،و أنّ حوله منه و قوته به،و أنّه لا حول و لا قوه له ذاتيه.

و لعل استخدام كلمه الأسر هنا للإيحاء بأنّ الإنسان مقيد بقدره اللّه و قوته حيث أنّ شدّ أسره بيده(و بهذا تجتمع معانى الأسر فى الآيه).

و الذى يتفكّر فى وجود الإنسان يجد أنّه أسير للّه تكوينيّا و عمليّا،فهو من جهه محكوم بقوانين تكوينيه كالنمو و التنقل من مرحله إلى أخرى قسرا عنه،و الدوره الدمويه و دقّات القلب و حركه الجهاز الهضمى و الكبد و..و..،و من جهه أخرى هو أسير تدبير اللّه و سننه فى الحياه،فلا يستطيع أن يقاوم الموت مثلا..و قد وجدت إشاره إلى هذا التفسير لدى العلاّمه الطباطبائى إذ قال:و الآيه فى معنى دفع الدخل،كأنّ متوهّما يتوهّم أنّهم بحبهم للدنيا و إعراضهم عن الآخره يعجزونه تعالى،و يفسدون عليه إرادته منهم أن يؤمنوا و يطيعوا،فأجيب بأنّهم مخلوقون للّه، خلقهم و شدّ أسرهم إذا شاء أذهبهم و جاء بآخرين،فكيف يعجزونه و خلقهم و أمرهم و حياتهم و قوتهم بيده؟! (1).و أظهر آيات أسر اللّه للبشر هو الموت الذى قهرهم به،فهو يميتهم حيثما شاء و كيفما أراد،و يأتى بغيرهم دون أن يقدر أحد على ردّ إرادته،إذ توحّد بالبقاء

«و قهر عباده بالموت و الفناء» (2).

وَ إِذٰا شِئْنٰا بَدَّلْنٰا أَمْثٰالَهُمْ تَبْدِيلاً أى جئنا بآخرين أمثالهم بديلا عنهم،بإهلاكهم،أو بجعلهم الحاكمين.

و إنّما ذكرت كلمه الأمثال هنا-و فى موارد متشابهه-للإشاره إلى صفاتهم و أنّ من كان بصفه العجز و الضعف و المحدوديه-أمثال هؤلاء-لا يعجزون اللّه شيئا،

1- 1) الميزان/ج 20 ص 123.

2- 2) دعاء الصباح(مفاتيح الجنان).

لأنّ بيده أسرهم و هو قادر على تبديلهم.

علما بأنّ كلمه المثل تدلّ على الشبيه و لكن بلحاظ مواصفاته و طبائعه،و اللّه العالم.

و حرىّ بالإنسان الذى يأتى عليه الموت أن يفكّر فيما بعده من مستقبل، و يستعدّ له،باتباع الحق و الصراط المستقيم الذى هو السبيل إلى رضوان اللّه،الذى بيده الأمر و الحكم و إليه المصير.

إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ أى التى طرحتها الآيه السابقه و كلّ آيات السوره.و الموقف السليم منها أن يهتدى بها البشر إلى الإيمان بربه،و اتباع سبيله المتمثل فى رسالته و أوليائه و حزبه.

فَمَنْ شٰاءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً و تأكيد مشيئه الإنسان هنا هو تقرير لحريه الإختيار عنده،و مسئوليته عن مصيره،فالاختبار بيده يتبع أىّ سبيل شاء،سبيل الشكر أو سبيل الكفر،و له الغنم و عليه الغرم.

وَ مٰا تَشٰاؤُنَ إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ لأنّ المخلوقين لا يمكنهم أن يملكوا إراده ذاتيه أبدا،فهم حيث يشاءون فوسائل مشيئتهم من عقل و إراده و جوارح كلّها من عند اللّه،و لا تنشأ لمخلوق مشيئه بدون إذنه،فيسلب البعض توفيق الهدايه و يهبه لآخرين.و لكن ليس اعتباطا،بل على أساس علمه بحال المخلوق و حكمته البالغه.

إِنَّ اللّهَ كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً فتعليقه لمشيئه المخلوق على مشيئته لا يعنى الجبر،لأنّ ذلك يلغى دور الإنسان و مسئوليته،كما ينفى حكمه اللّه حين خلقه و ابتلاه،فتعالى اللّه عمّا يصفون.

و لكنّ إعطاءه المشيئه لهم لا يعنى استطالتهم على ربهم و استقلالهم عنه،فإنّ هذا من التفويض الباطل،إنّما أعطاهم المشيئه و هو المدبّر المحيط بهم علما و قدره.

يُدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ فِي رَحْمَتِهِ و لكنّه حين علّق مشيئته بعلمه و حكمته فلن يدخل فى رحمته من ليس أهلها إنما الذى سعى و عمل صالحا.و هذا ما يبرّر عدم ذكر النقيض للظالمين،و اقتصار القرآن على ذكرهم،لأنّه لا يدخل رحمه اللّه إلاّ من كان مؤمنا و طاهرا من دنس الضلال و الظلم.

وَ الظّٰالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً جزاء لظلمهم،كما أنّ النعيم و الملك الكبير كان للأبرار جزاء و كان سعيهم مشكورا.

ص:۱۹۷

سوره المرسلات

اشاره

ص:۱۹۹

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم

فضل السوره

فی کتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبی عبد اللّه-علیه السلام-قال :«من قرأ«و المرسلات عرفا»عرّف اللّه بینه و بین محمّد صلّی اللّه علیه و آله».

نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۸۷

الإطار العام

بتكرار آيه:« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ »يظهر أنّها المحور الرئيس للسوره الكريمه،و التى تهدف-فيما يبدو-تأكيد وعد اللّه الواقع فى أنّ الويل للمكذّبين به،فبعد القسم بالمرسلات و الناشرات يؤكّد ربّنا بإنّ الحصر باللام أنّ وعده تعالى واقع لا محاله (الآيات ١-٧).

و مع أنّ قول اللّه:«ما توعدون»شامل لكلّ ما يعد اللّه به أن يقع، إلاّ أنّ يوم القيامه و ما يجلى من الحقائق و ما يعنيه من(بعث و حساب و جزاء)هو أظهر مصاديق الوعود الإلهيه الواقعه،و حيث يحلّ أجل ذلك الوعد يشهد الوجود حوادث كونيه رهيبه،فتطمس النجوم،و تشقّ السماء،و تنسف الجبال،و أعظم من ذلك شهاده الرسل على أممها عند الحساب و الفصل بين الناس و فى مصائرهم،إذ أجّلها اللّه« لِيَوْمِ الْفَصْلِ* وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا يَوْمُ الْفَصْلِ ».إنّه يوم رهيب و مهول لأنّه يوم الفصل فى مصائر العباد،فويل لأولئك الذين كذّبوا رسل اللّه من شهادتهم ضدهم عنده و ما يتلو ذلك من عذاب شديد يصبّه عليهم ربّهم صبّا(الآيات ٨-١٥).

ص:٢٠٢

و بالرغم من أنّ القرآن يوجّهنا إلى مشاهد ذلك اليوم الأخروى و مصير المكذّبين فيه،كعلاج لموقف التكذيب بحقائق المستقبل عند الإنسان،إلاّ أنّه لا يكتفى بذلك بل يدعونا إلى الإعتبار بعاقبه المجرمين الآخرين بعد الأولين،فإنّ المتفكر فى هذا الأمر يهتدى إلى واقعيه سنّه الجزاء،و ذلك بدوره يهديه إلى واقعيه الآخره باعتبارها التجلّى الأعظم و الأشمل لها فى واقع الحياه« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » (الآيات ۱۶-۱۹).

و يربط القرآن بين خلقه الإنسان و بين حقيقه الآخره،و ذلك أنّ خلقته بما فيها من أطوار و تقديرات تكشف عن حكمه الخالق(و أنّه لم يخلق الخلق عبثا،و لن يتركهم سدى)و التى لا تكتمل من دون الإيمان بالآخره التى هى عنوان الحكمه الإلهيه،و منتهى الإنسان و غايته التى تقتضيها تلك الحكمه،كما تقتضى العذاب الأليم للمكذبين بالحق(الآيات ۲۰-۲۴).

و من رحله الإنسان فى آفاق نفسه ينطلق به السياق إلى آفاق الكون من حوله بموجوداته و ظواهره،حيث جعل اللّه الأرض كفاتا تضمّه حيّا و ميّتا،و جعل فيها جبالا راسيه بأصولها فى الأرض شامخه بقممها فى آفاق السماء،و سقانا منها ماء فراتا سائغا للشاربين،و كلّ ذلك آيات لحكمه اللّه،و علامات تهدى إلى ذلك اليوم، فالويل للمكذّبين به(الآيات ۲۵-۲۸).

و لقطع دابر التبرير و الكيد،اللذين يتخذهما الكاذبون وسيله لكذبهم،و يصوّر السياق عاقبه الكذب،إذ يأتى النداء الإلهى إلى المكذّبين فى حال تكاد الحسره تهلكهم لو لا مشيئته تعالى؛يقال لهم:« اِنْطَلِقُوا إِلىٰ مٰا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ »يعنى جهنم و عذابها« اِنْطَلِقُوا إِلىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلاٰثِ شُعَبٍ* لاٰ ظَلِيلٍ وَ لاٰ يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ »و حيث النار« تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ* كَأَنَّهُ جِمٰالَتٌ صُفْرٌ »فويل يومئذ للمكذّبين من

غضب اللّه و عذابه(الآيات ۲۹-۳۴).

و هنالـك تنطق الحجه البـالغه للّه،و لا ـ ينطق المكـذّبون باعتبارهم تلجمهم الحججـ من جهه،« وَ لاٰ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَـذِرُونَ »و كفى بهذا عذابا مهينا لهم بين يدى جبّار السموات و الأرض،و أمام الخلائق فى محشر يوم القيامه(الآيات ۳۵-۳۷).

و يتحدّى السياق المكـذّبين من الأولين و الآخرين،بهدف إذلالهم و إظهار صـغارهم أمام الناس حيث كانوا يتكبرون فى الدنيا بمـا عنـدهم مـن السلطه و المـال؛ يقـول لهـم:« هٰـذٰا يَـوْمُ الْفَصْـلِ »الـذى طالمـا كـذّبتهم و اسـتهزأتم بـه،و أنتم مجموعـون إلى بعضـكم(أوّلين و آخرين)« فَإِنْ كٰانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ »و ذلك جزاء كيدهم و محاربتهم للّه و لأوليائه فى الدنيا،فالويل لهم من ذلك الموقف و عذابه (الآيات ۳۸-۴۰).

و يبيّن القرآن سبيل النجاه من مصير المكذّبين السىء،ألا و هو تقوى اللّه، و هذا البيان يملأ قلوب المتقين أملا فى رحمه اللّه،و اطمئنانا إلى لطفه،بالـذات و الآيه ظلال لغضب اللّه و وعيـده بكلّ آياتها و مفرداتها عـدا الآيات(۴۱-۴۴)..فالمتقون فى مأمن من العذاب،« فِي ظِلاٰلٍ وَ عُيُونٍ* وَ فَوٰاكِهَ مِمّٰا يَشْتَهُونَ »يدعوهم ربّهم إلى مائده فضله و رحمته« كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »و إنّه لجزاء كلّ تقىّ محسن عنده تعالى(الآيات ۴۱-۴۴).

و يعود السياق موصولا بما سبق من الوعيد للمكذبين،و هو يهدّدهم بالعذاب، و يحذّرهم من عواقب انتهاجهم سبيل التكذيب و الجريمه،مؤكّدا بأنّهم لن يطول بهم المقام فى متعهم الإجراميه حتى يقع بهم غضبه الذى لا تقوم له السموات و الأرض(الآيات ۴۵-۴۷).

ص:۲۰۴

و كيف لا يلحق بهم الويل و الثبور و هم يتمرّدون على أوامر اللّه و أحكامه،فلا يتبعون رسله و لا يصدّقون آياته« وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاٰ يَرْكَعُونَ »؟!بلى.سوف يلحقهم العذاب(الآيات ۴۸-۴۹).

و يختتم ربّنا سوره المرسلات متسائلا سؤال استنكار: « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ »؟!و ذلك ممّا يؤكّد القول بأنّ الإيمان بالآخره و حديثها حجر الأساس فى صرح الإيمان بكلّ المبادئ و الحقائق الأخرى،و هذا ما يجعل حديثها مذكورا على الدوام فى آيات الوحى و بصوره مفصّله(الآيه ۵۰).

[سوره المرسلات (۷۷): الآیات ۱ الی ۵۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِیمِ . وَ اَلْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (۱) فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً (۲) وَ اَلنّاشِراتِ نَشْراً (۳) فَالْفارِقاتِ فَرْقاً (۴) فَالْمُلْقِیاتِ ذِکْراً (۵) عُذْراً أَوْ نُذْراً (۶) إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (۷) فَإِذَا اَلنُّجُومُ طُمِسَتْ (۸) وَ إِذَا اَلسَّماءُ فُرِجَتْ (۹) وَ إِذَا اَلْجِبالُ نُسِفَتْ (۱۰) وَ إِذَا اَلرُّسُلُ أُقِّتَتْ (۱۱) لِأَیِّ یَوْمٍ أُجِّلَتْ (۱۲) لِیَوْمِ اَلْفَصْلِ (۱۳) وَ ما أَدْراکَ ما یَوْمُ اَلْفَصْلِ (۱۴) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۱۵) أَ لَمْ نُهْلِکِ اَلْأَوَّلِینَ (۱۶) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ اَلْآخِرِینَ (۱۷) کَذلِکَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِینَ (۱۸) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۱۹) أَ لَمْ نَخْلُقْکُمْ مِنْ ماءٍ مَهِینٍ (۲۰) فَجَعَلْناهُ فِی قَرارٍ مَکِینٍ (۲۱) إِلی قَدَرٍ مَعْلُومٍ (۲۲) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ اَلْقادِرُونَ (۲۳) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۲۴) أَ لَمْ نَجْعَلِ اَلْأَرْضَ کِفاتاً (۲۵) أَحْیاءً وَ أَمْواتاً (۲۶) وَ جَعَلْنا فِیها رَواسِیَ شامِخاتٍ وَ أَسْقَیْناکُمْ ماءً فُراتاً (۲۷) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۲۸) اِنْطَلِقُوا إِلی ما کُنْتُمْ بِهِ تُکَذِّبُونَ (۲۹) اِنْطَلِقُوا إِلی ظِلٍّ ذِی ثَلاثِ شُعَبٍ (۳۰) لا ظَلِیلٍ وَ لا یُغْنِی مِنَ اَللَّهَبِ (۳۱) إِنَّها تَرْمِی بِشَرَرٍ کَالْقَصْرِ (۳۲) کَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (۳۳) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۳۴) هذا یَوْمُ لا یَنْطِقُونَ (۳۵) وَ لا یُؤْذَنُ لَهُمْ فَیَعْتَذِرُونَ (۳۶) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۳۷) هذا یَوْمُ اَلْفَصْلِ جَمَعْناکُمْ وَ اَلْأَوَّلِینَ (۳۸) فَإِنْ کانَ لَکُمْ کَیْدٌ فَکِیدُونِ (۳۹) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۴۰) إِنَّ اَلْمُتَّقِینَ فِی ظِلالٍ وَ عُیُونٍ (۴۱) وَ فَواکِهَ مِمّا یَشْتَهُونَ (۴۲) کُلُوا وَ اِشْرَبُوا هَنِیئاً بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۴۳) إِنّا کَذلِکَ نَجْزِی اَلْمُحْسِنِینَ (۴۴) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۴۵) کُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِیلاً إِنَّکُمْ مُجْرِمُونَ (۴۶) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۴۷) وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اِرْکَعُوا لا یَرْکَعُونَ (۴۸) وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۴۹) فَبِأَیِّ حَدِیثٍ بَعْدَهُ یُؤْمِنُونَ (۵۰)

اللغه

۸[طمست]:قال البعض:أی أنّ النجوم یذهب ضیاؤها حتی تصیر بلا ضیاء أو نور،و الأصح:أنّ ذات النجوم تطمس فلا یبقی منها شیء أو أثر،جاء فی مفردات الراغب:

الطمس إزاله الأثر بالمحو،قال-تبارک و تعالی-:« رَبَّنَا اطْمِسْ عَلی أَمْوالِهِمْ »أی أزل صورتها،« وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلی أَعْیُنِهِمْ »أی أزلنا ضوءها و صورتها کما یطمس الأثر.

ص:۲۰۷

۲۱[مکین]:مستحکم،و قال القرطبی:ای فی مکان حریز و هو الرحم.

۳۲[کالقصر]:قیل:هو البنیان الضخم،و قیل:أصل الشجر،و قال البعض:أنّ الأوّل أظهر و الثانی أنسب.

۳۳[جمالت صفر]:جمل أصفر،قال البعض:شرر النار کالجمل الأصفر فی لونه،بعد ما کان بقدر القصر فی حجمه،و تشبیه الشرر بالجماله لأنّه لتتابعه و تطایرها کالجمالات التی ترتع هنا و هناک.

ص:۲۰۸

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

بينات من الآيات:

[۱-۱۰]أ رأيت الذى يكذّب بوعد اللّه يلغيه؟كلاّ..إنّه يرتكب أكبر جريمه بتكذيبه بالحق،فله الويل ثم له الويل.

و أنّى له التكذيب بما تواترت شواهده،و تظافرت آياته،بوعد اللّه الواقع الذى تكرّرت مصاديقه على امتداد التاريخ،و هذه الرياح التى يرسلها ربّها بالعذاب حينا و بالخيرات أحيانا؛إنّها بعض آيات الوعد الإلهى.قسما بها و بالملائكه الموكّلين بها و بما تقدمّه لنا من الإعذار و الإنذار:إنّ وعد اللّه لواقع.

هكذا تترى كلمات القسم التى اختلف فى تفسيرها و تأويلها،إلاّ أنّها تتصل-أنّى كان تأويلها-بتلك الحقيقه العظمى:وقوع وعد اللّه،كاتصال الشاهد الحضار بالغائب المنتظر،و كاتصال الحجج بالحقائق،و الإرهاصات بالوقائع..و هكذا سائر ما فى الذكر الحكيم من قسم يتصل بما يقسم عليه اتصالا

ص:۲۱۰

واقعیّا.بلی.قد نجهل علاقه بعضه ببعض،و لکنّا نعرفها عند التدبّر العمیق فیها.

[وَ الْمُرْسَلاٰتِ عُرْفاً] اختلفوا فی تأویل«المرسلات»إلی رأیین أساسیین:

الأول:أنّها الریاح،قال فی المجمع:و المرسلات یعنی الریاح،أرسلت متتابعه کعرف الفرس عن ابن مسعود و ابن عبّاس و مجاهد و قتاده و أبی صالح،فعلی هذا یکون«عرفا»نصبا علی الحال من قولهم:جاؤوا إلیه عرفا واحدا،أی متتابعین (۱).و قد استدل أصحاب هذا الرأی

بقول رسول اللّه صلی الله علیه و آله :«الریاح ثمان:أربع منها عذاب،و أربع منها رحمه،فالعذاب منها:العاصف،و الصرصر، و العقیم،و القاصف،و الرحمه منها:الناشرات،و المبشّرات،و المرسلات، و الذّاریات.فیرسل اللّه المرسلات فتثیر السحاب،ثم یرسل المبشّرات فتقلع السحاب،ثم یرسل الذاریات فتحمل السحاب فتدرّ کما تدرّ اللقحه،ثم تمطر و هی اللواقح،ثم یرسل الناشرات فتنشر ما أراد » (۲)،و

فی نفس المصدر :قام رجل إلی علیّ علیه السلام فقال:ما العاصفات عصفا؟قال:«الریاح » (۳).

الثانی:أنّها الملائکه،و فسّرت«عرفا»علی أنّها أرسلت بالمعروف من أمر اللّه و نهیه (۴)،و قیل:انّهم الأنبیاء و الرسل،الذین أرسلوا بالوحی المشتمل علی کلّ خیر و معروف،فإنّه لا شک أنّهم أرسلوا بلا إله إلاّ اللّه،و هو مفتاح کلّ خیر و معروف (۵).

ص:۲۱۱

۱- ۱) مجمع البیان ج ۱۰ ص ۴۱۵.

۲- ۲) الدر المنثور ج ۶ ص ۳۰۳.

۳- ۳) المصدر.

۴- ۴) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۴۱۵.

۵- ۵) التفسیر الکبیر/ج ۳۰ ص ۲۶۷.

و الذی یبدو لی إمکانیه الجمع بین القولین،إذا عرفنا أنّ للریاح ملائکه موکله بها ترسلها و تزجرها بأمر اللّه،بالذات و أنّ الصیغه جاءت للمبنی للمجهول.و من هذا المنطلق نستطیع القول بأنّ الآیات ظاهرها الریاح و باطنها الملائکه،أمّا عن إلقاء الذکر الذی نتلوه فی السیاق فیمکن تأویله بالریاح و الملائکه معا،فإذا أوّلنا «المرسلات»بالملائکه فإنّها تلقی وحی اللّه و آیاته إلی الأنبیاء ثم إلی الناس.و إذا أوّلناها بالریاح فإنّها الأخری تلقی الغیث الذی یعدّ تذکره للناس.

و یمکن أن یقال بأنّ«المرسلات عرفا»تعنی الریاح التی تکون فی صالح الناس و خیرهم،أی المرسلات بما یعرفه الناس و یستسیغونه من غیث و بشاره.

و أنّی کان فإنّ إجمال مثل هذه الکلمات یجعلنا نوصل الحقائق ببعضها،فلا نمیّز بین الریاح المرسلات بالغیث و البرکه و بین الملائکه الموکّلین بها أو المرسلین بالوحی و الرساله،فإنّ فائده القسم تتحقّق بهما،کما أنّهما معا من شواهد وعد اللّه، و یصحّ القسم بهما،و هذا من روائع النهج القرآنی فی الأدب.

فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً فی التبیان:یعنی الریاح الهابّه بشدّه،و العصوف مرور الریح بشده،و عصفت الریح تعصف عصفا و عصوفا إذا اشتدّ هبوبها (۱)،و إذا صرفنا المعنی إلی الملائکه فللعصف وجهان:أحدهما:السرعه،فإنّ العرب تقول:فرس عصوف أی سریع الحرکه،قال العلاّمه الطباطبائی:و المراد بالعصف سرعه السیر،استعاره من عصف الریاح أی سرعه هبوبها،إشاره إلی سرعه سیرها إلی ما أرسلت إلیه (۲)، و الوجه الآخر:الإهلاک و التدمیر،قال الرازی:یعنی أنّ اللّه لمّا أرسل أولئک

۱- ۱) التبیان/ج ۱۰ ص ۲۲۳.

۲- ۲) المیزان/ج ۲۰ ص ۱۴۶.

الملائکه فهم یعصفون بروح الکافر،یقال:عصف بالشیء إذا أباده و أهلکه (۱)، و عصفت الحرب بالقوم أی ذهبت بهم و أهلکتهم،و یقال:عصف الدهر بهم أی أبادهم (۲).

و یبدو أنّ الأقرب إلی السیاق تأویل العصف بسرعه الریاح فی حمل الغیث، و لیس فی سرعتها فی الإهلاک.

وَ النّٰاشِرٰاتِ نَشْراً إذا قلنا أنّها الریاح فهی تنشر السحاب فی الآفاق،و تنشر الغیث و الرحمه الإلهیه من زرع و غیره،کما أنّها تنشر الحبوب و اللقاح فی بقاع الأرض المختلفه، کما أنّ الملائکه ینشرن أجنحتهنّ فی الجوّ عند انحطاطهنّ بالوحی (۳)،و تنشر الکتب عن اللّه (۴)،أو تنشر الرحمه و العذاب،أو تنشر الکتب یوم الحساب (۵).

فَالْفٰارِقٰاتِ فَرْقاً قیل:أنّها الریاح التی تفرّق بین السحاب فتبدّده(بعد اجتماع،لیقف المطر، و تطلع الشمس،و یظهر وجه السماء بعد الغیب)عن مجاهد (۶)،کما تفرّق الملائکه بین الحقّ و الباطل بما تتنزّل به من الآیات و الوحی عن اللّه علی رسله.هکذا فی التبیان (۷)و التفسیر الکبیر (۸).

۱- ۱) التفسیر الکبیر/ج ۳۰ ص ۲۶۴.

۲- ۲) المنجد/ماده عصف.

۳- ۳) الکشاف/ج ۴ ص ۴۱۰.

۴- ۴) التبیان/ج ۱۰ ص ۲۲۳.

۵- ۵) التفسیر الکبیر/ج ۳۰ ص ۲۶۴.

۶- ۶) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۲۶۶.

۷- ۷) التبیان/ج ۱۰ ص ۲۲۴.

۸- ۸) التفسیر الکبیر/ج ۳۰ ص ۲۶۶.

فَالْمُلْقِيٰاتِ ذِكْراً الملائكه تلقى رسالات اللّه على الأنبياء،و لكنّ الملائكه ليست وحدها التى تذكّرنا باللّه إنذارا و إعذارا فإنّ الرياح تفعل ذلك أيضا،لا فرق إن كانت رياح عذاب أو رياح رحمه،و الغيث النازل منها هو الآخر ذكر عظيم باعتباره يذكّرنا بالبعث و الخروج عند ما يسقى الأرض فتراها اهتزّت و ربت و أنبتت من كلّ زوج بهيج،و هذه الفكره تفسّر لنا اقتران الكلام عن القرآن و رسلات اللّه كثيرا بالحديث عن منظر الغيث و ما يتلوه من ظواهر طبيعيه على الأرض.

عُذْراً عذرا بإقامه الحجه حيث ألقى اللّه الذكر عبر الملائكه،أو حذّرهم و ذكّرهم بالرياح العاصفه..كلّ ذلك قبل أن ينزل عليهم العذاب.

أَوْ نُذْراً و الإنذار معروف،و لكن نتساءل عن الفرق بينه و بين الإعذار،و لعلّ الجواب:

أنّ الإعذار يأتى عند ما لا يستجيب الإنسان للإنذار،بينما الإنذار أعم،و ربما يكون عند الاستجابه إذا قورن بالإعذار،و قد قيل:لقد أعذر من أنذر،و ربما يعود إلى هذا المعنى جمله ما ذكره المفسّرون،قال شيخ الطائفه:و قيل:إعذارا من اللّه،و إنذارا إلى خلقه ما ألقته الملائكه من الذكر إلى أنبيائه،و أضاف:فالعقاب على القبيح بعد الإنذار يوجب العذر فى وقوعه،و إن كان بخلاف مراد العبد الذى استحقّه (1).

و قيل:عذرا يعتذر اللّه به إلى عباده فى العقاب أنّه لم يكن إلاّ على وجه الحكمه، و نذرا:أى إعلاما بموضوع المخافه،عن الحسن (2).

۱- ۱) التبيان/ج ۱۰ ص ۲۲۴.

۲- ۲) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۴۱۵.

و إنّ أهم ما تلقيه المرسلات ملائكه و رياحا تذكيرها بالآخره و بأنّ وعد اللّه صادق. أ و ليس تتلاحق الظواهر الطبيعيه فى الكائنات فتأتى الرياح مرسلات عاصفات ناشرات فارقات،و تأتى بعدها المواسم الخيّره و السنين المباركه،أو تأتى العواصف الهوج و يأتى من بعدها الدمار؟أ و ليست هذه الظواهر يشهد أوّلها على آخرها؟كذلك شواهد العذاب تنذرنا بوعد اللّه الواقع به،كما شواهد الرحمه تبشّرنا بوعد اللّه الواقع بها.

إِنَّمٰا تُوعَدُونَ لَوٰاقِعٌ و هذا جواب القسم المتقدّم فى الآيات السابقه،و هو مدعوم بثلاثه تأكيدات:

إنّ،و الحصر،و اللام فى:«لواقع».و مع أنّ البعض حصر الوعد فى القيامه و احتجّ:بأنّه تعالى ذكر عقيب هذه الآيات علامات يوم القيامه (1)،إلاّ أننى أختار الإطلاق الشامل لكلّ وعد إلهى،كوعده بنصر المؤمنين و دحر الظلمه،و إحياء الأرض بعد موتها بالمؤمنين،و غلبه دينه و رسله و المؤمنين على الدّين كلّه فى آخر الزمان بظهور منقذ البشريه الإمام الحجه المنتظر-عجل اللّه فرجه-و الذى يهدينا إلى هذا التفسير الشامل هو أنّ القرآن حمّال ذو وجوه،و تفسيره يكون أصحّا كلّما كان أشمل،و قد وجدت من قال بإطلاق الوعد من المتقدّمين الكلبى الذى قال:

المراد أنّ كلّ ما توعدون به من الخير و الشر لواقع.و حيث أنّ وعد اللّه بالبعث و الحساب و الجزاء هو أظهر مصاديق الوعد و أقربها إلى الأذهان كما إلى دلاله السياق فإنّه الأظهر تأويلا من أىّ مصداق آخر.

و إنّ اطمئنان الإنسان لوعد ربه-و بالذات الآخره-أمر فى غايه الأهميه، باعتباره يبعث روح التسليم للّه فى كلّ أبعاد الحياه،و يبعث فاعليه العمل و تقوى

۱- ۱) التفسير الكبير/ج ۳۰ ص ۲۶۸.

الالتزام بشرائعه و مناهجه..فلو يئس المؤمنون من الإنتصار و التغيير لما أكملوا مسيره الجهاد و الإصلاح،و لو كفر الإنسان بالآخره(البعث و الحساب و الجزاء)لما التزم بالنظم و الشرائع الإلهيه،ذلك أنّ الإيمان بسنّه الجزاء الممتده من الدنيا إلى الآخره هو الذى يحرّك فيه روح الانضباط و المسؤوليه.

و الذى يتدبّر آيات القران فى موضوع الآخره يلاحظ أنّها أصبحت من الكثره و التفصيل و التأكيد من أبرز خصائص هذا الكتاب ممّا يبعث السؤال عن سبب ذلك و خلفياته.

لعلّ أهم الأسباب هى التاليه:

أوّلا:أهميه موضوع الآخره،فإنّ الآخره-كما سبق و أن قلنا فى مواضع كثيره-تعتبر حجر الأساس فى تفكير الإنسان المؤمن و إيمانه.

ثانيا:إنّ الآخره غيب فى المستقبل و الإسلام يريدها حاضره فى وعى المؤمنين، من هنا يفصّل الحديث فيها و ينوّعه و يكرّره حتى يوصل ذلك الغيب إلى مستوى الشهود عندهم،لذا نجد القرآن بعد الإشاره إلى الآخره يبيّن الأمر و يفصّل فى توجيهنا إلى مشاهدها العظيمه.

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ قال القمى:يذهب نورها و تسقط (1)،و قال العلاّمه الطوسى:و الطمس محو الأثر الدال على الشىء،و الطمس على النجوم كالطمس على الكتاب،لأنّه يذهب نورها و العلامات التى كانت تعرف بها (2)،و قال الفخر الرازى:يحتمل أن يكون

۱- ۱) تفسير القمّى/ج ۲ ص ۴۰۰.

۲- ۲) التبيان/ج ۱۰ ص ۲۲۵.

المراد محقت ذاتها،و هو موافق لقوله«انتثرت»و«انكدرت»و أن يكون المراد:

محقت أنوارها،و الأوّل أولى لأنّه لا حاجه فيه إلى الإضمار (1).و الأقرب عندى ما قاله الرازى لأنّ أصل الطمس من المحو و غياب المطموس.

كما يظهر من ملاحظه الآيات القرآنيه التى تناولت موضوع القيامه من زاويه حال النجوم يومئذ أنّها كما الجبال تمرّ بمراحل حتى تنتهى و تزول،فهى تنتثر عن بعضها و نسقها بسبب اختلال نظامها الكونى أوّلا،ثم تنكدر واحده واحده،ثم تطمس تماما فلا يبقى منها شعاع يدلّ عليها.

وَ إِذَا السَّمٰاءُ فُرِجَتْ

فى تفسير القمّى :«تنفرج و تنشق» هكذا جاء فى روايه عن أبى الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام (2)،و فى مجمع البيان:أى صارت فيها فروج (3)،بعد أن كانت محبوكه محكمه لا ثغره فى نظامها و لا منفذ فى بنيانها أبدا(لا تفاوت و لا فطورا)،و لعل هذه مرحله أوليه تعقبها مراحل متتاليه أخرى.و حسبما يظهر من آيات كريمه أخرى:

أنّ مراد القرآن من ذكر تبدّل نظام الخليقه سلب اعتماد الإنسان عليه،ليصبح وجها لوجه أمام مسئولياته،فالسماء التى كانت سقفا محفوظا تصبح يومئذ واهيه، و الجبال التى كانت ملاذا و كهفا تصبح كثيبا مهيلا،و الأرض التى كانت مهدا مطمئنا تميد بزلزال عظيم،و هكذا.

وَ إِذَا الْجِبٰالُ نُسِفَتْ قالوا:نسف البناء:قلعه من أصله،و الجبال:دكّها..و نحن ندرك ما ذا يعنى

1- 1) التفسير الكبير/ج 30 ص 269.

2- 2) تفسير القمّى/ج 2 ص 400.

3- 3) مجمع البيان/ج 10 ص 415 بتصرف.

نسف الجبال التی جعلها اللّه أوتاد الأرض،فلا تستقرّ و تمید بأهلها و یتحطّم نظامها بحیث لا تصلح للعیش.

و تلک کلّها بعض مشاهد القیامه الرهیبه،و لک أن تتصوّر هذا المخلوق الضعیف کیف یعاصر تلک الأهوال الکونیّه،و أنّی له برکن یأوی إلیه منها؟!إلاّ أن یکون قد سعی سعیا صالحا یخلّصه منها.

[۱۹-۱۱]و یبقی المشهد الأهم من ذلک و الموقف العصیب حینما یحین میعاد الشهاده فیأتی الرسل شهداء علی المکذّبین من أممهم.

وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ جعل لها میعاد محدّد فی وقت معلوم للابتعاث و فی أرض معلومه و لهم وقت معلوم للشهاده،و ذلک یهدینا إلی أنّ حرکه الأنبیاء و بعثهم لیست اعتباطیه بل هم فی الدنیا و الآخره یسیرون علی أساس حکمه إلهیه،فلو أنّنا درسنا حرکتهم التاریخیه من جمیع جهاتها و حیثیّاتها لوجدنا أنّ بعثهم قائم علی مجموعه من القوانین الاجتماعیه و الحضاریه،بحیث أنّ زمن بعث نبیّنا محمد صلی الله علیه و آله و مکان بعثته مثلا کانا مناسبین تماما لرسالته و دوره،و ربما

أشار إلی ذلک الإمام الباقر علیه السلام فی روایه أبی الجارود عنه قال :«بعث فی أوقات مختلفه » (۱).کما أنّ شهاداتهم فی الآخره لا تبدأ فی أیّ وقت أو بمجرّد أن تقوم القیامه بالبعث،کلاّ..بل للرسل میقات معلوم لا تؤدّی دورها المناسب إلاّ فیه.

لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ قال العلاّمه الطباطبائی:الأجل المدّه المضروبه للشیء،و التأجیل جعل

۱- ۱) تفسیر القمی ج ۲ ص ۴۰۰.

الأجل للشیء،و یستعمل فی لازمه و هو التأخیر،کقولهم:دین مؤجّل أی له مدّه بخلاف الحال،و هذا المعنی هو الأنسب للآیه (1).و قد اختلف فی الشیء الذی یعود علیه الضمیر من«أجّلت»،فقال صاحب المیزان أنّه:للأمور المذکوره قبلا من طمس النجوم،و فرج السماء،و نسف الجبال،و تأقیت الرسل،و المعنی:

لأیّ یوم أخّرت یوم أخّرت هذه الأمور (2)،و قیل:هو عائد إلی الرسل فقط.و مع أنّ لرأی صاحب المیزان محمل فی الآیات حیث تفید«إذا»الوارده فی الآیات کلّها معنی التأجیل،إلاّ أنّ الأقرب هو عوده الضمیر إلی الرسل باعتبار التصاق کلمه«أقّتت»بهم دون النجوم و السماء و الجبال،و لأنّهم أصحاب الشهاده و میزان الفصل بین الناس عند ربّ العزّه،الذی جعل لهم شهادتین متکاملتین:إحداهما فی الدنیا بقیامهم شهداء للّه بالقسط و قد تقدّمت،و الأخری فی الآخره،بجعلهم الحجه و المعیار فی محکمه القیامه،و قد أجّلها ربّنا لذلک الیوم.

لِیَوْمِ الْفَصْلِ بین الناس فی اختلافهم من کلّ الجهات،و بین أهل الجنه و أهل النار، و سمّیت القیامه بیوم الفصل لأنّها الیوم الذی یفصل فیه الخطاب و یحکم للناس فی مصائرهم.و إذا کانت الآخره مقسّمه أیّاما و مراحل فإنّ الرسل یدلون بشهاداتهم لیس فی یوم البعث عموما-حسبما یبدو-بل فی ساعات الفصل عند المیزان.

وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا یَوْمُ الْفَصْلِ إنّه یوم رهیب لا یمکن لبشر أن یستوعب أحداثه و وقائعه علی طبیعتها و بحجمها

ص:219

1- 1) تفسیر المیزان/ج 20 ص 149.
2- 2) المصدر.

أبـدا مهمـا عرّف له،و ذلـك لأنّ تلك الحقائق كبيره ليست بحجم معارفنا،فهل نقـدر أن نسـتوعب-مثلا-معنى انفجار ألف قنبله نوويه فى لحظه واحـده؟كلّا..من هنا يؤكّد ربّنا فى مواضع كثيره بعد الحديث عن الآخره القول:«و ما أدراك» تاره و ما يدريك تاره أخرى.

و لا يفصل السـياق فى بيان أحوال الناس و مصائرهم يومئذ،بل يكتفى بإشاره تتضـمّن الوعيد و الإنذار بمصير أولئك المكذّبين بالآخره،الذين أبعدوا عن أفكارهم مشاهد الحساب و حقائق الجزاء الأكبر فيها،فأطلقوا لأنفسـهم عنان الهوى و الشـهوه،و تخبّطوا فى الجريمه و الفاحشه خبط عشواء،دون أدنى حساب أو إحساس بالمسؤوليه.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ و كلمه«ويل»كما تكرّر القول مطلقه تشـمل ألوان العـذاب المادى و المعنوى، و التى تتجسّـد فى واد من أشـدّ أوديه جهنم خزيا و عـذابا،و لهـذا تخصّيـص الويل بقوله تعالى:«يومئـذ»حيث لا يعنى أنّهم لا ويل لهم هنا فى الـدنيا،و لكنّه يحمل على أشدّ ألوان الويل هناك،باعتبار ذلك اليوم أظهر مصاديق ورطتهم فى الويلات و الثبور.

و أىّ ويل هذا الذى يهدّد به القرآن المكذّبين؟لكى نعرفه دعنا نتذكّر نموذجا صغيرا منه يتمثّل فى عذاب المكذّبين فى الدنيا.

و هكـذا يـذكّرنا القرآن بعـاقبه المكـذّبين فى الـدنيا عبر أرقـام و حقائق ماديه محسوسه لا تقلّ حقيقه الآخره عنها وضوحا لـدى العقلاء إن لم تكن أشدّ و أصفى،فيتساءل السياق سؤال مستثير لأولى الألباب نحو التفكير فى مصائر المكذّبين من خلال دراسه

التجارب التى خلّفها الآخرون.

أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ* ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ و يمكننا حمل الهلاک على محملين:

الأول:أنّه الهلاک بالموت،و نحن لا نكاد نقرأ آيات تحدّثنا عن سنّه الجزاء و حقيقه الآخره إلاّ و نقرأ إلى جانبها حديثا عن سنّه الموت،و السبب أنّه تعالى يريد هدايتنا إلى أنّ الآخره و الجزاء حقّ كما الموت حق،و أنّ تكذيب أحد بهما لا يمكن أن يغيّر من واقعهما شيئا،كما لا يغيّر تكذيبه بوعد اللّه الواقع بالموت ذلک الحق، و الدليل واضح فى مسيره البشريه حيث أهلک اللّه الأولين و أتبعهم بالآخرين و الحبل على الجرّار حتى لا يبقى أحد إلاّ وجهه عزّ و جلّ.

الثانى:الهلاک بالأخذ و العذاب المتأسّس على سنّه الجزاء الإلهى فى الحياه، و هذا أقرب إلى السياق الذى يتوعّد بالمكذّبين و لا يزال بالويل و يؤكّد على الجزاء، كما تؤيّده الآيه التاليه:

كَذٰلِکَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ فهى إذن سنّه جاريه فى الحياه لا تتغيّر مع الزمن،و هكذا تضع الآيه الإنسان فى كلّ عصر و مكان أمام تلک السنّه لكى لا يتصوّر أنّها محدوده فى المجرمين التاريخيين وحدهم.و يعود السياق يوصل حقائق الماضى بالمستقبل من خلال سنّه الجزاء فى الآخره،إذ أنّها أشدّ وقعا على المجرمين من أخذهم فى الدنيا.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ و كفى بإهلاک المجرمين فى الدنيا دليلا إلى عذابهم فى الآخره.و إنّما يصيرون إلى

الویـل کنتیجه طبیعیه لتکـذیبهم بقیاده الحق و نهجه فی الحیاه،و انصـرافهم عنهما إلی قیاده ضاله و منهـج خاطئ یقودان الإنسان إلی الویل بعد الویل.

[۲۰-۲۴]و لما ذا یکـذّب الإنسان بآیات ربه و بالـذات حقیقه الآخره؟لما ذا یکـذّب بالبعث و النشور بعد الموت؟هل لأنّ الآیات الهـادیه إلی ذلک غیر قائمه، و لأنّ معرفته بربه و بقـدرته الواسـعه التی لا تحـدّ ناقصه؟کلاّ..فلنتفکّر فی أصل خلقتنا،و کیف أنّها آیه بینه تهدی إلی الإیمان بقدرته تعالی علی کلّ شـیء،فلقد انطلقنا فی الحیاه الدنیا من حویمن صغیر و حقیر و مستقذر لا یری إلاّ بالمجاهر المکبّره،اسـتقر لیس بإرادتنا بل بمشـیئه اللّه فی رحم أمّهاتنا،ثم نمّاه اللّه ضـمن ملایین القوانین و السـنن التی نجهل أکثرهـا فضـلا عن ادّعـاء التحکّم فیهـا،حتی خلقنا بشـرا سویّا ذکرا أو أنثی.و ربّنا یضـعنا أمام هـذه الحقائق الفطریه التی لا سبیل لأحد إلی إنکارها.

أَ لَمْ نَخْلُقْکُمْ مِنْ مٰاءٍ مَهِینٍ قـال القمّی:منتن (۱)،و قیـل:حقیر،و علیه أکثر المفسـرین،و إنّ المتأمّـل لیری کلّ أسـباب الهوان فی ذلک الماء،فحجمه صـغیر،و رائحته منتنه،و هو مسـتقذر عند الإنسان نفسه فلا یقیم له وزنا،و لک أن تعجب إذا عجبت من البشر حینمـا یتکبّر و یرکب مطیّه الغرور،لیس فی مقابـل بنی جنسه و حسب،بـل فی مقابل ربه العظیم أیضا!!و حقّ لأمیر المؤمنین علی علیه السلام أن یعجب

فیقول :«و عجبت للمتکبر الذی کان بالأمس نطفه،و یکون غدا جیفه(إلی أن یقول:)و عجبت لمن أنکر النشأه الأخری و هو یری النشـأه الأولی » (۲)،و إنّه لعجب حقّـا أن ینسـی الإنسـان فضـل ربه علیه و إکرامه له بعـد أن کـان مهینـا،فـإذا به و هـو المخلوق الضعیف یکذّب ربّ

۱- ۱) تفسیر القمی/ج ۲ ص ۴۰۰.

۲- ۲) نهج البلاغه/حکمه ۱۲۶.

العزّه جبّار السموات و الأرض!! ثم إنّه تعالى جعل ذلك الماء المهين فی رحم الأم يحفظه و ينشأ فيه ناميا صفه بعد صفه و مرحله بعد الأخرى،تحوطه و ترعاه يد الغيب بما يعجز الإنسان نفسه عن إحصائه من السنن و القوانين المحكمه التی تثبته فی الرحم،و تمكّنه من العيش و النموّ فيه،دون أن يكون للأبوين شأن فی ذلك الحمل.

فَجَعَلْنٰاهُ فِی قَرٰارٍ مَكِينٍ فی التبيان:القرار:المكان الذی يمكن أن يطول مكث الشیء فيه،و منه قولهم:قرّ فی المكان إذا ثبت على طول المكث فيه (1)و استقر.و غضّ أكثر المفسرين الطرف عن المكين،بينما ذكر صاحب المنجد أنّه المتمكّن:و المكين ذو المكانه، و استمكن استولى،و تمكّن من الشیء قدر عليه (2)،و وجدت فی الميزان هذا النص:و المكين:المتمكّن،وصفت به الرحم لتمكّنها فی حفظ النطفه من الضيعه و الفساد،أو لكون النطفه مستقره متمكّنه فيها،و المعنى:ثم جعلنا الإنسان نطفه فی مستقرّ متمكّن و هی الرحم (3).و قوله تعالى:«فجعلنا»تأكيد على الفعل الإلهی فی الأمر إذ هو بعيد عن كلّ فاعل و مريد سواه سبحانه،و ذلك

ما يؤكّده الإمام علی عليه السلام فی واحده من خطبه التی تطرّق فيها إلى هذا الأمر،قال :«أيّها المخلوق السویّ،و المنشأ المرعی فی ظلمات الأرحام،و مضاعفات الأستار،بدئت من سلاله من طين،و وضعت« فِی قَرٰارٍ مَكِينٍ إِلىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ »،و أجل مقسوم،تمور فی بطن أمّك جنينا لا تحير دعاء،و لا تسمع نداء،ثم أخرجت من مقرّك إلى دار لم تشهدها،و لم تعرف سبل منافعها،فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدی أمك،

۱- ۱) التبيان/ج ۱۰ ص ۲۲۸.

۲- ۲) المنجد/ماده مكن.

۳- ۳) الميزان/ج ۱۵ ص ۲۰.

و عرّفـک عنـد الحـاجه مواضـع طلبـک و إرادتـک؟ » (1)،و الملاحـظ اسـتخدام الإمـام فی الأفعـال صـیغه البنـاء للمجهول(المنشأ،بدئت،وضعت،أخرجت)و کذلک هداک و عرفک،و الهدف هو التأکید علی الإراده الإلهیه فی الخلق.

ثـم أنّ خلقـه الإنسـان لاـ تتحرّک فی الفراغ و لاـ علی أسـاس الصـدفه،إنّمـا هی قـائمه علی الحکمـه الـدقیقه،و التـدبیر الإلـهیّ المتین،حیث القوانین التی تجلی إراده اللّه و حکمته للمتـدبّر،فالجنین لا ینمو و لا یمکث بلا قـدر و لا قانون فی بطن أمه،بل کما وصف اللّه تعالی:

إِلیٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ و حیث یخرج یکون مهیّئـا لممـارسه الحیاه خارج الرحم،و تکون أمّه مستعده نفسیّا و بـدنیّا لاستقباله و هکـذا عائلته.قال الزمخشـری:إلی مقدار معلوم،قد علمه اللّه و حکم به و هو تسـعه أشـهر أو ما دونها أو ما فوقها (2)،و قال القمّی:منتهی الأجل (3).و حین یحلّ الأجل فإنّ الأم لا تستطیع أن توقف التحول النفسی و البیولوجی الذی یحدث فی کیانها و توقف حرکه الجنین باتجاه الخروج،کما لا یملک الجنین نفسه من أمره شیئا،بل هی الإراده الإلهیه وحـدها تصـنع ما تشاء و تتسع کلمه القدر إلی معانی عدّه نجملها فی إثنین:

الأول:المقـدار و الحـدّ،فیکون المعنی أنّ الجنین من النـاحیه النفسـیه و العضویه و هکـذا الزمنیه محـدّد بمقادیر و مقاییس إلهیه حکیمه یعلمها عزّ و جلّ.

الثانی:القدر و المصیر،فقد جعل الماء فی قرار مکین لکی ینتهی إلی قدر إلهیّ

۱- ۱) نهج البلاغه/خ ۱۶۳.

۲- ۲) الکشاف/ج ۴ ص ۶۷۹.

۳- ۳) تفسیر القمّی/ج ۲ ص ۴۰۰.

یعلمه تعالی،فقد یکون قدره أن یصبح ذکرا أو أنثی أو بینهما،أو یخرج تامّا أو معیبا،أو حیّا أو میتا،ثم إذا خرج إلی الحیاه الدنیا فإنّه یتحرّک وفق أقدار یعلمها اللّه،و إلی مصیر محدّد،ربما یکون السعاده و الجنه،و ربما یکون الشقاء و النار،أو یکون الفقر و الصحه،أو الغنی و المرض،أو..أو..،و لا تعنی الآیه أنّ کلّ إنسان یأتی إلی الحیاه الدنیا لیعیش ضمن أقدار محدّده یجبر علیها،بل هی تکشف عن علم اللّه المطلق بما یؤول إلیه من خیر أو شر.و قوله:«معلوم»یفید التحدید من جهه،و الإطلاق من جهه ثانیه،فأمّا التحدید فإنّ مسیره الإنسان فی وضعها الطبیعی و النسبی محکومه بمعطیات و أقدار محدّده یمکن لنا معرفتها عبر العلم و التجربه،کمیعاد الولاده و ما أشبه..،و أمّا الإطلاق فإنّ العلم الیقین بکلّ شیء و بالذات بعض الأمور فهو للّه وحده یقدّره و یعلمه،بحیث لا یستطیع بشر تحدیده و معرفته.

فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ قال ابن جریر:فملکنا فنعم المالکون،و عن الضحّاک قال:فخلقنا فنعم المالکون (1)،و فی التبیان:معناه فقدرنا من القدره فنعم القادرون علی تدبیره (2)، و فی مجمع البیان:أی قدرنا خلقه کیف یکون قصیرا أو طویلا،ذکرا أم أنثی، فنعم المقدّرون نحن،و یجوز أن یکون المعنی إذا خفّف(لأنّ المفسرین قرءوها بالتخفیف و التثقیل)من القدره،أی قدرنا علی جمیع ذلک فنعم القادرون علی تدبیر ذلک،و علی ما لا یقدر علیه أحد إلاّ نحن،فحذف المخصوص بالمدح (3)،و هذا ما احتمله العلاّمه الطباطبائی فی المیزان و قال:من القدره مقابل العجز،و المراد فقدرنا علی جمیع ذلک (4).

1- 1) الدر المنثور/ج 6 ص 306.

2- 2) التبیان/ج 10 ص 228.

3- 3) مجمع البیان/ج 10 ص 417.

4- 4) المیزان/ج 20 ص 153.

أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفٰاتاً* أَحْيٰاءً وَ أَمْوٰاتاً و الكفات السكن و الوعاء،

ففى الخبر نظر أمير المؤمنين عليه السلام فى رجوعه من صفّين إلى المقابر فقال:«هذه كفات الأموات»أى مساكنهم،ثم نظر إلى بيوت الكوفه و الذى أختاره أنّ الكلمتين:«فقدرنا»و«القادرون»مشربتين اثنين من المعانى فى آن واحد:أحدهما التقدير بالحكمه و العلم،و الآخر القدره بالقوه و المشيئه، و لعمرى إنّ المتفكّر فى خلقه البشر يجد اسمى الحكيم و القادر متجلّيين فيها بما لا يقبل ذرّه من الشك،لو لا أنّ الإنسان يجعل بينه و بين الحقيقه حجاب التكذيب بالحق للهروب من المسؤوليه،فله الويل من اللّه إذا فعل ذلك.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ و فى الآيه ملاحظه لطيفه عند قوله«يومئذ»فتلك ينبغى أن تكون إشاره إلى يوم الفصل الذى أشار إليه السياق فى السوره،و هو كذلك،بالإضافه إلى إيحاء الكلمه بمعنى آخر،هو أنّ تلك الآيات الإلهيه المتجلّيه فى الخلقه تهدينا إلى أنّ الويل للمكذّبين،فأىّ جريمه كبرى هى التكذيب بحقيقه عظمى كحقيقه الغيب و قدرته و حكمته!و الإشاره إلى ذلك ب«يومئذ»هو ترتيب على تلك النتيجه الحاصله،إذ لا يعقل أنّ الخالق الحكيم لا يقدّر آخره بعد الدنيا و ذلك من مسلّمات الحكمه الأوّليّه.

[۲۵-۳۷]من التفكّر فى آفاق النفس الذى يقود الإنسان إلى التسليم للّه و الإيمان بيوم الفصل تنطلق الآيات موجّهه أبصارنا إلى آفاق الطبيعه من حولنا، فهى الأخرى تعكس أسماء اللّه و آياته الهاديه الى الحقائق.

ص:۲۲۶

فقال: «هذه كفات الأحياء»ثم تلا قوله:«الآيتين» (۱)، و فی مجمع البيان:

كفت الشیء یكفته كفتا و كفاتا إذا ضمّه،و منه

الحديث :«اكفتوا صبيانكم » أی ضمّوهم إلی أنفسكم،و يقال للوعاء:كفت و كفيت،و قال أبو عبيده كفاتا:

أی أوعيه (۲)،و عن قتاده و مجاهد و الشعبی:أی تحوزهم و تضمّهم (۳)،و الأرض وعاء و سكن للخلائق تضمّ الناس الأحياء و الأموات،سواء بالمعنی الظاهر أو بالمعنی المجازی للكلمه حيث المؤمنين و الكفّار،و العلماء و الجهله.

وَ جَعَلْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِیَ شٰامِخٰاتٍ قال القمی:جبال مرتفعه (۴)،و لعلّ الآيه تبيّن حقيقه جيولوجيه و هی أنّ للجبال قمّتين:قمّه راسيه فی أعماق الأرض كقاعده البناء،و قمّه صاعده شامخه فی آفاق السماء.

وَ أَسْقَيْنٰاكُمْ مٰاءً فُرٰاتاً و هناك علاقه بين الحديث عن الجبال و بين الحديث عن الماء الفرات،فإنّ أفضل المياه و أعذبها ما تتفجّر به ينابيع الجبال،و ما ينحدر منها إلی جوف الأرض و سفوحها و أنهارها.

قال الإمام علی-عليه السلام-يصف الأرض :«فلمّا سكن هيج الماء من تحت أكنافها،و حمل شواهق الجبال الشمّخ البذّخ(الطاغيه فی الارتفاع)علی أكتافها،فجّر ينابيع العيون من عرانين أنوفها(العرنين:ما صلب من عظم

۱- ۱) تفسير القمی/ج ۲ ص ۴۰۰.

۲- ۲) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۴۱۶.

۳- ۳) المصدر/ص ۴۱۷.

۴- ۴) تفسير القمی/ج ۲ ص ۱۳۲.

الأنف،و المراد أعالى الجبال)،و فرّقها فى سهوب بيدها(جمع بيداء و هى الصحارى) و أخاديدها،و عدّل حركاتها(يعنى الأرض)بالرّاسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب(القمم)الشّمّ من صياخيدها،فسكنت من الميدان لرسوب الجبال فى قطع أديمها،و تغلغلها متسربّه فى جوبات خياشيمها(الجواب:الحفر،و الخياشيم:

منفذ التنفّس)،و ركوبها أعناق سهول الأرضين و جراثيمها(المنحدرات)، و فسح بين الجوّ و بينها،ثم لم يدع جرز الأرض التى تقصر مياه العيون عن روابيها،و لا تجد جداول الأنهار ذريعه إلى بلوغها،حتى أنشأ لها ناشئه سحاب تحيى مواتها، و تستخرج نباتها.. » (۱)،و

قال الإمام الصادق عليه السلام :«انظر يا مفضّل إلى هذه الجبال المركومه من الطين و الحجاره،التى يحسبها الغافلون فاضلا لا حاجه إليها، و المنافع فيها كثيره،فمن ذلک أن يسقط عليها الثلوج فيبقى فى قلالها لمن يحتاج إليه، و يذوب ما ذاب منه فتجرى منه العيون الغزيره التى تجتمع منها الأنهار العظام.. » (۲).

و جعل اللّه الأرض كفاتا،و جعله فيها الجبال الراسيه الشامخه،و سقينا بها الماء الفرات من ينابيع مخازنها،و ذو بان ما تقلّه من الثلوج،كلّها نعم إلهيه تستوجب الشكر و الحمد له،و من شكره اتباع رسله و رسالاته،إلاّ أنّ الإنسان غالبا ما لا يفعل ذلک،بل تراه كفورا مكذّبا،ويل له يوم القيامه من شديد العذاب على قلّه حمده،و مقابلته إحسان ربه بالتكذيب.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ من غضب اللّه و عذابه،فإنّ غضبه عليهم و تكذيبهم لرسله و كتبه يستحيلان فى الآخره ألوانا من العذاب الذى لا يطاق،ينطلقون إليه بزجر خزنه جهنم و مقامع من

۱- ۱) نهج البلاغه/خ ۹۱ ص ۱۳۲.

۲- ۲) موسوعه بحار الأنوار/ج ۳ ص ۱۲۶.

نار تلظى،و لسان الحال قولا و فعلا ما حكى ربّ العزّه:

اِنْطَلِقُوا إِلىٰ مٰا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ قال العلاّمه الطبرسى:يعنى من العقاب على الكفر،و دخول النار جزاء على المعاصى (۱)،و علّق الرازى بالقول:و الظاهر أنّ القائلين هم خزنه النار (۲)، و الذين يكذّبون به هو الجزاء و النار،و التكذيب بذلك يعنى إنكاره،و إنكار الحقائق الأخرى بسبب هذا التكذيب.

اِنْطَلِقُوا إِلىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاٰثِ شُعَبٍ و لعلّ الظلّ بسبب الدخان الذى يحجب النور،أو هو الظلام الحالك،و قد اختلف المفسرون فى معنى«ثلاث شعب»،فقيل معناه:يتشعّب من النار ثلاث شعب:شعبه فوقه،و شعبه عن يمينه،و شعبه عن شماله فتحيط بالكافر (۳)،و قيل:

يخرج من النار لسان فيحيط بالكافر كالسرادق،فينشعب ثلاث شعب فيكون فيها حتى يفرغ من الحساب (۴)،و فى اللغه:الشعبه جمعها شعب و شعاب:الفرقه و الطائفه من الشيء،يقال:أشعب لى شعبه من المال أى أعطنى قطعه من مالك، و يسمّى الغصن من الشجره شعبه (۵)،و نفهم من ذلك أنّ الظل ينشعب إلى ثلاثه أقسام،و لعل المكذّب يلقى فى كلّ شعبه ألوانا من العذاب تختلف عمّا فى الشعبتين الأخريين شده و نوعا.

۱- ۱) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۲۳۰.

۲- ۲) التفسير الكبير/ج ۳۰ ص ۲۷۴.

۳- ۳) التبيان/ج ۱۰ ص ۲۳۰.

۴- ۴) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۴۱۸.

۵- ۵) المنجد/ماده شعب بتصرف.

و یختلف ذلک الظل عن ظلّ الدنیا بصوره تامه،فإنّنا نأوی إلی الضـلال فیها طلبا للراحه،و هربا من حرّ الشمس و لفحها،أمّا الظل المقصود فی الآیه فإنّه قطعه من عذاب جهنم.

لاٰ ظَلِیلٍ معنـاه:غیر مـانع من الأذی یستر عنه..فالظلیل من الظلّه و هی السّتره (۱)، و سـمّی الظلال بذلک لأنّه یحجب الشـمس و یسترها و یمنع الحر.و لیس الظلال المشار إلیه فی الآیه یسبّب الراحه لأهله.

وَ لاٰ یُغْنِی مِنَ اللَّهَبِ و اللهب ما یعلو من ألسنه النار و حرّ لفحها،و لیس ذلک الظل یدفع عنهم حرّ لهب جهنم.

إِنَّهٰا تَرْمِی بِشَرَرٍ کَالْقَصْرِ قیل:مثل القصور و الجبال (۲)،و

فی حدیث طویل عن النبی صـلی الله علیه و آله فی شأن النار:قال :«تزفر النار بمثل الجبال شـررا » (۳)،و قیل:مثل أصول الأشجار المتشـعّبه الجذور،قال ابن عبّاس:کجذور الشـجره،و عن مجاهد قال:حزم الشـجر،و عن الضـحّاک قال:أصول الشجر العظام (۴).و العرب تشبّه الإبل بالقصور (۵)،و المهم أنّ التشبیه بالقصر کنایه عن الضخامه و التشعّب معا و هما

ص:۲۳۰

۱- ۱) التبیان/ج ۱۰ ص ۲۳۰.

۲- ۲) فی القمی و التبیان و مجمع البیان و الکشاف و التبیان و الدر المنثور و التفسیر الکبیر.

۳- ۳) نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۹۰.

۴- ۴) الدر المنثور/ج ۶ ص ۳۰۴.

۵- ۵) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۴۱۸.

مجتمعتين فی مثل القصور.

كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ و قد ذهب أغلب المفسرين إلی القول بأنّها الجمال،و

قيل :هی قطع النحاس، و هو مرویّ عن الإمام علی عليه السلام (۱)،و النحاس يسمّی صفرا عند العرب،و بناء علی هذا القول ينبغی حمل الجماله علی أنّها جمع جمل و هو الحبل و السلك العظيم، لقوله تعالی:« حَتّی يَلِجَ الْجَمَلُ فِی سَمِّ الْخِيَاطِ » (۲).

و هذه الألوان من العذاب هی بعض ما يلقاه المكذّبون من الويل فی الآخره، و الذی يشير إليه القرآن بتكرار الآيه الكريمه:

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ و من ويلاتهم يوم الفصل أنّهم تسلب حرّياتهم التی طالما أساؤوا استخدامها و فهمها فی الدنيا،إلی حدّ لا يستطيعون النطق،و لا يؤذن لهم من قبل اللّه عزّ و جلّ.و لعلّ ذلك جزاء إطلاقهم العنان لأنفسهم فی الأهواء و الشهوات،و عدم التزامهم بحدود اللّه و شرائعه.

هٰذا يَوْمُ لاٰ يَنْطِقُونَ و

فی الأحاديث: أنّ أهل جهنم يلجمون بلجم من نار،و تحبس ألسنتهم التی سخّروها لحرب رساله اللّه و حزبه،بل لا يستطيعون النطق للحجج الإلهيه البالغه التی لا تدع لهم مجالا للتبرير و لا قدره علی الكلام فی محضر ربّ العزه.

۱- ۱) التفسير الكبير/ج ۳۰ ص ۲۷۶.

۲- ۲) الأعراف/۴۰.

إنّ النفس اللوّامه توخز ضمير الكاذب المنحرف،و إنّ عقله يهديه إلى الإعتبار بمصير الغابرين،و لكنّ نفسه الأمّاره بالسوء تلحّ عليه باتباع الشهوات و امتطاء مركب الغرور و الجحود،و هنا يقدم الشيطان بالحلّ الوسط،هو التسويل و التزيين، فيؤوّل آيات الذكر،و يعتذر للدعاه إليها،و يبرّر للناصحين،و يخادع نفسه..

و هكذا تجد أكثر المكذّبين و المجرمين يعدّون تبريرات و أعذار لأنفسهم كما للآخرين بما يزعمون أنّها سبب انحرافهم و فسادهم،و لكن في يوم القيامه ليس لا تقبل منهم تلك المعاذير الباطله بل و لا يسمح لهم بسردها لأنّها محكومه سلفا بالسفاهه و الدجل،ممّا يدعونا إلى إعاده النظر و بصوره جدّيّه فيما نعتذر به للآخرين أو نخدع به أنفسنا انطلاقا من الثقه بأنّها لا تغني عنّا شيئا في يوم القيامه.

وَ لاٰ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ لأنّ الاعتذار النافع هو اعتذار الإنسان لربه في الدنيا عن الخطيئات بالتوبه الخالصه،أمّا الآخره فهي للفصل و الجزاء فقط،من هنا لا يؤذن لهم للاعتذار، و

الإمام الصادق عليه السلام يهدينا إلى فكره دقيقه في الآيه فيقول:«اللّه أجلّ و أعدل و أعظم من أن يكون لعبده عذر و لا يدعه يعتذر به،و لكنه فلج فلم يكن له عذر » (1)،بلى.إنّهم لا يريدون الجدال عن حقّهم بالمنطق السليم،و إنّما يريدون التوسّل بالأعذار الواهيه،و لذلك لا يؤذن لهم.و هذا من حكمه اللّه عزّ و جلّ إذ لو كان يترك الإنسان يفعل ما يشاء في الحياه الدنيا،ثم يفتح له يوم الفصل باب التبرير لفسدت حكمه الخلق،كلاّ..بل لهم الويل بعد الويل.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ و من هذه الآيه نكتشف أنّ الأعذار الواهيه هي بدورها كذب و لصاحبها

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۴۹۰.

الويل.

[۳۸-۴۴]و بعد أن عرض القرآن مشاهد من يوم الفصل يضع النفوس المكذّبه فی موقف الشاهد لذلک المستقبل بزمانه، و لکنّه حاضر بحقائقه و شواهده و مواقفه و لحظاته الحرجه،لعلّها ترجع عن غيّها و ضلالها.

هٰذٰا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنٰاكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ و للجمع هنا معنيان:

الأول:هو البعث بجمع الأوصال و العظام و جمعها مع الروح ليكون بشرا سويّا بعد الموت،و قد أشار القرآن إلى هذا المعنى فی آيات عديده منها قوله فی سوره القيامه:« أَ يَحْسَبُ الْإِنْسٰانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظٰامَهُ » (۱).و إنّما ذکر الأوّلين لأنّ المشرکين عاده ما کانوا يستبعدون البعث،و بالذات بعث أولئک الأوّلين الذين اضمحلّت أبدانهم و تبدّدت أوصالهم.

الثانی:أن يکون الجمع بالمعنى الظاهر للکلمه،فإنّ الناس(أوّلين و آخرين) يجمعون فی عرصه القيامه للفصل بينهم و فی مصائرهم.و إنّما ذکر الأوّلين و الآخرين من المکذّبين تمهيدا لتحدّيهم فی الآيه اللاّحقه،إذ لا يريد اللّه أن يتحدّى بعض المکذّبين و حسب بل کلهم مجموعين إلى بعضهم عددا و عدّه.

فَإِنْ كٰانَ لَكُمْ كَيْدٌ تدّعون الغلبه به و تعتمدون عليه.

ص:۲۳۳

۱- ۱) القيامه۳/.

فَكِيدُونِ و هـذا ردّ على ما أجمعوا عليه و توارثوه من الخبره فى الكيد ضد الحق(قيما و قياده و حزبا)فى الحياه الدنيا.و ما عسى أن يبلغ كيـد هـذا الإنسـان الضـعيف و الجاهـل حتى يبـارز ربّه عزّ و جـلّ؟!و لكنّه يتكبّر و يأخـذه الغرور فيلقى بنفسه فى مهلكه المكايده مع اللّه،فالويل للمكذّبين ممّا يصيرون إليه نتيجه حربهم للّه الملك الجبّار المتكبّر.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ و هل ثمّه ويل أعظم من كيـد اللّه العظيم بأحـد؟!كلاّ..فهو حقّ بكلّ ما تتّسع له الكلمه من معنى.و هكـذا يسفّه السـياق القرآنى الظنّ الـذى يبعثهم نحو التكـذيب و هو أنّهم قادرون على مقاومه جزاء أعمالهم بكيدهم و ما يسـتخدمونه من خطـط و أساليب.أمّا المتقون الـذين آمنوا بـاللّه،و صـدّقوا رسالاتـه،و اتبعوا رسـله و أوليـاءه،فمصـيرهم إلى رضوانه و جزائه الحسن.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى ظِلاٰلٍ وَ عُيُونٍ و ليس الظلال كالظل« ذِى ثَلاٰثِ شُعَبٍ* لاٰ ظَلِيلٍ وَ لاٰ يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ »بل هو ظلال رضوان اللّه الـذى يلقى فيه المتقون غـايه الأمن و السـعاده،حيث اللـذه ببرد لطف اللّه و رحمته،و حيث التمتّع بنعيم الجنه كالمنـاظر البـديعه للعيون التى تستريح العين لرؤيه مائها المتفجّر.

وَ فَوٰاكِهَ مِمّٰا يَشْتَهُونَ بكل ما تنطوى عليه كلمه الاشتهاء من معنى،ففى الجنه يطلق اللّه بفضله

ص:۲۳۴

و مشیئته عنان الشهوه لأولئک الذین عقلوها بعقال أحکام اللّه و حدوده،فالمتقون هناک یجدون ما یحبّونه من الفواکه فی کلّ مکان و زمان،إذ تسقط معادله الفصول و المواسم،کما یبلغون شهوتهم کیفما یریدون،إذ تأتی الفواکه بالحجم و اللون و الطعم و الشکل الذی یتخیّله واحدهم و أحسن منه.

و العلاقه واضحه بین هذه النعم الثلاث،فإنّ الظل و العیون و الفواکه المتنوّعه هی أبرز معالم الجنه،و إنّما ذکرها اللّه کنایه عن الجنه،و تفصیلا فی المعنی للمزید من التشویق و الترغیب للمتقین فی نعیمها.

و من سمات المنهج الإسلامی أنّه یوصل بین السعی و الجزاء،و ذلک لکی لا یتحوّل الشوق إلی جنّات اللّه و رضوانه إلی مجرّد أمانی و ظنون،و إنّما تکون الرغبه لبلوغها نهج عمل و سعیا حثیث من أجل الوصول إلیها و تحقیقها فی الواقع.هذا علی صعید الدنیا،أمّا علی صعید الآخره فإنّ بیان اللّه للمتقین علاقه عملهم بجزائهم نوع من الإکرام لهم،و إلاّ فإنّ ما یلقاه المتقون فی جنّات اللّه من الناحیه المادیه و الموضوعیه أعظم من أن یبلغه بشر بسعیه،إنّما هو فضل من اللّه و رحمه.و من هذا المنطلق یخاطب المتقون فی الآخره:

کُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِیئاً خالیا من کلّ أسباب النکد و النغص یمکن أن یکون فی طعام أو شراب.

بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* إِنّا کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ الذین یحسنون الصنع(الالتزام بالقیم،و التعامل مع الآخرین،و الاستفاده من نعم اللّه علیهم)،و قد ذکر اللّه صفه الإحسان فی المتقین کسبب لاستحقاقهم الفضیله و الرضوان عنده تأکیدا علی أنّها أرفع درجه یبلغها أحد فی القرب من اللّه،

و العروج فی آفاق الإیمان و العمل الصالح،و ذلک لما یشتمل علیه الإحسان:

الأول:أنّه من أعظم صفات اللّه و أخلاقه.

الثانی:أنّه مرتبه رفیعه فی الکمال البشری،إذ یعنی خروج الإنسان من شحّ النفس إلی حبّ الآخرین و إیثارهم.

[۴۵-۵۰]و فی ختام السوره التی تهدف علاج موقف التکذیب عند الإنسان من خلال توجیهه إلی آیات اللّه،و تخویفه من عذابه،یؤکّد القرآن عاقبه الویل لکلّ مکذّب،مبیّنا لهم بأنّ متعتهم لن تمتدّ إلاّ قلیلا ثم یعقبها مصیر سیء نتیجه إجرامهم و عدم استجابتهم لداعیه الحق.

وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ و کفی بتکرار هذه الآیه عشر مرّات فی السوره تأکیدا للحقیقه الهادیه إلیها(أنّ الویل للمکذّبین).و المکذّبون یختلفون عن المتقین فی المصیر یوم الفصل،فبینما یصیر هؤلاء فی ظلّ و عیون و فواکه ممّا یشتهون،یصیر أولئک إلی الویل و الثبور «ظلّ ذی ثلاث شعب لاٰ ظَلِیلٍ وَ لاٰ یُغْنِی مِنَ اللَّهَبِ »

،کما یتهنّأ المتقون بأکلهم و شربهم حیث لا یساورهم خوف انقطاعه أو انقطاعهم عنه،أمّا المکذّبون المجرمون فلا تطول بهم المتعه الاّ قلیلا ثم تنتهی راحتهم إلی عذاب مقیم.

کُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِیلاً إِنَّکُمْ مُجْرِمُونَ و إذا کان المکذّبون مترفین،و فی أیدیهم نعم اللّه و ألوان المتع،فإنّه لا یعنی حظوتهم برضوان اللّه،لأنّهم مجرمون،فلا جریمه أکبر من تکذیب الإنسان بالحق و ممارسته الباطل فی الحیاه،سواء فعل ذلک الفقیر أو صاحب الثروه و الأتباع.

و الآیه تهدینا من جهه أخری إلی أنّ لهث البشر وراء حطام الدنیا و متعها هو العامل الرئیسی فی ضلاله و اقتحامه کلّ جریمه..و لیس لهذا الأمر من علاج فی نفس المکذّب المجرم إلاّ بالتفکیر فی العاقبه یوم الفصل،لأنّ ذلک مدعاه للعاقل أن یترک المتع القلیله فی ذاتها و مدّتها و الموجبه للویل المقیم یومذاک،و هذا ما یفسّر علاقه الآیه (۴۶)بقول اللّه بعدها:

وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ و حینما یستحضر الإنسان فی وعیه و تصوّره حقائق ذلک الیوم فسوف یجد نفسه مدفوعا لترک الجریمه و کلّ أکله و متاعه لا ترضی اللّه،و من ثم ترک التکذیب إلی الإحسان،و الطمع فی نعیم الآخره،و التسلیم للّه و لرسله و رسالاته،لأنّ جاذبیه شهوات الدنیا لا تقاوم إلاّ بمثل جاذبیه الجنه و خشیه مصیر المکذبین و المجرمین، و وعی العذاب الشدید الذی ینتظر المکذبین.

و یبین القرآن صفه أخری للمکذّبین إضافه إلی لهثهم وراء حطام الدنیا و متعها،و إضافه إلی کونهم مجرمین،ألا و هی عدم تسلیمهم لأوامر اللّه و عدم خضوعهم لها.

وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمُ ارْکَعُوا لاٰ یَرْکَعُونَ قال مقاتل:نزلت فی ثقیف حین أمرهم رسول اللّه صلی الله علیه و آله بالصلاه فقالوا:

لا ننحنی،و أضاف العلاّمه الطبرسی:و الروایه لا ننحنی فإنّ ذلک سبّه علینا،

فقال رسول اللّه: «لا خیر فی دین لیس فیه رکوع و سجود » (۱)،ذکر ذلک أغلب المفسرین.و قد ذکر الرکوع بالذات لأمرین رئیسین:

۱- ۱) مجمع البیان/ج ۱۰ ص ۴۱۹.

الأول:أنّه ذكر كنايه عن الصلاه،لأنّ الركوع أبرز ما فيها،و لذلك تسمّى وحدات الصلاه بالركعات،و الصلاه تمثّل عمود الدين،و ذكر مخالفتهم و عصيانهم للّه فى أبلغ أوامره و شرائعه أوضح دلاله على عصيانهم و تكذيبهم.

الثانى:لأنّ الصلاه هى مظهر العبوديه للّه،و الركوع منها رمز الخضوع و التسليم و مظهره العملى،و بيان تكذيب المكذّبين و تمرّدهم عن التسليم للّه و للقياده الرساليه يكون أجلى عند التمثيل له بالركوع و السجود من التمثيل له بأىّ شىء آخر،و على هذا الأساس نستطيع حمل الركوع هنا على أنّه رمز للتسليم بكلّ مفرداته لا كونه محصورا فى ركوع الصلاه فقط،و لذلك فإنّ رفض التسليم-بجميع معانيه-يستلزم الويل للمكذّبين.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الذين يكذّبون بالحقائق،و من أبرزها و أهمّها:

أولا:الآخره،فإنّ الإيمان بها أساس إيمان الإنسان بسائر القيم و الحقائق الإلهيه،و أساس التزامه بكلّ مفردات الدّين فى الحياه.

ثانيا:القرآن الكريم و هو حديث اللّه للناس،و الذى لا يصلحه حديث ربه، و لا تداوى أدواءه آياته، فلن تجد له علاجا أبدا،و هكذا فإنّ من لا يؤمن به و يسلّم له على ظهور حججه و دلائله فبما ذا يؤمن بعده؟! فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ لأنّ الأحاديث غيره كلّها لا تصل إلى مستواه فى الصدع بالحق،و اشتمالها عليه،و لا فى بيانها و هدايتها له،و كيف يرتفع حديث مخلوق إلى صحه حديث

الخالق و بلاغته؟! و من الآيه نهتدى إلى أنّ من لا يؤمن بحديث القرآن،و منه بالذات حديث الآخره،فإنّه يبقى فى شك من كلّ شىء و حديث،بل يبقى فى التباس من وجوده و وجود أوضح الموجودات كالشـمس الساطعه فى الآفاق! أمّا عن رأى المفسرين فى الآيه الكريمه فقد اتفقوا على أنّ الحـديث هو القرآن، و يمكن حمله على أنّه حـديث الآخره،و بتعبير أصح نقول:هو القرآن الـذى من أبرز أحاديثه بعد تعريف الإنسان بربه حديثه عن الآخره،التى يحتل موضوعها أهميه كبيره فى القرآن كمّا و كيفا،و فى الثقافه الإسلاميه بصوره عامه.

ص:۲۳۹

سوره النّبأ

اشاره

ص:۲۴۱

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

فضل السوره

روى عن النبى-صلّى اللّه عليه و آله و سلم-أنّه قال: «من قرأ هـذه السوره و حفظها لم يكن حسابه يوم القيامه إلاّ بمقـدار سوره مكتوبه حتى يدخل الجنه » البرهان فى تفسير القرآن/ج ۴ ص ۴۱۹

ص:۲۴۳

الإطار العام

الحقـائق الكبرى تحيـط بلبّ البشـر إحـاطه السوار بـالمعصم،كلّمـا أراد منها هروبا وجـدها أمامه،و لا ريب أنّ النشور للحساب،و الولا‌ـيه من تلك الحقائق،فبالرغم من محاولات الفرار منها تراهم يتساءلون عنها،لأنّها من النبأ العظيم،و النبأ العظيم يجـده الإنسان أمامه أنّى اتجه،و لأهميته يختلفون فيه،فى تفاصيله مرّه و فى محاولات التهرب منه أحيانا.

كلّا..إنّه يفرض نفسه عليهم حتى يعلموه علم اليقين،ثم كلّا سيعلمونه حين يرون عواقب تكذيبهم به.

بعـد هـذه الفـاتحه الصاعقه تمضـى السوره تـذكّرنا بآيات اللّه فى الخليقه و التى تهـدينا إلى أنّه عليم حكيم،و أنّه لم يخلق العباد سدى،و إنّما بحكمه بالغه تتجلّى فى المسؤوليه.لقد خلق ما فى الأرض للإنسان فلأى شيء خلق الإنسان نفسه؟أ لم يجعل الأرض مهادا،و الجبال أوتادا،بل و جعل فى ذات الإنسان ما يدل على بديع

ص:۲۴۴

الصنع،و بالغ الحكمه؟لقد خلقنا أزواجا،و جعل لنا النوم استراحه عن العمل، و جعل الليل لنا سترا و النهار معاشا للنشاط و الحركه،أمّا السماء فقد جعلها سقفا محفوظا بسبع طبقات شداد،و علّق فيها لأهل الأرض سراجا وهّاجا،ثم أنزل منها ماء متواصلا مندفعا،ثم جعل هذا النظام مترابطا ببعضه فأنبت من الأرض حبّا و نباتا،و جنّات ألفافا،كلّ ذلك من أجل الإنسان،و الإنسان من أجل المسؤوليه، و لكى يقدّم للمحاكمه غدا فى يوم الفصل الذى كان ميقاتا للحساب،يوم ينفخ فى الصور فيتوافد الخلائق أفواجا أفواجا.أمّا السماء فإنّها تتحول إلى أبواب لتنزل الملائكه بالعذاب أو الثواب.أمّا الجبال التى أكنّت البشر فتكون سرابا.

هنالك الحساب،فبينما يساق الطغاه إلى جهنم ليبقوا فيها أحقابا بلا برد و لا شراب تجد المتقين فى مفاز،حيث يدخلون الجنه ليتمتعوا بنعيمها و أمنها و خلودها، و هذا و ذاك يكون تجسيدا لمسؤوليتهم فى الدنيا،و جزاء وفاقا لأعمالهم.

و تختم السوره بتصوير مشهد من مشاهد القيامه حيث يقوم الروح و الملائكه صفا لا يتكلمون،و يذكّرنا ربنا بأنّ فرصه الإختيار السليم لا تزال قائمه فقد أنذرنا عذابا قريبا،يوم يرى المرء أعماله التى قدّمها متجسده أمامه.أمّا المؤمن فيفرح بها،و أمّا الكافر فيقول:يا ليتنى كنت ترابا و لم أقدّم مثل هذه الأعمال أو أتحمل تلك المسؤوليات.

ص:۲۴۵

[سوره النبإ (٧٨): الآيات ١ الى ٢٠]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . عَمَّ يَتَسٰاءَلُونَ (١) عَنِ اَلنَّبَإِ اَلْعَظِيمِ (٢) اَلَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلاّٰ سَيَعْلَمُونَ (۴) ثُمَّ كَلاّٰ سَيَعْلَمُونَ (۵) أَ لَمْ نَجْعَلِ اَلْأَرْضَ مِهٰاداً (۶) وَ اَلْجِبٰالَ أَوْتٰاداً (٧) وَ خَلَقْنٰاكُمْ أَزْوٰاجاً (٨) وَ جَعَلْنٰا نَوْمَكُمْ سُبٰاتاً (٩) وَ جَعَلْنَا اَللَّيْلَ لِبٰاساً (١٠) وَ جَعَلْنَا اَلنَّهٰارَ مَعٰاشاً (١١) وَ بَنَيْنٰا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدٰاداً (١٢) وَ جَعَلْنٰا سِرٰاجاً وَهّٰاجاً (١٣) وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ اَلْمُعْصِرٰاتِ مٰاءً ثَجّٰاجاً (١۴) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَبٰاتاً (١۵) وَ جَنّٰاتٍ أَلْفٰافاً (١۶) إِنَّ يَوْمَ اَلْفَصْلِ كٰانَ مِيقٰاتاً (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي اَلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوٰاجاً (١٨) وَ فُتِحَتِ اَلسَّمٰاءُ فَكٰانَتْ أَبْوٰاباً (١٩) وَ سُيِّرَتِ اَلْجِبٰالُ فَكٰانَتْ سَرٰاباً (٢٠)

اللغه

١[عمّ]:أصلها:عن ما،مركّبه من عن الجارّه و ما الاستفهاميه،ثمّ أدغمت النون فى الميم لقرب مخرجها،و حذفت الألف من ما على ما هى عليه القاعده من حذفها مطلقا إذا دخل على ما حرف الجر.

۶[مهادا]:وطاء و قرارا مهيّئا للتصرّف،كالمهد الذى يتصرّف فيه الطفل من غير أذيّه.

٧[أوتادا]:جمع وتد و هو المسمار إلاّ أنّه أغلظ منه، فالجبال هى مسامير للأرض تحفظها من التشقّق و التبعثر فى الهواء من جرّاء الحركه و الجاذبيات.

۹[سباتا]:قاطعا للعمل لأجل الاستراحه،و منه سبت أنفه إذا قطعه.

۱۳[وهّاجا]:الوهّاج الوقّاد المشتعل بالنور العظيم،من وهج بمعنى أنار و أضاء.

۱۴[المعصرات]:السحائب تعتصر بالمطر كأنّ السحاب يحمل الماء ثمّ تعصره الرياح و ترسله كإرسال الماء بعصر الثوب، و عصر القوم:مطروا..و قال البعض:إنّها أودع فيها من الطاقات العاصره حتى تمطر.

[ثجّاجا]:الثجّاج الدفّاع فى انصبابه كثجّ دماء البدن، من ثجّ بمعنى انصبّ بكثره.

۱۶[ألفافا]:الألفاف الأخلاط المتداخله يدور بعضها على بعض،و هكذا الجنّات فأشجارها يلتفّ بعضها على بعض.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كٰانَ مِيقٰاتاً

هدى من الآيات:

أ تراهـم يتساءلون عـن النبأ العظيـم،عـن يـوم الجزاء(عـن مسـئوليه الولايه) و يختلفـون فيـه(ثـم لا يبحثـون بجـدّ عـن الإجـابه الصحيحه)؟كلاّ..(دعهم فى غيّهم) فسوف يعلمون،ثم كلاّ..(ليس الأمر بهذه البساطه)فسيعلمون.

أ فلا يبصرون شواهد التدبير و الحكمه:فى الأرض التى مهّدت لهم و وتّدت بالراسيات،فى خلقهم أزواجا تتكامل أبعاد وجودهم ببعضـهم،فى حيـاتهم كيـف نظّمـت فجعـل الليـل لهم سـكنا و جعـل النهـار لمعاشـهم مبصـرا،و فى السـموات الـتى تحفظهم عن الطوارق،و كيف جعل اللّه فيها سـراجا وهّاجا،و فى تـدبير رزقهم بالغيث الـذى ينزل عليهم ماء ثجّاجا فيخرج اللّه به حبّا و نباتا و جنّات ألفافا؟! بلى.لو أنّهم أبصروا شواهد الخلقه و آيات الحكمه لعلموا أنّ يوم الفصل آت و أنّهم لمجموعون إليه عند ما ينفخ فى الصور فيتوافدون على ربّهم أفواجا..و يومئذ

تفتح أبواب السماء فتنزل الملائكه بالجزاء.أمّا الجبال فتسيّر ثم تتلاشى كما السراب!

بينات من الآيات:

[۱]يعرض البشر عاده عن التفكير الجدى فى الحقائق الكبرى التى ترسم الخطوط العريضه فى حياته،لما ذا؟هل لأنّها غامضه؟كلاّ..بل لأنّ فى نفسه نزوعا عنها،أ و ليست معرفتها تحمّله مسئوليات كبيره.إذا لما ذا يكلّف نفسه عناء ذلك؟دعه يمرّ على آياتها غافلا-عساه يتهرب من مسئولياتها.و لكن هل الإعراض عنها يغنيه شيئا؟كلاّ..إنّه بالغها فمواقعها شاء أم أبى،آمن أم عاند و كفر.

من تلك الحقائق يوم الفصل و ميقاته،و ما فيه من أهوال عظيمه تدع الولدان شيبا،و ما يفرضه علينا من مسئوليه التسليم للحق و لقيادته،فهل يمكن الإعراض عن كلّ ذلك؟كلاّ..لأنّ آياته ملأت آفاق حياتنا،و إنّنا لا زلنا نتساءل عنها و نختلف فيها و لكن ليس بصوره جدّيه،و غدا حين نواجهه نعلم مدى الخساره فى هذا التساهل،و لا يسعفنا الندم يومئذ شيئا.

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ [۲]و إذا كان الإنسان يعرض عن النبأ العظيم فلما ذا يتساءل عنه؟ربما لأنّ شواهده تفرض عليه التساؤل، فهو من جهه يتهرب من التسليم له لأنّه يحمّله مسئوليه التسليم للحق و لقيادته،و من جهه ثانيه لا- يستطيع الفرار من آياته التى تحيط به،فيظل يتساءل عنه:كيف و متى و أين و لما ذا!؟و مراده من كلّ ذلك الفرار منه،و فى الذكر الحكيم بيان لتساؤلاتهم عن يوم الفصل:أنّى هو،و متى هو،و كيف يحيى اللّه فيه الأموات،و ما أشبه.

عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ فما هو ذا النبأ العظيم؟هل هو مجمل الحقائق العظيمه كالتوحيد و الرسالات و البعث و الجزاء،أم أنّه يوم الفصل الذی يذكره السياق لا حقا،أم أنّه ولايه الإمام علی-عليه السلام-حسبما ذكر فی روايه مأثوره عن النبی-صلّی اللّه عليه و آله-؟ كلّ ذلك محتمل،لا سيما و نحن نعرف أنّ الحديث عن موضوعات الرساله متواصل بعضها مع بعض،فمن تساءل عن يوم الفصل فإنّما يتساءل عنه ليعرف هل عليه أن يسلّم للنذير به و هو الرسول و لمن يأمره الرسول باتباعه.

و إذا كان الفرار من المسؤوليه هو الباعث نحو جحد يوم الفصل فإنّ أعظم المسؤوليات التسليم للقياده الشرعيه و التی تمثّلت فی ولايه أئمه الهدی و فی طليعتهم الإمام علی عليه السلام.

و هكذا

روی عن الحافظ أبی بكر محمد بن المؤمن الشيرازی عن رسول اللّه -صلّی اللّه عليه و آله-فی تفسير هذه الآيه أنّه قال: «المراد ولايه علی الذی يسأل عنها فی القبر » (۱).

و روی عن الإمام الصادق-عليه السلام-أنّه قال: «النبأ العظيم الولايه » (۲).

و قال الإمام علی بن موسی الرضا-عليه السلام-:«قال أمير المؤمنين

۱- ۱) عن رساله الإعتقاد للحافظ أبو بكر محمد بن المؤمن الشيرازی فی تفسير نمونه ج ۲۶ ص ۱۰.

۲- ۲) المصدر/ص ۱۱.

-علیه السلام-: ما للّه نبأ أعظم منّی،و ما للّه آیه أکبر منّی » (۱).

و روی عن الإمام الحسین بن علی-علیه السلام-أنّه قال:«قال رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله-لعلیّ-علیه السلام-: یا علی!أنت حجّه اللّه، و أنت باب اللّه،و أنت الطریق إلی اللّه،و أنت النبأ العظیم،و أنت الصراط المستقیم،و أنت المثل الأعلی » (۲).

[۳]و اختلافهم فی النبأ العظیم دلیل علی أنّهم لا یملکون حجه دامغه لنفیه فإذا بهم یترددون فی أمره،تدعوهم آیاته للإیمان به بینما تدعوهم أهواؤهم إلی الجحود.

اَلَّذِی هُمْ فِیهِ مُخْتَلِفُونَ و لعل اختلافهم یکون أیضا فی تفسیر دلائله و کیف یتهربون منها.أ لا تجد کیف ضربوا للرسول الأمثال فضلوا فلا یستطیعون سبیلا فقالوا إنّه مجنون بل هو شاعر بل افتراه،و هکذا یکون الاختلاف دلیل عجزهم عن تفسیر آیات الحقیقه التی ینکرونها.

[۴]و هل إنکارهم للحقیقه یلغیها أو اختلافهم فیها یخفّف عنهم و وطأتها حین تنزل بهم!؟ کَلاّ سَیَعْلَمُونَ یوم یساقون إلی الجزاء فلا یجدون عنه محیصا.

[۵]بل إنّهم سیجدون الجزاء فی الدنیا قبل الآخره.

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۴۹۱.

۲- ۲) المصدر.

ثُمَّ کَلاّ سَیَعْلَمُونَ و قال بعضهم:إنّ هذه الآیه تشیر إلی أنّهم سیعلمون الحق فی الآخره بینما الآیه السابقه تشیر إلی ما یعلمونه فی الدنیا.و یحتمل أن یکون الإتیان بمفهوم واحد للتأکید.

[۶]أو لا یبصرون آیات اللّه فی الخلق فیعرفون حکمته و أنّه لم یخلقهم عبثا و لن یترکهم سدی؟ أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهٰاداً أ و لا تراها کیف ذلّلت لمعاشک تذلیلا؟انبسطت علیها طبقه من التراب تستخدمه للسکنی و الزراعه،و تسوّیه لحرکتک،و یحتضن أجسادنا بعد الموت، و یستوعب سائر أنشطتنا فی الحیاه.

و إذا أمعنا النظر رأینا أنّ سائر ما فی الأرض هیّء لحیاه الإنسان،و لا نعرف مدی أهمیه الأنظمه التی أجراها الربّ فی الأرض إلاّ بعد قیاسها بسائر الکرات القریبه التی لم نعهد فی أیّ منها أثرا للحیاه و لا فرصه للعیش.أ و لیس فی کلّ ذلک دلیل علی التدبیر و الحکمه؟أ و لا نهتدی بها إلی أنّ اللّه لم یخلقنا عبثا؟ [۷]و لکی تستقر الأرض و ما فیها،و لا تتعرض لأمواج الأعاصیر التی تحیط بها، و لا لتناوب المدّ و الجزر الناشئین من جاذبیه القمر کما البحر،و لکی تتحصن قشره الأرض من أخطار الزلازل و البراکین و الانهیارات بسبب الغازات التی تتفاعل فی نواتها الداخلیه،لکلّ ذلک و لأسباب أخری عدیده نعرف بعضها و نجهل الکثیر جعل اللّه للأرض أوتادا هی الجبال.

وَ الْجِبٰالَ أَوْتٰاداً

هـذه القمم السامقه،و تلك السـفوح المنبسـطه،و هذه الشـبكه من الصـخور التى تتصل ببعضـها من فوق الأرض و من تحتها.إنّها تحصّن الأرض كما الـدروع السابغه.أ فلا نبصـر آثار القـدره و لمسات الحكمه على الطبيعه من حولنا؟فسـبحان اللّه و تعالى عن العبث و اللغو.

[٨]و إذا عـدنا إلى الأنظمه التى تسود حياتنا أبصـرنا المزيـد من آثار القـدره و الحكمه فيها،فهـذه سـنّه الزوجيه التى تكشف من جهه مدى حاجتنا إلى بعضنا،كما تعكس من جهه ثانيه حسن تدبير الخالق،و دقّه تنظيمه.

وَ خَلَقْنٰاكُمْ أَزْوٰاجاً لو كنا قـد خلقنا أنفسـنا لكنا جعلناها أكمل و أقوى منها الآن،مثلا ربما لم نوجـد فيها حاجه إلى الجنس الآخر أو إلى الطعـام و الشـراب و الراحه و السـكن و مـا أشـبه.و لو أوجـدتنا الصـدفه لم نجـد فيهـا هـذا التكامـل ممـا نجـده مثلا- بين الزوجين،تكاملا فى الروح و الجسـد،فى الغرائز و الشـهوات و الحاجات حتى اغتـدى كل جنس سـكنا للجنس الآخر يجـد فيه ما يفتقر إليه،قال سبحانه:« وَ مِنْ آيٰاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهٰا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً » (١).

[٩]و بمناسبه الحديث عن الزوجه و عن السكن الذى توفّره يذكّرنا الرب بنعمه النوم الذى هو نوع من السكن،يهيمن على ذرأت وجودنا و يقطعها عن التفاعل المجهد مع المحيط،و يبسط على أرجاء الجسد غلاله من الهدوء و الراحه.

وَ جَعَلْنٰا نَوْمَكُمْ سُبٰاتاً و يبدو أنّ معنى السبات هو الفراغ الموقّت أو التعطيل و قطع تيّار النشاط.

١- ١) الروم٢١/.

ما هو النوم،و كيف يحدث،و ما أسراره؟إنّ العلم الحديث لاـ يزال يتوغّل فی رحاب هذه الظاهره العامه من حیاه الإنسان و یکشف المزید من أسراره،إلاّـ أنّ الثابت أهمیه دور النوم فی تهدئه أعصاب البشر،و مساعده مخه علی تنظیم المعلومات و تخزینها،و عوده الجسم إلی أنظمته الذاتیه بعد تعرّضه للمؤثرات الخارجیه،و بسط قدر من الهدوء إلی مختلف الأعضاء،و بکلمه:النوم استراحه الجسم بعد جهد متواصل.

[۱۰]و یتمّ النوم عاده فی اللیل حیث یسدل أستاره علی الطبیعه،و یضفی علیها جوّ الهدوء و السکینه.

وَ جَعَلْنَا اللَّیْلَ لِبٰاساً أ رأیت لو کانت الأرض بمن فیها و ما فیها تتعرض لأشعه الشمس باستمرار أ فلم تکن تؤثّر الأشعه فیها و تجهدها؟هکذا نظّم اللّه الأرض بحیث یتناوب علیها اللیل و النهار لضمان استمرار الحیاه فیها.

و التعبیر ب(لباس)بالغ فی الروعه و الدقه.أ و لیس اللباس یستر الشیء عما یشینه و یضره،کذلک ظلام اللیل یستر الطبیعه و الأحیاء عن استمرار تعرضهما للأشعه.

[۱۱]و بعد أن تسترخی الطبیعه فوق فراش الظلام،یستنهضها النهار لمسیره متجدده،فها هی خیوط أشعه الشمس توقظ الروابی و السهول،و تبعث فی النبات و الأحیاء النشاط و الحیویه لتجدید نفسها،و تواصل حرکتها.

وَ جَعَلْنَا النَّهٰارَ مَعٰاشاً

أی میعادا للعیش،و وقتا مناسبا للاسترزاق،و هکذا جعل اللّه فی کلّ حیّ حاجه إلی النمو و الاستمرار،و أودع فیه إحساسا بهذه الحاجه لکی یسعی إلیها، و وفّر له فرص تحقیقها.أ فلا یهدینا ذلک إلی أنّه المدبّر العلیم،و أنّه قادر علی نشرهم إلی یوم الفصل و محاسبتهم؟ [۱۲]و هکذا جعل اللّه الأرض دارا مهیّأه لحیاتنا و بنی فوقها سقفا محفوظا، لکی لا تتساقط علینا النیازک و الأحجار السابحه فی الفضاء و لا ینزل علینا ما یضرنا من أشعه النجوم الضاره و من حراره الشمس المهلکه.

وَ بَنَیْنٰا فَوْقَکُمْ سَبْعاً شِدٰاداً ما هی هذه السبع الشداد؟هل هی المجرات المحیطه بمجرّتنا أو المنظومات الشمسیه القریبه منا،أم هی السموات التی زیّنت واحده منها بالنجوم و هی التی نعرف عنها شیئا قلیلا أمّا الست الباقیات فعلمها عند اللّه...أم ما ذا؟ لعلّ أقرب المعانی هو ذلک الغلاف الجوی المحیط بالأرض ذو الطبقات المختلفه التی تمتد فی عمق مائه کیلومتر،و تشکّل سقفا متینا للأرض،یحفظها من الأجرام التائهه فی رحب الفضاء و من الأشعه الضاره.

[۱۳]من أین تستقی الأرض قدراتها؟إنّها أمّنا فمن هی أمّها التی تغدق علیها بالطاقه؟إنّها الشمس التی ترضعها عبر مسافه مائه و خمسین ملیون کیلومترا تقریبا بالنور و الحراره،و من خلال أشعه الشمس تتغذی النباتات و الأحیاء و تتکون فی الأرض المعادن المختلفه.

وَ جَعَلْنٰا سِرٰاجاً وَهّٰاجاً و یبدو أنّ المراد من الوهج هو الأشعه حسب الراغب فی مفرداته.

أ فلاـ نهتـدى إلى أسـماء ربنـا الحسـنى من خلاـل آياته التى ذكّرنا بها القرآن،فإذا لم نتعرف على قـدره ربنا و حكمته و علمه و تدبيره من خلال آيه الشمس فبما ذا نهتدى؟لقد سخّر اللّه الشمس لحياه البشر،و أشعل هذه الكره الملتهبه فى الفضاء.

إنّ درجه حراره الشـمس تناهز سـته آلاف درجه فهرنهايت.هذا عن سطحها، أمّا العمق فإنّ درجه حرارتها تبلغ الملايين،و هكذا تنفث هذه الكره اللاهبه أشـعه قد تمتد أكثر من مائه ألف كيلومتر و ذلك بسبب التفاعلات الذريه التى تلتهم من جرمها فى كلّ ثانيه زهاء أربعه ملايين طن. (۱)

و قد جعل اللّه بين الشـمس و الأرض هذه المسافه المحدوده لكى تسـتفيد منها الأرض دون أن تضربها،و لو كانت المسافه أبعد لتجمدت أو أقرب لاحترقت.

[۱۴]و إذا كانت الأرض تتغذى بأشـعه الشـمس ككل فإنّ حياه البشر تعتمد عليها أيضا،و أقرب مثل لذلك دوره الماء.أ و ليست أشـعه الشـمس التى تشرق على المحيطات هى التى تسبب فى تصاعد الغيوم عنها،ثم إنّها تكوّن الرياح التى تحملها، ثم تتمخّض السـحب عن الغيث الـذى يرزقنـا اللّه به كـلّ خير؟ وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً لما ذا سـمّيت السـحب معصـرات؟هل لأنّها تتراكم على بعضـها فتسـبب الأمطار،أم لأنّ نظاما طبيعيّا يسودها حين هطول المطر بسـبب اعتصارها(كما قالوا)أم أنّ ذلك إشاره إلى حاله نزول الغيث الشبيهه بعصر الثياب؟كلّ ذلك محتمل.

أمّا الثجّاج فقد قالوا أنّه المتتالى فى السقوط.

ص:۲۵۷

۱- ۱) تفسير نمونه/ج ۲۶ ص ۱۸۶ نقلا عن طائفه من الكتب العلميه.

[۱۶-۱۵]هكذا يرفع اللّه مياه البحر بعد تحليتها إلى عنان السماء،و يبسطها فى صوره السحب المتراكمه فوق مساحات شاسعه،ثم يسوقها إلى حيث يشاء من الأرض فيسقيها،لكى لا يبقى سهل أو جبل إلاّ و تشمله بركاتها..ثم إنّها تصفّى الجو من الأدران و الغبار،و تساعد فى قتل الجراثيم.أمّا على الأرض فينبت اللّه بها ألوانا من المواد الغذائيه كالحبوب التى تشكّل أهم مصدر للغذاء عند البشر فالخضروات ثم الثمار.

لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَبٰاتاً وَ جَنّٰاتٍ أَلْفٰافاً أ رأيت البساتين و الغابات كيف تلتف أشجارها ببعضها؟إنّها من بركات الغيث.

إنّ هذا النظام الذى لا نجد فيه ثغره أو فراغا،و يمتد من أعماق الفضاء حيث تشع الشمس بوهجها،إلى كفّ المحيطات حيث تتبخّر بفعل الحراره،و إلى الصحارى المتراميه حيث تنبت الأرض زرعا و شجرا.أ ليس يهدينا هذا النظام إلى وحده التدبير و حكمه المدبّر؟!أ فلا نؤمن بقدرته على أن يعيدنا للحساب؟و هل من المعقول أن يترك ربنا الحكيم خلقه سدى؟ [۱۷]لا نجد فى أىّ بقعه من أطراف الخليقه ثغره أو تفاوتا إلاّ-فيما يتصل بهذا الإنسان الذى سلّطه اللّه على الطبيعه،و أكرمه بالعقل و الحريه،فقد أخذ يعيث فى الأرض فسادا،فهل يعقل أن يكون ذلك من عجز؟و هل يعجز ربّ السموات و الأرض شىء؟أم سوء تدبير؟و لا نجد فى تدبيره شينا أو نقصا.أم ما ذا؟ يهدينا التفكر فى كلّ ذلك إلى أنّ هذا الإنسان الذى هو محور حكمه الخلق و هدف سائر ما فى العالم لم يكن ليخلق بلا حكمه،فما هى حكمه خلقه؟فإذ لا نجد ذلك فى الدنيا نهتدى(بنور العقل)إلى أنّها تتحقق فى يوم الفصل.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كٰانَ مِيقٰاتاً عنـد مـا يلتقى الإنسان بجزائه،و يجتمع الأولون بالآخرين،و تنصب موازين القسط،و يحاكم الظلمه و المجرمون،و يقوم الأشهاد بالحق،عندئذ تتجلّى حكمه خلقه.

فى ذلـك اليوم يتزيّل المؤمنون عن المجرمين، و تتميّز الأعمـال الخـالصه للّه عن أفعال الرياء و النفاق،و تنفصم عرى الأرحام و وشائج الصداقات و الولاءات،و لا تنفع شفاعه الأحبّه و الأولياء.

[۱۸]و يتقاطر الناس على صحراء المحشر زمرا،كل وفد يقودهم إمامهم الذى اتبعوه فى الدنيا.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ تلك النفخه الثانيه التى يحيى بها اللّه العباد جميعا.

فَتَأْتُونَ أَفْوٰاجاً كل فوج يأتون تحت رايه إمامهم.

و فى الحـديث عن البرّاء بن عـازب قال: كان معاذ بن جبل جالسا قريبا من رسول اللّه فى منزل أبى أيّوب الأنصارى فقال معاذ:يا رسول اللّه أ رأيت قول اللّه تعالى:« يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوٰاجاً ...الآيات»فقال:«يا معاذ سألت عن عظيم من الأمر،ثم أرسل عينيه،ثم قال:يحشر عشره أصناف من أمتى أشتاتا قد ميّزهم اللّه تعالى من المسلمين و بدّل صورهم:بعضهم على صوره القرده، و بعضهم على صوره الخنازير،و بعضهم منكّسون،أرجلهم من فوق،و وجوههم

من تحت،ثم يسحبون عليها،و بعضهم عمى يترددون،و بعضهم صم و بكم لا يعقلون،و بعضهم يمضغون ألسنتهم فيسيل القيح من أفواههم لعابا يتقذرهم أهل الجمع،و بعضهم مقطّعه أيديهم و أرجلهم،و بعضهم مصلّبون على جذوع من نار،و بعضهم أشدّ نتنا من الجيف،و بعضهم يلبسون جبابا سابغه من قطران لازقه بجلودهم،فأمّا الذين بصوره القرده فالقتات من الناس(أى النمّامون) و أمّا الذين على صوره الخنازير فأهل السحت،و أما المنكّسون على رؤوسهم فآكله الربا،و العمى الجائرون فى الحكم،و الصمّ البكم المعجبون بأعمالهم، و الذين يمضغون بألسنتهم العلماء و القضاه الذين خالف أعمالهم أقوالهم،و المقطّعه أيديهم و أرجلهم الذين يؤذون الجيران،و المصلّبون على جذوع من نار فالسعاه بالناس إلى السلطان،و الذين أشدّ نتنا من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات و اللذات،و يمنعون حق اللّه تعالى فى أموالهم،و الذين هم يلبسون الجباب فأهل الفخر و الخيلاء » (۱).

[۱۹]و لأنّ الإنسان محور خلق عالمنا فإنّ سائر ما فى الخليقه يتصل به و يتغيّر معه،فترى الأرض و السماء المحيطه بها تخضع لتطورات هائله.

وَ فُتِحَتِ السَّمٰاءُ فَكٰانَتْ أَبْوٰاباً فتلك السماء التى جعلها اللّه سقفا محفوظا غدت منفطره منشقه،و لعلّ تلك الأبواب تكون مهبطا ظاهرا للملائكه،و معراجا للمؤمنين إلى الجنه،و مخرجا للكفّار إلى النار.

[۲۰]أمّا الجبال التى كانت تحافظ على توازن الأرض فإنّها تفقد وزنها، و تسيّر،و تنبثّ كما الهباء فى الفضاء الأرحب،ثم تتلاشى و تصبح سرابا.

ص:۲۶۰

۱- ۱) مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۴۲۳.

وَ سُيِّرَتِ الْجِبٰالُ فَكٰانَتْ سَرٰاباً و هكذا ينهار نظام عالمنا،ذلك أنّه إذا كانت الخليقه قد نظّمت لمصلحه الإنسان و سخّرت لحياته و فرضت عليها السنن إكراما له فها هو يسحب إلى قاعه المحاكمه للحساب و الجزاء،فلم يعد هنالك سبب لاستمرار النظام السائد فى الطبيعه.

[سوره النبإ (۷۸): الآیات ۲۱ الی ۴۰]

اشاره

إِنَّ جَهَنَّمَ کٰانَتْ مِرْصٰاداً (۲۱) لِلطّٰاغِینَ مَآباً (۲۲) لاٰبِثِینَ فِیهٰا أَحْقٰاباً (۲۳) لاٰ یَذُوقُونَ فِیهٰا بَرْداً وَ لاٰ شَرٰاباً (۲۴) إِلاّٰ حَمِیماً وَ غَسّٰاقاً (۲۵) جَزٰاءً وِفٰاقاً (۲۶) إِنَّهُمْ کٰانُوا لاٰ یَرْجُونَ حِسٰاباً (۲۷) وَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا کِذّٰاباً (۲۸) وَ کُلَّ شَیْءٍ أَحْصَیْنٰاهُ کِتٰاباً (۲۹) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِیدَکُمْ إِلاّٰ عَذٰاباً (۳۰) إِنَّ لِلْمُتَّقِینَ مَفٰازاً (۳۱) حَدٰائِقَ وَ أَعْنٰاباً (۳۲) وَ کَوٰاعِبَ أَتْرٰاباً (۳۳) وَ کَأْساً دِهٰاقاً (۳۴) لاٰ یَسْمَعُونَ فِیهٰا لَغْواً وَ لاٰ کِذّٰاباً (۳۵) جَزٰاءً مِنْ رَبِّکَ عَطٰاءً حِسٰاباً (۳۶) رَبِّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمَا اَلرَّحْمٰنِ لاٰ یَمْلِکُونَ مِنْهُ خِطٰاباً (۳۷) یَوْمَ یَقُومُ اَلرُّوحُ وَ اَلْمَلاٰئِکَهُ صَفًّا لاٰ یَتَکَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ اَلرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً (۳۸) ذٰلِکَ اَلْیَوْمُ اَلْحَقُّ فَمَنْ شٰاءَ اِتَّخَذَ إِلیٰ رَبِّهِ مَآباً (۳۹) إِنّٰا أَنْذَرْنٰاکُمْ عَذٰاباً قَرِیباً یَوْمَ یَنْظُرُ اَلْمَرْءُ مٰا قَدَّمَتْ یَدٰاهُ وَ یَقُولُ اَلْکٰافِرُ یٰا لَیْتَنِی کُنْتُ تُرٰاباً (۴۰)

اللغه

۲۰[سرابا]:السراب هو خیال الماء فی الصحراء وقت الظهیره.

۲۱[مرصادا]:هو مکان علی صراط جهنّم ترصد فیه الملائکه الناس،فعن الإمام الصادق-علیه السلام-:

(المرصاد قنطره علی الصراط لا یجوزها عبد بمظلمه عبد).

۲۳[أحقابا]:جمع حقب و المراد الزمان الطویل و الدهور المتتالیه.

۲۵[غسّاقا]:هو صدید أهل النار و قیحهم.

۲۶[وفاقا]:الوفاق الجاری علی مقدار الأعمال فی الاستحقاق.

ص:۲۶۲

۳۳[و كواعب]:جمع الكاعب،و هى الجاريه التى نهد ثدياها و استدارا لكونها فى أول زمان رشدها.

[أترابا]:جمع ترب،و هنّ المستويات فى السن،و قيل:

على مقدار أزواجهنّ فى الحسن و الصوره و السن.

۳۴[دهاقا]:الدهاق الكأس الممتلئه التى لا مجال فيها للماء أو الشراب و أصل الدهق شدّه الضغط،و أدهقت الكأس ملأتها.

ص:۲۶۳

إِنَّ جَهَنَّمَ كٰانَتْ مِرْصٰاداً

هدى من الآيات:

هل وراء ذلک اليوم الرهيب أمر آخر؟بلى.ما هو أخطر منه النار أو الجنه.

أ و ليست جهنم مرصاد الطاغين،و الجنه مفازه كريمه للمؤمنين؟و لكن لما ذا يلبث الطغاه فى جهنم أحقابا متماديه قد تصل إلى درجه الخلود؟لأنّها سنّه إلهيه كما هى سنّه أنّ النار تحرق و الماء يتبخّر،و حيث أنّهم لم يعوا هذه السنّه،بل و كذّبوا بها و بآيات اللّه التى حذّرتهم منها،فإنّهم انتهوا إليها،بينما المتقون(الذين وعوا هذه السنه فاتقوا النار و تجنّبوا ما يؤدّى بهم إليها)فإنّهم فازوا بالجنه التى استقبلتهم بحدائقها و فواكهها و كواعبها و أمنها و سلامها.إنّها أيضا الجزاء المناسب الذى أعدّه اللّه لهم.

و يمضى السياق فى تحذير الإنسان من يوم النشور،و يصوّر بعض مواقفه بعد أن يذكّرنا باللّه سبحانه ربّ السموات و الأرض و ما بينهما،ففى ذلک اليوم تخشع أصوات العباد و أصوات الروح و الملائكه الذين يقفون صفّا لا يتكلّمون إلاّ من أذن له

الرحمن.

فی ذلـک الیوم یتساقـط زیف الباطـل،و یتجلّی الحق بکلّ أبعاده،و لا تزال فرصه الإختیار للإنسان فی هـذه الـدنیا قائمه،فمن شاء عاد إلی ربه تائبا خشیه ذلک الیوم.أمّا من یکفر فإنّ اللّه ینذره بعذاب قریب(بالرغم من أنّ الشیطان یبعده عن ذهن البشر)یقع فی ذلـک الیوم الرهیب الـذی یری الإنسان ما قـدّمت یـداه من خیر و شـر(متجسـدین فی جزاء حسن أو عـذاب شدیـد)،و حین یری الکافر حقائق أعماله یتمنّی لو بقی ترابا و لم یحشر لمثل ذلک الجزاء.

بینات من الآیات:

[۲۱]یتعامل الإنسان مع سـنن اللّه العاجله فی الطبیعه من حوله،فتراه یتجنّب النار أن یحترق بها،و الحیّات أن تلـدغه،و الجراثیم أن تغزوا جسـده فتهلکه،فلمـا ذا یـا تری لاـ یتجنّب تلـک السـنن الآـجله،و ما الفرق بین نار تحرقه الیوم و أخری تحرقه غـدا، أو حیه تلدغه من جحر فی الصـحراء و أخری یصـنعها بعمله لتلدغه غدا فی الآخره، و من میکروب یتکاثر فی جسمه الیوم و آخر یزرعه فی حیاته الدنیا لیحصده فی تلک الدار الحق؟! إنّ سنن اللّه فی الدنیا تذکر بما یماثلها فی الآخره و لکنّ الإنسان یؤمن بواحده و یترک أخری.لما ذا؟ یبدو من آیات القرآن عموما،و هذا السـیاق بالذات،أنّ الجزاء یوم النشور نوعان:الأول:هو ذات العمل الذی یرتکبـه الیـوم و یتجسـد لـه جزاء وفاقـا فی الآـخره،کمثـل نـار یوقـدها الإنسـان فی بیته فتحرقه،أو ثمره یغرسـها فی أرضه فیتمتع بثمراتها.النوع الثانی:الجزاء الذی یقدّره الربّ للصالحین فی الجنه من فضله

و یحسب الحسنه بعشره.و الآیه التالیه تشیر إلی النوع الأول:

إِنَّ جَهَنَّمَ کٰانَتْ مِرْصٰاداً فهـذه کانت مرکز رصـد و مرتع الجزاء فی الآخره.إنّها سنّه إلهیه و نظام مقدّر لن یفلت منها من یکذّب بها،

قال أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب-علیه و آله السلام-:

«و لئن أمهل(اللّه)الظالم فلن یفوت أخذه،و هو له بالمرصاد علی مجاز طریقه، و بموضع الشجا من مساغ ریقه » (۱) [۲۲]و الطغاه الذین یتجاوزون حدّهم،و لا یتجنّبون ما یقرّبهم إلی النار، سوف یعودون إلی النار التی صنعوها بأفعالهم.

لِلطّٰاغِینَ مَآباً و لعلّ کلمه مآب توحی بأنّهم سبب إیقاد النار التی عادوا إلیها،لأنّها منزلهم الـذی بنوه و وطنهم الـذی اختاروه لأنفسهم.

[۲۳]کم یبقون فی هذه النار؟ لاٰبِثِینَ فِیهٰا أَحْقٰاباً

جاء فی روایات أهل البیت أنّ الآیه تخصّ المـذنبین الـذین یقضون فی النار فتره من الوقت بقـدر ذنوبهم، و علی هـذا فمعنی الأحقاب الدهور المتتالیه أو السنین المتلاحقه.

۱- ۱) نهج البلاغه/خ ۹۷.

و قال بعض المفسرين:معنى الآيه أنّهم يلبثون فى النار أحقابا متتاليه لا تنقطع،فكلّما مضى حقب أدركهم حقب آخر.قالوا:و إنّما استعاضت الآيه بالأحقاب عن السنين لأنّها أهول فى القلوب و أدلّ على الخلود،و إنّما كان الحقب أبعد شيء عندهم،و قالوا:الحقب ثمانون سنه.و إذا كانت السنه ثلاثمائه و خمسه و ستين يوما و كان اليوم فى الآخره كألف سنه مما نعدّه من سنيّ الدنيا فلك أن تتصوّر أيّام الطغاه فى جهنم!

و جاء فى الحديث عن رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله-أنّه قال: «لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقابا،و الحقب بضع و ستون سنه،و السنه ثلاثمائه و ستون يوما،كلّ يوم ألف سنه ممّا تعدّون،فلا يتّكلنّ أحد على أن يخرج من النار » (١)[٢۴]خلال هذه الأحقاب المتتاليه و الدهور المتطاوله لا يجد الطغاه هنالك سوى العذاب الذى لا يفتر عنهم أبدا.

لاٰ يَذُوقُونَ فِيهٰا بَرْداً وَ لاٰ شَرٰاباً فلا يجدون طعم البرد و برد الشراب،و لا لحظه واحده و لا بقدر بسيط.

قالوا:البرد هنا بمعنى النوم،و استشهدوا بما تقوله العرب:منع البرد البرد،أى منع النوم البرد،و قال بعضهم:بل هو عام يشمل برد ريح أو ظل أو نوم،و أنشدوا:

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه و لا الفيء أوقات العشى تذوق (٢)[٢۵]إنّما يتواصل لهم شراب يغلى و ماء نتن.

١- ١) مجمع البيان/ج ١٠ ص ۴٢۴.

٢- ٢) راجع القرطبى/ج ١٩ ص ١٨٠.

إِلاّ حَمِیماً وَ غَسّاقاً الحمیم:الماء الحار.أمّا الغسّاق فهو ماء نتن،و قیل:صدید أهل النار و قیحهم.

[۲۶]أ تری هل ظلمهم ربّهم حین أوقعهم فی النار؟کلاّ..لقد ظلموا أنفسهم.أ و لیس قد واتر علیهم رسله؟إنّ هذا جزاء أعمالهم،و نهایه مسیرتهم.

جَزاءً وِفاقاً أی جزاء موافقا لأعمالهم بلا زیاده أو تغییر.

[۲۷]لما ذا انتهی بهم المطاف إلی هذه العاقبه السوئی؟لأنّهم لم یتوقّعوا الحساب فأفرطوا فی السیئات،کما المجرم حین لا یفکّر فی العداله یتوغّل فی اقتراف الموبقات.

إِنَّهُمْ کانُوا لا یَرْجُونَ حِساباً [۲۸]و إذا أنذرهم الرسل و الدعاه بالحساب و إذا جاءتهم آیات النشور تتری،کذّبوا به و بآیاته.

وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا کِذّاباً [۲۹]بلی.کان الحساب قائما،و کانت أعمالهم و أنفاسهم و لحظات حیاتهم و هواجس نیّاتهم کلّ أولئک کانت محسوبه علیهم.

وَ کُلَّ شَیْءٍ أَحْصَیْناهُ کِتاباً فلم یغادر کتاب ربنا صغیره و لا کبیره إلاّ أحصاها.

ص:۲۶۸

[۳۰]و اليوم جاء يوم الجزاء بعد الإحصاء الشامل.

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاّ عَذاباً إنّها النهايه المريعه،و معرفه الإنسان فى الدنيا بهذه الحقيقه:أنّ عذاب جهنم يزداد كما أنّ نعيم الجنه فى اضطراد،هذه المعرفه تجعل هذه الزياده حكيمه و عادله لأنّ الإنسان باختياره الحر بلغ هذه العاقبه.

حقّا:إنّ تصوّر هذه الحقيقه يجعلنا أكثر حذرا من جهنم و أشدّ شوقا إلى الجنه،

و قد روى عن النبى-صلّى اللّه عليه و آله-: «هذه الآيه أشد ما فى القرآن على أهل النار » (۱).

[۳۱]بإزاء ذلك نجد المتقين الذين تحذّروا موجبات النار فى الدنيا،و تجنّبوا السيئات التى تدخلهم جهنم،نجدهم بعيدين عنها بعدهم عنها فى الدنيا.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً و أعظم فوز لهم نجاتهم من نار جهنم.أ و لا ترى قول اللّه سبحانه:« فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّهَ فَقَدْ فازَ »؟ [۳۲]و بالإضافه إلى النجاه من النار فإنّهم يحظون بنعيم الأبد.

حَدائِقَ وَ أَعْناباً و لعل ذكر العنب بين سائر الثمار لأنّه طعام و فاكهه و فيه من الفوائد ما ليس فى غيره،حتى

جاء فى الحديث: «خير فواكهكم العنب » (۲).

۱- ۱) عن تفسير الكشاف/ج ۴ ص ۶۹۰.

۲- ۲) تفسير نمونه/ج ۲۶ ص ۴۸.

[۳۳]الزوجه الموافقه تكمل السعاده،ليس لأنّها فقط للتمتع الجنسى،و إنّما أيضا لحاجه الروح إلى تفاعل مع روح أخرى،تكون لها كالمرآه تنظر فيها نفسها و العكس،و قد وفّر اللّه لعباده الصالحين الحور العين فى الجنه،بأفضل ما يتصوره البشر،بل و أفضل مما قد يتصوره جمال قمه فى الروعه و الجمال الظاهرى،و مثل أعلى لجمال الروح،و الخلق الفاضل و الأدب الرفيع حتى يصلحن للمؤمنين و مستواهم السامى.

وَ كَوٰاعِبَ أَتْرٰاباً الكاعب:البنت عند استداره صدرها،و تفتّح أنوثتها مما تكون ألذ للرجل و أشهى،فهنّ كواعب،ثم هنّ أتراب موافقات لروح الرجل خلقا و عقلا و شهوات.

و يملك المؤمن أكثر من واحده منهنّ حسب أعماله الصالحه ممّا يستحيل مثل ذلك فى الحياه الدنيا.

[۳۴]جلسات الأنس لا تصفوا بدون شراب منشّط،و قد وفّره اللّه للصالحين بأحسن ما يشتهون.

وَ كَأْساً دِهٰاقاً قالوا:الدهاق ما امتلأت من الشراب،و قيل:ما تواصلت،و قيل:ما صفت.

و كلّها تصدق فى شراب الجنه.

[۳۵]و لا تكتمل نعم الحياه بسوى الأمن،و الجنه دار السلام فلا اعتداء و لا ظلم و لا مرض و لا سبات و لا خشيه فناء النعم و زوالها..و حتى الكلمات الجارحه التى تبعث الرعب و القلق و الألم فى النفس لا وجود لها.

ص:۲۷۰

لاٰ یَسْمَعُونَ فِیهٰا لَغْواً وَ لاٰ کِذّاباً و إنّما یتبادلون العلم و المحبّه و ذکریات الماضی و یحمدون ربهم علی النعم.و لما ذا قول اللغو من غیبه و تهمه و فحش ما دامت نفوسهم طیبه و الخیرات متوافره لهم؟و لما ذا الکذب و هو لا یکون إلاّ لخبث أو خوف أو طمع و أهل الجنه مبرّأون من کلّ ذلک؟ [۳۶]کل هذه النعم تتری علیهم بفضل اللّه لأنّهم اختاروا الصراط المستقیم و العمل الصالح.

جَزٰاءً مِنْ رَبِّکَ عَطٰاءً حِسٰاباً یبدو أنّ معناه أنّ هذا العطاء العظیم یکون حسب أعمالهم حیث أنّ درجات المؤمنین تختلف هناک حسب درجاتهم هنا.

و قیل:«حسابا»بمعنی الجزاء الوافی بحیث یقول المجزی:حسبی،یقال:

أحسبت فلانا أی کثّرت له العطاء حتی قال حسبی.

و قیل:«حسابا»لما عملوا،فالحساب بمعنی العد أی بقدر ما وجب له فی وعد الرب،فإنّه وعد للحسنه عشرا،و وعد لقوم بسبعمائه ضعف،و قد وعد لقوم جزاء لا نهایه له و لا مقدار،کما قال تعالی:« إِنَّمٰا یُوَفَّی الصّٰابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسٰابٍ ».

و تعود الأقوال جمیعا إلی حقیقه واحده هی العطاء الجزیل.

[۳۷]و لکی لا یستکثر الإنسان هذه النعم بیّن اللّه أنّها من عند الربّ العظیم، الذی له ملک السموات و الأرض و هو الرحمن.

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمٰنِ و ما ظنّك بالرحمن الذى وسعت رحمته كلّ شىء إذا شاء أن يجزل العطاء؟ لاٰ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطٰاباً إنّه عظيم إلى درجه تعاليه عن تخاطب خلقه،لو لا رحمانيته التى ينزل بها وحيه على عباده عبر رسول أو من وراء حجاب.

و لو لا أنّ اللّه سبحانه أذن لعباده بدعائه،و ألقى فى قلوب مريديه أنوار محبته و مناجاته،لما استطاع الإنسان-أىّ إنسان-أن يسمو إلى درجه مخاطبته.أ ليس الخطاب بحاجه إلى توافق طرفين،أو فرض طرف على آخر؟و اللّه ليس بمستوى خلقه حتى يتوافق معه،و لن يفرض عليه شىء.و هكذا تشير الآيه إلى أنّ البشر و سائر الخلق ليسوا بمستواه،و أنّهم لا يملكون منه شيئا فلا يفرضون عليه شيئا،و هو يملكهم، و برحمته يتفضّل عليهم بمخاطبتهم،و قد يأذن لبعضهم إذنا تكوينيّا و تشريعيّا بمخاطبته،و ذلك حين يعرّفهم نفسه و يلهمهم مناجاته.

و قد اختلفوا فيمن لا يملك الخطاب،هل المؤمنون الذين ذكروا آنفا،أم الكفّار باعتبارهم المطرودون عن باب رحمته،أم كلا الفريقين؟يبدو أنّ الضمير ليس يعم المؤمنين و الكفّار فحسب بل و يشمل سائر الخلائق(الجن و الملك و الروح)بشهاده الآيه التاليه التى جاءت تفصيلا لهذه الآيه،و مثلا ظاهرا..بالرغم من أنّ هذه الآيه-فيما يبدو لى-لا تخص يوم القيامه،بلى.يوم القيامه تتجلّى هذه الحقيقه بوضوح أكبر.

[۳۸]تتجلّى عظمه ربنا لعباده يوم البعث الأكبر حين يقوم الروح بكلّ عظمته و جلاله بين يديه،و الملائكه صفّا لا يتكلّمون،و قد خشعت أصوات الخلائق

ص:۲۷۲

لعظمه الرب.ثم يأذن اللّه برحمانيته لبعضهم بالكلام شريطه ألاّ يتكلّم إلاّ صوابا.

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ و ما الروح؟اختلفوا فى ذلك،فقال البعض:إنّه خلق أكبر من سائر الخلق حتى من الملائكه المقرّبين جبرائيل و ميكائيل،

جاء فى حديث مأثور عن الإمام الصادق-عليه السلام-: «ملك أعظم من جبرائيل و ميكائيل » (۱).

و على هذا فإنّ الروح هو روح القدس الذى يؤيّد به اللّه أنبياءه،قال سبحانه:

« نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ بِالْحَقِّ » (۲)،و هو حسب تفسيرنا المراد بقوله سبحانه:« يَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَ مٰا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّٰ قَلِيلاً » (۳)،و قوله سبحانه:« تَنَزَّلُ الْمَلاٰئِکَهُ وَ الرُّوحُ فِيهٰا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ کُلِّ أَمْرٍ » (۴).

و قال البعض:إنّه جند من جنود الرحمن كما الملائكه،

و روى عن رسول اللّه -صلّى اللّه عليه و آله-أنّه قال:

«الروح جند من جنود اللّه ليسوا بملائكه لهم رؤوس و أيدى و أرجل،ثم قرأ:

« يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلاٰئِکَهُ صَفًّا »،قال:هؤلاء جند و هؤلاء جند. » (۵)و قال بعضهم:إنّه جبرئيل أ ليس يقول ربنا عنه:« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِکَ لِتَکُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ » (۶)

۱- ۱) عن تفسير مجمع البيان/ج ۱۰ ص ۴۲۷ راجع تفسير نمونه/ج ۲۶ ص ۵۸.

۲- ۲) النحل/۱۰۲.

۳- ۳) الإسراء/

۴- ۴) القدر/۴.

۵- ۵) عن الدر المنثور/ج ۶ ص ۳۰۹ تفسير نمونه/ج ۲۶ ص ۵۸ و مثله القرطبى/ج ۱۹ ص ۱۸۷.

۶- ۶) الشعراء/۱۹۳.

و قال بعضهم:المراد أرواح الخلائق،و قال آخرون:المراد القرآن،و قالوا:

أشراف الملائكه،و قالوا:بنو آدم و المعنى ذووا الروح (۱).

و يبدو لى أنّ الروح فى الأصل خلق نورانى أعظم من الملائكه و له جنود و امتدادات،فمنه تستمد أرواح الناس قوتهم و حياتهم،و به يؤيد اللّه أنبياءه و أولياءه،و هو الذى يتنزّل فى ليله القدر،و هو الذى يقوم بين يدى اللّه يوم القيامه مع صفوف الملائكه.

وَ الْمَلاٰئِكَةُ صَفًّا لاٰ يَتَكَلَّمُونَ لأنّ هيبه اللّه تقفل ألسنتهم،و لأنّهم محكومون مربوبون،فمن السفه أن يتّخذ أحد منهم إلها لأنّ كل ما لديهم من اللّه سبحانه،و حتى الشفاعه لا يقدرون عليها إلاّ بعد أن يأذن اللّه لهم بها،و اللّه لا يأذن بها إلاّ لمن يشاء و بحكمه أى بحساب دقيق.

إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً و هذه الآيه تذكّرنا بقوله سبحانه:« يَوْمَئِذٍ لاٰ تَنْفَعُ الشَّفٰاعَةُ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلاً »و التى قلنا فيها:إنّ للشفاعه شرطين:إذن اللّه،و أن تكون مرضيه أى عبر مقياس الثواب و العقاب و ليس بلا أىّ ميزان و مقياس،و يبدو أنّ قوله سبحانه هنا:«و قال صوابا»يشير إلى ذلك.

[۳۹]كما تتجلّى عظمه اللّه فى ذلك اليوم،يتجلّى كذلك الحق،فلا شفاعه بالباطل و لا كذب و لا دجل و لا أحكام جائره.

۱- ۱) تفصيل هذه الأقوال مذكور فى تفسير القرطبى/ج ۱۹ ص ۱۸۶-۱۸۷ فراجع.

ذٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فهو حق لا ريب فيه،و لأنّه رهيب بأحداثه التى تنوء بها السموات و الأرض فكيف بهذا الإنسان المسكين؟!لذلك فإنّه يستحق أن يسمّى بالحق.

و فيه لا ينفع إلا الحق،و هو ابتغاء مرضاه الرب.

فَمَنْ شٰاءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ مَآباً أى طريقا للعوده إليه.أ و لسنا قد فطرنا على الايمان ثم انحرفت بنا الدنيا و شهواتها؟تعالوا نعود إلى الطريق الأول،إلى سبيل اللّه،إلى الرب الودود.

[۴۰]و قبل يوم القيامه عذاب قريب يقع قبل الموت و بعد الموت،فإذا مات ابن آدم قامت قيامته الصغرى فيرى عمله إن خيرا فخير و إن شرا فشر.

إِنّٰا أَنْذَرْنٰاكُمْ عَذٰاباً قَرِيباً قال بعضهم:المراد الحساب بعد الموت،و قال البعض:إنّه يوم القيامه ذاته باعتباره حقّا لا ريب فيه و أنّه يأتى و أنّ كلّ آت قريب،أو باعتبار الإنسان إذا مات انعدم إحساسه حتى يبعث للحساب ففى حسابه يتصل يوم موته بيوم بعثه،إلّا إذا محض الإيمان أو محض الكفر فإنّه يحس بالثواب أو بالعقاب.

و سواء بعد الموت أو بعد النشور فإنّ أعمال الإنسان تتجسد ثوابا أو عقابا ينظر إليها.

يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مٰا قَدَّمَتْ يَدٰاهُ من خير أو شر،و المراد من اليد مجمل ما يقوم به الإنسان.و حين يرى المؤمن

عمله يفرح كثيرا،و لكن حين يرى الكافر عمله يتمنّى لو كان ترابا و لم يرتكب ذلك العمل السىء.

وَ يَقُولُ الْكٰافِرُ يٰا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرٰاباً ما أشد هذا الإنسان ندما أن يصل إلى هذه الدرجه فيتمنّى لو كان ترابا و لم يقترف تلك الجرائم! هذا الإنسان الذى خلقه اللّه سبحانه ليكون ضيفا عنده فى جنات الخلد بلغ به الحال أن يكون أرذل من التراب.فكيف و التراب ينتفع به و هو لا ينتفع به؟!بل يستحق المزيد من الهوان و الأذى.

ص:٢٧۶

سوره النّازعات

اشاره

ص:۲۷۷

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى عبد اللّه-عليه السلام-قال: «من قرأ و النازعات لم يمت إلاّ ريّانا،و لم يبعثه اللّه إلاّ ريّانا»

نور الثقلين/ج ۵ ص ۴۹۷

الإطار العام

يبدو أنّ سوره النازعات تنزع من نفس المهتدين بها طغيانها،و لكن كيف؟ أولا:بتلاحق كلمات القسم الصاعقه،و بما هو مجهول عندنا،من ملائكه لموت أو حاله الموت أو خيل الغزاه.

ثانيا:تنـذر بيوم الراجفه و يوم الرادفه حيث تكون القلوب واجفه،أبصارها خاشـعه.من هم أولئك؟إنّهم الـذين يقولون فی الدنيا:أ إنـا لمردودون إلى الحياه كما نحن الآن حتی و لو كنّا عظاما نخره؟!فيقول لهم القران:بلی و بزجره واحـده تخرجكم الأرض إلی ظهرها المستوى،لا يرون فيها أمتا و لا عوجا.

ثالثا:تقص علينا حديث موسـى و فرعون،و كيف أنّ فرعون طغی و لم يستمع إلی إنذار رسول اللّه إليه فأخذه اللّه نكال الآخره و الدنيا.

رابعا:ترينا آيات اللّه فی السموات و الأرض،و حكمته البالغه التی تتجلّی فی

نظام الخلقه.کيف مسک السماء و سوّاها کيف أغطش ليلها و أخرج ضحاها، و کيف دحى الأرض و أخرج منها ماءها و مرعاها،و کيف أرسى جنباتها.کل ذلک لحياه الإنسان و البهائم التى تساعد الإنسان.

خامسا:بعد ذلک يذکّرنا بالطامه الکبرى حيث يتذکّر الإنسان ما سعى، و يبيّن أنّ حکمه الخلق تتجلّى فى الجزاء النهائى،عند ما يلقى فى الجحيم من طغى، بينما تکون الجنه مأوى الخائفين مقام ربهم.

و فى خاتمه السوره يذکّرنا السياق بتبرير يتشبث به الجاحدون عبثا حيث يتساءلون عن الساعه:أيّان مرساها؟و لکن أين أنت و الساعه؟إنّ علمها عند اللّه و إليه منتهاها.إنّما أنت منذر.دعنا نخشاها،ففى ذلک اليوم تعمّ الحسره کلّ أبعاد وجودنا لأنّنا نحتسب عمرنا فى الدنيا عشيه أو ضحاها.

و هکذا تحقّق آيات السوره هدفها لمن يشاء،و هو معالجه طغيان النفس و غرورها

[سوره النازعات (۷۹): الآیات ۱ الی ۲۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ . وَ اَلنّٰازِعٰاتِ غَرْقاً (۱) وَ اَلنّٰاشِطٰاتِ نَشْطاً (۲) وَ اَلسّٰابِحٰاتِ سَبْحاً (۳) فَالسّٰابِقٰاتِ سَبْقاً (۴) فَالْمُدَبِّرٰاتِ أَمْراً (۵) یَوْمَ تَرْجُفُ اَلرّٰاجِفَهُ (۶) تَتْبَعُهَا اَلرّٰادِفَهُ (۷) قُلُوبٌ یَوْمَئِذٍ وٰاجِفَهٌ (۸) أَبْصٰارُهٰا خٰاشِعَهٌ (۹) یَقُولُونَ أَ إِنّٰا لَمَرْدُودُونَ فِی اَلْحٰافِرَهِ (۱۰) أَ إِذٰا کُنّٰا عِظٰاماً نَخِرَهً (۱۱) قٰالُوا تِلْکَ إِذاً کَرَّهٌ خٰاسِرَهٌ (۱۲) فَإِنَّمٰا هِیَ زَجْرَهٌ وٰاحِدَهٌ (۱۳) فَإِذٰا هُمْ بِالسّٰاهِرَهِ (۱۴) هَلْ أَتٰاکَ حَدِیثُ مُوسیٰ (۱۵) إِذْ نٰادٰاهُ رَبُّهُ بِالْوٰادِ اَلْمُقَدَّسِ طُویً (۱۶) اِذْهَبْ إِلیٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغیٰ (۱۷) فَقُلْ هَلْ لَکَ إِلیٰ أَنْ تَزَکّی (۱۸) وَ أَهْدِیَکَ إِلیٰ رَبِّکَ فَتَخْشیٰ (۱۹) فَأَرٰاهُ اَلْآیَهَ اَلْکُبْریٰ (۲۰) فَکَذَّبَ وَ عَصیٰ (۲۱) ثُمَّ أَدْبَرَ یَسْعیٰ (۲۲) فَحَشَرَ فَنٰادیٰ (۲۳) فَقٰالَ أَنَا رَبُّکُمُ اَلْأَعْلیٰ (۲۴) فَأَخَذَهُ اَللّٰهُ نَکٰالَ اَلْآخِرَهِ وَ اَلْأُولیٰ (۲۵) إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَعِبْرَهً لِمَنْ یَخْشیٰ (۲۶)

اللغه

۱[و النازعات غرقا]:قیل:هم الملائکه ینزعون أرواح الکفّار عن أبدانهم بالشده کما یغرق النازع فی القوس فیبلغ بها غایه المدی،و قیل:هی النجوم تنزع من أفق إلی أفق أی تطلع و تغیب،قال البعض:تنزع من مطالعها و تغرق فی مغاربها..و هناک معان أخری للآیه.

۶[الراجفه]:قیل هی النفخه الأولی التی یموت فیها جمیع الخلائق،و الراجفه صیحه عظیمه فیها تردّد و اضطراب کالرعد إذا تمخض.

۷[الرادفه]:قیل هی النفخه الثانیه تعقب النفخه الأولی و هی التی یبعث معها الخلق.

۸[واجفه]:شدیده الاضطراب،و الوجیف:سرعه السیر، و أوجف فی السیر:أسرع و أزعج الرکاب فیه.

۱۰[الحافره]:الطریق التی مرّ فیها الإنسان،تسمّی بذلک لأنّه حفرها بتأثیر أقدامه فیها،فالکافرون یتساءلون:هل نحن نعود إلی الحیاه بعد الموت کالسابق؟ ۱۱[نخره]:بالیه،و فی مفردات الراغب:نخرت الشجره أی بلیت فهبّت بها نخره الریح أی هبوبها،و النخیر:صوت من الأنف.و هذا یوافق ما قیل من أنّ الناخره من العظم ما فرغت و خرج منها صوت بسبب هبوب الریاح.

۱۳[زجره]:هی صیحه الصور،و سمّیت بذلک لأنّها تزجر و تردع المخاطب عن سیره الأوّل إلی نحو السیر الثانی.

ص:۲۸۴

۱۴[بالساهره]:هی وجه الأرض،و العرب تسمّی وجه الأرض من الفلاه ساهره أی ذات سهر لأنّ من یرید النوم علیها یسهر خوفا ممّا فیها من العدو و الحیوانات الوحشیه.و هنا إشاره:

أنّ المحشر یکون فی أرض مستویه کالفلات لا اعوجاج فیها و لا بناء و لا شجر و لا کهوفا و لا مغارات یفلتون إلیها من ید العداله، یقول ربّنا:«یوم هم بارزون».

۱۶[طوی]:اسم للوادی الذی کلّم اللّه فیه موسی.

و قیل:طوی بالتقدیس مرّتین.

ص:۲۸۵

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ

هدى من الآيات:

لكى لاـ تغمر النفس الغفله عن ذكر اللّه يـذكّرنا السياق بما ينتظرنا من حالات النزع و النشط و السبح و السبق،ثم بيوم القيامه حيث الصيحه التى تفنى بها الخلائق،و الصيحه التى تحيى بها.فى ذلك اليوم تتسارع نبضات القلوب،و تخشع الأبصار، لما ذا؟لأنّهم كانوا لا يرجونه،و كانوا يقولون:هل نعود كما نحن اليوم،أو بعد أن نصبح عظاما نخره؟!ثم قالوا: تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ .بلى.إنّهم يعودون و بصيحه واحده تنقلهم من رحم قبورهم إلى ظاهر الأرض المستويه.

ثم ينقلنا السياق إلى حديث موسى الذى ناداه ربه و أمره بإنذار فرعون الطاغيه لعلّه يتذكر أو يخشى،و لكنّه أبى و تحدّى حين حشر الناس و نادى فيهم:أنا ربكم الأعلى،فأهلكه اللّه فى الدنيا بعذاب و ألحقه بعذاب الآخره.كل ذلك ليبقى عبره لمن يخشى.

و هكذا تواصلت رسالات اللّه لإنذار البشر بذلك اليوم الرهيب الذى ينتظر الجميع.

بينات من الآيات:

[۱]فى حياه المرء لحظات حاسمه لو وعاها و نظّم مسيرته وفقها تجاوز خطرها، و من أبرزها عند نزع الروح،عند ما يودّع حياه طالما عمل لها،و يدخل فى حياه مجهوله تماما لديه،و عند ما يقسم القرآن بمثل هذه اللحظات فلكى نعيد النظر فى تصوّراتنا عن أنفسنا،و نكبح منها جماح الغرور و الطيش.

وَ النّٰازِعٰاتِ غَرْقاً قسما بتلك القوى التى تنزع الأرواح من أبداننا بقوّه كما ينزع القوس فيغرق فيه حتى يبلغ غايه مداه.

و يبدو أنّ المراد منها الملائكه الذين يقومون بهذا الدور.

[۲]ثمّ قسما بالقوى التى تنشط فى هذا الأمر نشطا.

وَ النّٰاشِطٰاتِ نَشْطاً قالوا:النشط هو الجذب بسهوله و يسر،فالمعنى هنا أنّ الملائكه تنشط أرواح المؤمنين،كما ينشط العقال من يد البعير إذا حلّ عنها.من هنا يعتقد أنّ القسمين هما بملك الموت و أعوانه فى حالتين:عند نزع أرواح الكفّار غرقا أى بقوه و شده، و عند نزع أرواح المؤمنين بنشط و رفق.

و قد روى عن الإمام على-عليه السلام- معنى معا كسا فى هذه الآيه حيث

قال أنّها:«الملائکه تنشط أرواح الکفّار بین الجلد و الأظفار حتی تخرجها من أجوافهم بالکرب و الغم » (۱).

[۳]ثم تحمل الملائکه أرواح المؤمنین إلی السماء فتسبح فیها سبحا..کما تسبح النجوم فی أفلاکها.

وَ السّابِحاتِ سَبْحاً [۴]ثم تتسابق بسرعه لتبلغ غایه الروح النار أو الجنه..فقسما بأولئک الکرام.

فَالسّابِقاتِ سَبْقاً [۵]و قسما بأولئک الملائکه الذین یدبّرون أمر الأرواح و غیرها من أمور عالمنا بإذن ربّهم.

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً قسما بهم جمیعا:إنّ یوم الفصل آت،و إنّ الجزاء واقع لا ریب فیه.

کان هذا أحد التفاسیر فی معنی هذه الآیات،و هناک تفسیرات أخری:

/۱أنّ المراد بالنازعات فإنّها تنزع من أفق لآخر،و تنشط فی سیرها،و تسبح فی الفضاء،و تساءلوا عن معنی تدبیرها الأمر فقالوا معناه أنّ اللّه یدبّر الأمر بها.

/۲أنّ النازعات هی الأرواح التی تنزع کما یقال لابن و تامر لمن یملک اللبن و التمر،و هی أیضا التی تنشط أی تخرج ثم تسبح فی الفضاء،و تساءلوا مرّه أخری عن تفسیر المدبّرات أمرا فقالوا:إنّ أرواح بنی آدم تدبّر عبر الأحلام لبعض الأمور بعد

۱- ۱) تفسیر مجمع البیان ج ۱۰ ص ۴۲۹.

فراقها من الدنيا،و هذا تفسير غريب.

۳/و قال بعضهم:أنّها صفه خيل الغزاه أو الغزاه أنفسهم،لأنّها تنزع فى أعنّتها نزعا تغرق فيه الأعنّه لطول أعناقها لأنّها عراب،و هى ناشطات لأنّها تخرج من دار الأمان إلى جبهات الحرب،و هى سابحات لأنّ العرب تشبّه الخيل الأصيل بالسفينه التى تجرى بيسر و سرعه،و قالوا:إنّها تدبّر أمر الغلبه و النصر.

و إنّ هذا التفسير يبدو مقبولا ـ إذا لاحظنا أنّ ربنا أقسم بخيل الغزاه أو عموما بالخيل فى قوله سبحانه: « وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحاً، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً » (۱)،و كانت للعرب علاقه حميمه مع الخيل،كما أنّه كان رمزا للشجاعه و الفروسيه.

إلاّ ـ أنّ تفسير«المدبّرات أمرا»بها يبقى غريبا،لذلك قال بعضهم:إنّه لا خلاف فى تفسير هذه الآيه بالملائكه أنّى فسّروا سائر الآيات،بينما يبدو أنّ المراد بكلّ هذه الكلمات نوعا واحدا من الخلائق،و اللّه العالم.

[۶]و أنّى كان تفسير هذه الكلمات الصاعقه فإنّها تهزّ الضمير،بل و يزداد المرء هلعا حين لا يعلم المراد منها بالضبط،و هنا يقول الرب:

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَهُ حين تزلزل الأرض زلزالها،حين تعم الصيحه أرجاء الكون،حين تهتز كلّ الثوابت فلا يبقى ما يعتمد عليه الإنسان سوى الحق.و سواء كانت الرجفه بمعنى الحركه كقوله سبحانه:« يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ »،أم بمعنى الصيحه كما قال سبحانه:« فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَهُ »،فإنّها تخلع القلوب هلعا،و تبعثنا نحو التفكير الجدى فيما يفعل بنا غدا.

ص:۲۸۹

۱- ۱) التفسير الكبير ج ۳۲ ص ۶۳.

[۷]و بعد الرجفه هناك صاعقه أخرى يدعها السياق مجهوله.

تَتْبَعُهَا الرّادِفَةُ الرادفه الشیء یقع بعد شیء آخر،فهل هی الصیحه الثانیه التی یحیی بها اللّه الناس بعد أن یمیتهم بالأولی،أم أن عند الأولی یموت أهل الأرض بینما یموت عند الثانیه أهل السموات؟!أنّی کانت فإنّها صاعقه فظیعه تبعث الهیبه فی أنفسنا.

[۹-۸]تتسارع نبضات قلوب الفجّار فأنّی لهم الفرار من أهوال الساعه و قد ضیّعوا فرصهم فی الدنیا فلم یدّخروا لأنفسهم ما ینجیهم منها؟ قُلُوبٌ یَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ أَبْصارُها خاشِعَةٌ أمّا المؤمنون فإنّهم آمنون من فزع یومئذ،لأنّهم قد وفّروا لأنفسهم من صالح الأعمال ما یبعث فی أنفسهم السکینه.

[۱۰]طالما کفروا بالنشور،و بنوا کل مواقفهم علی أساس هذا الکفر،فإذا بهم یکتشفون خطأهم.

یَقُولُونَ أَ إِنّا لَمَرْدُودُونَ فِی الْحافِرَةِ قالوا:رجع فلان فی حافرته أی فی طریقته التی جاء فیها فحفرها أی أثر فیها بمشیه.و هکذا یبعّدون البعث لأنفسهم حتی لا یتحملوا مسئولیاته.

[۱۱]و یحاولون تبریر استبعادهم للبعث بأنّه کیف یمکن إعاده هذه الأعظم البالیه التی تنخر فیها الریاح لما فیها من ثقوب کثیره.

أَ إِذا کُنّا عِظاماً نَخِرَةً

ص:۲۹۰

حکی عن کتاب الخلیل:نخرت الخشبه إذا بلیت فاسترخت حتی تفتت إذا مسّت،و کذلک العظم الناخر (1) و قیل:الناخره من العظم ما فرغت و خرج منها صوت بسبب هبوب الریاح.

[۱۲]ثم عادوا إلی الواقع و قیّموا موقفهم الجاحد فقالوا إذا کانت القیامه حقّا فإنّهم الخاسرون لکفرهم بها.

قٰالُوا تِلْکَ إِذاً کَرَّهٌ خٰاسِرَهٌ و لعل هذا القول کان اعترافا منهم یدانون به یوم القیامه،أو جحودا بعد الیقین و عنادا بعد الإذعان.و قیل:إنّما هو استهزاء و سخریه.

[۱۳]دعهم یقولوا ما یشاءون فإنّ القیامه واقعه،و بزجره واحده تراهم قیاما فی الساهره.

فَإِنَّمٰا هِیَ زَجْرَهٌ وٰاحِدَهٌ زجر البعیر إذا صاح علیه،و یبدو أنّ المراد منها النفخه الثانیه التی یحیی بها اللّه من فی القبور.

[۱۴] فَإِذٰا هُمْ بِالسّٰاهِرَهِ الساهره الأرض المستویه سمیّت بذلک لأنّ سالکها لا ینام فیها خوفا منها.

و یبدو أنّ الساهره هی وجه الأرض فی مقابل باطنها حیث أنّهم کانوا فی باطن الأرض فتحوّلوا إلی ظاهرها.

ص:۲۹۱

۱- ۱) تفسیر الجامع لأحکام القرآن ج ۱۹ ص ۱۹۸.

[۱۵]حقیقه کیوم القیامه،عند ما تدق ساعه الحساب الرهیب،جدیره بأن نتذکرها،بل نجعلها نصب أعیننا أبدا حتی نکیف علی أساسها کلّ أبعاد سلوکنا و کلّ جوانب تفکیرنا،و من أجل هذا بعث اللّه الرسل لکی ینذروا الطغاه لعلهم یخشون من تلک العاقبه،و لکنّهم تمادوا فی غیّهم حتی أهلکهم اللّه و عجّل بهم إلی النار،فهل لنا أن نعتبر بتاریخهم المأساوی؟ هَلْ أَتٰاکَ حَدِیثُ مُوسیٰ بلی.و لکن هل اعتبرت بهذا الحدیث؟فإن لم تکن اعتبرت به فکأنّک لم تسمعه أبدا.

[۱۶]لقد بدأت قصته بدعاء ربه،عند ما صار فی الواد المقدس طوی.

إِذْ نٰادٰاهُ رَبُّهُ بِالْوٰادِ الْمُقَدَّسِ طُویً لقد تقدست تلک الأرض بالوحی.و لعل اسمها کان طوی أو أنّ هذه صفه الأرض من الطی کأنّها طویت بالقداسه أو طویت بموسی حیث قرّبته إلی الرساله.و لعل طوی صفه لکل أرض مبارکه حیث أنّ سالکها یتمتع بالسیر فیها حتی و کأنّها تطوی له.

[۱۷]ثم أمره الرب بأن یذهب إلی رأس الطغیان و الفساد فرعون.

اِذْهَبْ إِلیٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغیٰ و بالرغم من طغیانه لم یدعه اللّه بلا نذر،و لم یهلکه قبل أن یبعث إلیه رسولا، لیتم الحجه علیه.

ص:۲۹۲

[۱۸]و تلخّصت رساله الوحی إلیه فی دعوته إلی التزکیه و إصلاح نفسه،و عدم هلاکها بالاستمرار فی الطغیان.سبحانک یا رب ما أرحمک بعبادک، و کیف ترید لهم الفلاح و یأبون إلاّ التمادی فی الفساد.

فَقُلْ هَلْ لَکَ إِلیٰ أَنْ تَزَکّٰی [۱۹]فإذا تزکّی المرء،و تطهّر من العناد و الغرور و الکبر،کانت نفسه مهیّأه لاستقبال نور الإیمان عبر رسول اللّه،فإذا هداه اللّه إلیه بالرسول خشعت نفسه و تخلّص جذریّا من حاله الطغیان.

وَ أَهْدِیَکَ إِلیٰ رَبِّکَ فَتَخْشیٰ [۲۰]و طالب فرعون موسی بالآیه،لعله یتهرّب عن الهدایه عند ما لا یأتیه بها لحکمه بالغه،و لکنّ اللّه أظهر له الآیه علی ید نبیه إتماما لحجته.

فَأَرٰاهُ الْآیَهَ الْکُبْریٰ متمثله فی العصا و الید البیضاء.

[۲۱]و إذا نزلت الآیه الواضحه ثم کفر المرء فإنّ العقوبه تعجّل له،لأنّ الکفر آنئذ یکون تحدّیا صارخا لسلطان الرب،و لعله یکون أیضا سببا لضلاله سائر الناس،و هکذا تتابعت حلقات النهایه.

فَکَذَّبَ وَ عَصیٰ کذّب بالآیه،و عصی الرب تعالی حین عصی موسی نبیه علیه السلام.

[۲۲]و تمادی فی التکذیب و العصیان حین راح یسعی فی الأرض فسادا.

ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعىٰ [۲۳]و أخذ يضلل الناس،و يجنّد الضالين ضد رساله اللّه.

فَحَشَرَ فَنٰادىٰ أى جمع الناس و نادى فيهم بضلالاته.

[۲۴]و أعظم تلك الضلالات دعوته بأنّه الرب الأعلى،و استكباره فى الأرض، و فرض قانونه الوضعى على الناس فى مقابل شريعه اللّه سبحانه.

روى عن أبى جعفر(الباقر)عليه السلام أنّه قال: «قال جبرئيل-عليه السلام-:نازلت ربّى فى فرعون منازله شديده فقلت:يا ربّ تدعه و قد قال:

أنا ربكم الأعلى؟!فقال:إنّما يقول هذا عبد مثلك» (۱)،و فى روايه أخرى قال ربّنا:«إنّما يقول هذا مثلك من يخاف الفوت » (۲).

فَقٰالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ

جاء عن ابن عبّاس أنّ جبرئيل قال لرسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله-:

يا محمد لو رأيتنى و فرعون يدعو بكلمه الإخلاص:« آمَنْتُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرٰائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ »و أنا أرسه فى الماء و الطين لشدّه غضبى عليه مخافه أن يتوب فيتوب اللّه عزّ و جل عليه!قال رسول اللّه:ما كان شدّه غضبك عليه يا جبرئيل؟قال:لقوله« أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ »،و هى كلمته الأخرى منهما قالها حين انتهى إلى البحر و كلمته الأولى:« مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِى »

۱- ۱) تفسير نور الثقلين ج ۵ ص ۵۰۰.

۲- ۲) المصدر.

فكان بين الأولى و الآخره أربعون سنه،و إنّما قال ذلک لقومه« أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ » حين انتهى إلى البحر فرآه قد يبست فيه الطريق فقال لقومه:ترون البحر قد يبس من فرقى،فصدّقوه لما رأوا،و ذلک قوله عزّ و جل:« وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مٰا هَدىٰ » (۱).

[۲۵]و جاءت النهايه المريعه حيث أخذه اللّه أخذا وبيلا،و ألزمه عذاب الدنيا فالآخره.

فَأَخَذَهُ اللّٰهُ نَكٰالَ الْآخِرَهِ وَ الْأُولىٰ قالوا:النكال من النكل و أصله الامتناع،و منه النكول عن اليمين،و النكل:

القيد،و معناه هنا:العاقبه السيئه للعمل و التى تبقى عبره لمن بعده،لأنّ النكال اسم لما جعل نكالا للغير أى عقوبه له حتى يعتبر به.ثم قالوا:إنّه بمعنى أخذه اللّه أخذا وبيلا فجعل النكال محل«أخذ وبيلا»،و هذا كثير فى العربيه حيث يوضع مصدر آخر قريب من مصدر الكلمه محل مصدرها،و قال بعضهم:إنّه بمعنى:أخذه بنكال الآخره و الأولى.و يبقى السؤال:ما هو معنى نكال الآخره؟يبدو لى أنّ معناه نكالا (أى عقوبه على عمل سيء)يوجد فى الحياه الآخره،و عقوبه وجدت فى الحياه الدنيا.

[۲۶]و هذا النكال-عاقبه العمل السيء و جزاؤه-بقى عبره لكلّ معتبر،فمن هو المعتبر؟الذى يخشى،و لا يخشى إلاّ من اهتدى،و لا يهتدى إلاّ من تزكّى.

إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَعِبْرَهً لِمَنْ يَخْشىٰ

ص:۲۹۵

۱- ۱) المصدر.

[سوره النازعات (۷۹): الآیات ۲۷ الی ۴۶]

اشاره

أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ اَلسَّماءُ بَناها (۲۷) رَفَعَ سَمْکَها فَسَوّاها (۲۸) وَ أَغْطَشَ لَیْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها (۲۹) وَ اَلْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِکَ دَحاها (۳۰) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها (۳۱) وَ اَلْجِبالَ أَرْساها (۳۲) مَتاعاً لَکُمْ وَ لِأَنْعامِکُمْ (۳۳) فَإِذا جاءَتِ اَلطَّامَّةُ اَلْکُبْریٰ (۳۴) یَوْمَ یَتَذَکَّرُ اَلْإِنْسانُ ما سَعیٰ (۳۵) وَ بُرِّزَتِ اَلْجَحِیمُ لِمَنْ یَریٰ (۳۶) فَأَمّا مَنْ طَغیٰ (۳۷) وَ آثَرَ اَلْحَیاةَ اَلدُّنْیا (۳۸) فَإِنَّ اَلْجَحِیمَ هِیَ اَلْمَأْویٰ (۳۹) وَ أَمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَی اَلنَّفْسَ عَنِ اَلْهَویٰ (۴۰) فَإِنَّ اَلْجَنَّةَ هِیَ اَلْمَأْویٰ (۴۱) یَسْئَلُونَکَ عَنِ اَلسّاعَةِ أَیّانَ مُرْساها (۴۲) فِیمَ أَنْتَ مِنْ ذِکْراها (۴۳) إِلیٰ رَبِّکَ مُنْتَهاها (۴۴) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ یَخْشاها (۴۵) کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَها لَمْ یَلْبَثُوا إِلاّ عَشِیَّةً أَوْ ضُحاها (۴۶)

اللغه

۲۸[سمکها]:سقفها،و السمک هو الارتفاع،و هو مقابل العمق لأنّه ذهاب الجسم بالتأليف إلى جهه العلو و بالعكس العمق،و المسموكات السماوات لارتفاعها.

۲۹[أغطش]:أظلم،و الغطش الظلمه،و الأغطش الذى فى عينيه شبه العمش،و فلاه غطشاء لا يهتدى فيها.

۳۰[دحاها]:بسطها،من الدحو و هو البسط.

۳۴[الطّامه]:العاليه الغالبه،يقال هذا أطمّ من هذا أى أعلى منه،و طمّ الطائر الشجره:علاها،و تسمّى الداهيه التى لا يستطاع دفعها طامّه.

۴۲[أیّان مرساها]:أی متی یکون قیامها،من الإرساء و هو الثبوت و الاستقرار.

۴۳[فیم أنت من ذکراها]:أی فیما ذا أنت یا رسول اللّه من تذکّر الساعه فإنّک لا تعلم وقت قیامها،کأنّ الإنسان إذا کان داخلا فی شیء علم مزایاه،أمّا إذا کان خارجا لا یعلم خصوصیاته.و«فیم أنت»للإنکار أی لست من ذکراها فی شیء حتی تعلمها.و قیل:معناه لیس هذا ممّا یتصل بما بعثت لأجله،و قیل:أنّها من حکایه قولهم و المعنی أنّک قد أکثرت من ذکراها متی تکون.

إِنَّمٰا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشٰاهٰا

هدى من الآيات:

لكى نتقى طغيان النفس ننظر مره إلى تاريخ الغابرين،و نتساءل:ما الذى أرداهم؟أ ليس طغيان فرعون على موسى أوجب له تلك العاقبه السوئى؟و ننظر مره أخرى إلى الخليقه فنرى السماء كيف بناها ربنا المقتدر الحكيم،و كيف رفع سمكها فسوّاها،و كيف ألزمها قوانينها من اختلاف الليل و النهار،و الغطش و الضحى،ثم ننظر إلى الأرض كيف سوّاها،و أجرى فيها روافد الماء العذب،و أودعها مواد الزراعه،و وتّد ميدانها بالجبال الراسيات،لتتهيّأ لحياه البشر و الأنعام،أ فليس اللّه بقادر على أن يعيدنا؟بلى.و هو حكيم لم يخلق كل هذا سدى،فلا بد إذا من يوم الحساب،فى ذلك اليوم الرهيب يتذكر الإنسان سعيه،و يرى كلّ ذى عين الجحيم تلتهب،و تدعو الطغاه الذين آثروا الحياه الدنيا،بينما الخائفون مقام ربهم يؤويهم ربهم فى الجنه لأنّهم خالفوا أهواءهم.

و فى نهايه السوره يعالج القرآن الكريم التشكيك فى وقت الساعه،بأنّ وقتها عند

اللّه،و أنّ المهم تذكّرها،و ليس معرفه وقتها.

بينات من الآيات:

[۲۷]لما ذا يطغى الإنسان؟أ و ليس لأنّه لم يستوعب أو يعترف بالنشور و الحساب؟و لكن كيف يؤمن بذلك و وساوس الشيطان تبعده عنه و تطرح فى روحه التساؤلات المتلاحقه:كيف و متى و أنّى؟ من أجل أن يتجاوز الإنسان هذه الوساوس و لا يقع فى شرك الشيطان يذكّره الرب سبحانه بما يحيط به من خلق السموات و الأرض،و ذلك لأمرين:

أولا:لكى نؤمن بعظيم قدره اللّه التى تتجلى فى هذا الخلق مما يهدينا إلى أنّه لا يعجزه شىء.

ثانيا:لكى نزداد وعيا بحكمه الخلق،و أنّ له هدفا محددا،و أنّ الإنسان لن يشذ عن هذه السنّه العامه.

و إذا وعى الإنسان هاتين البصيرتين فإنّه يستطيع مقاومه وساوس الشيطان.

أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمٰاءُ بَنٰاهٰا فقدره الرب التى بنت هذه الأجرام التى لا يبلغ حتى خيال أعظم العلماء مداها لا تعجزه إعاده الإنسان إلى الحياه مره أخرى،و قال اللّه سبحانه:« لَخَلْقُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّٰاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ » (۱).

[۲۸]و إذا كان خلق السموات شاهدا على قدره الرب فإنّ نظامها الدقيق شاهد

۱- ۱) غافر/۵۷.

على حكمته.أنظر إلى السماء كيف ارتفعت بلا عمد نراها،و كيف استوت ضمن سلسله لا تحصى من السنن و الأنظمه الحكيمه.

رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا قالوا:إذا نظرت من فوق الجبل إلى الوادى قلت عمق الوادى،و إذا نظرت من الوادى إلى قمّه الجبل قلت سمك السماء، هكذا رفع اللّه السماء و جعلها عاليه، و ألزم أجرامها و غازاتها و أشعتها قوانين لا تحيد عنها قيد شعره،و لعل هذا معنى التسويه.

[۲۹]و تهيئه نظام الطبيعه للحياه بدوره شاهد على مدى القدره و الحكمه فى الخلق،فاختلاف الليل و النهار،و بالتالى الظلام و النور و السبات و الحركه يهدينا إلى مدى عمق الحكمه التى وراء الخلق.

وَ أَغْطَشَ لَيْلَهَا وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا قالوا:الغطش:الظلام.و الضحى:وقت انتشار نور الشمس،هكذا دبّر القدير الحكيم أمر الأرض و السماء لتتوفر فرصه الحياه على الأرض بما لا نجد مثيلا لها فى الكرات القريبه منا.أو كان كل ذلك بلا هدف؟ [۳۰]و بعد خلق السماء و الأرض تمّ دحو الأرض و تمهيدها و تسويتها..

وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحَاهَا قالوا:إنّ ذلك إشاره إلى العوامل الطبيعيه التى تتابعت على الأرض حتى تهيّأت للعيش،ثم تعرضها للأمطار الغزيره و السيول العظيمه،ثم انحسار المياه عن بعض المناطق دون غيرها.

ص:۳۰۰

[۳۱]ثم أعدّ اللّه الأرض بما أودع فيها من مواد تساعد على زراعتها،و بما جعل فى باطنها و ظاهرها من مخازن و مجارى للمياه لسقيها طوال العام.

أَخْرَجَ مِنْهٰا مٰاءَهٰا وَ مَرْعٰاهٰا و لذلك فإنّ المناطق القاحله لا تصلح للزراعه،إمّا بسبب فقر التربه أو قلّه الماء.

[۳۲]و لأنّ الزلازل و البراكين و جاذبيه القمر و العواصف الهوج التى قد تعترض الأرض كانت تهدد حياه الإنسان فوق البسيطه خلق اللّه الجبال و أرسى بها دعائم الأرض.

وَ الْجِبٰالَ أَرْسٰاهٰا أى أثبتها بقدرته،و جعلها درعا حصينه للأرض،

يقول الأمام على-عليه السلام- «بعد أن تحدّث عن السماوات و الأرض و كيف أنّهما دليل على اقتدار جبروت ربّنا و بديع لطف صنعته»:«و جبل جلاميدها«أى الأرض»و نشوز متونها و أطوادها فأرساها فى مراسيها،و ألزمها قراراتها،فمضت رؤوسها فى الهواء،و رست أصولها فى الماء،فأنهد جبالها عن سهولها،و أساخ قواعدها فى متون أقطارها و مواضع أنصابها،فأشهق قلالها،و أطال أنشازها،و جعلها للأرض عمادا، و أرزها فيها أوتادا،فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها » (۱).

[۳۳]كل ذلك لكى تتوفر فرص الحياه للإنسان و البهائم التى تخدم الإنسان بصوره مباشره أو غير مباشره.

ص:۳۰۱

۱- ۱) نهج البلاغه/خطبه ۲۱۱.

مَتاعاً لَكَمْ وَ لِأَنْعامِكَمْ أ و ليس كـل ذلك دليلا عى أنّ لوجودنا حكمه بالغه،فلما ذا ننكر المسؤوليه؟ [۳۴]إنّ للكفر بيوم المعاد سببا نفسيا هو التمادى فى الغفله،و القرآن يخرق بآياته الصاعقه حجب الغفله لمن تدبر فيها.

فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّهُ الْكُبْرى فـأىّ شـىء ينقـذنا من تلـك الطـامه؟هـل الغفله تبرّر عـدم الإعـداد لها؟و الطامه من الطم بمعنى ردم الفجوه،و تسـمّى المآسـى المروّعه بها لأنّها تملأ النفس رعبا أو لأنّها قد بلغت منتهى المأساه.و القرآن يضيف كلمه«الكبرى»لعلنا نتصور تلك الساعه التى ثقلت فى السموات و الأرض و نحن عنها غافلون.

[۳۵]فى ذلك اليوم يمرّ شـريط أعمال المرء أمام عينيه.أ و ليس يرى جزاء كلّ صغيره و كبيره من أعماله؟أ و لا يقرؤها فى طائره الـذى علّق فى رقبته،فلا أحـد يسـتطيع التكـذيب أو الفرار من مغبّه أعماله؟ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى و فى يوم القيامه تتساقط الحجب من عين الإنسان و عقله فإذا هو يتذكر و باستمرار كل مساعيه.

[۳۶]كمـا أنّ الجحيم التى هى معتقـل الطغاه و المجرمين تبرز أمام الجميع بما فيها من نيران تكاد تتميّز من الغيظ،و من عقارب و حيّات تتربص بالقادمين،و من شياطين و عفاريت ينتظرون الفتك بقرنائهم.

وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى

فکل ذی عین بصیره یری الجحیم بلا حجاب،فیکون المذنبون فی حسره عظمی و خوف لا یوصف.

[۳۷]هنالک الجزاء الأوفی للطغاه،الذین کفروا بالنشور،و أغرقوا فی شهوات الدنیا،و لم یخافوا ربهم.

فَأَمّٰا مَنْ طَغیٰ و أعظم الطغیان مخالفه القیاده الشرعیه،

فقد جاء فی الحدیث المأثور عن الإمام علی-علیه السلام-:

«و من طغی ضل علی عمل بلا حجه » (۱).

و إنما تطغی النفس باتباع الهوی لأنّه یصد الإنسان عن الحق،

قال الإمام أمیر المؤمنین-علیه السلام-:

«إنّ أخوف ما أخاف علیکم اثنان:اتباع الهوی،و طول الأمل،فأمّا اتباع الهوی فیصد عن الحق،و أما طول الأمل فینسی الآخره » (۲).

[۳۸] وَ آثَرَ الْحَیٰاهَ الدُّنْیٰا فقدّمها علی الآخره.

[۳۹] فَإِنَّ الْجَحِیمَ هِیَ الْمَأْویٰ إنّها النهایه التی اختارها بنفسه،و یبدو أنّ هذه الجمله هی جواب إذا الشرطیه

ص:۳۰۳

۱- ۱) تفسیر نمونه/ج ۲۶-ص ۱۰۷ عن نور الثقلین/ج ۵-ص ۵۰۶.

۲- ۲) نهج البلاغه/الخطبه ۴۲.

فی قوله:«فإذا جاءت» کما هی جواب لقوله:« فَأَمّٰا مَنْ طَغیٰ »فیکون الأمر مرکّبا علی شرطین،کما لو قال أحدهم:إذا کان رمضان و کنت حاضرا صمت.

[۴۰]کیف نتقی طغیان النفس و غرورها؟بمخافه اللّه،و یبدو أنّ السوره تعالج هذه الحاله المتجذره فی نفس البشر.و لکن من ذا الذی یخشی ربه؟الذی یعرف مقامه.أ و لم یقل ربنا:« إِنَّمٰا یَخْشَی اللّٰهَ مِنْ عِبٰادِهِ الْعُلَمٰاءُ » إنّ معرفه أسماء اللّه،و أنّه أحاط بنا علما و قدره،و أنّه ملیک السموات و الأرض،و أنّه الجبّار المقتدر..إنّها تجعل أقسی القلوب خاشعه،و من هنا تزیغ وساوس الشیطان بنا عن معرفه ربنا سبحانه.

وَ أَمّٰا مَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ لیتقی طغیان نفسه.

وَ نَهَی النَّفْسَ عَنِ الْهَویٰ لکی لا یؤثر علی الآخره شهوات الدنیا الزائله،و لا یذهب طیباته فی الحیاه الأولی،و لکی ینظر لما قدّمت یداه لغده و لدار إقامته التی هی الحیوان حقّا.

[۴۱] فَإِنَّ الْجَنَّهَ هِیَ الْمَأْویٰ یعود إلیها،لأنّه أصبح فی الدنیا من أهلها،و کل امرء یعود إلی مأواه الأصیل و وطنه الدائم.فالمیزان إذا ثمّه لیس الانتماءات الظاهره فی الدنیا،و لیس التسجیل فی حفیظه التقوی إنّما مخالفه الهوی،و اتباع الحق،أ رأیت کیف أصبح مصعب بن عمیر-الذی قیل أنّ الآیه نزلت فیه-من صفوه أهل الجنه، بینما کان أخوه عامر بن عمیر فی الدرک الأسفل من النار؟بما ذا؟أ لیس لأنّ

عامر طغی و خالف الحق و اتبع هواه،بینما اتبع مصعب رسول اللّه،و جاهد بین یدیه،و قیل أنّه قتل أخاه فی أحد،و وقی الرسول بنفسه حتی نفذت المشاقص فی جوفه؟ [۴۲]و حین یقرّر الإنسان الکفر بشیء یبرّر ذلک لنفسه بالتشکیک فیه و بأنّه لا یعرف کیف یقع و بأیّه صوره و متی..و هکذا طفق الکفّار یرتابون فی الآخره، و یتساءلون:کیف یبعث اللّه العظام البالیه،و متی،و لما ذا تأجلت هذه المده الطویله؟لما ذا لم یبعث حتی الآن الذین ماتوا فی أوّل الزمان؟و هکذا..

و لکنّ کل هذه التساؤلات لا تنفی حقیقه الساعه،و أنّها واقعه لا ریب فیها.

یَسْئَلُونَکَ عَنِ السّٰاعَهِ أَیّٰانَ مُرْسٰاهٰا متی تستقر کما تستقر السفینه فی النهایه علی شاطئها؟ [۴۳]و لکنّ اللّه أخفی علمها عن العالمین،بل لم یحدّد لها وقتا إنّما یقرّرها متی ما شاء،و حسب

حدیث مروی عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «لا تقوم الساعه إلاّ بغضبه یغضبها ربّک » (۱).

و لکنّ معرفه میعاد الساعه أو الجهل بها لا یغیّر من واقعها شیئا.إنّها عظیمه إلی درجه تشفق السموات من وقعها!أ فلا نتذکّرها و نعدّ لها عدّه؟ فِیمَ أَنْتَ مِنْ ذِکْرٰاهٰا یبدو لی أنّ معنی هذه الآیه:أین أنت من قصتها و حدیثها،و لما ذا لا تتذکرها، و لیس معناها کما قالوا: لیس لک السؤال عنها،أو فیم أنت من ذلک حتی یسألونک

ص:۳۰۵

۱- ۱) القرطبی/ج ۱۹-ص ۲۰۹.

بیانه،و لست ممّن یعلم.

و قال بعضهم:یحتمل أن یکون الوقف عند«فیم»و کأنّه قیل فیم تسأل و أنت من ذکراها أی أنّ رسول اللّه،من أشراط الساعه (۱).

بید أنّ تفسیرنا أقرب إلی السیاق الذی یهدف التذکره بالساعه و أهوالها.

[۴۴]اللّه سبحانه الذی یأمر بها متی شاء و کیف شاء.إنّها ممّا لم یطلع علیه الرب أحدا من خلقه.

إِلیٰ رَبِّکَ مُنْتَهٰاهٰا فإلیه المرجع فی أمرها،کما قال سبحانه:« إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّی لاٰ یُجَلِّیهٰا لِوَقْتِهٰا إِلاّٰ هُوَ »،و قال:« إِنَّ اللّٰهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّٰاعَهِ ».

[۴۵]بلی.حری بنا أن نترک السؤال عن الساعه إلی العمل من أجلها،و إلی تذکّرها لحظه بلحظه لأنّها آتیه لا ریب فیها،و قد توفّرت أشراطها،و من أشراطها النذیر المبین رسول اللّه.

إِنَّمٰا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ یَخْشٰاهٰا فبدل أن نعاود السؤال عن وقت الساعه تعالوا نخشاها بعد أن جاءنا النذیر.

[۴۶]و ما ذا ینفع المجرمین لو تأخّرت الساعه عنهم،هل یخفّف عنهم شیئا من عذاب ربهم؟کلاّ..

کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَهٰا لَمْ یَلْبَثُوا إِلاّٰ عَشِیَّهً أَوْ ضُحٰاهٰا

۱- ۱) أنظر القرطبی/ج ۱۹-ص ۲۰۹ و الرازی/ج ۳۱-ص ۵۲.

ما قیمه سبعین عاما من العمر جلّها سبات النوم و غفله الجهل و الانشغال بالدنیا و ضروراتها،ما قیمتها إذا قیست بخمسین ألف عام مده الیوم الأول من أیّام الآخره؟!هناک یتذکّر الإنسان أنّ عمره فی الدنیا کان یوما أو بعض یوم،و أنّه قصّر فیه تقصیرا کبیرا حیث لم یستعد لیوم الأهوال.

و لعلّ معنی«عشیه أو ضحاها»:النهار الذی یتصل بالعشیه أو ینصرم بالضحی،و ذلک علی عاده العرب فی قولهم:آتیک العشیه أو غداتها..فأهل القیامه قالوا فی البدء:کأنّنا عشنا فی الدنیا نهارا کاملا،ثم أکثروا النهار فقالوا:بل نصف نهار،کما قال ربنا سبحانه:« إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ عَشْراً »و قوله:« یَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِیقَهً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ یَوْماً »و قال:« کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَ ما یُوعَدُونَ لَمْ یَلْبَثُوا إِلاّ ساعَهً مِنْ نَهارٍ ».

نسأل الله سبحانه أن یجعلنا ممّن وعی رساله النذیر،و استعد للرحیل و لم ینس الساعه و أهوالها.

سوره عبس

اشاره

ص:۳۰۹

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم

فضل السوره

فی کتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبی عبد اللّه-علیه السلام-قال:

«من قرأ«عبس و تولّی»و«إذا الشمس کوّرت»کان تحت جناح اللّه من الجنان،و فی ظلّ اللّه و کرامته،و فی جنانه،و لا یعظم ذلک علی اللّه».

نور الثقلین/ج ۵ ص ۵۰۸.

ص:۳۱۱

الإطار العام

لکی تصلح نظره الإنسان إلی نفسه جاءت رسالات اللّه،قبل أن یکون الإنسان غنیّا أو فقیرا،شریفا فی النسب أو وضیعا،عربیّا فی اللغه و العنصر أو أعجمیّا،أبیضا أو أحمرا أو أسودا..قبل کل ذلک فهو إنسان،و من نظر إلیه من خلال ملابساته المادیه فقد کفر بلبّه و جوهرته السامیه.

و هنا تتمیّز الجاهلیه عن الإسلام دین الفطره السلیمه و العقل المستنیر،فالجاهلیه تقیّم الناس علی أساس الملابسات المادیه،بینما الدین الحق یقیّمهم علی أساس درجات إیمانهم ممّا یتصل بکلّ واحد منهم کإنسان،أ و لیس أصل الإنسان عقله؟ و حامل رسالات اللّه لا یجوز أن یتنازل عن هذه المیزه الهامه فإذا به یمیّز الناس علی أسس مادیه،فما قیمه الرساله إذا،و کیف یمکنه إصلاحهم یومئذ و تغییر مفاهیمهم الخاطئه و هو الذی یخضع لها؟!

ص:۳۱۲

و يبدو أنّ هذه السوره الكريمه تبصّرنا بهذه الحقيقه فإذا بفاتحتها عتاب شديد، لمن عبس و بسر فی وجه الأعمی و تولّی بينما تصدی لمن استغنی.ثم يبيّن السياق سموّ قيمه الإيمان،و قيمه القرآن،و يهدينا إلی صفات حملته بحق،و هم الكرام البرره الذين ينبغی أن يصبحوا محور التجمع الإيمانی(لا أصحاب الغنی و الجاه و الشرف الزائف).

ثم ينعطف السياق نحو التذكره بالإيمان عبر تعداد نعم اللّه علی الإنسان و تقلباته منذ أن كان نطفه إلی أن أصبح بشرا سويّا و تيسّر لسبل الخير و السلام و حتی يموت فيدفن،و يذكّرنا بواحده من أعظم نعم اللّه علينا و هی نعمه الطعام، و يدعونا إلی النظر فيها،و كيف يوفّرها اللّه لنا بالغيث؟كل ذلک لأنّ الإيمان باللّه و نبذ الكفر بكلّ ألوانه هو السبيل لبناء مجتمع القيم الذی يسمو عن الخضوع لأصحاب المال و الجاه.

و فی الختام ينذرنا الربّ بيوم الصّاخّه،و يذكّرنا بأنّه فی ذلک اليوم لا تنفع هذه العلاقات الماديه فحتی الأرحام تنقطع،إنّما القيمه الحق يومئذ هی العمل الصالح.ألا نجعله أيضا قيمه تجمعنا اليوم؟

ص:٣١٣

[سوره عبس (۸۰): الآيات ۱ الى ۱۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . عَبَسَ وَ تَوَلّٰى (۱) أَنْ جٰاءَهُ اَلْأَعْمىٰ (۲) وَ مٰا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكّٰى (۳) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ اَلذِّكْرىٰ (۴) أَمّٰا مَنِ اِسْتَغْنىٰ (۵) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدّٰى (۶) وَ مٰا عَلَيْكَ أَلاّٰ يَزَّكّٰى (۷) وَ أَمّٰا مَنْ جٰاءَكَ يَسْعىٰ (۸) وَ هُوَ يَخْشىٰ (۹) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهّٰى (۱۰) كَلاّٰ إِنَّهٰا تَذْكِرَةٌ (۱۱) فَمَنْ شٰاءَ ذَكَرَهُ (۱۲) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (۱۳) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (۱۴) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (۱۵) كِرٰامٍ بَرَرَةٍ (۱۶)

اللغه

۱[سفره]:الكتبه لأسفار الحكمه،و الواحد منها سافر،و الاسفار الصحف المقدسه،و أصلها الكشف من قولهم:

سفرت المرأه إذا كشفت عن وجهها.

ص:۳۱۵

عَبَسَ وَ تَوَلّی أَنْ جٰاءَهُ الْأَعْمیٰ

بينات من الآيات:

[۱]أشارت الآيات الأولى فى هذه السوره المباركه التساؤل فيمن نزلت؟علما بأن مثل القرآن مثل الشمس،و أنه لا ينبغى البحث عن أسباب نزول آيه آيه منه، فلم يكن القرآن كتاب حقبه خاصّه من الزمن حتى نفتش فيها عن تطبيقاته،بل لعل تأويل آيه كريمه لا يتأتى إلّا بعد قرون و قرون،بلى.كانت آيات كثيره تجد تطبيقها فى حياه الرسول صلى الله عليه و آله و قد اعتقد أهل التفسير أنها نزلت فى تلك الموارد بينما الحقيقه أنها تأولت فيها فقط و لم تكن سوى مصداق من مصاديق القرآن،و لعل التعبير التالى عند المفسرين الأوائل«نزلت فى فلان مثلا»كان يعنى أنها طبقت عليه و اولت فيه و ليس نزولها لهذه الحادثه،و الدليل على ذلك أننا نجد آيات كثيره ذكر لها المفسرون موارد متأخره عن نزولها أو متقدمه،مثلا:نجد آيات مكّيه يذكر المفسرون من الجيل الأول انها نزلت فى اشخاص لم يكونوا فى مكه(و لعل الآيات الاولى من سوره عبس منها)أو بالعكس أو حتى أنهم يؤولونها فيمن لم يكن فى

ص:۳۱۶

عهد الرسول صلی الله علیه و آله . (۱).

بلی.عند الأجیال التالیه من المفسرین أصبح التعبیر«نزلت فی کذا»یوحی بان الایه نزلت بتلک المناسبه.

و فیما یتصل بالآیات فی هذه السوره فقد قال القرطبی:روی أهل التفسیر أجمع:أنّ قوما من أشراف قریش کانوا عند النبی-صلّی اللّه علیه و سلم-و قد طمع فی إسلامهم فأقبل عبد اللّه بن أمّ مکتوم،فکره رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و سلم-أن یقطع عبد اللّه علیه کلامه،فأعرض عنه،ففیه نزلت الایه (۲).

و قال الشیخ المکارم فی تفسیره«نمونه»ما یلی:المشهور بین المفسرین(السنه و الشیعه)ذلک،و لکنه

روی حدیثا عن الامام الصادق-علیه السلام-یقول:

«أنها نزلت فی شخص من بنی أمیّه »و أضاف:انه لیس من شأن الرسول ان یعبس فی وجه أحد من الناس،کیف و هو الذی قال عنه ربنا سبحانه:« وَ إِنَّکَ لَعَلیٰ خُلُقٍ عَظِیمٍ » (۳).

و یبدو لی أن الآیه لم تنزل فی شأن النبی،و أن المفسرین ذهبوا إلی ذلک بسبب ما توهموه من دلاله الآیه،و من بعض الروایات المتشابهه المختلفه،فمثلا:نجد فی بعضها:أن النبی کان مع الولید بن المغیره،و فی بعضها أنه کان مع أمیه بن خلف،و قال مجاهد:کانوا ثلاثه:عتبه و شیبه-ابنا ربیعه-و أبیّ بن خلف، و قال سفیان الثوری:کان النبی مع عمه العباس.

---

۱ - ۱) و الی مثل هذا الرأی ذهب الدهلوی فی کتابه الفوز الکبیر فی أصول التفسیر ص ۱۰۸/۱۰۷ الطبعه الثانیه دار البشائر الإسلامیه.

۲- ۲) القرطبی ج /۱۹ص ۲۱۱.

۳- ۳) تفسیر نمونه.

و علی افتراض ان القصه کانت صحیحه،فمن یقول أن المراد ان النبی قد عبس،فلعل واحدا من المسلمین کان حاضرا و هو الذی فعل ذلک،و الشاهد انه لم یقل ربنا:عبست و تولیت،و من ثم یکون السیاق بلغه الخطاب،و لکن أ لیس من الممکن ان یکون ذلک من باب تحویل الکلام الی الخطاب بعد ذکر الغائب، و کأنه قد أصبح بذکره حاضرا کما نجد فی سوره الحمد،حیث یقول تحول الخطاب الی الحضور بعد ذکر اللّه سبحانه و قال:« إِیّٰاکَ نَعْبُدُ وَ إِیّٰاکَ نَسْتَعِینُ ».

ثم ان السوره مکیه بالاتفاق و کان ابن أم مکتوم فی المدینه حسبما یقول ابن العربی علی حسب ما نقل القرطبی.دعنا نستمع الی نصه:اما قول علماؤنا انه الولید بن المغیره،فقد قال آخرون أنه أمیّه بن خلف،و العباس و هذا کله باطل، و جهل من المفسرین الذین لم یتحققوا من الدین،ذلک أن أمیّه بن خلف و الولید کانا بمکه،و ابن أم مکتوم کان بالمدینه،ما حضر معهما و لا حضرا معه،و کان موتهما کافرین،أحدهما قبل الهجره،و الاخر ببدر،و لم یقصد قطّ أمیّه المدینه، و لا حضر عنده منفردا و لا مع أحد. (۱)

و ینبغی ان نتساءل:إذا کان ابن أم مکتوم فی المدینه فکیف نزلت السوره بمکه تروی قصته؟! و أیّا کان سبب نزول الآیه،فإن علینا التدبر فی کلماتها المشعه،و التعرض لأمواج نورها المتدفق.

عَبَسَ وَ تَوَلّٰی لقد بسر بوجهه،فانعکست حالته النفسیه تجاه الرجل علی ملامح وجهه التی

۱- ۱) القرطبی/ج ۱۹-ص ۲۱۲.

تفضح تقلبات فؤاده انّى حاول إخفاءها،ثم تولى بركنه عنه عمليّا،و هكذا تكاملت ملامح الموقف السلبى.

[۲] أَنْ جٰاءَهُ الْأَعْمىٰ اى بسبب زياره الأعمى له،و هذا يتنافى مع ما ذكر فى بعض النصوص:أن الرسول صلى الله عليه و آله انه انما انزعج عند ما سأله ابن أم مكتوم و ليس من زيارته.

[۳]لقد جاءه الأعمى زائرا و ربما ساعيا نحو الهدايه،و إذا عوّض الأعمى أو اى معوق آخر نقص جوارحه بتزكيه نفسه فانه يسمو فوق كل بصير و سليم.

وَ مٰا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكّٰى و هكذا تكون تزكيه النفس أهم غايه يسعى نحوها الإنسان.

[۴]و قد لا يسمو الفرد الى التزكيه و لكنه يبلغ مستوى التذكره التى تنفعه فى إصلاح بعض جوانب سلوكه و هكذا الأعمى الفقير الذى تقدم الى ذلك المجلس.

أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرىٰ [۵]الغنى مطلوب و لكن الاستغناء مرفوض،فالغنى المتواضع الذى يمتلك الثروه دون ان تمتلكه قريب من اللّه،قريب من الناس،و لكن الذى تقوده ثروته، بل يذوب فى ثروته الى درجه العباده فانه بعيد عن اللّه،بعيد عن الناس،قريب من النار.و لا بد ان تتخذ القياده الإلهيه موقفا حازما منه.

أَمّٰا مَنِ اسْتَغْنىٰ و معروف ان الاستغناء يؤدى الى الطغيان، أ و لم يقل ربنا الحكيم:« كَلاّٰ إِنَّ

الْإِنْسٰانَ لَیَطْغیٰ* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنیٰ » (۱).

[۶]مثل هذا الإنسان ینبغی طرده لکی لا یتسلل الی قیاده المجتمع عبر ثروته.

ان مثله مثل قارون الذی خرج علی الناس بزینته،فانبهر الناس بها؛فاذا خضع رجال الدعوه لهم أو مالؤوهم فمن ینقذ الناس من شرورهم و استطالتهم علی الفقراء و المحرومین،و من یأخذ حق المستضعفین و البؤساء منهم؟لذلک یعیب السیاق علی صاحب الدعوه ترک الفقیر الأعمی و التوجه تلقاء المستغنین.

فَأَنْتَ لَهُ تَصَدّٰی قالوا:التصدی:الإصغاء،و یبدو ان معناه:الإقبال علیه،و الاهتمام به.

[۷]و قد یزعم حمله الدعوه و أمناء الرساله أنهم مسئولون عن الأغنیاء،و ان علیهم ان یجتذبوهم بأیه وسیله ممکنه،فیقدمون لهم التنازلات،بینما یحرمون الفقراء من عطفهم و حنانهم،بینما مسئولیه الداعیه تنتهی عند إبلاغ الرساله.

وَ مٰا عَلَیْکَ أَلاّٰ یَزَّکّٰی فهو و لست أنت المسؤول عن تزکیته.

[۸-۱۰]من الذی یتصدی له صاحب الدعوه؟هل الذی یتولی برکنه، و کلا..حتی و لو کان شریفا فی قومه،غنیّا قویا.لما ذا؟لأن الرساله الإلهیه جاءت لإصلاح نظره الإنسان الی نفسه من خلال مرکزه أو ماله أو لغته أو ما أشبه،فاذا تأثرت الرساله بهذه القیم المادیه فانها لا تستطیع إصلاحه،لذلک

جاء فی الحدیث عن الامام الصادق علیه السلام قال: «إذا رأیتم العالم محبّا للدنیا فاتهموه

۱- ۱) العلق۶/-۷.

على دينكم،فان كل محبّ يحوط ما أحب » (١).

و الرساله تنظر إلى الإنسان كإنسان بعيدا عن سائر الاعتبارات الماديّه،فمن سعى الى الرسول بلا تردد..

وَ أَمّٰا مَنْ جٰاءَكَ يَسْعىٰ نحو الهدايه أو تعلّم الدين.

وَ هُوَ يَخْشىٰ و الخشيه هى التى تساعده على قبول الدين.

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهّٰى تنشغل عنه و كأنه لا يهمك.

[١١-١٢]قيم الوحى،و جاهليه الماده فى صراع قديم،و لا يجوز المهادنه مع الباطل لكسب المزيد من الأتباع؛لأن حكمه الوحى ضبط الماده،فاذا خضع لها لم يبق للرساله مبرر،و من هنا لا ينظر الرسول إلى الأشخاص إلاّ من زاويه رسالته.

كَلاّٰ فإن للغنى اعتبار زائف.

إِنَّهٰا تَذْكِرَةٌ

ص:٣٢١

١- ١) موسوعه بحار الأنوار ج ١٠٧/٢.

آيات اللّه تذكره لكل الناس،و لا يختلف الناس الا بقدر استجابتهم للوحى.

فَمَنْ شٰاءَ ذَكَرَهُ العقل أصل الإنسان،أ و ليس به يتميز عن سائر الأحياء،أ و لم يكرمه اللّه به على كثير ممن خلق؟!ان العقل يغطّ فى سبات الغفله فلا ينتفع به صاحبه،و تأتى آيات القرآن توقضه من سباته.أذلك خير أم بعض الدراهم و الدنانير،كلا..انّى كانت الثروه كبيره فإن العقل أسمى؛لان الثروه لا تحصل إلاّ بالعقل،و إذا لم يكتمل العقل فان الثروه تضر صاحبها قبل ان تنفعه،و قد تكون الثروه وسيله لتكريس التخلف،و الفقر،و بسط الفساد،و نشر الرذيله،بيد ان العقل يجعل الإنسان على طريق ثروه نافعه كما يوفر له سائر عوامل السعاده كالخلق الرفيع، و الحريه،و السلام.

و لا تعنى التذكره ان الناس يهتدون بها حتى و لو لم يشاءوا ذلك كلاّ..ان التذكره لا تتم بدون ان يشاء الإنسان نفسه،و هكذا جعل اللّه حريه الإنسان أصلا ثابتا فى شريعته و فى سننه الحاكمه على الخليقه،و حتى الايمان به جعله منوطا بإراده الإنسان و لم يجعله كرها عليه.

[۱۴-۱۳]و بعد أن ينسف السياق القيم الجاهليه يرسى دعائم قيم الوحى التى ينبغى ترسيخها فى المجتمع،فيشرع فى بيان عظمه القرآن حتى يكون القرآن هو محور المجتمع،و ميزان التفاضل بين الناس،ثم يبين كرامه السفره الذين يحملونه، و بذلك يوحى بأن عليكم ان تعظموا القرآن و الدعاه اليه و ليس المال و الجاه و أصحابهما.

فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ

قالوا:ان كتاب اللّه مكتوبا فى ألواح تكرّمت به،و تسامت مجدا،و قال البعض:بل المراد أنه كان مكتوبا فى اللوح المحفوظ قبل أن يتنزل على قلب الرسول -صلّى اللّه عليه و آله-و أنّى كانت الصحف فإن الآيه تدل على أن القرآن محفوظ فى صحف لا تنالها أيدى التحريف و التزوير و لا يسمو إليها الكذب و الدجل،كما تدل على أن اللّه أكرم هذه الصحف بأنها تكشف الحق،و أكرمها بإعلاء درجه من يتّبعها فى الدنيا و الآخره،ذلك أن كرامه كل شيء بحسبه، و كرامه الصحيفه صدقها،و سمو مجدها،و تعاليها عمن يريد بها عبثا،و لذلك قال ربنا بعدئذ:

مَرْفُوعَهٍ مُطَهَّرَهٍ و هذا فى الواقع تفسير لكرامه الصحيفه،فإن اللّه يرفع بها من يعمل بها و يحمل رسالتها أ و لم يقل ربنا:« فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّٰهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهٰا بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ رِجٰالٌ لاٰ تُلْهِيهِمْ تِجٰارَةٌ وَ لاٰ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّٰهِ.. » (۱)و قال سبحانه:« يَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » (۲).

ثم انها مطهره من الباطل و الكذب،و من دسّ الدجالين و المنافقين و قد قال سبحانه:« إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ » (۳)و قال:« لاٰ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ » (۴).

و هى مطهره عن نيل أصحاب الهوى و البدع،و الرياء و الشرك و حمله الدعوات

۱- ۱) النور۳۶/.

۲- ۲) المجادله۱۱/.

۳- ۳) الحجر۹/.

۴- ۴) الواقعه۷۹/.

الضاله،و الثقافات الجاهليه.إن هؤلاء جميعا لا يبلغون فقه الكتاب و لا يحصلون على علمه و معارفه.

[۱۶-۱۵]و هكذا يكون حمله القرآن هم فقط السفراء الصادقون،المكرمون من الهوى و النفاق،و اتباع المصالح،و عباده الطغاه.

بِأَيْدِی سَفَرَهٍ السفره هم حمله الكتاب،و الداعون اليه.

كِرامٍ بَرَرَهٍ كرام لأنهم أكرموا أنفسهم عن الإثم و الفحشاء،و اتباع اولى الثروه و القوه، و السعى وراء شهوات الدنيا الزائله.و هم برره يبرّون بالناس و يؤثرون المؤمنين على أنفسهم،و يسارعون الى الخيرات.

و هذه الآيات توضح لنا الفئه التى يجب ان نرفعها و نتبع هديها،و هم حمله القرآن الصادقين،الزاهدين فى درجات الدنيا،و المكرمين من أوساخها،و من الأهواء و البدع و الثقافات الدخيله،و لا يجوز اتباع كل من يدعو بلسانه الى كتاب اللّه بينما تراه قد ولغ فى الشبهات،و سعى نحو الجاه و الشهره و تقرب إلى السلاطين،و قرب إليه المترفين و المستكبرين.

ص:۳۲۴

[سوره عبس (۸۰): الآیات ۱۷ الی ۴۲]

اشاره

قُتِلَ اَلْإِنْسانُ ما أَکْفَرَهُ (۱۷) مِنْ أَیِّ شَیْءٍ خَلَقَهُ (۱۸) مِنْ نُطْفَهٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (۱۹) ثُمَّ اَلسَّبِیلَ یَسَّرَهُ (۲۰) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (۲۱) ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (۲۲) کَلاّ لَمّا یَقْضِ ما أَمَرَهُ (۲۳) فَلْیَنْظُرِ اَلْإِنْسانُ إِلی طَعامِهِ (۲۴) أَنّا صَبَبْنَا اَلْماءَ صَبًّا (۲۵) ثُمَّ شَقَقْنَا اَلْأَرْضَ شَقًّا (۲۶) فَأَنْبَتْنا فِیها حَبًّا (۲۷) وَ عِنَباً وَ قَضْباً (۲۸) وَ زَیْتُوناً وَ نَخْلاً (۲۹) وَ حَدائِقَ غُلْباً (۳۰) وَ فاکِهَهً وَ أَبًّا (۳۱) مَتاعاً لَکُمْ وَ لِأَنْعامِکُمْ (۳۲) فَإِذا جاءَتِ اَلصَّاخَّهُ (۳۳) یَوْمَ یَفِرُّ اَلْمَرْءُ مِنْ أَخِیهِ (۳۴) وَ أُمِّهِ وَ أَبِیهِ (۳۵) وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِیهِ (۳۶) لِکُلِّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ یَوْمَئِذٍ شَأْنٌ یُغْنِیهِ (۳۷) وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ مُسْفِرَهٌ (۳۸) ضاحِکَهٌ مُسْتَبْشِرَهٌ (۳۹) وَ وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ عَلَیْها غَبَرَهٌ (۴۰) تَرْهَقُها قَتَرَهٌ (۴۱) أُولئِکَ هُمُ اَلْکَفَرَهُ اَلْفَجَرَهُ (۴۲)

اللغه

۱۷[قتل الإنسان]:أی عذّب و لعن،و هو شبیه قوله:

« قُتِلَ الْخَرّاصُونَ »أی دعاء علیهم،و کذلک قوله:« قاتَلَهُمُ اللّهُ أَنّی یُؤْفَکُونَ »و قیل:معناه قتلهم،و الصحیح أن من یتصدی لمحاربه اللّه و یکفر به فهو مقتول،و من غالبه فهو مغلوب.

۲۸[قضبا]قیل:هو العلف للدواب یقضب مره بعد اخری،و فی المفردات:أی رطبه،و القضیب یستعمل من فروع الشجر،و القضب یستعمل فی البقل،و القضب قطع القضب،

و روی أن النبی صلی الله علیه و آله إذا رأی فی ثوب تصلیبا قضبه ،و سیف قاضب و قضیب أی قاطع،و یقال لکل ما یهذّب مقتضب و منه الکلام المقتضب أی المهذّب.

ص:۳۲۵

۳۰[غلبا]:إضافه على السياق نقول:الأصل فى الغلب فى الوصف الرقبه،فاستعير الغلب للشجر الغلاظ الضخام.

۴۱[ترهقهـا قتره]يعلوها سواد و كسوف عنـد معاينه النار، و قيل:ان«الغبره»ما انحطت من السـماء،و القتره ما ارتفعت من الأرض،و قيل:القتر دخان الشواء.

ص:۳۲۶

قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَکْفَرَهُ

بینات من الآیات:

[۱۷]نعم اللّه تترى على الإنسان،و لكنه لا يزال يطمع لما فی أيدی الآخرين، بدل أن يسلّم وجهه للّه الذی أسبغ عليه نعمه ظاهره و باطنه،تراه يروح يعبد الطغاه،أو يخضع للمترفين لما يعطونه من فتات الرزق.

لما ذا لا يطرق باب رحمه اللّه التی وسعت كل شیء؟!أ و غيّر عليه الرب عادات امتنانه و تفضله؟!أ و ليس اللّه بقادر على أن يغنيه عما فی أيدی العباد؟! إنّه أعظم نعم اللّه الكتاب الذی يذكّره سبيل سعادته، و يغنيه ليس فی اموال الدنيا فحسب،بل فی كل شیء من الدنيا الى الآخره،و لكنه لا يزال يكفر،قتله اللّه بكفره! قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَکْفَرَهُ

ص:۳۲۷

و كلمه«قتـل»لعنه عليه،و تعبير عن منتهى الغضب،و فى نفس الوقت فيهـا ايحـاء بـأن الكفر يقتـل الإنسان،يقتل مواهبه و فضائله و فرص سـعادته،و حتى ينتهى بقتله تمامـا!أ ليس القتـل درجـات،و الكفر بأيه نعمه الهيه يؤدى الى قتل فرصه من فرص الحياه عند الإنسان،و بالتالى فهو يعتبر درجه من القتل و مستوى منه؟!أ رأيت الذى يملك رصيدا عظيما فى البنك و لكنه لا يؤمن بذلك،و كلما قيل له عنه كذّب و أبى! أ ليس يعدم موهبه إلهيه؟!كذلك الذى يملك رصـيدا عظيما فى القرآن يسـتطيع ان يتخّذه لنفسـه سعاده و فلاحا ثم يكفر به.

و التعبير ب«ما أكفره»يوحى بمـدى كفره؛انه كفر واسع المـدى،متعدد الأبعاد، و من هنا قال بعضـهم:الكفر هنا جاء بمعناه اللغوى الـذى يعنى الستر،و يشـمل الكفر باللّه أو بنعمه أو حتى الكفر بنعمه واحده،و لذلك فان كلمه«الإنسان»هنا تسع كل الناس لأنه ما من إنسان إلا و يكفر بقدر ما بنعمه اللّه.

[۱۹-۱۸]ثم يعدد السياق نعم اللّه على الإنسان و التى يقابلها بالكفر و أولها نعمه خلقه من النطفه و يقول:

مِنْ أَيِّ شَـيْءٍ خَلَقَهُ* مِنْ نُطْفَـةٍ خَلَقَهُ فَقَـدَّرَهُ هـذه القطره مـن المـاء الـتى تخرج مـن الصـلب و تلـك القطره الـتى تتـدفق من الترائب،تلتقيـان فيخلق اللّه بهمـا الإنسـان فى ظلمـات الأرحـام،حيث لاـ يعرف حتى أبواه مـا ذا يجرى هنالـك،فلا تزال عين اللّه ترعـاه،و يـده تقلّبه من طور الى طور، حـتى يخرج إنسانـا سويّـا،كيف قـدر اللّه مواد جسـمه من أنواع العناصـر،و بعض من هـذه العناصـر استقدمه الرب من نجوم تبعد عنا آلاف البلايين من الأميال،ثم قدر حجم كل عنصر و مقداره فى بنيته،و يصوره بأحسن تصوير،و قدر جوارحه بأنظمه معقّده لا نزال لا نعرف الا جانبا منها هو الذى نجده فى الغدد المنظمه لنمو الأعضاء،

و قـدر مجمـل وزنه،فلا يصـبح اطنانا و لا يبقى عنـد الوزن الـذى أخرج من بطن أمه انما يتراوح بين الستين و التسـعين غالبا،كما يحدد طوله فلا نجد من ارتفع امتارا متطاوله، كما لا نجد الاقزام إلاّ قليلا.

كمـا يقـدر رغبـات نفسه،و شـهوات جسـده،و يكيّفها وفق ظروفه،كل ذلك لا يهـديه الى ربه و لا يجعله يسـلم وجهه اليه!بلى ما أكفره ما أكفره!! [۲۰]و هداه الى ما ينفعه و ما يضره،و الى ما يسعده و يشقيه،و الى رزقه من اين يأتيه و كيف يصرفه.ان الإنسان مزود بفطرته و عقله،بمنظومه من الغرائز و الأفكار تهديه الى سبل العيش.

ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ بلى.ألهمه فجوره و تقواه،و أرسل الأنبياء ليـذكروه بتقواه،و ينذروه من الفجور،و زودهم بشـرائع تفصـيليه تبين له سبل السلام.

[۲۱]و بعد ان انقضت دورته قهره بالموت ليكون عبره لمن بعده،و ينقله الى حياه أخرى،و يسـعده فيها ان عمل صالحا،و لم يدع جسمه عرضه لنهش الحشرات و الجوارح و السباع،و انما هيّأ له قبرا يوارى فيه كرامه له.

ثُمَّ أَمٰاتَهُ فَأَقْبَرَهُ [۲۲]و ان اللّه الذى قلب الإنسان بين يدى قدرته فى مختلف الأطوار قادر على أن يعيده متى شاء.

ثُمَّ إِذٰا شٰاءَ أَنْشَرَهُ

[۲۳]و لكن الإنسان الذى أسبغ عليه الرب كل هذه النعم لا يزال متحديا قدرته و سلطانه،و لا يزال يتمرد على أوامره و لا يقضيها.

كَلاّ لَمّا يَقْضِ مٰا أَمَرَهُ ما ذا تعنى«كلاّ»؟يبدو أن معناها هنا و فى سائر مواقع استخدامها الإيذان بوقوع ما لا ينبغى،و لا يتوقع العقل بعد سرد تلك النعم إلاّ ان يكون الإنسان فى منتهى التسليم لربه وفاء لبعض دينه،و لكن العكس تماما هو الذى يقع.

اما كلمه«لمّا»فتعنى النفى مع التوقع،أو نفى ما كان متوقّعا،و كلاهما صحيح فى هذا السياق،إذ يرجى تطبيق الإنسان لأوامر الرب،كما أن عدم التطبيق خلاف ما كان منتظرا.

[۲۴]و يعود السياق الى جمله نعم اللّه على الإنسان التى تهديه الى قدرته و حكمته و رحمته،فهذا الماء تحمله سحب الخير الى عنان السماء ثم تصبه على الأرض بسهلها و حزنها ليسقيها،ثم تنشق الأرض عما يطعم الإنسان من ألوان الحبوب و الثمار.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسٰانُ إِلىٰ طَعٰامِهِ ليس فقط يعرف كيف وفره اللّه له،و انما أيضا ليتعلم من مدرسه الخليقه كيف يستفيد منه.أ ليس كل هذه الطبيعه مسخره لإطعامك،أ لا ترى فى ذلك حكمه بالغه،و قدره قاهره،أ و لا يعنى أن وراء هذه الطبيعه تقديرا و تدبيرا و حكمه،و أن مراد ربك ان يسعدك ثم يهديك ثم يعدك لجنته؟!بلى.

و صدق الامام الحسين عليه السلام حينما خاطب ربه قائلا:

«عميت عين لا تراك عليها رقيبا،و خسرت صفقه عبد لم تجعل له فى حبّك

قسما » (۱).

فإذا نظرت الى الطعام بهذه الرؤيه فانک تسمو من درجه التهام الطعام بشهيه حيوانيه الى مستوى التمتع به براحه نفسيه،و بشکر و امتنان،و آنئذ لا يتغذّى به جسدک فقط،و إنما روحک و نفسک أيضا.أ ليس الشکر و الرضا غذاء النفس؟و قد سن الإسلام آداب الطعام لهذا السبب،فانک من قبل الطعام تقول:

«الحمد للّه الذى يطعم و لا يطعم،و يجير و لا يجار عليه،و يستغنى و يفتقر اليه،اللّهم لک الحمد على ما رزقتنى من طعام و إدام،فى يسر و عافيه من غير کد منّى و لا مشقه»و بعد الانتهاء من الطعام تقول:«الحمد للّه الذى أطعمنى فاشبعنى،و سقانى فأروانى،و صاننى و حمانى،الحمد للّه الذى عرفنى البرکه،و اليمن بما أصبته و ترکته منه،اللهم اجعله هنيئا مريئا،لا وبيا و لا دويّا،و أبقنى بعده سويّا،قائما بشکرک،محافظا على طاعتک،و ارزقنى رزقا دارّا و اعشنى عيشا قارّا،و اجعلنى ناسکا بارّا،و اجعل ما يتلقانى فى المعاد مبهجا سارّا،برحمتک يا أرحم الراحمين » (۲)و حين ينظر الإنسان الى الطعام نظرا عميقا يعرف أن ليس کل الطعام صالحا لکل وقت،فلا بد أن يميّز بين الضار منه و النافع،الجيد و الردى،و الحلال و الحرام،فلا يأکل إلاّ ما ينفعه و ما يحل له،و بقدر انتفاع جسده منه،لذلک

قال رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله-: «لا تموّتوا القلوب بکثره الطعام و الشراب، فان القلوب تموت کالزرع إذا کثر عليه الماء » (۳)

و فى الحديث عن الإمام على-عليه السلام-: «من أکل الطعام على النقاء، و أجاد تمضّغا،و ترک الطعام و هو يشتهيه،و لم يحبس الغائط إذا أتى لم يمرض الاّ

۱- ۱) مفاتيح الجنان-دعاء عرفه.

۲- ۲) مکارم الأخلاق ص ۱۴۲،و نقله مستدرک وسائل الشيعه ج ۳/ص ۹۳.

۳- ۳) مکارم الأخلاق ص ۱۵۰.

مرض الموت » (۱).

و روی عن الإمام الصادق-علیه السلام-انه قال: «کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله إذا أتی بفاکهه حدیثه قبّلها و وضعها علی عینه و یقول:اللهم أریتنا أولها فی عافیه،فأرنا آخرها فی عافیه » (۲).

و روی عن رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله-انه قال: «النفخ فی الطعام یذهب بالبرکه » (۳).

و هناک عشرات الآداب الأخری للطعام یبیّنها الإسلام و غیرها فی الکتب الفقهیه،و إذا کان الطعام و هو غذاء البدن أولاه الدین هذا الاهتمام فکیف بالعلم، أ و لیس هو غذاء الفکر،فهل یجدر ان یأخذه من ای مصدر؟!کلا..لا بد أن ننظر ممن نتعلم،و ما هی مصادر المعلومات التی توجهنا فإن کثیرا منها خاطئه و وراءها الجناه الذین لا همّ لهم سوی تضلیل الإنسان عن الصراط السوی.إن هذه المعلومات أشد ضررا علی الإنسان من السمّ الزعاف.

کذلک

جاء فی الحدیث فی تفسیر هذه الآیه الکریمه: «علمه الذی یأخذه عمن یأخذه » (۴)[۲۵]کیف وفر اللّه لک الطعام؟ أَنّٰا صَبَبْنَا الْمٰاءَ صَبًّا

ص:۳۳۲

۱- ۱) المصدر ص ۱۴۶.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) المصدر.

۴- ۴) تفسیر البرهان ج ۴ ص ۴۲۹.

فجاء الماء أمل الحياه من فوق و بانصباب و وفره،حتى يكفينا النظر الى نظام الغيث إيمانا بربّنا العزيز.

[۲۶]و الأرض كيف جعلها اللّه صالحه للزراعه!بأن لم يجعلها صلبه قاسيه، و لا رخوه مائعه(كالرمل المتحرك)و أودع فيها مواد الزراعه.

ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ما أروع انفلاق الأرض عن النّبته التى تشق طريقها الى الظهور،ربما عبر الصخور الصلده،و قال بعضهم:الآيه تشير إلى العصور الأولى من عمر الأرض، حيث كانت قشرتها صماء لا تصلح للزراعه فذللها الرب بفعل السيول المستمره و اللّه العالم.

عن أبى جعفر-عليهما السلام-فى حديث طويل يقول فيه: «فإن قول اللّه عزّ و جل:« كٰانَتٰا رَتْقاً »يقول:كانت السماء رتقا لا تنزل المطر،و كانت الأرض رتقا لا تنبت الحبّ،فلما خلق اللّه تبارك و تعالى الخلق،و بث فيهما من كل دابه فتق السماء بالمطر،و الأرض بنبات الحبّ » (۱)[۲۷]ثم أعد ربنا الأرض للزراعه،و أودع فيها ألوفا من أنواع النبات التى يقوم كل نوع منها بدور عظيم فى تكامليه الخلقه.

فَأَنْبَتْنٰا فِيهٰا حَبًّا قال بعضهم انها الحنطه و الشعير،و قال آخرون:بل سائر أنواع الحبوب كالذره و الفاصوليا و العدس و الحمص،و معروف أن الحب لا يزال يشكل المصدر الأول

ص:۳۳۳

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۵۰۴.

للطعام فى العالم و هو الطعام الطبيعى المناسب،الذى لا ينافسه غذاء آخر لما فيه من السلامه و التكاثر و الفائده،و بالرغم من تضاعف سكان الأرض عده مرات خلال القرون الأخيره فإن الأرض لا تزال تفى بواجبها فى إطعام المزيد من الأفواه الفاغره، و إذا رأينا مجاعه هنا،و نقصا فى المواد الغذائيه هناك فانما بسبب كوارث الطبيعه أو سوء فى التوزيع،أو سوء فى الاداره،و الاّ فإن ما فى الأرض من القمح يكفى لأهلها و يزيد حسب الإحصاءات الدقيقه.

[۲۸] وَ عِنَباً وَ قَضْباً يشير القرآن الى نوعين آخرين من الطعام ميسورين و أساسيين للغذاء يتدرجان معا من فصيله الخضروات و النباتات الأرضيه،و هما العنب و القضب،و القضب:هو النبته التى تجزر و تقطع كأنواع الخضروات و البقليات كالباذنجان و الطماطم و اليقطين و اللفت و ما أشبه،مما تحمل إلينا أعظم الفوائد و لعل هذا الترتيب يدل على التدرج فى الفائده،و قد كشف العلم عما فى الخضروات من منافع عظيمه.

[۲۹]و من نعم اللّه الزيتون الغنى بمواد غذائيه،و بالدهن و الذى يكون عاده صبغا للاكلين،و هكذا النخل التى يستفاد من جذعه و سعفه و ليفه فى مختلف الصناعات،أمّا ثمرته ففيه غذاء كامل لا يدانيه طعام.

وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا [۳۰]و الأشجار التى تلتف الى بعضها و تتغالب للوصول الى أشعه الشمس و تغلظ سيقانها،و تتحدى الأعاصير و الآفات.انها نعمه إلهيه أخرى يسبغها علينا الرب بالغيث.

وَ حَدائِقَ غُلْباً

قال البعض الأغلب ذا الرقبه الغليظه،و قيل:انه من التغالب و الالتفاف الى بعضهما،كما قال ربنا سبحانه و تعالى:« وَ جَنّٰاتٍ أَلْفٰافاً » (۱).

ان هذه الحدائق تضيف إلى أرضنا بهجه و صفاء،و تلطّف الجو،و تصلح البيئه، و تستمطر السماء،و تساهم فى تكوّن أحواض طبيعيّه فى الأرض لحفظ المياه،و تعطى الثمرات المختلفه،و تتربى الطيور الجميله فى أحضانها،و تؤوى الحيوانات الاليفه إليها، فقد جعلت ضروره لبقاء الإنسان و سعادته (۲).

[۳۱]و من ثمار هذه الحدائق يتمتع الإنسان بفواكه كثيره تختلف ألوانها و احجامها و متعتها و فائدتها،و هى جميعا تنتزع من حديقه واحده يسقى بماء واحد،هل لاحظت الفرق بين الفستق و اللوز و الجوز و بين الطلح(الموز)و الآناناس و جوز الهند، ان جوزه واحده من الهند تكون بحجم مئات الحبات من الفستق،على أن كلاًـ منهما لذيذ و مفيد و رائع الجمال سبحان اللّه،و بالاضافه الى الفاكهه خلق اللّه علف الحيوانات الآهله.

وَ فٰاكِهَةً وَ أَبًّا قالوا:الأب علف الحيوانات سمى بذلك لان الحيوان يعود اليه.

و قيل:بل الأب هى الفواكه اليابسه و قال ابن عباس:الأب ما تنبت الأرض مما يأكل الناس و الانعام.

۱- ۱) النبأ/۱۶.

۲- ۲) اكتب هذه الكلمات فى يوم ربيعى متميز و فى ظل أشجار بالغه الجمال،و منظر خلاب لشتيلات الازهار المنظمه،و فى حديقه زاهيه تمتد على مسافه ۲۴۰ هكتارا الى جنب بحيره رائعه فى مدينه بنكلور الهنديه وارى واحدا من تجليات الجمال الالهى على الأرض و أقول:سبحانك ما أعظمك،سبحانك ما أرحمك،غفرانك اللهم و إليك المصير.

ورد: ان أبا بكر سئل عن قوله تعالى:« وَ فٰاكِهَةً وَ أَبًّا »فلم يعرف معنى الأبّ من القرآن،فقال:أى سماء تظلّنى،أم أى أرض تقلّنى،أم كيف أصنع إن قلت فى كتاب اللّه بما لا أعلم،أما الفاكهه فنعرفها،و أما الأب فاللّه أعلم به،فبلغ أمير المؤمنين عليه السلام مقاله فقال:يا سبحان اللّه!أما علم أن الأبّ هو الكلأ و المرعى، و أن قوله تعالى:« وَ فٰاكِهَةً وَ أَبًّا »اعتداد من اللّه تعالى بإنعامه على خلقه بما غذاهم به،و خلقهم لهم و لأنعامهم مما تحيى أنفسهم،و تقوم به أجسادهم (۱).

و فى الدر المنثور:عن انس:أن عمر قرأ على المنبر:« فَأَنْبَتْنٰا فِيهٰا حَبًّا* وَ عِنَباً وَ قَضْباً* وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلاً* وَ حَدٰائِقَ غُلْباً* وَ فٰاكِهَةً وَ أَبًّا »قال:كل هذا عرفناه فما الأبّ؟ثم رفض عصا كانت فى يده،فقال:هذا لعمر اللّه هو التكلف،فما عليك أن لا تدرى ما الأبّ،اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب فاعملوا به،و ما لم تعرفوا فكلوه الى ربّه (۲).

[۳۲]و الذى خلق الفاكهه خلق فى الإنسان الحاجه إليها،و التلذذ بها و الاستفاده منها،و الذى خلق الأب(على ان يكون معناه علف الحيوانات)خلق فى الانعام ما ينسجم معه،أو تدرى مثلا:ان جسد الانعام قادره على استخراج بروتين الحشائش،بينما لا يستطيعه جسم الإنسان،و لذلك ترى الحيوانات تحول ما لا ينتفع الإنسان به من قشور الفاكهه و بقايا النبات الى بروتين و لحم ليعود بالتالى طعاما للإنسان؟ مَتٰاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعٰامِكُمْ [۳۳]كل هذه النعم المتواصله التى أسبغها الرب على الإنسان بين سائر

۱- ۱) الإرشاد للمفيد/ص ۱۰۷.

۲- ۲) الدر المنثور ج ۳۱۷/۶.

الأحياء و النبات تحمّله مسئوليه إضافيه،فهو المسؤول الوحيد بين سائر الأحياء، و هكذا يبعث بعد موته للحساب و الجزاء فی یوم الصيحه الكبرى.

فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ قالوا:الصاخه:الصيحه،و إنها النفخه الثانيه،تصخ الأسماع ای تصمها، و قيل:بل تصخ لها الأسماع،و هى بالتالى مأخوذه من صخّه بالحجر أى صكه، و من هذا الباب قالت العرب:صختهم الصاخه و باءتهم البائنه و هى الداهيه.

[٣۴]يومئذ تكاد تصم الصيحه آذان الخلائق بقوتها،و لكن الآذان يومئذ غيرها فى الدنيا فإن اللّه جعلها بحيث تستوعب المزيد من الإثاره،كما أنّ الأجسام تستوعب الآلام و أسباب الموت دون ان تعدم.

يومئذ تنقطع الأرحام،و تنفصم عرى العلاقات،و تتلاشى الأحساب و الأنساب التى كانت وسيله للتفاخر فى الدنيا،و لا يبقى أثر لهذه القيم البته.

يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ و الأخ هو أقرب معين للإنسان و قد قال الشاعر:

أخاك أخاك فمن لا أخ له كساع الى الهيجاء بغير سلاح

و لكن الإنسان يهرب منه.لما ذا؟لأنه يخشى ان يلحق به عذابه،أو يطالبه بحقّ له فى الدنيا،أو يستعين به على العذاب فلا يستطيعه.

بل انه يفر منه لأن مجرد رؤيته تشكّل له حرجا فكيف بالتعاون معه،و هذه لا تكون إلا عند أعظم الشدائد حيث يركز فكر الإنسان فى نفسه دون أحد سواه.

و قـد جـاء فی الروایات:إن الـذی یفر من أخیه:قابیل من هابیل،و قیل:بل هابیل یفر من قابیل لکی لا یطلب منه الشـفاعه،و لعلهما جمیعا یفرّان من بعضهما.

[۳۵]و بعـد العلاقه الأخویه تأتی علاقه الولـد بوالـدیه و التی تنفصم یومئذ الی درجه تری المرء یهرب من والدیه فکیف یسـتطیع الوالدان الاعتماد علیه یومئذ.

وَ أُمِّهِ وَ أَبِیهِ أ فلا ینبغی ألاّ نترک دیننا لرضا آبائنا الذین قد لا ینفعوننا فی الدنیا فکیف بالآخره و کم منا من تنازل عن قیمه و لم یمیز الحلال و الحرام من أجل أبویه فهل ینفعونه غدا شیئا؟! [۳۶]اما صله الإنسان بزوجته أو ابنائه فهی الاخری لا تغنیه یومئذ عن عذاب اللّه فلا یهلک نفسه الیوم لهذه الصله الزائله.

وَ صٰاحِبَتِهِ وَ بَنِیهِ قالوا:الذی یفر من صاحبته لوط،و من ابنه نوح.

عن الرضا علیه السلام من قصه الشامی مع أمیر المؤمنین علیه السلام فی مسجد الکوفه قال:

و قـام رجـل یسـأله،فقال یا أمیر المؤمنین!أخبرنا عن قول اللّه تعالی:« یَوْمَ یَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِیهِ* وَ أُمِّهِ وَ أَبِیهِ* وَ صٰاحِبَتِهِ وَ بَنِیهِ »من هم؟قـال:قابیـل و هابیـل، و الـذی یفر من أمّه موسـی،و الـذی یفر من أبیه إبراهیم-یعنی الأب المربی لا الوالـد-و الـذی یفر من صاحبته لوط،و الذی یفر من ابنه نوح و ابنه کنعان (۱).

۱- ۱) راجع نور الثقلین ج ۵۱۱/۵.

[۳۷]لما ذا يفرون من بعضهم؟انما لهول الحساب و خشيه العذاب،لذلک فإن کلّ لهثهم فی إنقاذ أنفسهم.

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ و انما يصرف الإنسان المزيد من جهده للآخرين،اما فی الآخره فلا يبقى لفكره و جهده و وقته فضل حتى يوفر لغيره حتى و لو كانوا الأقربين.

[۳۸-۳۹]و هكذا الإنسان أكرم فی الدنيا بهذه الكرامه العظيمه ليحاسب غدا بذلک الحساب العظيم،و تكون عاقبته-لو تحمل مسئوليته كامله هنا-النعيم، تنعكس على روحهم بالبشاره،و على ملامح وجوههم بالبشر و البشاشه.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ قالوا يعنی:مضيئه متهلله،من أسفر الصبح إذا أضاء،و يبدو لی أن معناه:

منشرحه منبسطه،و قيل:كل ذلک من صلاه الليل،بل و أيضا من سائر أعمالهم الصالحه.

ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ و انبساط وجوه المؤمنين انعكاس لانعدام الهمّ،اما ضحكهم فدليل انبهارهم بالنعم،بينما استبشارهم يعكس رجاءهم فی نعيم ربهم أو بشاشتهم برضوان ربهم،و هو أغلى منى يبحث عنه المؤمنون.

[۴۰]اما الذين لم يتحملوا مسئولياتهم فإنهم يصابون بإحباط شديد،تعلو وجوههم سيئاتهم فی صوره غبار الذل و الهوان.

وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ [۴۱]و الی جانب الغبار تری الدخان الأسود علی وجوههم جزاء تقصیرهم فی تطهیر أنفسهم و تزکیتها فی الدنیا.

تَرْهَقُها قَتَرَةٌ قالوا:«ترهقها»تدرکها عن قرب کقولک:رهقت الجمل إذا لحقته بسرعه، اما القتار فقالوا:سواد کالدخان.

[۴۲]بلی.غبار الکفر یعلو وجوههم بما ستروا من الحق،و قتار الفجور یلحقهم بما عملوه من الفواحش.

أُولئِکَ هُمُ الْکَفَرَهُ الْفَجَرَهُ فلا ینفعهم المال و السلطان،و لا تشفع لهم العلاقات الحمیمه.

أعاذنا اللّه من هذه العاقبه السوئی.

ص:۳۴۰

سوره التّکویر

اشاره

ص:۳۴۱

بسم الله الرحمن الرحیم

فضل السوره

عن ابن عمر قال:قال رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله و سلم-: من أحبّ ان ینظر إلیّ یوم القیامه،فلیقرأ:«إذا الشمس کورت».

تفسیر نور الثقلین/ج ۵ ص ۵۱۳

و فی مجمع البیان:روی ان أبا بکر سأل الرسول فقال:یا رسول اللّه!أسرع إلیک الشیب؟فقال:«شیبتنی هود،و الواقعه،و المرسلات،و عم یتساءلون،و إذا الشمس کوّرت. » المصدر

ص:۳۴۳

الإطار العام

عند ما تغور النفوس فی لجّه عمیقه من السبات،و عند ما تتحجّر القلوب فتمسی أشدّ قسوه من الجلامید،و حینما ینساب الإنسان بلا وعی و لا إراده مع التقالید الباطله لا یرضی تطویرا و لا تحویلا.. هنالک تشتد حاجه الإنسان إلی صعقات النذر،کما الرعود الهادره توقظ القلب من سباته،و تستثیر العقل من تحت رکام الخرافات.

و جاء الوحی یصدع به النبی النذیر-صلّی اللّه علیه و آله-إضاءات متواصله فی محیط من الظلام الدامس،و صعقات بالغه الشده فی بیئه السکوت و الجمود، و براکین حارقه للمقدسات المزیفه،و الخرافات الجاهلیه المتوارثه.

و سوره التکویر واحده من تلک الصعقات،فإذا انفتح علیها القلب کاد یتصدّع هولا،لأنّها تفتح نافذه واسعه علی جیشان الحقیقه،و طوفان التطورات فیها،إنّها مفتاح التطویر و الإبداع فی القلب و العقل و السلوک.

ص:۳۴۴

و تحـدثنا آياتهـا الفاتحه عن الشـمس إذ كورت..بلى.الشـمس التى هى محور منظومتنا هى الأخرى تتكور فى يوم رهيب.فلما ذا الاسترسال مع السـكون القاتل، و النجوم كذلك تنكدر،و العشار تتعطل،و تمضى آياتها الصاعقه ترسم صوره رهيبه لذلك اليوم لعلّ قلوبنا تتساءل:ما ذا عنا فى ذلك اليوم؟فيأتى الجواب مهولا:

«علمت نفس ما أحرضت»عظيم حقا أن نعود إلى أعمالنا التى تتجسـد أمامنا و نعلم بها إنّها المسؤوليه بكلّ ثقلها،و تنقلنا الصوره فورا إلى النجوم إذ تخنس، و الكواكب إذ تكنس،و الليل إذ يعسـعس،و الصبح إذ يتنفس.أ و ليست تلك آيات اللّه الأكثر إثاره لنفوسـنا،و التى تهدينا الى حكمه الربّ و قدرته؟بلى.فإنّ القرآن قول رسول كريم،لأنّه و بشـهاده العقل و الضمير تعبير عن تلك الآيات؛إنّه كتاب ينطق عن ربّ الكائنات، و تنطق الكائنات بحقّانيته.

و فى الختـام يصـور القرآن لنـا تنزّل الـوحى عـبر أفـق مـبين،و يتسـاءل:فـأين تـذهبون عـن هـذا الـوحى الحق؟إنّـه ذكر مـن اللّه للعالمين،لمن شاء أن يستقيم.

إنّهـا ثلاث صور عظيمه:صوره رهيبه عن السـاعه،و صوره جـذّابه عن الطبيعه، و صوره رائعه عن الوحى..سـبحان اللّه الـذى أنزل هذه السوره سبحانه سبحانه !!

ص:۳۴۵

[سوره التكوير (٨١): الآيات ١ الى ٢٩]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِيمِ . إِذَا اَلشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَ إِذَا اَلنُّجُومُ اِنْكَدَرَتْ (٢) وَ إِذَا اَلْجِبالُ سُيِّرَتْ (٣) وَ إِذَا اَلْعِشارُ عُطِّلَتْ (۴) وَ إِذَا اَلْوُحُوشُ حُشِرَتْ (۵) وَ إِذَا اَلْبِحارُ سُجِّرَتْ (۶) وَ إِذَا اَلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَ إِذَا اَلْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَ إِذَا اَلصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَ إِذَا اَلسَّماءُ كُشِطَتْ (١١) وَ إِذَا اَلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَ إِذَا اَلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (١۴) فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١۵) اَلْجَوارِ اَلْكُنَّسِ (١۶) وَ اَللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (١٧) وَ اَلصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي اَلْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ اَلْمُبِينِ (٢٣) وَ ما هُوَ عَلَى اَلْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢۴) وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (٢۵) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢۶) إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاّ أَنْ يَشاءَ اَللّهُ رَبُّ اَلْعالَمِينَ (٢٩)

اللغه

٢[انكدرت]زياده على ما فى المتن،الانكدار:انقلاب الشىء حتى يصير أعلاه أسفله بما لو كان ماء لتكدّر،و أصله الانصباب،و فى المفردات:و الانكدار:تغيّر من انتشار الشىء،و انكدر القوم على كذا إذا قصدوا متناثرين عليه،و فى المنجد:

انكدر فى السير:أسرع،و انكدر عليه القوم:انصبوا،و انكدرت النجوم:تناثرت،و الكدراء:السيل الشديد.

۱۵-۱۶[الخنّس-الکنّس]جمع کانس،و أصلها الستر، و الشیطان خنّاس لأنه یخنس إذا ذکر اللّه تعالی:أی یذهب و یستتر،و کنّاس الطیر و الوحش:بیت یتّخذه و یختفی فیه، و الکواکب تکنس فی بروجها کالظباء تدخل فی کناسها.

و قیل:«الخنس»هی زحل و المشتری و المریخ لأنها تخنس فی مجراها:أی ترجع و تستتر.

إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ

بينات من الآيات:

[۱]عنـد السـاعه تحـدث تغييرات رهيبه و هـائله فى الطـبيعه.أ ليست الطبيعه قـد سـخّرت للإنسـان؟فهـا هو الإنسـان يجرّ للحسـاب الدقيق،فلا كرامه إذا للشـمس، و لا مبرّر لوجودها،فما ذا يصـنع بها؟إنّها تفقد ضياءها،و تلفّ على بعضها(كما العمامه إذ تكوّر)و يرمى بها فى نار جهنم مع من كان يعبدها من البشر.

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ قالوا:أصل التكوير من الجمع،يقال كار العمامه على رأسه يكوّرها:أى لاثها و جمعها.ما ذا يصـنع بهـذه الكره العملاقه التى هى أكبر من أرضـنا زهـاء مليون مره؟هـل إنها تفقـد عمرها الطبيعى الـذى هى فى منتصـفه حسب ما يقول العلماء الذين يقولون:انها اليوم فى عمر الكهوله،فنحن البشـر إذا فى منتصف المسافه بين أصل تكوّنها و يوم تكورها،أم أنّها تصاب بآفه كونيه فيمحى ضوؤها،كما الشمعه

إذا غمست فی ماء المحیط أو تعرضت لإعصار شدیـد؟فلا یبقی لها إلاّ أن تنطوی علی نفسـها،و تلملم امتدادات ضوئها،و زفرات شعلتها،و انسـیابات أشعتها،من هنا جاء فی لسان العرب:کوّرت الشمس جمع ضوؤها،و لفّت کما تلف العمامه.أیّا کان الأمر فإنّها ساعه رهیبه.

[۲]هل القیامه ساعه المنظومه الشمسیه أم المجرّه أم العالم کله؟لا أدری، و لکنّ الآیه تؤکّد أنّ النجوم تنکدر و تؤکد آیه أخری انهـا تنتثر فهل هی تنصبّ و تتساقط فی اتجاهات متباعـده،أم أنّها تعود کما کانت أول الخلق کتله واحـده متراصّه،أم ما ذا؟أم لا یکون کل ذلک،و إنّما بسبب اختلال نظام منظومتنا فإنّنا نری النجوم بهذه الصوره؟اللّه العالم.

وَ إِذَا النُّجُومُ انْکَدَرَتْ قـالوا:یعنی تهـافتت و تناثرت،و قال بعضـهم انصـبّت کما ینصب العقاب، و حکی عن الخلیل قوله:انکـدر علیهم القوم:إذا جاؤوا إرسالا فانصبّوا علیهم.

[۳]و أما الجبال الراسیات التی اعتمد علیها الإنسان فإنّها تسیر ثم تتبدد ثم تتلاشی فتکون سرابا.

وَ إِذَا الْجِبٰالُ سُیِّرَتْ [۴]أمّا الإنسان فیلهو عمّا حوله،و حتی عن أنفس ما یملک.

وَ إِذَا الْعِشٰارُ عُطِّلَتْ قالوا:العشار جمع عشـراء کالنفاس جمع نفساء،و هی الإبل التی أتی علی حملها عشره أشهر ثم هو اسمها إلی أن تضع لتمام السنه،و هی أنفس ما یکون عند

أهلها و أعزّها عليهم.

أمّـا تعطيلهـا فبمعنى الالتهـاء عنهـا و تركهـا؛لأنّ للإنسـان يومئـذ شأنـا آخر يغنيه عمّـا حوله.إنّه يريـد التخلص من أهوال السـاعه المتلاحقه عليه.

و قال بعضهم:العشار هى السحب تعطّل،و قيل:إنّها الأراضى المزروعه تترك.

[۵]فى ذلك اليوم تتجمع الوحوش من كلّ ناحيه،كأنّها تحس بالوحشه من شـده الهول فتلوذ ببعضـها،و تقترب من بنى آدم دون أن تنفر منهم أو ينفر بعضـها من بعض.مـا أعظم ذلـك اليـوم على قلب الكائنـات! وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ و الحشـر-حسب هـذا التفسـير-بمعنى الجمع،و قيـل:إنّ الحشـر بمعنى إعادتهـا إلى الحيـاه حتى يتم إجراء العـداله عليها حسب مسـتواها الشـعورى،فإذا كانت القرناء طعنت الجمّاء أعيدتا حتى يقتص للجمّاء من القرناء ثم تموتا معا.و اللّه العالم.

عن أمير المؤمنين-عليه السلام-قال: «و أما الذنب الذى لا يغفر فمظالم العباد بعضهم لبعض.إن اللّه تبارك و تعالى إذا برز لخلقه أقسم قسـما على نفسه فقـال:و عزّتى و جلالـى لا يجوزنى ظلم ظالم و لو كفّ بكفّ،و مسـحه بكفّ،أو نطحه ما بين القرناء إلى الجمّاء،فيقتص للعباد بعضهم من بعض،حتى لا يبقى لأحد على أحد مظلمه، ثم يبعثهم للحساب » (۱).

[۶]و ما ذا عن البحار و هذه المحيطات العظيمه؟هل يمكن أن يلوذ بها الناس

۱- ۱) تفسير نور الثقلين/ج ۵ ص ۵۱۵.

خشیه النیران؟کلاّ..إنّها بدورها تسجّر کما یسجر التنور،و تشتعل نارا لا هبه.

وَ إِذَا الْبِحٰارُ سُجِّرَتْ و کان المفسرون سابقا یبحثون عن تفسیر لهذه الآیه حتی قال بعضهم:تکون جهنم فی قعر البحار فیأذن اللّه لها أن تحرق البحار بنیرانها،و قال آخرون:إنّ اللّه یلقی بالشمس و القمر و سائر الأجرام فی البحار فتسجّر،أو أنّه یخلق فیها نیرانا عظیمه فیحرقها،و قال الرازی بعد نقل هذه الأقوال و غیرها:هذه الوجوه متکلّفه، لا حاجه إلی شیء منها،لأنّ القادر علی تخریب الدنیا و إقامه القیامه لا بد أن یکون قادرا علی أن یفعل بالبحار ما شاء،من تسخین و من قلب میاهها نیرانا،من غیر حاجه منه إلی أن یلقی فیها الشمس و القمر أو أن یکون تحتها نار جهنّم. (۱)

بلی.و قد أثبت العلم أنّ فی الماء مادتین(أو کسجین+هیدروجین)و هما شدیدان الاشتعال لو انفصلا،و قد اخترعوا سیّارات تعمل علی الماء بعد تجزئته، فهل تعجز قدره الربّ عن فصلهما یوم القیامه بفعل ضغط جویّ هائل أو ما أشبه حتی تتسجّر؟! إنّ عدم معرفه البشر بکیفیّه وقوع الشیء قد یدعوه إلی الکفر بوقوعه رأسا،و هذا من أعظم تبریرات الکفّار بیوم القیامه،و لکن هل أحاط البشر بکلّ شیء علما، حتی ینکر أیّ شیء لا یعلم تفصیل وقوعه؟!أ لیس فی هذا جهل مرکّب؟! و لعلّ الکفّار بیوم البعث کانوا یسخرون من کیفیه تحوّل البحار نیرانا، و یقولون:إنّ الماء یطفئ النار فکیف یشعلها؟!و لکن ثبت علمیّا أنّ الماء أساسا مرکّب من نارین.أ و لا یهدینا ذلک إلی أنّ جهلنا بکثیر من الحقائق لا یبرّر کفرنا

۱- ۱) تفسیر الرازی ج ۳۱ ص ۶۸.

بها رأسا؟! [۷]فی ذلـک الیوم لاـ تترک النفوس و شأنها،بل و تقارن بأعمالها،ثم تحلق -حسب مقیاس العمل-بأقرانها،فأصـحاب المیمنه مع أصحاب المیمنه، و أصحاب المشأمه مع أصحاب المشأمه،و السابقون مع السابقین.

وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ و قیـل:تقرن نفوس المؤمنین بأزواجهـا من الحور العین،بینمـا تقرن نفوس الکفّـار بالشـیاطین و الجن،و اللّه العالم.

[۸]و حیث ینصب المیزان العـدل یرفع المظلوم ظلاـمته أمام الملأ،و یسـمح الحاکم العـدل بأن تتحـدث الموؤده عن نفسـها حین یسألهـا:بـأیّ ذنب قتلت؟! وَ إِذَا الْمَوْؤُدَهُ سُـئِلَتْ أ لیس قـد جعل اللّه للمظلوم سـلطانا علی الظالم فی محکمه العـدل،و هو أول من یستنطق فینطق،فلذلک هی التی تسأل حتی تشرح ظلامتها،و قرأ بعضهم(سألت) و یحتمل أن یکون ذلک نوعا من التفسیر،

و قـد روی ابن عباس عن النبی-صـلّی اللّه علیه و آله-: «إنّ المرأه التی تقتل ولـدها تأتی یوم القیامه متعلقا ولـدها بثـدیها ملطّخا بدمائه،فیقول:یا ربّ!هذه أمّی و هذه قتلتنی » (۱).

و یبـدو من هـذا الحـدیث و من نصوص و آیـات عدیـده و وثـائق تاریخیه أنّ عاده الوأد کانت منتشـره فی العرب،و قـد حاربتها الرساله الإلهیه بقوه حتی أقلعوا عنها، و لعلّ الحدیث الثانی یکشف جانبا من تلک العاده الخبیثه،

فقد روی: أنّه جاء

۱- ۱) القرطبی ج ۱۹ ص ۲۳۴.

قیس بن عاصم إلی النبی-صلّی اللّه علیه و آله-فقال:یا رسول اللّه!إنّی وأدت ثمان بنات کنّ لی فی الجاهلیه،قال:«فأعتق عن کلّ واحده منهنّ رقبه» قال:یا رسول اللّه!إنّی صاحب إبل،قال:«فاهد عن کلّ واحده منهنّ بدنه إن شئت » (۱).

بِأَیِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ و هذا التساؤل العریض یجعل الجاهلیه کلّها فی أزمه حادّه،فهب أنّها برّرت کفرها بالرساله،أو سکوتها عن ظلم الأغنیاء للفقراء،أو حروبها الداخلیه،فهل لقتل البنات و بهذه الصوره البشعه أی تبریر؟!إنّ هذا العمل القبیح یکشف زیف الفلسفه التی وراءه،و بالتالی زیف کلّ القیم الجاهلیه، و ذلک لأنّ فطره الإنسان قد تحجب عن معرفه بعض الحقائق الخفیه،و لکنها لا یمکنها أن تتغافل عن مثل هذه الحقیقه الواضحه أنّه لا یجوز المخاطره بحیاه الطفله التی وهبها اللّه لوالدیها،و جعلهما حماه لها،و أودع فی أنفسهما الحنان و العطف نحوها،بل جعلها حاجه نفسیه ملحّه لهما،فکیف یجوز لهما دسّها فی التراب،بل کیف مسخت شخصیه هذا الأب أو تلک الأم اللذین یقومان بوأدها،و کیف یسمح المجتمع لهما بارتکاب هذه الجریمه،و أین ضمیر المجتمع عنهما،أین دعاه الخیر و الصلاح،أین أهل الدین و التقوی،أین الرحمه و الحب و الحنان،أین أهل الثقافه و الفکر؟! ان وقوع هذه الجریمه النکراء فی المجتمع الجاهلی کان شاهدا علی أنه قد هبط الی أسفل درک،و هکذا نطقت الموؤده حین سئلت بإدانه کل المجتمع الجاهلی،و کل قیمه الزائفه.

و قصه وأد البنات من أشد قصص الجاهلیه بشاعه و آلما معا،و هی کما قلنا:

ص:۳۵۴

۱- ۱) تفسیر الدر المنثور ج /۶ص ۳۲۰.

تکشف عن جوانب عدیده من الضعف فی الفکر الجاهلی،فقد حکی عن ابن عباس..کانت المرأه فی الجاهلیه إذا حملت حفرت حفره،و تمخضت علی رأسها، فان ولدت جاریه رمت بها فی الحفره،و وارتها التراب،و ان ولدت غلاما حبسته، و کان بعضهم یفتخر بذلک فیقول قائلهم:

سمیتها إذ ولدت تموت و القبر صهر ضامن ازمیت (۱)

و قد کان فی الجاهلیه من یمنع الوأد،و یسعی لنجاه الموؤدات،مثل صعصعه جد الفرزدق حیث یقال أنّه کان یشتری البنات من آبائهن،و جاء الإسلام و قد أحیا سبعین موءوده،حتی افتخر حفیده الشاعر المعروف بذلک فقال:

و منّا الذی منع الوائدات فأحیا الوئید فلم یوأد

و جاء فی الدر المنثور:عن صعصعه بن ناجیه المجاشی و هو جدّ الفرزدق،قال:

قلت:یا رسول اللّه!إنی عملت أعمالا فی الجاهلیه فهل لی من أجر قال:«و ما عملت؟»قال:أحییت ثلثمائه و ستین موءوده،أشتری کل واحده منهنّ بناقتین عشراوین و جمل،فهل لی فی ذلک من أجر،فقال النبی-صلّی اللّه علیه و سلم-:

«لک أجره إذ منّ اللّه علیک بالإسلام » (۲).

حقا ان تردی البشر الی هاویه الفساد و الجریمه رهیب و لو لا ان تدارکه رحمه اللّه فانه یبلغ مستوی من الرذاله أن یدفن أبناءه أحیاء،و لعل الاشاره الی البنات فی هذه الآیه لیست للحصر بل لأنهن الحلقه الأضعف و الأکثر إثاره للشفقه،إذ تدل آیات أخری علی أن الأولاد أیضا کانوا یقتلون حیث یقول ربنا:« وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَوْلاٰدَکُمْ خَشْیَهَ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِیّٰاکُمْ » (۳).

ص:۳۵۵

۱- ۱) ای سماها تموت بإزاء ما یسمی الأولاد ب(یحیی)و الزمیت بمعنی:الوقور و المتزمت.

۲- ۲) تفسیر الدر المنثور/ج ۶ ص ۳۲۰.

۳- ۳) الإسراء/۳۱.

و إذا كنا نرى اليوم القوانين الرادعه لقتل الأولاد،بل العواطف الرقيقه التى تحوط الأولاد بسياج من الرعايه الفائقه فإنما هو بفضل تعاليم الرسالات الإلهيه، و لولاها لعادت البشريه الى سابق جاهليتها،إذ ليست عاقبه الفلسفات الماديه التى تقيّم كلّ شىء بمنطق الفائده و الخساره إلّا مثل هذه الجرائم.

و لا زال بعض الناس متورطين فى مثل هذه الجرائم و أضرب لكم ثلاثه أمثله.

أ/ما يجرى فى العالم و بشكل واسع من المتاجره بالأولاد،لاستعبادهم أو استخدامهم فى تصدير أفلام جنسيه بالغه الفحش و الخلاعه،أو حتى قتلهم و استخدام أجسادهم لصناعه مواد معينه.

و بالرغم من التستر الواسع على مثل هذه الجرائم فان العالم يطلع بين الفينه و الاخرى على بعض الأرقام المذهله.

و إليك طائفه مما تناقلته بعض الصحف و وكالات الأنباء:

نشرت كيهان العربى(الجريده الإيرانيه الصادره فى طهران)فى عددها ۱۶۹۱:

كشف مندوبون فى مؤتمر عن استعباد الأطفال أمس الاول النقاب عن ان أكثر من سبعه ملايين طفل يعملون كعبيد فى دول جنوب آسيا و ان بعضهم اختطفوا و تم وسمهم ليبقوا عبيدا و يعيشوا حياه أسوأ من«حياه البهائم».

و قال سوامى اجنيفيش رئيس جبهه تحرير العمال الأرقاء امام المؤتمر:

«يختطف الأطفال بين سن السادسه و الثانيه عشره و ينقلون الى مصانع السجاد.

انهم يحملون علامات على أجسادهم بعد وسمهم بقضبان الحديد الملتهب».

و قـد رأست جبهه تحرير العمال الأرقاء المؤتمر الـذى انعقـد فى نيودلهى و حضـره منـدوبون من الهند و بنغلادش و باكسـتان و نيبال و سريلانكا.

و وصف ب.ن.بـاغواتى كبير القضـاه السـابق فى الهنـد هؤلاء الأطفـال بـأنهم لا يعيشون كآدميين بل يحيون حياه أسوأ من حياه البهائم،فالبهائم حره على الأقل فى ان تسوم كيف شاءت أو تسرق طعامها متى شعرت بالجوع.

و حضر المؤتمر أيضا الأطفال الذين تم تحريرهم من العبوديه.

و قال اجنيفيش ان منظمات دوليه للاغاثه تعتقـد انه يوجـد حوالى ٧٥ مليون طفـل على الأقل تحت سن الرابعه عشـر يعملون فى جنوب آسيا و ان عشره فى المائه عبيد.

و قد ألغت الهند نظام العمل العبودى فى عام ١٩٧٦.

و يعمـل أكثر من ١٠٠,٠٠٠ طفل من العبيـد فى صـناعه السـجاد وحـدها و هى مصـدر رئيسـى للهند فى الحصول على العملات الصعبه.

يوجد فى سيريلانكا ١٤٦ منظمه تتاجر فى بيع و شـراء الأطفال الأجانب و قد باعت عام ١٩٨٥ وحده ٥٣٤٣ طفلا.نقلا عن وكاله الأنباء الفرنسيه ٨٥/١١/٢٥.

و نشـرت جريـده الـوطن الكويـتيه عـدد ٤١٣٨:أنـه يتـم المتـاجره بمـا لا يقـل عـن مليـون طفلا بعضـهم فى الثـالثه و الرابعه من أعمارهم،يباعون فى سوق الفن الإباحى الدوليه،و يقتل بعضهم بالمرض أو الانتحار أو تمثيل الأفلام.

و نشرت جريده السفير فى عددها ٤٧٨٢:نائب وزير الداخليه الباكستانى اتهم

بعض الآباء الباكستانيين ببيع أبنائهم إلى دول الخليج من أجل استخدامهم فى سباقات الهجن(الجمال)،و يقول مربوا الهجن:ان السبب فى استخدام الأطفال المربوطين على ظهور الجمال يعود الى كون صرخات الأطفال مهيّجه للجمال مما يجعلها تعدو بسرعه.

و نشرت الوطن فى عددها ٣١٣٧ ما مضمونه:ان امرأه سيريلانكيه تعمل عند أحد أمراء دوله الإمارات عرضت طفلها للبيع بمبلغ ١١٢٢ دولارا.

ب/سوء التغذيه الذى يؤدى الى وفاه الأطفال بأعداد غفيره،دون أن يسعى أحد لإنقاذهم بالرغم من سهوله ذلك لعالمنا المتقدم تقنيا و ماديا.

كشف رئيس وزراء السودان(السابق)النقاب عن ان ٢٠ الف طفل قضوا جوعا فى إقليم«كردفان»وسط البلاد.حيث يعانى ٢٥٠ الف شخص من سوء التغذيه.

و ذكرت الأمم المتحده ان نصف سكان السودان البالغ عددهم مليون نسمه ربما يتعرضون لخطر المجاعه بسبب الجفاف.

و يقول مسئولوا اغاثه غربيون ان(١٠٠)شخص معظمهم من الأطفال يموتون كل أسبوع فى معسكر يضم ٥٠ ألفا من ضحايا الجفاف فى إقليم(دارفور).

و يقول خبراء الأمم المتحده ان ١٥ مليون سودانى-ثلثا العدد من الأطفال- يطالهم الجوع،و ان الأطفال أصبحوا هياكل عظميه فى الجزء الغربى من السودان، إذ فقدوا ٨٠٪من أوزان أجسامهم الطبيعيه.

يموت ٥٠٪من الأطفال فى(هاييتى)قبل ان يصلوا الى سن الرابعه،و الذين

عبروا مرحله الخطر يصابون بالهزال،حيث تصبح اوزانهم أقل من الحد الطبيعى بنسبه ١٠ الى ٢٠٪.

أوضح تقرير صادر من افريقيا بان ١٠ آلاف طفلا يموتون يوميا عام ١٩٨٥ م.

ذكرت منظمه اليونيسف ان اربعه ملايين طفل يموتون كل عام فى الدول الناميه.

بلغت جبال الأطعمه الفائضه لدى السوق المشتركه حوالى ٥٫٨ مليار دولار امريكى،منها ١٧ مليون طن من القمح،و ٢٫١ مليون طن من الزبد،٧٩/٠٠٠ طن من لحم البقر،و ٤٨٧ طن من مسحوق الحليب.

و فى الوقت الذى يتعاظم الفائض الغذائى فى أوروبا،و امريكا الشماليه،فى الوقت ذاته يخشى ان يلقى ٣٤ مليون شخصا حتفهم،أكثرهم من الأطفال من جرّاء سوء التغذيه فى افريقيا.هذا و قد تنبأ مدير مسئول فى هيأه الأمم المتحده و يدعى (مورث)بأن ٢٠ مليون شخص معظمهم من الأطفال مهدّدون بالموت فى إفريقيا بسبب المجاعه.

بلغ معدل موت الأطفال فى الصومال بسبب سوء التغذيه ٢٠٠ فى الألف،أى خمس المواليد،و فى الغابون ١٤٠ طفل فى الألف.

و نقلت وكاله الأنباء الفرنسيه هذه الاحصائيات الغربيه:

* ٤٠/٠٠٠ طفل فى العالم يذعنون لحتميه الموت لسوء التغذيه بصوره منتظمه.

* ٢٠ مليون طفل ما بين ٦-١٢ سنه يحرمون من حق التعليم لسبب أو لآخر

ص:٣٥٩

و أهمها الفقر المدقع.

*۷۵ مليون طفل ما بين ۸-۱۵ سنه فی العالم الثالث يعملون لتوطئه الظروف المعيشيه القاسيه.

*نسبه وفيّات الأطفال فی العالم النامی تزداد عشره أضعاف عما هو عليه العالم الصناعی.

أعلی المعدلات لوفيات الأطفال فی العالم فی افريقيا،فقد هلك نحو خمسه ملايين من الأطفال عام ۱۹۸۴ م،و أصيب مثلهم بعاهات مختلفه نتيجه المرض و سوء التغذيه،و هذا يتوافق مع رقم نشرته وكاله الأنباء الفرنسيه بأن عدد الموتی من الأطفال ما بين عام ۸۳-۸۵ يبلغ ۱۰ ملايين طفل.

قال تقرير منظمه الصحه العالميه:ان ۱۵ مليون طفلاـ يموتون سنويّا بسبب سوء التغذيه و هم دون الخامسه،و هناك الكثير من الأطفال يصابون بأمراض مرتبطه بسوء التغذيه كالحصبه و السل و الإسهال و العمی،و أضافت مجله(اطلاعات الاسبوعيه فی عددها ۲۲۲۵)يوجد فی الهند ۹ مليون مكفوف،و فی بنغلادش يفقد ۲۰۰ الف طفل بصرهم كل عام بسبب سوء التغذيه و فيتامين(أ).

و عن بنغلادش أضافت كيهان فی عددها ۱۲۴۳۵:يموت ۴۰۰ الف طفل بسبب الإسهال و السعال و الدفتريا و الكزاز و هی مرتبطه بسوء التغذيه،و ان ۵۰٪ من أطفال بنغلادش يعانون من سوء التغذيه.

و فی جريده كيهان عدد ۱۲۳۲۲ قالت:

*فی كل دقيقه و ۴۲ ثانيه يموت طفل فی البرازيل بسبب الجوع.

*أعلنت وزاره الصحه فی البرازیل ان ۳۰۰ الف طفل ممن هم أقل من السنه و بسبب سوء التغذیه لهم أو لأمهاتهم،و لسوء الحاله الصحیه فإنهم یواجهون الموت بحلول الشهر الأول من السنه القادمه.

*و حسب أقوال الیونیسف ان ۸۰ ملیون من أصل ۱۲۰ ملیون من سکان البرازیل یعانون من سوء التغذیه.

ج/ما نسمعه من فضائح تهز الضمیر منها ما نقل لی من مأساه شابه هندیه أحرقت مع زوجها بناء علی عادات جاهلیه،و قد أثار حرقها ضجه کبیره فی هذا البلد (۱).

و لعل قری کثیره لا تزال تدفن الأرمله مع زوجها المیت رضیت أم أبت.

و عن وأد البنات فی الهند إلیک بعض الحقائق:

یقتل فی الهند کل عام ۶۵ الف طفله جدیده فی منطقه(مادورای)فی(تامیل نادو)جنوب الهند.

و یقوم الأهالی بإعطاء السم المأخوذ من ثمره الدّفل للموالید الإناث بعد ولادتهم مباشره،و هذه الطریقه لیست محصوره فی مجتمع(کالار)الهندوکی،بل و تمارس عند مجموعات هندوکیه أخری مثل(ثیغارس)فی(مدراس)و(جاتس)فی (راجبوتس)و(لیغاکاتبی باتبدراس)فی(جوجارات).

و من الطرق الشائعه فی وأد البنات ان تقوم الأم بوضع السم علی حلمه ثدیها، و تسد أنف طفلتها،و فی(راجبوتس)تلف الأم طفلتها بقماشه سمیکه،أو تغرقها فی

۱- ۱) المؤلف کان یومه فی الهند.

النهر أو البحر.

و من أسهل الطرق لوأد البنات التخلص من الطفله برميها فی أوعيه الزباله أو رميها فی الصحراء.

و الوأد هی الطريقه التی يتبعها فقراء الهنـد للتخلص من مهر البنت،إذ أن أقل مهر هو خمسون الف روبيه،أی ما يعادل أربعمائه و خمسه عشـر دولاـرا،بالاضـافه إلی المجوهرات حال الزواج،و فی حال كون الزوج متعلما أو موظفا حكوميّا يزداد المهر علی أب البنت.

و حين يعتبر الهنود الـذكور موجودات ممكنه الوجود يعتبرون البنات مسـئوليه، و لأن الذكور يحصـلون علی المهر بعد الزواج،و هذا المفهوم مقبول حتی عند المتعلمين.

الآبـاء يفرقون بين الـذكور و الإنـاث فی المأكـل و الملبس و العنـايه و التعليم،إذ يرسل ٨۴٪من الـذكور الی المدارس فی مقابل ۴۵٪من الإناث.

المرأه الـتی تلـد طفله أو أكـثر تظـل عرضه للملاحظـات خـاصه إذا لم تنجب ذكرا، و المرأه الـتی تلـد طفلتين أو ثلاـث يجهض حملها إذا كانت حاملا،أو تعقم إذا كانت غير حامل.

و يستعين الآباء الفقراء الطب فی وأد البنات بالإجهاض،و ان اختيارات تحديد النسل مستخدمه بشكل واسع فی معظم مدن الهند.

و هناك إعلانات فی كل مكان:فی القطارات و الجدران و السيارات تقول:

«نحـن نعقـم...»أو«لكی تتخلصـی ادفعی ۵٠٠ روبيـه بـدل أن تـدفعی ۵٠ ألـف روبيـه»و«تخلصـی مـن هم البنت»أو«اعرفی حنس طفلك».

و بسبب الإجهاض تموت ما بين ۴۰۰-۵۰۰ امرأه فی المائه الف،و هی ثانی نسبه فی العالم.

و بسبب الوأد و الإجهاض یموت ربع عدد موالید الإناث سنویّا البالغ ۱۲ ملیونا،و علی حسب ما جاء علی لسان المجلس الهندی للأبحاث الطبیه فإن عدد موالید الإناث أقل من الإناث ففی عام-۸۱-کان لکل الف ذکر ۹۹۳ أنثی و فی عام-۸۶-وصل الی ۹۳۵ لکل الف ذکر.

[۱۰]لکل واحد منا صحیفه منشوره یکتب فیها ملائکه اللّه ما نقدم أو نؤخر من عمل،و إذا مات ابن آدم طویت صحیفته لیوم الحشر حیث تنشر من جدید، فإذا بها لا تغادر صغیره و لا کبیره الا أحصاها،فتعلق فی عنقه،و یقال له:« اِقْرَأْ کِتٰابَکَ کَفیٰ بِنَفْسِکَ الْیَوْمَ عَلَیْکَ حَسِیباً » (۱).

وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ فی ذلک الیوم تبلو الخفایا و الجنایا،و لا أحد قادر علی إنکار ما فعله،فیلزم کل بما فی طائره،و یخرج له کتابه منشورا حسبما

روی عن رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله-عن أم سلمه أنه قال: «یحشر الناس یوم القیامه حفاه عراه»قالت:فقلت:

یا رسول اللّه!فکیف بالنساء؟قال:«شغل الناس یا أمّ سلمه»قلت:و ما شغلهم؟قال:«نشر الصحف،فیها مثاقیل الذّر و مثاقیل الخردل » (۲).

[۱۱]و کما تنکشف سریره البشر،و تسقط الحجب التی وضعت علیها؛فإن غلاف السماء یکشط عنها کما یکشط جلد البعیر عن جسده.

وَ إِذَا السَّمٰاءُ کُشِطَتْ

۱- ۳) الإسراء/۱۴.

۲- ۴) القرطبی ج ۱۹ ص ۲۳۴.

قالوا:قلع عن شده التزاق،و كشطت البعير كشطا نزعت جلده.

ما ذا يحدث ذلك اليوم؟هل يطوى الغلاف المحيط بالأرض لتتعرض لكل وارده و شارده،كما قال ربنا سبحانه:« يَوْمَ نَطْوِي السَّمٰاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » (۱)و على هذا فالسماء هى السقف المباشر الذى يحفظ الأرض،أم أن الحجاب الذى لا يدعنا نرى الملائكه أو عرش اللّه يسقط،فإذا بأبصار الناس ترى العالم الأعلى كما ترى العالم المحيط؟ لعل التفسير الاول هو الاولى،و اختار بعضهم التفسير الثانى،و قال بعضهم:ان معناه أن كلّ أجرام السماء تطوى،و لكن التعبير بالكشط فى هذا الحال لا يبدو مناسبا،و أنى كان فإن الأمن الكونى يفقد نهائيّا فى ذلك اليوم الرهيب.

[۱۲]إذا كشطت السماء و طويت تبينت الجنه و النار،أما النار فقد أعدّت لأهلها إعدادا تامّا إذ أوقدت حتى اسودت و زمجرت و كادت تميّز غيظا.

وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ

روى عن رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله-: «أوقد على النار ألف سنه حتى احمرت،ثم أوقد عليها ألف سنه حتى ابيضت،ثم أوقد عليها ألف سنه حتى اسودت فهى سوداء مظلمه » (۲).

و السؤال هل هذه من سنى الدنيا أم من سنى الآخره التى يعادل كل يوم منها ألف سنه؟اللّه اعلم.

[۱۳]أما الجنه فقد زيّنت لأهلها كما العروس حين تزف إلى زوجها،تلألأت

ص:۳۶۴

۱- ۱) الأنبياء۱۰۴/.

۲- ۲) تفسير القرطبى ج ۱۹/ص ۲۳۵.

أنوارها،و تهيأت الحور لأزواجهن،و استعد الغلمان و الجواری للخدمه،و أعدت الموائد الطيبه التی هی الأشهی و الألذ.

وَ إِذَا الْجَنَّهُ أُزْلِفَتْ ای اقتربت و دنت للمتقين،فهل تتقرب الجنه الی أرضنا كما لو كانت كره أخرى،أم أنّ أهل الجنه يقتربون منها؟لا ندری.

[۱۴]ذلك يوم الجزاء الأكبر،حيث المحكمه العادله،و حيث السجن الكبير يتمثل-فی جهنم-و الجائزه العظمی فی الجنه يمثلانه أمام كل ناظر،فيری الإنسان أعماله ماثله أمامه،لا يستطيع من أعماله السيئه فرارا أو إنكارا،انها حقّا لمسؤوليه و عين المسؤوليه.

عَلِمَتْ نَفْسٌ مٰا أَحْضَرَتْ قالوا:هذه الجمله جواب الآيات المتواصله:« إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ »و ما بعدها،و هی اثنا عشر آيه صنعت الإطار العام لصوره مسئوليه الإنسان عن كل أعماله،و التعبير ب«علمت»للتأكيد على أن القضيه يقين و ليس مجرد تخمين،أما قوله«نفس»فلأن النفس مركز الشعور و الإحساس،فهو أبلغ مما لو قال:علم الإنسان،أما لو أننا قلنا:رأت العين كان أبلغ مما لو قلنا رأی الإنسان.

و قوله«ما أحضرت»ذروه البلاغه.أ و لسنا نعمل و نكدح حتی نحضّر شيئا لذلك اليوم الموعود،كما يدرس التلميذ ليوم الامتحان،و يتدرب الرياضی ليوم المباراه،و يستعد الجيش ليوم الحرب،و هكذا البشر يكدحون ليوم لقاء اللّه،حيث يقول ربنا:« يٰا أَيُّهَا الْإِنْسٰانُ إِنَّكَ كٰادِحٌ إِلىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاٰقِيهِ » (۱).

۱- ۱) الانشقاق۶/.

[۱۵]قسما بالنجوم التی تختفی و تظهر،و باللیل حیث یخیم ظلامه،و بالصبح حین یبسط نوره علی الأفق..إن القرآن وحی اللّه الذی أنزله جبرئیل علی الرسول الکریم.

هذه الحقائق تتواصل فی جو تلک الصوره المؤثره لتکون أبلغ أثرا،و أعظم وقعا.

فَلاٰ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ یبدو أن اللام هنا زائده لتأکید معنی القسم.أ لیس معناه التهویل؟فإذا نفی القسم دل علی عظمه ذلک الشیء الذی یتحرز المتحدث عن القسم به،و هذا أشد وقعا فی النفس،فما هو الخنّس؟قالوا:خنس بالضم خنوسا:تأخّر،و أخنسه، غیره:إذا خلفه و مضی عنه.

[۱۶] اَلْجَوٰارِ الْکُنَّسِ و الجوار جمع جاریه،بینما الکنس جمع الکناس ای الغیّب.

و روی عن الامام علی-علیه السلام-: «هی النجوم تخنس بالنهار و تظهر اللیل،و تکنس فی وقت غروبها »و

روی عنه-علیه السلام-: «هی الکواکب الخمسه الدراری:زحل و المشتری و عطارد و المریخ و الزهره. » و قیل:المراد من«الخنس»البقر الوحش،و«الکنس»الظباء.

و کما ذکر فی اللغه:أن کلمه«الخنس»تشابه معنی«الکنس»و ربما یفترقان فی المعنی قلیلا،و أورد الرازی الفرق بین الخنس و الکنس فقال:

روی عن علی -علیه السلام-و عطاء و مقاتل و قتاده: أنها هی جمیع الکواکب ،و خنوسها عباره عن غیبوبتها عن البصر فی النهار،و کنوسها عباره عن ظهورها للبصر فی اللیل،أی

تظهر فی أماكنها كالوحش فی كنسها (١).

و يبدو لی أن الفرق:أن هناك نجوما و كواكب ثابته علی مدار السنه،و هناك نجوما و كواكب فصليه ربما تبقی ليله أو حتی جزء من ليله أو فصل كامل.

و لكن من ظاهر الآيتين:أن قوله:«الجوار الكنس»تفسير للخنس،فعلی هذا التفسير نستطيع أن نفهم لما ذا كلمه«الخنس»تشابه كلمه«الكنس».

[١٧]ألا تری كيف تهجم جحافل الظلام جند النور فتهزمه دون أن يكون لنا سلطان به نمنع ورود الليل أو نحافظ علی بقيه ضياء من نهار،أ فلا نتذكر آنئذ أننا مربوبون،و أن لهذا العالم ربّا حكيما يدبّر أمره و أمرنا،و أنه لا بد أن قد خلقنا لأمر عظيم،و أنه باعث إلينا رسولا من عنده ينبئنا بذلك الأمر؟! وَ اللَّيْلِ إِذٰا عَسْعَسَ قالوا«عسعس»:أدبر بظلامه،و قال بعضهم:إذا أقبل،و اللفظ من الأضداد، و السبب أن العسعس هو الظلام الخفيف الصادق فی أول الليل و فی آخره.

[١٨]فإذا استرخت الطبيعه فوق سرير الليل،و أخذت نصيبا كافيا من الراحه،و تجمعت قواها للوثبه الجديده تنفس عليها الصبح بضيائها،كما و انبلج الفجر من رحم الأفق كما تنبلج الرساله الإلهيه فی أفق الوحی.

وَ الصُّبْحِ إِذٰا تَنَفَّسَ قالوا:امتد حتی يصير نهارا واضحا،و كذلك الموج إذا نضح الماء،و معنی

١- ١) التفسير الكبير/ج ٣١ ص ٧١.

التنفس:خروج النسيم من الجوف.

[۱۹]حين ينفتح القلب على بصائر الحقيقه فى الخلق يهتدى إلى واقع الرساله بغير حجاب:إن الرب الذى جعل الليل و النهار،و سخر بقدرته النجوم و الكواكب لن يترك عباده سادرين فى غىّ الجاهليه،يلفهم ظلام الجهل،و يسوقهم سيف البغى،و يغرقهم الفساد موجه بعد موجه.كلا..إنه يبعث إليهم رسولا هاديا.

يهديهم إلى ما انطوت عليه ضمائر قلوبهم،و دلهم اليه نور عقولهم.بربك أ ليست رساله القرآن كذلك؟! إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ انه قول واضح الحدود،واضح الكلمات،و ليس مجرد تموجات فى الفكر، و أحاسيس فى القلب،و الذى جاء به رسول كريم،تعالى عن الكذب و قول الزور.

[۲۰]و هل يكذب الإنسان إلاّ من احساس بالضعف،و الرسول الذى ينبئ عن اللّه قوى بقوه اللّه،لأن اللّه سبحانه لا يبعث سفيرا إلاّ إذا كان مقرّبا منه.

ذِی قُوَّهٍ عِنْدَ ذِی الْعَرْشِ مَکِینٍ و قد تجلت قوه الملك المقرب جبرائيل عند ما حمل مدائن قوم لوط بقوادم جناحه، و حينما ضرب بجانب من ريشه إبليس فرماه من بيت المقدس الى جزيره سرنديب.

و هو مكين عند اللّه ذى العرش سبحانه،و أقرب منزله،و هو حاكم على كثير من ملائكه اللّه.

[۲۱] مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ

ص:۳۶۸

و قد أوكله اللّه بإداره الملأ الأعلى،فهو مطاع هنالك،كما أنّه أمين فلو لا أمانته لم يوكل إليه هذا الأمر العظيم،و كان من أمانته-عليه السلام-أنه لم يعص اللّه فى شىء،كيف و هو ممن قال عنهم الرب:« لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » (١).

و لعل فى هذا التأكيد ردّا على من يزعم بأن الملائكه هم بنات اللّه،و بالتالى ليسوا بمسؤولين عن أفعالهم،كما كان يعتقد الجاهليون العرب قبل الإسلام، و يزعمون أنهم شفعاؤهم عند اللّه،و كان ذلك منشأ عبادتهم للأصنام التى كان بعضها يرمز إلى الملائكه.

[٢٢]و إذا كانت الرساله من اللّه و عبر رسول كريم تتجلى كرامته فى قوته و أمانته،فان من يتلقاها يكون فى ذروه الحكمه و المعرفه،و هذا تفسير ما يقوله الرسول مما لا يحتمله الناس من حقائق مغيّبه،فيزعمون أنه مجنون كلا.إنه رسول عظيم، رفيع المجد،سنىّ المقام،و الذين كفروا به لا يفقهون.

وَ مٰا صٰاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ و فرق كبير بين الرسول و المجنون،فالمجنون يترك عادات مجتمعه الى الفوضى، و الرسول يتركها لما هو أحسن منها،و المجنون يتحدى سلطات مجتمعه لغير هدف، و الرسول يتحداها لصنع مجتمع أفضل،و المجنون لا يتبع مصالحه بغير هدى،بينما الرسول يتركها للصالح العام.

ثم أ ليس الرسول صاحبهم الذى عرفوه منذ نعومه أظفاره حكيما راشدا صادقا أمينا،أ فلم يعلموا انه ليس بمجنون؟!بلى.و لكن الأمم جميعا اتهمت رسلها بالجنون

١- ١) الأنبياء٢٧/.

حسبما يبين القرآن الكريم و يقول:« كَذٰلِكَ مٰا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ قٰالُوا سٰاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ » (۱).

[۲۳]و لم تكن العلاقه بين الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-و جبرئيل-عليه السلام-غامضه أو مشوّشه.كلا..إنه رآه و بوضوح كاف عبر الأفق المبين.

وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ و ما زاغ عن البصر و ما طغى،و ما كانت وسوسات القلب،أو أحلام اليقظه أو ما أشبه،لقد كان النبى فى قمه وعيه،و كامل عقله حين تلقى الوحى من عند اللّه.

قالوا:الأفق المبين بمطلع الشمس قبل المغرب،و يبدو أن المراد الجهه الصافيه التى لا حجاب فيها و لا غبار.

و قال البعض: ان النبى-صلّى اللّه عليه و آله-رأى جبرئيل فى صورته الأصليه،قد سدّ بين المشرق و المغرب،رأسه فى السماء و رجلاه فى الأرض،فلم يحتمل رؤيته،فقال له جبرئيل:«فكيف لو رأيت إسرافيل و رأسه من تحت العرش و رجلاه فى تخوم الأرض السابعه،و أن العرش على كاهله،و أنه ليضاءل أحيانا من خشيه اللّه حتى يصير مثل الوصع-يعنى العصفور-حتى ما يحمل عرش ربك الا عظمته » (۲).

[۲۴]و من علائم الرسل انهم واضحون مع الأمم يفصحون لهم عن علومهم و معارفهم،دون أن يطالبوهم بأجر و ليسوا كما السحره و الكهنه ممن يبخلون عن الناس بما يعلمون حتى يتفضلوا عليهم،و ليسوا كما سائر العلماء الذين يطالبون على

۱- ۱) الذاريات/۵۲.

۲- ۲) انظر القرطبى/ج ۱۹-ص ۲۴۱.

عملهم أجرا.

وَ مٰا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ قالوا:ضننت بالشیء أضنّ:أی بخلت،و قرأ بعضهم بالظاء،و قالوا معناه:

بمتهم.

[۲۵]یختلف قول الشیطان عن وحی الرحمن اختلافا کبیرا فی الأهداف و الوسائل،فبینما یدعونا الشیطان الی الفحشاء و المنکر و البغی و ینهانا عن التوادّ و التعاون،و علی البرّ و التقوی،و یثیر الضغائن و الأحقاد،و یدفعنا نحو الشهوات العاجله و..و..نجد وحی الرحمن المنبعث حینا من داخل الضمیر و حینا من فم الرسول یأمر بالعدل و الإحسان،و أداء الامانه،و ینهی عن الفحشاء و المنکر و البغی،و یحبذ التوبه و القصد،و یدعونا الی التعاون علی البر و التقوی،و هکذا یهتدی القلب الی صدق الرسول برسالته التی یحملها و التی لا یجد العاقل صعوبه فی فرزها عن الدعوات الضاله.

وَ مٰا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطٰانٍ رَجِيمٍ [۲۶]و حین یترک الإنسان نداء الرحمن لا بد ان یتخطفه الشیطان بغروره و أمانیه،فهل نذهب الیه؟! فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ قد یرفض الإنسان دعوه الخیر دون ان یفکر فی البدیل أو حتی فی العاقبه، بل لمجرد غفلته عن عواقب کفره بها،و عما یضطر إلیه من الباطل حینما یرفض الحق، و یبدو أنّ هذه الکلمه إشاره إلی ذلک،کما هی صعقه عنیفه للنفوس السّادره فی

الغفله و الجهل لعلها تعود إلى ذاتها و تفكر فى أمرها.

[۲۷]و فى القرآن صفتان تشهدان على صدقه:

الاولى:أنه يتوافق مع نور العقل لأنه يقوم بإيقاظه من سباته،فإذا بالعقل يكتشف الحقيقه بنفسه،و يكون مثله مثل من كان يعرف شيئا فنسيه،فإذا ذكّر به عاد يعرفه،فمعرفته آنئذ تكون بذاته،و إنّما دور المذكر تنبيهه و تبصيره،و إذا لا يحتاج الى حجه لكى يعرف أن الذى ذكّره كان ناصحا له و محقا.

و مثل آخر إذا كنت تبحث عن الهلال فلا تجده فأشار صاحبك اليه،فلما نظرت إليه رأيته فهل تحتاج إلى دليل يهديك الى صدق صاحبك؟كلا.إن أكبر برهان على أنه حقّ هو أنّه هداك إلى الحق فعرفته بنفسك،كذلك القرآن ذكر،و معنى الذكر:أنه ينبه العقل الى مكنوناته فإذا به يكتشفها بنفسه،فيعرف أنه حق.

الصفه الثانيه:عالميه القرآن التى تهدينا إلى أنه من ربّ العالمين،ذلك أنّ الشيطان يفرق الناس بألوانهم و لغاتهم و قوميّاتهم؛لأنه يدعو الى المصالح الماديه -و هى مختلفه و متضاربه-بينما الوحى الإلهى يساوى بين عباد اللّه،أ و ليسوا جميعا خلقه،و هو يدعو إلى الحق،و هو غير مختلف من أرض لأرض أو قوم لآخر؟! هكذا قال ربنا:

إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ [۲۸]و من صفات الوحى تأكيده على حريه الإنسان فى اختياره.أ و لم يقل ربنا:« لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » (۱)؟!

۱- ۱) البقره۲۵۶/.

و الحریه تبدأ من حریه العقیده،و انه سبحانه أبی أن یفرض الحق علی البشر فرضا،و أبی لعباده أن یکرهوا بعضهم علیه،أ و لم یقل سبحانه:« وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّکَ لَآمَنَ مَنْ فِی الْأَرْضِ کُلُّهُمْ جَمِیعاً أَ فَأَنْتَ تُکْرِهُ النّٰاسَ حَتّٰی یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ » (١)،و انما یکرم الإنسان و یستحق الجزاء الأوفی إذا آمن بحریته أما إذا أکره علی الإیمان فلا جزاء له و لا کرامه.

لِمَنْ شٰاءَ مِنْکُمْ أَنْ یَسْتَقِیمَ علی الطریقه،استقامه تتحدی میول النفس،و ضغوط المجتمع،و تضلیل الشیطان و أبواقه،و إرهاب السلطات و إغرائها.

[٢٩]و المشیئه أنفس جوهره عند الإنسان،و هی موهبه إلهیه،و لو لا أنّ اللّه و هب هذه الموهبه لم یکن البشر إلاّ واحدا من هذه الأحیاء المتواجده علی الأرض، و هکذا فلا أحد یستطیع أن یفتخر بهذه الموهبه،و یزعم أنه مقتدر من دون اللّه،و من جهه ثانیه:إن الإیمان نور إلهی یقذف فی القلب بعد أن یشاء الفرد ذلک،و یزکی قلبه لاستقبال نور الإیمان.

وَ مٰا تَشٰاؤُنَ إِلاّٰ أَنْ یَشٰاءَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِینَ و هکذا تذکّرنا هذه الآیه بأن لا جبر و لا تفویض،و إنّما أمر بین الأمرین، فالإنسان حر مختار بما وهب اللّه له من قوه المشیئه،و لکنّه لا یختار الحق بالتالی إلاّ بتوفیق اللّه سبحانه.

ص:٣٧٣

١- ١) یونس٩٩/.

سوره الإنفطار

اشاره

ص:۳۷۵

بسم اللّه الرحمن الرحیم

فضل السوره

عن الإمام الصادق-علیه السلام-قال: من قرأ هاتین السورتین و جعلهما نصب عینیه فی صلاه الفریضه و النافله:«إذا السماء انفطرت» و«إذا السماء انشقت»لم یحجبه من اللّه حاجب،و لم یحجزه من اللّه حاجز، و لم یزل ینظر اللّه إلیه حتی یفرغ من حساب الناس.

تفسیر نور الثقلین ج ۵ ص ۵۲۰

ص:۳۷۷

الإطار العام

لکی تنمو شجره التقوی فی النفس فتؤتی أکلها من الصالحات تـذکّرنا آیات هـذه السوره بالساعه و أشـراطها،ثم بتضاءل البشـر امام قدره الخالق الذی خلقه فسوّاه،ثم تبیّن أنّ سـبب عذر الإنسان تکذیبه بالجزاء،بینما الجزاء واقع،و أعمال الإنسان مسجّله علیه بـدقّه ثم یوفّی أجوره علیها،باسـتضافه الأبرار فی النعیم الخالـد و سوق الفجار إلی الجحیم..و ینـذر القرآن فی الختام بیوم الـدین حیث لا تملک نفس لنفس شیئا،و إنّما یومئذ للّه الحکم العدل الذی لا بد أن نتقیه الیوم حقّ تقاته.

ص:۳۷۸

[سوره الانفطار (۸۲): الآیات ۱ الی ۱۹]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ . إِذَا اَلسَّمٰاءُ اِنْفَطَرَتْ (۱) وَ إِذَا اَلْکَوٰاکِبُ اِنْتَثَرَتْ (۲) وَ إِذَا اَلْبِحٰارُ فُجِّرَتْ (۳) وَ إِذَا اَلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (۴) عَلِمَتْ نَفْسٌ مٰا قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ (۵) یٰا أَیُّهَا اَلْإِنْسٰانُ مٰا غَرَّکَ بِرَبِّکَ اَلْکَرِیمِ (۶) اَلَّذِی خَلَقَکَ فَسَوّٰاکَ فَعَدَلَکَ (۷) فِی أَیِّ صُورَهٍ مٰا شٰاءَ رَکَّبَکَ (۸) کَلاّٰ بَلْ تُکَذِّبُونَ بِالدِّینِ (۹) وَ إِنَّ عَلَیْکُمْ لَحٰافِظِینَ (۱۰) کِرٰاماً کٰاتِبِینَ (۱۱) یَعْلَمُونَ مٰا تَفْعَلُونَ (۱۲) إِنَّ اَلْأَبْرٰارَ لَفِی نَعِیمٍ (۱۳) وَ إِنَّ اَلْفُجّٰارَ لَفِی جَحِیمٍ (۱۴) یَصْلَوْنَهٰا یَوْمَ اَلدِّینِ (۱۵) وَ مٰا هُمْ عَنْهٰا بِغٰائِبِینَ (۱۶) وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا یَوْمُ اَلدِّینِ (۱۷) ثُمَّ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا یَوْمُ اَلدِّینِ (۱۸) یَوْمَ لاٰ تَمْلِکُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَیْئاً وَ اَلْأَمْرُ یَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ (۱۹)

اللغه

۱[انفطرت]:انشقت،و جاء فی مفردات الراغب فی معنی هذه الکلمه:أصل الفطره الشقّ طولا-و قیل للکمأه فطر من حیث انّها تفطر الأرض فتخرج منها.

۲[انتثرت]:الانتشار تساقط الشیء فی مختلف الجهات، و قال الراغب فی مفرداته:نثر الشیء نشره و تفریقه،و نثرت الشاه:طرحت من أنفها الأذی،و طعنه فأنثره:ألقاه علی أنفه.

۴[بعثرت]:قلب ترابها لخروج الأموات منها،و بعثرت الحوض و بعثرته إذا جعلت أسفله أعلاه.

۱۴[جحيم]:الجحمه شدّه تأجّج النار،جحم وجهه من شدّه الغضب استعاره من جحمه النار،و جحمت الأسد عيناه لتوقّدهما.

ص:۳۸۰

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّکَ بِرَبِّکَ الْکَرِيمِ

بينات من الآيات:

[۱]کما سوره التکوير تنساب فاتحه السوره فی بيان أشراط الساعه حيث تنهار أنظمه الخليقه،فإذا بالسماء تنفطر،و الکواکب تنتثر،و البحار تتفجر،و القبور تتبعثر..و يکفی القلب الواعی ذلک واعظا و يتساءل:لما ذا کل ذلک؟لکی يحاسب الإنسان و يجازی،و أوّل من يحاکم الإنسان يومئذ نفسه حيث تعلم ما قدّمت و أخّرت من خير أو شر.

إِذَا السَّمٰاءُ انْفَطَرَتْ قالوا:أی تشقّقت بأمر اللّه و تنزّلت الملائکه،کما قال ربنا العزيز:« يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمٰاءُ بِالْغَمٰامِ وَ نُزِّلَ الْمَلاٰئِکَهُ تَنْزِيلاً » (۱).

۱- ۱) الفرقان۲۵/.

و يبـدو أنّ الأمر أعظم من ذلك،فالسـماء التى جعلها اللّه سـقفا محفوظا لم تعد بناء متقنا.أ و ليس انتهى يوم الامتحان و جاء يوم الحساب؟أ و ليس امتحان البشر هو حكمه الخلق و الآن ذهبت الحكمه فليذهب ما يتصل بنا.

و إذا انفطرت السماء تقاطرت الصخور العملاقه التى جاءت من تفتّت النجوم على الأرض،فويل لمن لا يحتمى اليوم بظلّ التقوى حتى يكون ذلـك اليوم محميّا بظـلّ العرش! [۲]حوادث عظيمه فى تاريـخ العـالم،كالانفجـار الهائل الـذى ترى بعض النظريات العلميه أنّه وقع قبـل حوالى(۱۵)مليـار سـنه،و الـذى تلتقط بعض الأجهزه العلميه الحساسه صـداه فى أطراف الكون..و لا ريب أنّ هـذه الحوادث تتكرر لأـنّ عواملها قائمه،و لكن متى و كيف؟لم يبلغ علمنا حتى اليوم معرفه ذلك،بيـد أن الوحى يتبّؤنا بأنّ نظام وجود المنظومه التى نعيشـها ينهـار،فهل ينهار أيضا نظام سائر المنظومات و المجرّات؟يسـتوحى بعض المفسـرين ذلك من هـذه الآيه التى تقول:

وَ إِذَا الْكَوٰاكِبُ انْتَثَرَتْ قـالوا:الكواكب كل النجوم،و معنى انتثارها تبـدّدها،لأنّ انتثرت بمعنى الانتثار و التساقط.و لكن يحتمل أن يكون الأمر خاصّا بهذه المنظومه و كواكبها لأنّ الحديث يتعلّق بما فيها،و اللّه العالم.

[۳]و مـا هى علاـقه انتشـار الكواكب بانفطـار السـماء؟هـل أنّ ضـغطا هائلاـ تتعرّض له منظومتنـا تسـبّب فى تبـدّد السـماء و انتشـار النجوم،أم أنّ انعدام الجاذبيه يسـبّب فقدان التوازن الدقيق الذى تعيش عليه الأرض،أم شـىء آخر؟لا نعلم، إنّما الذى يبدو لنا من خلال النصوص أنّ هزّه عنيفه تصيب صميم الخليقه،حيث

أنّ البحار تنفجر بعد أن تسجّر نارا.

وَ إِذَا الْبِحٰارُ فُجِّرَتْ و قال بعضهم:إنّ معنى فجّرت تداخل بعضها فى بعض حتى يكون بحرا واحدا،كما فسّروا كلمه«سجّرت»فى السوره السابقه بالامتلاء،بيد أنّ المناسب لانفطار السماء و انتثار النجوم فيها تفجّر البحار،و اللّه العالم.

[۴]و تتماوج البسيطه كما مياه البحر،و تخرج الأرض أثقالها التى فى بطنها، و منها أجساد بنى آدم التى تقذف منها بعد أن يحييها اللّه سبحانه.

وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ قالوا:بمعنى قلبت و أخرج ما فيها من أهلها.

[۵]فى مثل هذا الجو يجد الإنسان أعماله ماثله أمامه،حيث لا سماء تظلّه، و لا جبال تكنّه،و لا بحر و لا برّ يمكنه الفرار فيه..اللّه أكبر ما أصعب موقف الإنسان ذلك اليوم! عَلِمَتْ نَفْسٌ مٰا قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ قالوا:ما قدّمت فى حياته،و ما بقيت منه بعد وفاته كالسنّه الحسنه الباقيه أو البدعه المستمره من بعده،و قال بعضهم:ما تقدّم أوّل عمره،و ما تأخّر فى سنّى حياته الأخيره..و يبدو هذا التفسير أقرب.و أنّى كان فإنّ هذه هى المسؤوليه التى تتجسد ذلك اليوم،فقد يقدّم الإنسان بين يدى أفعاله السيئه بعض الأعذار،و قد يلقيها على غيره أو ينساها أو يتناساها و يخفيها فى الدنيا و لكنّه فى الآخره يجدها أمامه بلا نقصان، و لا يستطيع منها فرارا« يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ

مُحْضَـراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهٰا وَ بَيْنَهُ أَمَـداً بَعِيـداً »أ فليس من العقل أن يراقب الإنسان نفسه لكى لا يصدر منه عمل سىء،و أن يلغى الأعذار و التبريرات فلا يتشبث بها فى الدنيا ما دامت لا تنفعه شيئا فى تلك الدار،و أن يتخذ من التقوى حجابا بينه و بين أهوال ذلك اليوم الرهيب؟ [۶]و تنتفض النفس من أعماقها حينما يناديها الربّ بكلّ حنان و عطف و كبرياء:

يٰا أَيُّهَـا الْإِنْسٰـانُ مٰا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ لما ذا تتمرّد عليه؟هل لأنّك استغنيت عنه فطغيت؟أ و لم يخلقك من ماء مهين؟أ و لم يسوّى خلقك حتى أصبحت متكاملا متعادل الوجود؟أم أنّك تنكر هيمنته عليك؟أ و ليس هو الـذى اختار صورتك التى أنت عليها من قصر و طول و قوّه و ضعف و بياض أو سواد أو سمره و.و؟أم أنّك اغتررت بكرمه الذى واتر عليك به نعمه ظاهره و باطنه؟أ فلم يهدك قلبك أن تتقى غضبه الحليم؟أ و لم تبعثك مروءتك أن تجازى إحسانه بالإحسان أم ما ذا؟يبدو أنّ الإجابه عن هذا السؤال متفاوته من شخص لآخر،و لكن ليس هنالك أىّ تبرير مقبول،ذلك لأنّ الغرور حاله مرفوضه أساسا بأىّ سبب كان.

و قد جاء فى حديث مأثور عن رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله- أنّه قال:

«غرّه جهله»بلى.غرّهم بربّهم تواتر نعمه،و تتابع آلائه ،

قال الإمام السجاد -عليه السلام-: «أذهلنى عن شكرك تواتر نعمك. » بيد أنّ ذلك ليس من مصلحه الإنسان،إنّما عليه أن يحارب الغرور بيقظه الضمير،و سلاح التقوى.كذلك

أوصانا إمامنا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب

-علیه السلام-حیث قال بعد تلاوته للآیه:«یَا أَیُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّکَ بِرَبِّکَ الْکَرِیمِ »:

«أدحض مسئول حجّه،و أقطع مغترّ معذره،لقد أبرح جهاله بنفسه.

یا أیّها الإنسان،ما جرّأک علی ذنبک،و ما غرّک بربّک،و ما أنّسک بهلکه نفسک؟أما من دائک بلول،أم لیس من نومتک یقظه؟أما ترحم من نفسک ما ترحم من غیرک؟فلربّما تری الضّاحی من حرّ الشّمس فتظلّه،أو تری المبتلی بألم یمضّ جسده فتبکی رحمه له!فما صبّرک علی دائک،و جلّدک علی مصابک،و عزّاک عن البکاء علی نفسک و هی أعزّ الأنفس علیک!و کیف لا یوقظک خوف بیات نقمه،و قد تورّطت بمعاصیه مدارج سطواته!فتداو من داء الفتره فی قلبک بعزیمه،و من کری الغفله فی نظرک بیقظه،و کن للّه مطیعا، و بذکره آنسا.و تمثّل فی حال تولّیک عنه إقباله علیک،یدعوک إلی عفوه، و یتغمّدک بفضله،و أنت متولّ عنه إلی غیره.فتعالی من قویّ ما أکرمه! و تواضعت من ضعیف ما أجرأک علی معصیته!و أنت فی کنف ستره مقیم، و فی سعه فضله متقلّب.فلم یمنعک فضله،و لم یهتک عنک ستره،بل لم تخل من لطفه مطرف عین فی نعمه یحدثها لک،أو سیّئه یسترها علیک،أو بلیّه یصرفها عنک.فما ظنّک به لو أطعته!و أیم اللّه لو هذه الصّفه کانت فی متّفقین فی القوّه،متوازیین فی القدره،لکنت أوّل حاکم علی نفسک بذمیم الأخلاق،و مساوئ الأعمال،و حقّا أقول!ما الدّنیا غرّتک،و لکن بها اغتررت.و لقد کاشفتک العظات،و آذنتک علی سواء.و لهی بما تعدک من نزول البلاء بجسمک،و النّقص فی قوّتک،أصدق و أوفی من أن تکذبک،أو تغرّک.

و لربّ ناصح لها عندک متّهم،و صادق من خبرها مکذّب.و لئن تعرّفتها فی الدّیار الخاویه،و الرّبوع الخالیه،لتجدنّها من حسن تذکیرک،و بلاغ موعظتک،بمحلّه الشّفیق علیک،و الشّحیح بک!و لنعم دار من لم یرض بها

دارا،و محلّ من يوطّنها محلاّ!و إنّ السّعداء بالدّنيا غدا هم الهاربون منها اليوم.

إذا رجفت الرّاجفه،و حقّت بجلائلها القيامه،و لحق بكلّ منسك أهله، و بكلّ معبود عبدته،و بكلّ مطاع أهل طاعته،فلم يجز فى عدله و قسطه يومئذ خرق بصر فى الهواء،و لا همس قدم فى الأرض إلاّ بحقّه،فكم حجّه يوم ذاك داحضه،و علائق عذر منقطعه! فتحرّ من أمرك ما يقوم به عذرك،و تثبت به حجّتك،و خذ ما يبقى لك ممّا لا تبقى له؛و تيسّر لسفرك؛ و شم برق النّجاه؛و ارحل مطايا التّشمير » (۱).

و قد نظم بعضهم بعض هذه البصائر شعرا فقال:

يا كاتم الذنب أما تستحى و اللّه فى الخلوه ثانيكا

غرّك من ربّك إمهاله و ستره طول مساويكا

و قال آخر:

يا من علا فى العجب و التيه و غرّه طول تماديه

أملى لك اللّه فبارزته و لم تخف غبّ معاصيه

و للمحقّق الحلّى-رحمته اللّه-شعرا بديعا يقول فيه:

يا راقدا و المنايا غير راقده و غافلا و سهام الليل ترميه

۱- ۱) نهج البلاغه/خطبه ۲۲۳.

بم اغترارک و الأيام مرصده و الدهر قد ملأ الأسماع داعيه

أما أرتک الليالى قبح دخلتها و غدرها بالذى كانت تصافيه

رفقا بنفسک يا مغرور إنّ لها يوما تشيب النواصى من دواهيه

[۷]حينما يعى الإنسان نفسه،و يعرف بدايته،و كيف تقلّب فى يد القدره طورا فطورا،و تذكّر أنّه كان نطفه مهينه،يقذفها مبال فى مبال،و يستقذرها صاحبها أيّما استقذار،ثم جعل اللّه تلك النطفه التى خلقها بعظمته رجلا سويّا ذا أعضاء يكمل بعضها بعضا،و فى نظام عظيم لم يسع العلم الإحاطه به،بالرغم من الموسوعات الكبيره التى كتبت حوله..هذا التكامل الذى يبدأ من تكامل اليد و الرجل و الأذن و سائر الجوارح و مدى تناسق أدوارها،و ينتهى بتكامل كلّ خليّه فى الجسم مع سائر الخلايا،ضمن قياده حازمه من أعصاب المخ و خلاياه و من الغدد المنتشره فى أطرافه.

ثم مضافا إلى الخلق يجد الإنسان ذلک التناسق بينه و بين الخليقه من حوله،کيف يتكيّف جسمه مع الحرّ و البرد،و الخشونه و الليونه،و مع مختلف الطعام و الشراب، و كيف يتعامل مع سائر الأحياء ابتداء من الوحوش الضاريه و انتهاء بالجراثيم الفتّاكه..و قد جعل اللّه للإنسان القدره على التكيّف و التفوّق ثم تسخير الطبيعه.

أقول:حينما نعى كلّ ذلک أ و ليس نرى كرم ربّنا و حكمته؟فلما ذا الغرور و التمادى فى معصيته؟! اَلَّذِی خَلَقَکَ أ فلم نكن عدما فأنشأنا لا من شيء كان،بلا تعب و لا لغوب،و لا مثل سابق يحتذى،و خريطه تنفّذ؟

ص:۳۸۷

فَسَوّٰاکَ فلم يجعل تقدير خلقك ناقصا،بل زوّدك بما تحتاجه بأفضل ما تحتاجه.أ لم يجعل لك عينين و لسانا و شفتين؟و إذا أنعمنا النظر رأينا هذه التسويه فی الخلق نافذه فی كلّ أعضاء الجسد،حتی قال ربّنا عن البنان:« بَلیٰ قٰادِرِينَ عَلیٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنٰانَهُ »، و يأتی العلم الحديث و يقول:إنّ لكلّ إنسان بصمات مختلفه عن أیّ بشر آخر فی العالم،و يعتقد أنّ صوره بصمات بنانه منسجمه مع مجمل كيانه،حتی أنّهم بدأوا يكتشفون بعض الأمراض من صفحه كفّ الإنسان أ و ليس ذلك دليل الحكمه فی الخلق؟ و قال بعضهم فی معنی التسويه:إنّه سوّی بين طرفی جسد الإنسان فی كلّ شیء (بما يتناسب و وجوده).

و قال البعض:إنّه سبحانه جعل كلّ عضو يتعامل مع سائر الأعضاء.

و قال آخر:إنّه سبحانه سخّر له المكوّنات،و ما جعله مسخّرا لشیء،ثم أنطق لسانه بالذكر،و قلبه بالعقل،و روحه بالمعرفه،و سرّه بالإيمان،و شرّفه بالأمر و النهی، و فضّله علی كثير ممّن خلق تفضيلا.

و إنّ كلّ ذلك لمن بعض تجلّيات الإستواء فی الخلق.

و قد بلغت درجه الإستواء منتهاها فی خلقه البشر فكانت عدلا لا نجد فيه ثغره أو زيغا.

فَعَدَلَكَ و يبدو لی أنّ الصفات الثلاث(الخلق و التسويه و التعديل)درجات فی حاله واحده،فالخلق بمعناه اللغوی هو الترتيب،و الإستواء تكامل الترتيب،و العدل تناسق

التكامل مع حاجات الشیء،و الحکمه منه فقد سوّی الإنسان بحیث یستطیع أن یقوم بالدور المحدّد له تماما.

و قد قال بعضهم:المراد من التعدیل:أنّ اللّه جعله معتدلا سویّ الخلق،و قال آخر:إنّ معناه أنّ اللّه أماله و حرفه فی أیّ صوره شاء،و یبدو أنّ المعنی الأول أنسب و السیاق.فیکون معنی الخلق الترتیب،و معنی الإستواء التناسب بین أعضائه، و معنی العدل التناسب مع المحیط.

[۸]و بعد أن تکاملت خلقته و استوت علی أساس الحکمه و العدل اختار الربّ لها الصوره حسب مشیئته،و حسب حکمه بالغه یصعب معرفه کنهها.

فِی أَیِّ صُورَهٍ مٰا شٰاءَ رَکَّبَکَ لکلّ واحد منّا صوره ظاهره جمیله أو ذمیمه أو مقبوله اختارها اللّه لنا حسب تقسیم الأرزاق الذی یتبع حکمته علیها،قد لا یرضی ببعض مفرداتها هذا أو ذاک لما فی البشر من الحرص و الطمع و الاستئثار،و لکنّها من حیث المجموع مقبوله حسب شهاده فطره کلّ إنسان و عقله.

و کما الصور الظاهره هناک صوره داخلیه رکّبت علی الإنسان.أ و لا تری کیف فضّل اللّه کلّ إنسان بمیزه،و أودع فی ضمیره رغبه تختلف عن الآخرین،ممّا یجعل کلّ شخص یختار طریقا مختلفا فی الحیاه،یلتقی بالتالی فی إیجاد حاله من التکامل فی المجتمع،فتری البعض یختار الطب و یصلح له،و الثانی یرغب فی الهندسه و تتناسب شخصیته معها،و الثالث یطمح للقیاده أو الإداره و هو لها أهل، بینما لا یرغب البعض إلاّ فی الأعمال الیدویّه..و هکذا قال ربّنا سبحانه:

« لِیَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِیًّا ».

ص:۳۸۹

و هذا لا يعنى أنّ هذه الرغبات حتميّه،فإنّ الإنسان يستطيع تحويلها،و لكنّ أغلب الناس يرضون بها ممّا يحقّق الحكمه الإلهيه من توزيعها على البشر.

[۹]ما ذا ينبغى أن تكون علاقتك بربّک؟هل التمرّد و الطغيان أم التسليم؟ حقّا:إنّ أغلب الناس ينحرفون نحو الطغيان الذى يبدأ من التكذيب بالجزاء،و هو أعظم أسباب الغرور،فمن آمن بالجزاء اتقى غضب الرب.

كَلاّٰ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ و إنّ هذا التكذيب لا يتناسب أبدا و تلك النعم الإلهيه التى تهدينا إلى قدره الرب و حكمته.

[۱۰]و هل يتخلّص الإنسان بالتكذيب من أهوال الساعه أو مسئوليه أفعاله؟ بتعبير آخر:هل أنّى لو كذّبت بالموت لا أموت،أو كذّبت بوجود المرض أعافى منه؟بالعكس التكذيب بذاته جريمه كبرى قدّر لها عقاب عظيم،و هو مفتاح لأبواب الشر،لأنّه يخدع الإنسان فيسترسل فى سلسله من المعاصى دون رادع من ضمير أو ناصح من عقل..و كلّها تسجّل عليه فيحاسب عليها حسابا عسيرا.

وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحٰافِظِينَ يحفظون كلّ عمل يرتكبه الإنسان أو قول يتفوّه به أو هاجسه بقلبه،قال ربّنا سبحانه:« مٰا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّٰ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ».

هكذا قال أكثر المفسرين،و يحتمل أن يكون المراد من الحافظين الذين يحفظون البشر من المهالک حتى يأتى أمر اللّه،كما قال اللّه:« إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمّٰا عَلَيْهٰا حٰافِظٌ »،و قال تعالى:« وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً »،و قال:« لَهُ مُعَقِّبٰاتٌ مِنْ بَيْنِ

يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ ».

[۱۱]و هؤلاء الحفظه كرام عند ربّهم،تساموا عن الكذب أو الغفله أو السهو، و هم بالإضافه إلى ذلك يكتبون ما يصدر من الإنسان.

كِراماً كاتِبِينَ [۱۲]و لا يمكن للإنسان أن يخفى عنهم شيئا من أعماله لأنّهم حضور شهود.

يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ

قال أمير المؤمنين على-عليه السلام-: «اعلموا عباد اللّه أنّ عليكم رصدا من أنفسكم،و عيونا من جوارحكم،و حفّاظ صدق يحفظون أعمالكم و عدد أنفاسكم،لا تستركم منهم ظلمه ليل داج،و لا يكنّكم منهم باب ذو رتاج » (۱)

و روى عنه-عليه السلام- أنّه مر برجل و هو يتكلّم بفضول الكلام، و يخوض فى أحاديث لا نفع فيها و لا طائل وراءها،فقال:«يا هذا!إنّك تملى على كاتبيك كتابا إلى ربّك فتكلّم بما يعنيك،و دع ما لا يعنيك » (۲).

و

جاء فى كتاب سعد السعود لابن طاووس:

دخل عثمان على رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله و سلم-فقال:أخبرنى عن العبد كم معه من ملك؟قال:ملك على يمينك على حسناتك،و واحد على الشمال،فاذا عملت حسنه كتب عشرا،و إذا عملت سيّئه قال الذى على الشمال للّذى على اليمين أكتب؟قال:لعلّه يستغفر و يتوب فإذا قال ثلاثا قال:

۱- ۱) بحار الأنوار/ج ۵ ص ۳۲۲.

۲- ۲) المصدر/ص ۳۲۷.

نعم أكتب،أراحنا اللّه منه فبئس القرين،ما أقل مراقبته للّه عز و جل!و ما أقل استحياؤه منه!يقول اللّه:« مٰا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّٰ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »و ملكان بين يديك و من خلفك،يقول اللّه سبحانه:« لَهُ مُعَقِّبٰاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ » و ملك قابض على ناصيتك،فإذا تواضعت للّه رفعك،و إذا تجبّرت على اللّه وضعك و فضحك،و ملكان على شفتيك ليس يحفظان إلاّ الصلاه على محمد-صلّى اللّه عليه و آله-،و ملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحيّه فى فيك،و ملكان على عينيك،فهذه عشره أملاك على كلّ آدمى،و ملائكه الليل سوى ملائكه النهار، فهؤلاء عشرون ملكا على كلّ آدمى (۱).

و إنّ وعى الإنسان حضور هذا الحشد من ملائكه اللّه عنده أفضل وسيله لتعميق روح المسؤوليه.

و

تساءل البعض عن الحكمه فى توكيل هؤلاء الحفظه بالإنسان،فقال: ما علّه الملائكه الموكّلين بعباده يكتبون عليهم و لهم و اللّه عالم السرّ و ما أخفى؟،فأجاب الإمام الصادق-عليهم السلام-«استعبدهم بذلك و جعلهم شهودا على خلقه، ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم أشدّ على طاعته مواظبه،و من معصيته أشدّ انقباضا، و كم من عبد يهمّ بمعصيه فذكر مكانها فارعوى و كفّ،فيقول:ربى يرانى و حفظتى علىّ بذلك تشهد،و إنّ اللّه برأفته و لطفه و كلّهم بعباده يدبّون عنهم مرده الشياطين،و هوامّ الأرض،و آفات كثيره من حيث لا يرون بإذن اللّه إلى أن يجىء أمر اللّه عزّ و جلّ» (۲).

[۱۳]و تتجلّى المسؤوليه عند ما يستقبل ربّ الرحمه عباده الصالحين فى النعيم الخالد.

۱- ۱) المصدر/ص ۳۲۴.
۲- ۲) المصدر ص ۳۲۳.

إِنَّ الْأَبْرٰارَ لَفِی نَعِیمٍ [۱۴-۱۵]أمّا الذین خرقوا ستر الفضیله،و أوغلوا فی الفضائح فإنّهم یدخلون النار.

وَ إِنَّ الْفُجّٰارَ لَفِی جَحِیمٍ هل هم الیوم فی الجحیم أم غدا؟عند ما یموتون أم عند ما تقوم الساعه؟بلی.

إنّهم الیوم فی الجحیم.أ و لم یقل ربّنا سبحانه:« وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَهٌ بِالْکٰافِرِینَ »؟و لکنّهم الیوم محجوبون عنها،و غدا عند ما یموتون و بعد الحشر یجدون أنفسهم فی وسطها یصلونها مباشره،لأنّ الذی سترهم عنها الیوم طبیعه الدنیا التی هی دار امتحان،فإذا نقلوا إلی دار الجزاء فما الذی یستر أجسامهم الناعمه عن النار اللاّهبه؟ یَصْلَوْنَهٰا یَوْمَ الدِّینِ لأنّ ذلک الیوم فعلا یوم الجزاء الأکبر،فالجحیم تحرقهم و تلهب جلودهم نارا.

و قال بعضهم:إنّ معنی الآیه أنّ الفجّار یدخلون الجحیم یوم الدّین،و إنّما ذکر ذلک بصوره قاطعه و کأنّه واقع الیوم لأنّ الوعید یأتی من السلطان المقتدر و الذی لا یعجزه شیء و لا یحجزه عمّا یریده أحد.

[۱۶]و لا یقدر أحد منهم أن ینتقل من الجحیم أو حتی یغیب عنها ساعه.

وَ مٰا هُمْ عَنْهٰا بِغٰائِبِینَ قال بعضهم:الآیه تدلّ علی خلودهم فی جهنم فإذا معنی الفجّار المعاندون.

ص:۳۹۳

بینما الآیه لیست صریحه فی هذا المعنی بل فی أنّهم عند دخولهم الجحیم و مده مکثهم فیه لا یغیبون عنها،و اللّه العالم.

و

نقل الرازی عن الإمام جعفر بن محمد الصادق-علیه السلام-ما یلی:

«النعیم المعرفه و المشاهده،و الجحیم ظلمات الشهوات» (۱)و هذا ینطبق علی التفسیر الأول.

[۱۷]لیست قدراتنا العلمیه فی مستوی الإحاطه علما بأحداث ذلک الیوم الرهیب،لأنّه یوم یختلف کلّ شیء فیه تقریبا عن هذا الیوم.

وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا یَوْمُ الدِّینِ إنّه یوم رهیب،لا بدّ أن نسعی جاهدین لنتصوّره عسانا نتقی الیوم أهواله، و حینئذ نعرف أنّ الفائزین هم الذین انخلعت قلوبهم عن شهوات الدنیا و أحداثها، و عاشوا ذلک الیوم،و عملوا له لیل نهار.

[۱۸]قد یغیب علم شیء عنّا بسبب قلّه ظهوره أو عدم الالتفات إلیه،بینما غیاب الإنسان عن علم الآخره بسبب آخر،هو:تسامی مستواه عن مستوی إدراکنا،و لعلّ هذا هو المراد بقوله سبحانه:

ثُمَّ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا یَوْمُ الدِّینِ ما بالک بیوم تهابه السموات،و تشفق منه الجبال،و تضجّ من هوله الأرض، و یخشاه حتی الملائکه المقرّبین،و یحذره الأنبیاء و الصّدّیقون!أ و لا ینبغی أن نتقیه؟ [۱۹]فی ذلک الیوم یقف الإنسان منفردا أمام ربّ السموات و الأرض،و لا

۱- ۱) التفسیر الکبیر/ج ۳۱-ص ۸۵.

أحد بقادر على الدفاع عنه،أو الشفاعه له إلاّ بأنه.

يَوْمَ لاٰ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً بل الإنسان مسئول عن عمله.

وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ فهناك لا يخوّل اللّه أحدا شيئا كما خوّلهم اليوم،و لا يملّك أحدا من عباده أمرا، بل الأمر كلّه له ظاهرا و باطنا.

و فى ذلك اليوم يظهر التوحيد الإلهى لكلّ إنسان،فلا أحد يستطيع أن يفكّر فى أنّ غير اللّه يملك من أمره شيئا كما هو يزعم ذلك فى الدنيا.

روى عن أبى جعفر(الباقر)عليه السلام أنّه قال لجابر بن يزيد الجعفى: «إنّ الأمر يومئذ للّه،و الأمر كلّه للّه.يا جابر!إذا كان يوم القيامه بادت الحكّام فلم يبق حاكم إلاّ اللّه» (۱).

ص:۳۹۵

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۵۲۷.

سوره المطففین

اشاره

ص:۳۹۷

بسم اللّه الرحمن الرحیم

فضل السوره

عن أبی عبد الله الصادق-علیه السلام-أنه قال: «من قرأ فی فرائضه «ویل للمطففین»أعطاه الله الأمن یوم القیامه من النّار،و لم تره،و لم یرها، و لم یمرّ علی جسر جهنم،و لا یحاسب یوم القیامه».

تفسیر نور الثقلین/ج ۵ ص ۵۲۷

ص:۳۹۹

الإطار العام

حينما تتماثل صور القيامه و أهوالها،و ميزانها الحق،و حسابها الدقيق، و جزاؤها العادل و العظيم،تتماثل كل تلك الصور و المشاهد فى القلب،يتحسس الإنسان حينئذ بالمسؤوليه التى تحيط بحياته إحاطه السوار بالمعصم،و يتجلّى ذلك الإحساس عنده فى إنصاف الناس من نفسه،و يكون الحقّ الميزان المستقيم بينهم و بينه،لا الأثره و الشح،و التطفيف.

و يبدو أن ذلك هو اطار هذه السوره التى جبهت المطففين بنذير الويل فى يوم البعث-الذى لا يتصورونه-ذلك اليوم العظيم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين،و لو انهم ظنوا ذلك و عرفوا أن حسابات أعمالهم مسجله فى كتاب مرقوم لارتدعوا و لكن لا يرتدعون.

ص:۴۰۰

[سوره المطففين (۸۳): الآيات ۱ الی ۱۷]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (۱) اَلَّذِينَ إِذَا اِكْتٰالُوا عَلَى اَلنّٰاسِ يَسْتَوْفُونَ (۲) وَ إِذٰا كٰالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (۳) أَ لاٰ يَظُنُّ أُولٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (۴) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (۵) يَوْمَ يَقُومُ اَلنّٰاسُ لِرَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۶) كَلاّٰ إِنَّ كِتٰابَ اَلفُجّٰارِ لَفِي سِجِّينٍ (۷) وَ مٰا أَدْرٰاكَ مٰا سِجِّينٌ (۸) كِتٰابٌ مَرْقُومٌ (۹) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۰) اَلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ اَلدِّينِ (۱۱) وَ مٰا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاّٰ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (۱۲) إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آيٰاتُنٰا قٰالَ أَسٰاطِيرُ اَلْأَوَّلِينَ (۱۳) كَلاّٰ بَلْ رٰانَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (۱۴) كَلاّٰ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (۱۵) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصٰالُوا اَلْجَحِيمِ (۱۶) ثُمَّ يُقٰالُ هٰذَا اَلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۱۷)

ص:۴۰۱

بينات من الآيات:

[۱]هـل أنـا مؤمن؟بلى.أ و لست أصـلى و أصوم و أنفق من أموالى فى سبيل الله؟كلّا..هـذه وحـدها لا تكفى،فلنحـذر من خـداع الذات،أ و ليس كلّ الناس حتى أعتى الطغاه و المجرمين يبرّءون ساحه أنفسهم؟!فما الميزان إذا؟إنّه القرآن،هكذا

قال الإمام أبو جعفر(الباقر)عليه السلام لجابر بن يزيد الجعفى:

«و اعلم بأنّك لا تكون لنا وليّا حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك و قالوا:إنّك رجل سوء لم يحزنك ذلك،و لو قالوا:إنّك رجل صالح لم يسرك ذلك،و لكن أعرض نفسك على كتاب الله،فإن كنت سالكا سبيله،زاهدا فى تزهيده، راغبا فى ترغيبه،خائفا من تخويفه،فاثبت و أبشر فإنّه لا يضرك ما قيل فيك، و إن كنت مبائنا للقرآن فما ذا الذى يغرّك من نفسك » (۱).و ها هو القرآن يصف لنا واحدا من الموازين الحق التى نستطيع أن نعرف بها أنفسنا:إنّه الإنصاف.

ص:۴۰۲

۱- ۱) تحف العقول ص ۲۰۶.

كيف ذلـك؟هنـاك من يرى فى نفسه أنه الحق فيعامـل الناس على هـذا الأساس،فلـذلك يغش و يسـرق و يسـتولى على حقوق الآخرين،و علامه هـذا الفريق من الناس أنّهم إذا أرادوا استيفاء حق من حقوقهم من الناس أخذوه وافيا،و إذا طلب منهم أداء حق للناس انتقصوا منه،و يجرى هذا فى كافه شؤون حياتهم.إن لهؤلاء الويل لأنهم ليسوا منصفين.

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ قـالوا:الويـل بمعنى:الشـر و الحزن و العـذاب أو الهلاك،و هو بمعنى اللعنه،اما المطفف فانه من الطّف أى جانب الشىء،و التطفيف تنقيص الشىء من جوانبه.

و قال بعضهم:الويل واد فى جهنم يجرى فيه صديد أهل النار.

[۲]من هم هؤلاء المطففون؟هناک مثل بارز لهم فى أولئك الذين ينقصون المكيال لغيرهم،أمّا إذا اكتالوا لأنفسهم أخذوا حقّهم وافيا.

اَلَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النّاسِ يَسْتَوْفُونَ قـالوا:«على»هنا بمعنى اللام،و يبـدو لى أن على تعطى هنا أيضا ظلالها العام الـذى يوحى بالضرر،إذ أنّ الإستيفاء يتم على الناس أى فى ضررهم.

و قال بعضهم:انه بمعنى إذا كالوا ما على الناس.

[۳]و لكنهم إذا اكتالوا لغيرهم تراهم يعطونهم أقل من حقهم.

وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ قالوا:معناه كالوا لهم أو وزنوا لهم،ثم حذف اللام،و استشهدوا بقول

الشاعر:

و لقد جنيتك أكمأ و عساقلا و لقد نهيتك عن بنات الأوبر

حيث كان فى الأصل جنيت لك،و يبدو لى أن حذف اللام هنا من بديع بلاغه القرآن،حيث أن اللام توحى بالفائده و النفع،بينما لا منفعه لمن يكال لهم لأنهم يخسرونهم.

و التطفيف فى المكيال و الميزان كان شائعا-حسب التواريخ-فى يثرب قبل هجره النبى-صلّى اللّه عليه و آله-و كانت هذه السوره أول سوره نزلت على قلب النبى صلى الله عليه و آله فى المدينه،و أثّرت فيهم أثرا بالغا فاقتلعوا عن هذه العاده و أصبحوا من أحسن الناس مكيالا،هكذا روى عن ابن عباس،حيث أضاف:فلما نزلت هذه السوره انتهوا فهم أوفى الناس كيلا الى يومهم هذا.

و قد حاربت رسالات اللّه الفساد الاقتصادى فى المجتمع بكلّ ألوانه، و التطفيف واحد من أسوء أنواع هذا الفساد.

و قد حكى ربنا عن شعيب-عليه السلام-قوله:« أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لاٰ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَ زِنُوا بِالْقِسْطٰاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَ لاٰ تَبْخَسُوا النّٰاسَ أَشْيٰاءَهُمْ وَ لاٰ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » (1).

و لكن هل الفساد الاقتصادى خاص بالتطفيف فى الوزن و المكيال أم أنهما مجرد مثلين لما هو أعم و اشمل؟فالغش و الاحتكار و استغلال طاقات الضعفاء، و استثمار ثروات البلاد المتخلفه،و الابتزاز و سائر أساليب الكسب اللاّمشروع كل

۱- ۱) الشعراء۱۸۲/.

تلک من ألوان الفساد الاقتصادی.

ثم انّ التطفیف فی المیزان لا یخص الجانب الاقتصادی،بل یتسع للجوانب السیاسیه و الاجتماعیه أیضا،فلا یجوز ان تطالب الناس بکامل حقّک،ثم إذا طالبوک بحقوقهم بخستهم

جاء فی الحدیث عن الصادق-علیه السلام- :

«لیس من الإنصاف مطالبه الاخوان بالانصاف » (۱)لا بد أن نتعامل مع الناس بمثل ما نحبّ ان یتعاملوا معنا.إنّ أفضل میزان للعدل هو أن تضع نفسک دائما فی موضع الآخرین و تساءل:ما ذا کنت أنتظر منهم لو کنت فی موقعهم،هکذا هم ینتظرون و علیّ أن أفی بحقهم.

هکذا توالت نصوص الدین ألا فلنستمع الی بعضها:

۱/

عن أبی عبد اللّه-علیه السلام-: «أحبّوا للناس ما تحبّون لأنفسکم » ۲/

عن الصادق-علیه السلام-قال:«قال رسول اللّه-صلی اللّه علیه و آله و سلم-: أعدل الناس من رضی للناس ما یرضی لنفسه،و کره لهم ما یکره لنفسه » ۳/

عن أمیر المؤمنین-علیه السلام-فیما کتبه لمحمد بن أبی بکر:

«أحبّ لعامه رعیّتک ما تحبّ لنفسک و أهل بیتک،و اکره لهم ما تکره لنفسک و أهل بیتک،فإن ذلک أوجب للحجّه،و أصلح للرعیه » ۴/

عن أبی عبد الله-علیه السلام-قال: «ما ناصح الله عبد فی نفسه فأعطی الحق منها،و أخذ الحق لها إلاّ أعطی خصلتین:رزق من الله یسعه،

۱- ۱) موسوعه بحار الأنوار/ج ۷۵ ص ۲۷.

و رضی عن الله ینجیه. » ۵/

و جاء فی نهج البلاغه فی وصیه أمیر المؤمنین لابنه الحسن-علیهما السلام-: «یا بنی!اجعل نفسک میزانا فیما بینک و بین غیرک، فاحبب لغیرک ما تحبّ لنفسک،و اکره له ما تکره لها،و لا تظلم کما لا تحب أن تظلم،و أحسن کما تحب أن یحسن إلیک،و استقبح من نفسک ما تستقبح من غیرک،و ارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسک،و لا تقل ما لا تعلم،و قل ما تعلم،و لا تقل ما لا تحب أن یقال لک » (۱)و نختم حدیثنا بروایه

مأثوره عن النبی-صلّی اللّه علیه و آله-انه قال:

«خمس یخمس:ما نقض قوم العهد إلاّ سلط اللّه علیهم عدوهم،و لا حکموا بغیر ما أنزل اللّه إلا فشا فیهم الفقر،و ما ظهرت الفاحشه فیهم إلاّ ظهر الطاعون،و ما طففوا الکیل الا منعوا النبات و أخذوا بالسنین،و لا منعوا الزکاه إلاّ حبس اللّه عنهم المطر » (۲)[۴]من الذی یطفف؟انه الذی لا یعترف بالقیامه،حیث یقف أمام رب العالمین للحساب،فلو کان الواحد یظن مجرد ظن بذلک لما تجاوز حقه،و اعتدی علی حقوق الناس.

أَ لاٰ یَظُنُّ أُولٰئِکَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ قال بعضهم:ان الظن هنا بمعناه المعروف و هو ضد الیقین،ذلک أن مجرد الظن بالبعث یکفی العاقل تحرزا و اتقاء منه،أ لا تری أنک لا تسلک طریقا تظن الهلاک به،و لا تشرب ما تخشی ان یکون سمّا،و تحتاط من عمل تخاف منه الهلاک؟

۱- ۱) المصدر/من ص ۲۴-۵۹.

۲- ۲) القرطبی/ج ۱۹ ص ۲۵۳،و سائر التفاسیر المعروفه.

و قال آخرون:بل الظن هنا بمعنى اليقين،لأن أصل معنى الظن ما يحدث فى ذهن الإنسان من الشواهد الخارجيه،فإن كانت تامّه أحدثت يقينا و إلاّ أثارت الظن،من هنا يعبّر عن اليقين أيضا بالظن.

و قد استشهدوا بالحديث

المأثور عن الامام أمير المؤمنين-عليه السلام-الذى قال فى تفسير هذه الآيه: «أى أ ليس يوقنون أنّهم مبعوثون » (۱).

و كذلك

بالنص المروى عنه أيضا حيث يقول-عليه السلام-: «الظنّ ظنّان:ظنّ شكّ،و ظنّ يقين،فما كان من أمر المعاد من الظنّ فهو ظنّ يقين، و ما كان من أمر الدنيا فهو على الشكّ » (۲).

و لعل الإمام يشير الى حقيقه بينها الامام الرضا-عليه السلام-بصيغه اخرى،حين قال:«ما خلق اللّه يقينا لا شك فيه أشبه بشكّ لا يقين فيه من الموت » (۳).

ذلك ان كل الحقائق تشهد بأن الإنسان ميّت و لكنه لا يتصوره،لما ذا؟لأن مثل هذا التصور يفرض عليه الحذر و الاتقاء،و هو لا يريد ذلك فيبقى حائرا بين شواهد علميه تكشف له حقيقه الموت،و أهواء نفسيه تحجب عنه هذه الحقيقه،تماما كمن منى بهزيمه فى المعركه يظل لفتره متردّدا بين قبولها وفقا للمعلومات الصادقه أو رفضها استرسالا مع هواه و غروره.

و يبدو أن الإيمان بالآخره هو الآخر يصطدم بأهواء النفس و شهواتها،فتتحول إلى ظنّ لا لقله الشواهد عليها بل لصعوبه التصديق بها..و اللّه العالم.

۱- ۱) تفسير نمونه عن تفسير البرهان/ج ۴ ص ۴۳۸.

۲- ۲) نور الثقلين/ج ۵ ص ۵۲۸.

۳- ۳) الفرقان/نقلا عن الخصال للصدوق(ره).

و قد سبق أن قلنا و بتكرار ان معنى الظن-فيما يبدو-هو:التصور، و فسرنا الآيه التاليه بذلك حيث قال ربنا:« قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللّهِ كَمْ مِنْ فِئَهٍ قَلِيلَهٍ غَلَبَتْ فِئَهً كَثِيرَهً بِإِذْنِ اللّهِ وَ اللّهُ مَعَ الصّابِرِينَ » (۱)و قوله:« اَلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ » (۲).

حيث ان تصور البعث و ما يعقبه من القيام للحساب أمام رب العالمين يكفى الإنسان رادعا عن كلّ سيئه،و ربما يوحى الى ذلك

قول الامام أمير المؤمنين -عليه السلام-فى تفسير الإيمان حيث سئل عنه فقال: «الإيمان على أربع دعائم:...فمن اشتاق الى الجنّه سلا عن الشهوات،و من أشفق من النار اجتنب المحرمات » (۳).

[۵]ثلاث حقائق متصله ببعضها لو تمثلت أمام عين العاصى ارتدع و اتّقى:

البعث و الساعه،و القيامه.إنّ حياه الإنسان سجلّ،يطوى اليوم و يكتب فيه بقلم الطبيعه ما يفعله،فإذا نشر نشر معه سجله بالكامل،فيا للفضيحه الكبرى يومئذ! ثم الساعه و أشراطها يوم تبدّل الأرض غير الأرض،و تطوى السموات كطى السجل للكتب، فاذا لم يعمل اليوم لبلوغ الأمان من أهوالها فيا للخساره العظمى! اما قيام الناس أمام رب العالمين فإنه رهيب عظيم،لا يسع الفكر تصور تلك اللحظه التى يتمثل هذا المخلوق المتناهى فى الضعف و المسكنه أمام جبار السموات و الأرض،أ و لم تقرأ أنّ إسرافيل أعظم ملائكه اللّه يتضاءل امام هيبه الرب حتى يصبح كالوصع-كما ذكر فى سوره التكوير آيه ۲۳-،فمن أنا غير هذا العبد المسكين المستكين الضعيف الحقير امام رب العزه و العظمه؟!

ص:۴۰۸

۱- ۱) البقره۲۴۹/.

۲- ۲) البقره۴۶/.

۳- ۳) نهج البلاغه/خ ۳۱.

هكذا يذكرنا القرآن بهذه الحقائق،فبعد أن يقول:« أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ »يذكرنا بالساعه فيقول:

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ عظمت آثاره فى السموات و الأرض حتى أشفقت منه،فلو لا اتقاء أهواله بالعمل الصالح أنّى نحصل فيه على أمان،و السموات تنفطر و الجبال تكون سرابا، و الأرض تزلزل زلزالها؟! [۶]و أعظم من كل تلك الأهوال قيام الناس أمام ربّ العالمين..

يَوْمَ يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ يكاد القلب البشرى يتصدع حينما يحمّله اللّه شيئا من نور عطفه و حنانه، فكيف يصمد هذا القلب أمام عقاب اللّه و زجره؟! جاء فى

الحديث المأثور عن النبى-صلّى اللّه عليه و آله-: « فِى يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ،فمنهم من يبلغ العرق كعبيه،و منهم من يبلغ ركبتيه، و منهم من يبلغ حقويه،و منهم من يبلغ صدره،و منهم من يبلغ أذنيه حتى أن أحدهم يغيب فى رشحه كما يغيب الضفدع » (۱).

بيد ان المؤمنين فى أمان من أهوال القيامه،هكذا

ورد فى حديث مأثور عن النبى-صلّى اللّه عليه و آله- «انّه ليخفّف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاه المكتوبه،يصلّيها فى الدنيا » (۲).

ص:۴۰۹

۱- ۱) القرطبى/ج ۱۹ ص ۲۵۵.

۲- ۲) المصدر.

و كلمه اخيره:إن المؤمن ليقوم فى الدنيا للّه قياما يساعده فى قيامه فى الآخره، أ و لم يأمره ربنا سبحانه بذلك حين قال:« وَ قُومُوا لِلّهِ قانِتِينَ.. »و قال:« أَنْ تَقُومُوا لِلّهِ ».

[٧]و لكن هؤلاء المجرمين لا يظنون ذلك حتى يأتيهم بغته،و لذلك فإن كتابهم محفوظ فى سجين،حيث لا يمكن تغييره،و هو كتاب واضح لا لبس فيه و لا تزوير.

كَلاّ يبدو أن معنى«كلا»فى الأصل النفى المؤكد،كأن تقول:أبدا له،و لكن تعطى فى مثل هذا السياق معنى الردع و الزجر،كما توحى بتأكيد الحقائق التى ذكرت آنفا،و كأنه نفى للتكذيب بها،و من هنا قال بعضهم:ان معنى كلا هنا حقا،و نقل عن ابن عباس:ان معناه أ لا تصدقون.

إِنَّ كِتابَ الفُجّارِ لَفِي سِجِّينٍ ما هو سجين؟يبدو أنه مبالغه فى السجن،أى المحل الذى لا تناله أيدى السرقه أو التزوير.فما هو الكتاب؟بالرغم من أن هناك كتبا كثيره تسجل فيها أعمال العباد،الأرض تكتب،و السموات تصور،و أشياء الطبيعه تحفظ آثار العمل، و حتى أعضاء الجسد تشهد،إلاّ أن الظاهر من الكتاب هو ما يسجل على الفرد من أقواله و أفعاله،و حتى نياته مما ذكره اللّه بقوله:« ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » (١).

ثم يطوى هذا الكتاب،و يحفظ فى خزانه محكمه هى سجين،فأين تقع هذه

١- ١) ق١٨/.

الحرّانه؟لقد حدد هذا النص التالی محلّها:

روی عن النبی-صلّی اللّه علیه و آله-أنه قال: «ان الملک یرفع العمل للعبد یری أن فی یدیه منه سرورا،حتی ینتهی إلی المیقات الذی وصفه اللّه له، فیضع العمل فیه فینادیه الجبار من فوقه:إرم بما معک فی سجین،و سجین الأرض السابعه،فیقول الملک ما رفعت إلیک إلاّ حقّا،فیقول:صدقت،إرم بما معک فی سجین » (۱)

و روی عن الامام الباقر-علیه السلام-انه قال: «السجین الأرض السابعه،و علّیون السماء الرابعه » (۲).

و قال بعضهم:سجین:صخره فی الأرض السابعه،

و روی أبو هریره عن النبی-صلّی اللّه علیه و آله- «سجین جب فی جهنم،و هو مفتوح »و قال عکرمه:سجین خسار و ضلال،کقولهم لمن سقط قدره قد زلق بالحضیض.

و یبدو لی أن أصلها السجن کما ذکرنا،و انما سائر التفاسیر تحدید لموقع السجن أو ملابساته،لذلک قال أبو عبیده و غیره فی تفسیر الآیه:لفی حبس و ضیق شدید، فعیل من السجن کما یقول فسّیق و شرّیب.

[۸]و هناک افتراض أخر:ان یکون سجین اسما لتلک السجلات التی تحفظ الکتب،و أن یکون معنی الکتاب هنا ما یکتب من أعمال،فیکون المعنی هکذا:

ان اعمال الفجار مکتوبه فی سجین و هو کتاب مرقوم،و یؤید هذا المعنی السیاق التالی:

وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا سِجِّینٌ

۱- ۱) الفرقان عن الدر المنثور/ج ۶ ص ۳۲۵.

۲- ۲) نمونه عن نور الثقلین/ج ۵ ص ۵۳۰.

و هذه الكلمه تأتی للإیحاء بعظمه ذلک الکتاب-حسب هذا المعنی-بلی.

الکتاب الذی لا یغادر صغیره و لا کبیره إلا أحصاها،الکتاب الذی یسجل حتی أنفاس الخلق و وساوس أفئدتهم،و نیات أفعالهم،الکتاب الذی یحیط بکل أفعال الفجار أنّی کانوا،و أنّی عملوا.إنه کتاب عظیم.

[۹] کِتٰابٌ مَرْقُومٌ و هکذا تکون هذه الآیه تفسیرا للآیه السابقه:أی سجین کتاب مرقوم،کما قال ربنا سبحانه:« إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهِ الْقَدْرِ* وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا لَیْلَهُ الْقَدْرِ* لَیْلَهُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ »و المرقوم بمعنی متجلّ بوضوح،لأن أصل معنی الرقم الکتابه الغلیظه،و قیل:معناه مختوم،و قیل:مکتوب کالرقم فی الثوب لا ینسی و لا یمحی، کل هذا التفسیر قائم علی أساس الافتراض بان السجین اسم للکتاب المسجل، و یؤیده أن بعضهم قال:ان أصل سجّین سجّیل.

أما فی غیر هذا الافتراض فیکون تفسیر هذه الآیه:أن الکتاب الذی هو فی سجین کتاب مرقوم،لا تتشابه خطوطه؛لأنه کتاب واضح،و اللّه العالم.

و ینبغی أن نختم حدیثنا عن السجین بحدیث یفیض عبره و نصحا،

مأثور عن الإمام الصادق-علیه السلام- فی معنی السجین و الأعمال،و الأشخاص الذی یهوون الیه،قال-علیه السلام-:«مرّ عیسی بن مریم علی قریه قد مات أهلها و طیرها و دوابها،فقال:أما إنّهم لم یموتوا إلاّ بسخط،و لو ماتوا متفرقین لتدافنوا،فقال الحواریون:یا روح اللّه و کلمته!ادع اللّه ان یحییهم لنا،فیخبرونا ما کانت أعمالهم فنجتنبها،فدعا عیسی ربه،فنودی من الجو أن:نادهم، فقام عیسی باللیل علی شرف من الأرض فقال:یا أهل هذه القریه!فأجابه منهم مجیب:لبیک یا روح الله و کلمته،فقال:و یحکم:ما کانت أعمالکم؟

ص:۴۱۲

قـال:عبـاده الطـاغوت،و حب الـدنيا،مع خوف قليـل،و أمـل بعيـد،و غفله فى لهو و لعب،قال:كيف كان حبكم للـدنيا؟قال:كحب الصبى لأـمه إذا أقبلت علينـا فرحنـا و سـررنا،و إذا أدبرت بكينـا و حزنّـا،قـال:كيف كـانت عبـادتكم للطـاغوت؟قال:الطاعه لأهل المعاصى،قال:كيف كانت عاقبه أمركم؟ قال:بتنا ليله فى عافيه،و أصبحنا فى الهاويه،فقال:و ما الهاويه؟فقال:

سجين،قال:و ما سجين؟قال:جبال من جمر توقد علينا الى يوم القيامه » (۱).

[۱۰]يتلقى الجاهـل الموقـف الصـعب بتكـذيبه،و يزعم أنه لـو دفن رأسه فى الـتراب فـإن الآـخرين لاـ يرونه،كلاـ.ان الشـمس لا تتلاشـى إذا أغلقت نافـذه غرفتـک عنها، کـذلک حقيقه المسؤوليه لا تنماث إذا أنكرتها،بل كلما جحـد الجاهل المسؤوليه بنبره أقوى و صـلافه أشـدّ كلما ازداد بعـدا عن تحملها و قربا من العـذاب،ذلک أن التكذيب جريمه،كما أنه عله لسائر الجرائم،و تبلو عاقبه التكذيب عند قيام الساعه.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [۱۱]هكـذا القرآن يغلـق أمـام النفس أبـواب التـبرير لعلهـا تعى المسـؤوليه و تتحملهـا،و أعظـم التـبرير التكذيب،و لا سيما التكذيب بيوم الدين الذى يهدم أساس الفكر.

اَلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ لهؤلاء الويل و اللعنه و الثبور لمجرد تكذيبهم،فكيف بسائر الجرائم التى ارتكبوها؟!

۱- ۱) نور الثقلين/ج ۵ ص ۵۳۱.

[۱۲]و لكن لما ذا يكـذبون بيوم الـدين؟هل لنقص فى شواهـده؟كلا..بل لقرار اتخـذوه حاليّا،و جرائم ارتكبوها سابقا،أما قرارهم فهو الاستمرار فى الاعتداء على حقوق الآخرين،و التواصل فى ارتكاب الإثم.

وَ مَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ انهم الفجار الذين لم يلتزموا لا بحقوق الآخرين فاعتدوا عليها و أكلوا أموال الناس بالباطل،و لا بحق اللّه عليهم فأثموا و ارتكبوا الفواحش.

[۱۳]و يقارن التكـذيب فى ألسـنه هؤلاء-البذيئه-بالاستهزاء،و محاوله حرف الآخرين عن آيات اللّه،فتراهم إذا تتلى عليهم آيات اللّه رموها بالرجعيه، و زعموا بأنها:ليست سوى الخرافات السابقه.

إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آيٰاتُنٰا يبـدو أن الـذين يتلون عليهم هـذه الآيات هم الدعاه إلى اللّه،و الآيات تهديهم الى اللّه و رسالاته و شـرائعه،و لكنهم ينكرونهـا رأسـا دون أن يتفكروا قليلاـخشـيه أن يتـأثروا بهـا،فيفقـدوا نعيمهم الزائل،و موقعهم الزائف القائم على الإثم و العدوان.

قٰالَ أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ و لعل مرادهم من هـذا الحـديث بيان أنهم لن يتأثروا بها مسـتقبلا،كما انهم لم ينتفعوا بها سابقا،ذلك لأنها مجرد تكرار لـدعوات سـابقه،و هـذه الآـيه نظير قولهم كمـا فى آيه اخرى:« وَ قٰالُوا أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهٰا فَهِىَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً » (۱).

ص:۴۱۴

۱- ۱) الفرقان/۵.

[۱۴]لما ذا يقف بعض الناس موقف الجاحد المعاند و بهذه الدرجه من آيات اللّه البينات،أ و لا يحبون أنفسهم،أ و لا يحكم العقل بضروره الاستماع الى النذير فلعله يكون صادقا فيقعون فى خطر عظيم؟!يجيب السياق عن هذا التساؤل:بأن للذنب أثرا سيّئا على القلب البشرى،و كلما تراكمت الذنوب تراكمت آثارها.

كَلاّ ليست أساطير الأولين،بل إنها حقائق من عند اللّه.

بَلْ رٰانَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ قالوا:ران بمعنى غلب،و استشهدوا على ذلك باستخدام مفرداته،مثل:رانت به الخمره،و ران عليهم النعاس،و يقال:قد رين بالرجل رينا إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه،و لكن-يبدو لى-أن الأصل فى الرين الصدأ،و هو الغلاله الخفيفه التى تحيط بالحديده و ما أشبه و تدل على فسادها.و لعل الفارق بينه و بين الصدأ أن الصدأ قد يكون فى جزء،بينما الرين يستخدم إذا أحاط الصدأ بالقلب تماما،لذلك قال بعضهم:الرين ان يسوّد القلب من الذنوب،و نقل عن ابن عباس:ران على قلوبهم أى غطى عليها.

و لكن كيف يرين الذنب على القلب؟إن فى قلب الإنسان قوى تتنازعه، و إراده الإنسان فوقها،فإذا استسلم الإنسان لقوه الشهوات ضعفت إرادته، و كسف نور عقله،فلا يزال كذلك حتى يخبو عقله،و تنماث إرادته فيسترسل كليا مع الشهوات،و من جهه اخرى:عند ما يرتكب البشر جريمه أو ذنبا يتهرب من وخز ضميره بتبريرهما،و لا يزال يبرر لنفسه ما يرتكبه حتى يقتنع بذلك التبرير،بل يتحول عنده إلى ثقافه متكامله،فلا يكاد يعرف الحقيقه،و من جهه ثالثه:الخير

عاده و الشر عاده،و من عوّد نفسه على الشر كيف سلوكه و سائر تصرفاته مع تلك العاده،و كان كدوده القز تنسج حول نفسها ما يقتلها..أ رأيت الذى يكتسب الحرام،إما بالسرقه أو الغش أو التطفيف أو التعاون مع الظالمين أو العمل كجاسوس محترف للطغاه أو الأجانب،أ رأيته يتخلص من هذه المهنه و قد كيف نفسه معها،و اعتمد عليها فى رزقه اليومى؟! لذلك ينبغى للرشيد ان لا يتبع الشيطان منذ الخطوه الأولى،و لا يرتكب حتى الذنب الأول،و إذا مر به طائف من الشيطان فخدعه عن دينه،و ارتكب ذنبا فعليه أن يتوب عن قريب،و لا يتابع مسيره الذنب؛فان الذنب بعد الذنب يفسد القلب،و يبعد عن الإنسان توفيق التوبه.

هكذا

روى عن الامام الباقر-عليه السلام-أنه قال: «ما من شىء أفسد للقلب من الخطيئه.إن القلب ليواقع الخطيئه،فما يزال به حتى تغلب عليه، فيصير أسفله»أعلاه،و أعلاه أسفله قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله:

ان المؤمن إذا أذنب كانت نكته سوداء فى قلبه،فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه منه،و إن ازداد زادت،فذلك الرين الذى ذكره اللّه تعالى فى كتابه:« كَلّاٰ بَلْ رٰانَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ » (١).

من هنا ينبغى التوبه الى اللّه فى كل يوم بل و فى كل ساعه حتى يمحى اثر الذنوب التى لا زلنا نمارسها قبل ان تترسخ فى القلب فتفسده،كما ينبغى التلاقى و التواصى بالحق و الصبر،و التناصح حتى تجلى الأفئده من رينها،هكذا

أوصانا رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله-فيما روى عنه انه قال: «تذاكروا و تلاقوا و تحدثوا،فإن الحديث جلاء للقلوب.إن القلوب لترين كما يرين السيف

١- ١) نور الثقلين/ج ۵ ص ۵۳۱.

و جلاؤه الحديث » (۱).

[۱۵]هذه القلوب التی ترین بالذنب لا تتشرف بلقاء ربها یوم القیامه،ذلک أن هذه الذنوب تصبح حجبا کثیفه تمنع عنه أنوار اللّه البهیه.

کَلّا فلیرتدعوا عن الاسترسال مع الذنوب و ما یسبب لهم رین القلب؛لان لذلک عاقبه سوأی،و هی:

إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ یَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ لقد حجبهم الذنب عن رحمه اللّه و عطفه و رعایته،کما حجبهم الذنب عن نور لقائه و مشاهدته بحقیقه الإیمان،أ لیس أعظم نعم اللّه علی المؤمن رضاه عنه و مناجاته له،و لقاء قلبه بنوره؟إن هذا لهو النعیم المقیم الذی یسعی الیه المؤمن، إنه أعظم جائزه یتوقعها من ربه،

فقد جاء فی الحدیث: «ان أهل الجنه یزورون العرش کل لیله جمعه،فینظرون إلی نور ربهم فیقعون له ساجدین. » و

قد عبّر الإمام زین العابدین-علیه السلام-عن هذا اللقاء العاصف بالشوق و الوله بین العبد و الرب بقوله فی مناجاته:«فقد انقطعت إلیک همتی، و انصرفت نحوک رغبتی،فأنت لا غیرک مرادی،و لک لا لسواک سهری و سهادی، و لقاؤک قره عینی،و وصلک منی نفسی،و إلیک شوقی،و فی محبتک و لهی،و إلی هواک صبابتی،و رضاک بغیتی،و رؤیتک حاجتی،و جوارک طلبی،و قربک غایه سؤلی،و فی مناجاتک روحی و راحتی،و عندک دواء علّتی،و شفاء غلتی،و برد لوعتی،و کشف کربتی...الی ان یقول:و لا تبعدنی منک یا نعیمی و جنتی،و یا

۱- ۱) نور الثقلین/ج ۵ ص ۵۲۱.

دنیای و آخرتی.یا ارحم الراحمین » (۱).

و إذا کـان لقـاء اللّه أعظم نعم المؤمنین فإن حرمان الفجار منه یعـدّ أعظم عـذاب لهم،و لا یعرفون عمق هـذه المأساه إلاّ فی یوم القیامه،لذلک

تری الإمـام أمیر المؤمنین -علیه السـلام-یجأر الی ربه خشـیه فراقه و یقول:«فهبنی یا إلهی و سـیدی و مولای و ربی صبرت علی عذابک فکیف أصبر علی فراقک،و هبنی صبرت علی حرّ نارک فکیف أصبر عن النظر الی کرامتک » (۲).

[۱۶]و العذاب الاخر تصـلیه النار،فلا حجاب بینهم و بینها،و لا ستر،أو لیسوا لم یستروا أنفسهم منها فی دار الدنیا،و لم یتقوا حرها و لهیبها؟!فها هم الیوم یصلونها و یذوقون مسها مباشره.

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصٰالُوا الْجَحِیمِ اما المؤمنون فقـد تزودوا من الـدنیا بزاد التقوی فسترهـم عن النار فی الآخره کما اسـتتروا بها عن الـذنوب فی الـدنیا؛لأـنهم عرفوا أن الـذنوب تصـحبهم من هنـاک إلی هنـاک،حیث تتحول نیرانـا لاـ هبه،و حیـات و عقـارب و ظلمات و آلاما،فتحصنوا عنها بحصن التقوی.

[۱۷]امـا العـذاب الثـالث فهو الاذلاـل و التحقیر و الإهـانه و التبکیت أ و لیسوا قـد اسـتهزءوا بالرسالاـت،و قالوا:إن هی إلاّ أساطیر الأولین،فالیوم یشمت بهم حتی یذوقوا العذاب الروحی الذی کانوا یذیقونه الدعاه الی اللّه بتکذیبهم و الاستهزاء منهم.

ثُمَّ یُقٰالُ هٰذَا الَّذِی کُنْتُمْ بِهِ تُکَذِّبُونَ

ص:۴۱۸

۱- ۱) الصحیفه السجادیه/مناجاه المریدین.

۲- ۲) دعاء کمیل/مفاتیح الجنان.

[سوره المطففين (۸۳): الآيات ۱۸ الى ۳۶]

اشاره

كَلاّ إِنَّ كِتابَ اَلْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (۱۸) وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ (۱۹) كِتابٌ مَرْقُومٌ (۲۰) يَشْهَدُهُ اَلْمُقَرَّبُونَ (۲۱) إِنَّ اَلْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (۲۲) عَلَى اَلْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (۲۳) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ اَلنَّعِيمِ (۲۴) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (۲۵) خِتامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ اَلْمُتَنافِسُونَ (۲۶) وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (۲۷) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا اَلْمُقَرَّبُونَ (۲۸) إِنَّ اَلَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ اَلَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (۲۹) وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ (۳۰) وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (۳۱) وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ (۳۲) وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ (۳۳) فَالْيَوْمَ اَلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ اَلْكُفّارِ يَضْحَكُونَ (۳۴) عَلَى اَلْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (۳۵) هَلْ ثُوِّبَ اَلْكُفّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (۳۶)

ص:۴۱۹

هَلْ ثُوِّبَ الْكُفّارُ مٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ

بينات من الآيات:

[١٨]من هم الأبرار؟إنهم الـذين كان البر صـبغه حياتهم،و يبـدو من مقابله كلمه الأبرار لكلمه الفجار أن المراد من البرّ الذى يتبع سبيل المعروف و لا يتجاوزه،و ان كتاب هؤلاء و مجمل أعمالهم محفوظ عند اللّه فى مقام عليّ،حيث يجتمع المقربون.

كَلاّ لا تكذب بيوم الدين،بل اجتهد حتى تصبح من الأبرار.

إِنَّ كِتٰابَ الْأَبْرٰارِ و هو ديوان أعمالهم،أو ذات أعمالهم محفوظه عند اللّه.

ص:۴۲۰

لَفِی عِلِّیِّینَ قالوا:الکلمه هذه جاءت بصیغه الجمع و لا واحد لها من لفظها مثل ثلاثون و عشرون،و قال بعضهم:بل انها من علیّ و هو فعیّل من العلو،ثم قالوا معنی جمع هذه الکلمه العلو و الارتفاع بعد الارتفاع،کأنها أعلی الأعالی،و قمّه القمم،فأین هذا المقام؟

جاء فی حدیث مأثور عن النبی-صلّی اللّه علیه و آله-أنه قال:

«علیّون فی السماء السابعه،تحت العرش » (۱)

و روی عنه صلی الله علیه و آله أیضا أنه قال:

«إن أهل الجنه یرون أهل علیین کما یری الکوکب الدری فی أفق السماء » (۲).

و قال بعضهم:انه عند سدره المنتهی،و أنی کان فإنه مقام کریم،یتواجد فیه المقربون،و هم النبیّون و الصدیقون و الخلّص من أولیاء اللّه.

و انما یصعد العمل الی هذا المقام الکریم إذا کان صالحا خالصا لوجه اللّه حسب الحدیث التالی:

روی عن الامام الصادق-علیه السلام-عن النبی -صلّی اللّه علیه و آله-انه قال: «إنّ الملک لیصعد بعمل العبد مبتهجا به، فإذا صعد بحسناته یقول اللّه عز و جل:اجعلوها فی سجین،إنّه لیس إیّای أراد فیها » (۳).

[۱۹]أین هذا المقام الأسمی،و ما ذا یجری فیه،و کیف یتواجد فیه المقربون؟ و أین توضع أعمال الأبرار منه؟إن معرفتنا بهذه الحقائق محدوده لأنها فوق مستوانا نحن البشر.

۱- ۱) القرطبی ج ۱۹ ص ۲۶۲.

۲- ۲) المصدر ص ۲۶۳.

۳- ۳) نور الثقلین ج ۵ ص ۵۳۰.

وَ مٰا أَدْرٰاکَ مٰا عِلِّيُّونَ يرى المفسرون فى مثل هذا الخطاب:أنه موجّه الى شخص الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-و لكن يبدو لى انه موجّه الى كل تال للقرآن؛فإن القرآن نزل على الرسول و لكن للناس جميعا،و أمر الناس بتلاوته و التدبر فى آياته،و فيه خطابات لهم جميعا،كقوله سبحانه:« يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ »أو للمؤمنين وحدهم،كقوله:« يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا »و قد

جاء فى الحديث:عن الصادق عليه السلام : «نزل القرآن بإيّاك أعنى و اسمعى يا جاره » (1).

فهذه الآيه لا تدل على أن النبى-صلّى اللّه عليه و آله-لم يكن يعرف ما العلّيون،كيف و قد فسره لنا،بل أساسا هذه الجمله لا تدل على نفى العلم بهذا المقام بقدر دلالته على أنه مقام عظيم،و اللّه العالم.

[٢٠]فى ذلك المقام الشامخ يوجد:

كِتٰابٌ مَرْقُومٌ قالوا:ان هذه الجمله بيان لكتاب الأبرار،و إنه كتاب مرقوم واضح لا لبس فيه،و يحتمل ان تكون الجمله تفسيرا للعليين،باعتبار أن الكتاب هو الأعلى و الأسمى،لما يحمل من صالح الأعمال،و اللّه العالم.

[٢١]و المقربون عباد اللّه شهود عند ذلك الكتاب الكريم،فيستبشرون به، و يستغفرون للصالحين لينالوا المزيد من الحسنات.

يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ج ٩٢ ص ٣٨٢.

ان مجرد حضور المقربين عند الكتاب كرامه و شهاده منهم عليه،و لذلك فإن الشهاده هنا تأتی بمعنی الحضور و التوقیع أما المقرّبون فهم-حسب الآیه التالیه- طائفه من البشر یأکلون و یشربون،و هم الذین ذکرتهم آیات سوره الواقعه « وَ السّٰابِقُونَ السّٰابِقُونَ* أُولٰئِکَ الْمُقَرَّبُونَ »و قد بین القرآن شهادتهم بقوله:« وَ یَوْمَ نَبْعَثُ فِی کُلِّ أُمَّهٍ شَهِیداً عَلَیْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنٰا بِکَ شَهِیداً عَلیٰ هٰؤُلاٰءِ » (۱).

و قال بعضهم:انهم الملائکه المقربون،و قیل إسرافیل-علیه السلام- خاصه،بید أن التفسیر الأول أقرب الی السیاق،و هو یوحی بکرامه المقربین عند ربهم،حیث جعلهم شهودا علی کتاب الصالحین.

[۲۲]الکتاب مظهر بارز لمسؤولیه الإنسان عن أفعاله،أما المظهر الأجلی فانه النعیم المقیم للأبرار،و الجحیم الألیم للفجار.

إِنَّ الْأَبْرٰارَ لَفِی نَعِیمٍ تحیط بهم آلاء اللّه،قالوا:لان کلمه«نعیم»جاءت بصیغه فعیل(صفه مشبهه)فانها تفید الاستمرار،و لأنها جاءت نکره فهی تفید الکثره و التنوع، و یبدو أن التعبیر ب«لفی نعیم»هو الآخر یدل علی الکثره و التنوع.

[۲۳]لأن الإنسان روح و جسد فإنّ روحه تتطلع الی لذات خاصه بها بعد أن یتشبع الجسد بالنعم،فما هی لذه الروح فی الجنه؟یبدو أنها تتمثل فی مجالس المؤانسه و المعرفه،فالحدیث مع الأخوه الأصفیاء یعطی النفس لذه عظیمه،کما أن العلم غذاء شهی للروح و العقل.

عَلَی الْأَرٰائِکِ یَنْظُرُونَ

ص:۴۲۳

۱- ۱) النحل ۸۹.

جلوسهم على الأرائک مع إخوانهم المتقابلين لذه للنفس،و نظرهم الى خلق اللّه و تجليات رحمته و قدرته لذه للعقل،

و روى عن النبى-صلّى اللّه عليه و آله-:

«ينظرون إلى أعدائهم فى النار.» قالوا:الأرائک جمع أريكه،أى السرير،و قيل:أصلها فارسيه،و قيل:إنها مشتقه من اسم شجر يسمى بأراكه.

[۲۴]عند ما يصفو عيش المرء من الأكدار،و قلبه من الضغائن و الطمع و الحرص،يتلألأ وجهه بآثار النعم،كما يزهر النبات و يتنور،كذلک أهل الجنه تفيض على وجوههم الجميله آثار النعم نضاره و نورا.

تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَهَ النَّعِيمِ و لعل التعبير ب«تعرف»يوحى بأنک تعرف مدى النعيم الذى هم مستقرون فيه بنظره الى وجوههم،و مدى نضارتها؛فإن النضاره درجات و أنواع،و هى تعكس ما وراءها من عوامل النعيم و درجاتها.

[۲۵]و جلسات الأنس لا تكتمل إلاّ بشراب يزيدهم نشاطا و سرورا.

يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ قالوا:الرحيق:صفوه الخمر،و قال بعضهم:إنها الخمره العتيقه البيضاء الصافيه من الغش النيّره،و أما المختوم فإنه يوحى بكرامه الشارب ألاّ تسبق الى الشراب يد غيره.

[۲۶]و إذا كان ختم الشراب عاده قطعه طين لازب،فإن ختم رحيق الجنه المسک الأذفر.

خِتٰامُهُ مِسْکٌ فيزيده عطرا و جمالا،و لنا أن نتصور آماد هذه النعم فنسعى إليها بكلّ همّه و نشاط.

وَ فِي ذٰلِکَ فَلْيَتَنٰافَسِ الْمُتَنٰافِسُونَ فى ضمير الإنسان نزعه راسخه تدعوه الى التسابق و التقدم على الآخرين،و كثير منا يستثير هذه النزعه الفطريه فى التسابق على الدنيا و نعيمها الزائل،بينما العقل يهدينا الى أن التنافس ينبغى أن يكون على المكرمات و الجنه،و الآيه هذه واحده من عدّه آيات قرآنيه تستثير هذه النزعه المباركه فى الطريق القويم،و هو التسارع الى الخيرات،و التنافس فى المكرمات،قال ربنا سبحانه:« سٰابِقُوا إِلىٰ مَغْفِرَهٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّهٍ عَرْضُهٰا كَعَرْضِ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ » (۱)و قال سبحانه:

« فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرٰاتِ أَيْنَ مٰا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّٰهُ جَمِيعاً » (۲)و قال تعالى:« إِنَّهُمْ كٰانُوا يُسٰارِعُونَ فِي الْخَيْرٰاتِ وَ يَدْعُونَنٰا رَغَباً وَ رَهَباً » (۳).

و إذا كان الإنسان يتنافس على شيء فإن أفضل ما يتنافس عليه ذلك الرحيق المختوم،الذى يأتى مكملا لسلسله من النعم المتواصله،و لعل هذا هو السر فى ذكر هذه الجمله عند بيان هذه النعمه،لأنها مكمله لسائر النعم،أو لبيان عظمه هذه النعمه و ما فيها من لذّه عظيمه لا تقاس بسائر اللذات حتى لذات الآخره و نعيمها، أو لأن من آداب الشرب عند أهله فى الدنيا تنازع الكؤوس بينهم و تنافسهم فيها.

و أنّى كان فإن التّنافس فى الرحيق المختوم فى ذلك اليوم يتم اليوم فى الدنيا

۱- ۱) الحديد/۲۱.

۲- ۲) البقره/۱۴۸.

۳- ۳) الأنبياء/۹۰.

بالتسارع فی الخیرات،و التنافس فیها،و قد جاء فی الأثر أن ترک الخمر فی الدنیا ثمن الرحیق المختوم فی الآخره،کما أن ثواب سقایه المؤمن و إطعامه هو الرحیق المختوم.

جاء فی وصیه النبی-صلّی اللّه علیه و آله-لعلی-علیه السلام-أنه قال: «یا علی!من ترک الخمر لغیر اللّه سقاه اللّه من الرحیق المختوم،فقال علی:

لغیر اللّه؟قال:نعم.و اللّه،صیانه لنفسه فیشکره اللّه تعالی علی ذلک » (۱).

و روی عن علی بن الحسین-علیه السلام-أنه قال: «من أطعم مؤمنا من جوع أطعمه اللّه من ثمار الجنه،و من وسقا مؤمنا من ظمأ سقاه اللّه من الرحیق المختوم » (۲).

و روی: «من صام للّه فی یوم صائف سقاه اللّه من الظمأ من الرحیق المختوم » (۳).

[۲۷]قیل:بأن فی الجنه عینا تجری فی الهواء ثم تصب فی کؤوس الأبرار، و قالوا:إنها تجری من تحت العرش و تسمی بالتسنیم،لأنها فی أعلی الجنه،و هی شراب المقربین خالصا،و یضاف شیء منه إلی شراب الأبرار فیعطیه نکهه خاصه لیس فقط لأنه عظیم اللذه،بل ربما أیضا لأن فیه أثرا من روح المقربین و ریحهم، و عبق درجاتهم المتسامیه،و قالوا:انه أشرف شراب فی الجنه،قال اللّه سبحانه:

وَ مِزٰاجُهُ مِنْ تَسْنِیمٍ قال الرازی:تسنیم علم لعین بعینها فی الجنه،سمیت بالتسنیم الذی هو

۱- ۱) نور الثقلین ج ۵ ص ۴۳۴.

۲- ۲) المصدر.

۳- ۳) المصدر.

مصدر سنمه إذا رفعه،إمّا لأنها أرفع شراب فى الجنه،أو لأنها تأتيهم من فوق على ما روى:انها تجرى فى الهواء مسنمه فتنصب فى أوانيهم،و إما لأنها لأجل كثره مائها و سرعته تعلو على كل شيء تمر به و هو تسنيمه،و إما لأنها عند الجرى يرى فيه ارتفاع و انخفاض فهو التسنيم أيضا،و ذلك لأن أصل هذه الكلمه العلو و الارتفاع و منه سنام البعير،و تسنمت الحائط إذا علوته (١).

و قال بعضهم:ان كل عين تجرى من الأعالى تسمى بالتسنيم،و بالرغم من أن هذا أقرب المعانى إلى سياق الآيه إلا انى لم أجد مصدرا لغويا يؤيده.

[۲۸]و للجنه درجات تتعالى حتى تتصل بعرش اللّه،فعنده جنات عدن حيث منازل المقربين من عباده الأنبياء و الصديقين،و قد بينت سوره الواقعه جانبا من الفرق بين درجات المقربين السابقين و درجات أصحاب اليمين،و فى هذه السوره إشاره الى جانب منه،حيث أن مزاج شراب الأبرار التسنيم،بينما يرتوى منه المقربون،فهو شرابهم الخالص.

عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ و لعل فى شراب التسنيم آثارا معنويه،حيث يكسب شاربه قربا الى اللّه و رضوانا،و هكذا خمره الجنه تزيد العقل،و تنشط الفكره،و تلهم الروح إيمانا و عرفانا،فأين هى من خمره الدنيا التى تزيل العقل،و تخمل الفكر،و تبعد الروح من مقام ربها؟! [۲۹]تلك كانت مجالس الأنس و المصافاه،و شرب الرحيق و السلسل يجازى الرب بها عباده الذين عانوا الآلام الروحيه،فكم ضحكك منهم المجرمون و كم

١- ١) التفسير الكبير ج ٣١ ص ١٠٠.

تفاخروا،و کم سرقوا منهم لقمه العیش فتفکهوا بها و ترکوهم یتضورون جوعا.

إِنَّ الَّذِینَ أَجْرَمُوا کٰانُوا مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا یَضْحَکُونَ ذکروا فی تنزیل الآیه سببین:الأول:أن المجرمین هم أکابر قریش کانوا یضحکون من عمار و صهیب و بلال و غیرهم من فقراء المسلمین و یستهزءون بهم، الثانی:أنه جاء علی-علیه السلام-فی نفر من المسلمین فسخر منهم المنافقون و ضحکوا و تفاخروا،ثم رجعوا إلی أصحابهم فقالوا رأینا الیوم الأصلع،فضحکوا منه،فنزلت هذه الآیه قبل ان یصل علی إلی رسول اللّه. (1)و الظاهر أن سبب النزول الثانی أقوی لأن السوره مدنیه.

[۳۰]أول شهاده تسجل ضد المجرم هی شهاده ضمیره الذی لا ینی یلومه و یؤنبه علی جریمته،لذلک تراه یسعی جاهدا للتخلص منه فما ذا یفعل؟انه ینتقم من أهل الصلاح و ینتقص منهم و یستهزئ بهم لعله یخفف من وطأه اللوم الذی یتعرض له داخلیا.کلا..إنه یزداد وخزا و ألما لأن الاستهزاء بالمؤمنین جریمه أخری ارتکبها و استحق علیها لوم ضمیره،و هکذا یزداد استهزاء و سخریه دون أیه فائده.

وَ إِذٰا مَرُّوا بِهِمْ یَتَغٰامَزُونَ ای یشیرون إلیهم بأعینهم و أیدیهم استهزاء،و قیل:الغمز بمعنی العیب.

و اللّه یدری کم تکون جراحه اللسان ألیمه بالنسبه الی المؤمن الشریف الذی لا یزال یجتهد من أجل تزکیه نفسه.

۱- ۱) التفسیر الکبیر ج ۳۱ ص ۱۰۱.

و إذا كـان الغمز فى الجـاهليه بـالعين و اليـد فـإنه أصـبح اليـوم بالأقلاـم و الأفلاـم و سـائر وسائـل التشـهير الـتى امتلكهـا أعـداء الإنسان،أعداء اللّه و الدين،و إن صمود المجاهدين اليوم أمام هذه الدعايات المضلله يزيدهم عند اللّه أجرا و زلفا،لأنهم يصبرون على أذى عظيم،و آلام نفسيه لا تحتمل.

[۳۱]و بينمـا يعيش المؤمنون و المجاهـدون أشـد حالاـت الأـلم و الخوف و تنتفض أطفـالهم و نسـاؤهم فى المخـابئ و المهاجر خشـيه مـداهمه جنود إبليس المعسـعسون ترى المجرمين ينقلبون الى بيوتهم فى أمن ظـاهر،يتبـادلون نخب الانتصارات الزائفه، و يرتادون مجالس اللهو و العربده.

وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ قالوا:اى معجبين بما هم عليه من الكفر،متفكهين بذكر المؤمنين،و لعل المراد من الأهل هنا أصحابهم و أهل مؤانستهم.

[۳۲]و يحاول أعداء الرساله إلصاق تهمه الضلاله الى المؤمنين لعلهم يعزلونهم عن المجتمع.

وَ إِذٰا رَأَوْهُمْ قٰالُوا إِنَّ هٰؤُلاٰءِ لَضٰالُّونَ و يبـدو ان هـدف هـذه التهمه إثاره حساسيه الناس ضدهم،لأنهم يخالفون الخرافات الشائعه التى ينصب المجرمون أنفسهم مدافعين عنها،بينما يسعى المؤمنون نحو إنقاذ المجتمع من ويلاتها.

[۳۳]و هؤلاـء المجرمـون الـذين هم عـاده أصـحاب الـثروه و القوه و الجـاه العريض يزعمون أنهم الموكلون بـأمر النـاس فـتراهم يوزعون التهم يمينا و يسارا،بينما هم بشر

کسائر الناس لم یجعل لهم میزه و سلطانا علی أحد.

وَ مٰا أُرْسِلُوا عَلَیْهِمْ حٰافِظِینَ بل کل امرء مسئول عن نفسه،و بهذه الکلمه الحاسمه سلب القرآن الشرعیه المزیفه التی تدّعیها السلطات و المترفون لتسلطهم علی الناس.کلا..السلطه انما هی للّه و لمن یخوّله اللّه،أما أولئک المجرمون فإنهم غاصبون،و ان علی المؤمنین ألاّ یأبهوا بأحکامهم الجائره علیهم،لأنه لا شرعیه لها أبدا.

[۳۴]بسبب تلک المعاناه الشدیده و الآلام المبرحه التی ذاقها المؤمنون المجاهدون فی سبیل اللّه من أیدی المجرمین تنقلب الصوره تماما فی یوم الجزاء.

فَالْیَوْمَ الَّذِینَ آمَنُوا مِنَ الْکُفّٰارِ یَضْحَکُونَ قال بعضهم:انه یفتح للکفار فی أطراف النار باب الی الجنه،فإذا سعوا إلیها و وصلوه بعد عناء عظیم أغلق دونهم فیثیر ذلک ضحک المؤمنین علیهم،و روی مثل ذلک عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله. (۱)

[۳۵]و المؤمنون جالسون علی الأرائک فرحین بما آتاهم اللّه،و ینظرون الی ما یجری هناک فی نار جهنم.

عَلَی الْأَرٰائِکِ یَنْظُرُونَ

جاء فی الحدیث فی قوله تعالی:« اَللّٰهُ یَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »أی المنافقین:و أمّا استهزاؤه بهم فی الآخره فهو أنّ اللّه عزّ و جلّ إذا أقرّ المنافقین المعاندین لعلیّ

۱- ۱) انظر الدر المنثور ج ۶ ص /۳۲۸عن نمونه ج ۲۶ ص ۲۸۸.

-علیه السلام-فی دار اللّعنه و الهوان،و عذّبهم بتلک الألوان العجیبه من العذاب،و أقرّ المؤمنین الّذین کان المنافقون یستهزءون بهم فی الدنیا فی الجنان بحضره محمد صفیّ الملک الدیّان،أطلعهم علی هؤلاء المستهزئین بهم فی الدنیا حتّی یروا ما هم فیه من عجائب اللّعائن و بدائع النقمات،فیکون لذّتهم و سرورهم بشماتتهم بهم کما لذّتهم و سرورهم بنعیمهم فی جنان ربّهم،فالمؤمنون یعرفون أولئک الکافرین بأسمائهم و صفاتهم،و هم علی أصناف:

منهم من هو بین أنیاب أفاعیها تمضغه،و منهم من هو بین مخالیب سباعها تعبث به و تفترسه،و منهم من هو تحت سیاط زبانیتها و أعمدتها و مرزباتها یقع من أیدیهم علیه تشدّد فی عذاب و تعظم خزیه و نکاله،و منهم من هو فی بحار حمیمها یغرق و یسحب فیها،و منهم من هو فی غسلینها و غسّاقها تزجره زبانیتها،و منهم من هو فی سائر أصناف عذابها؛و الکافرون و المنافقون ینظرون فیرون هؤلاء المؤمنین الّذین کانوا بهم فی الدنیا یسخرون لما کانوا من موالات محمّد و علیّ و آلهما-صلوات اللّه علیهم-یعتقدون،فیرونهم:منهم من هو علی فراشها یتقلّب،و منهم من هو علی فواکهها یرتع،و منهم من هو علی غرفاتها أو فی بساتینها و تنزّهاتها یتبحبح،و الحور العین و الوصفاء و الولدان و الجواری و الغلمان قائمون بحضرتهم و طائفون بالخدمه حوالیهم،و ملائکه اللّه عزّ و جلّ یأتونهم من عند ربّهم بالحباء و الکرامات و عجائب التّحف و الهدایا و المبرّات یقولون:سلام علیکم بما صبرتهم فنعم عقبی الدار،فیقول هؤلاء المؤمنون المشروفون علی هؤلاء الکافرین المنافقین:یا أبا فلان و یا فلان-حتّی ینادونهم بأسمائهم-ما بالکم فی مواقف خزیکم ماکثون؟هلمّوا إلینا نفتح لکم أبواب الجنان لتتخلّصوا من عذاب و تلحقوا بنا فی نعیمها،فیقولون:ویلنا أنّی لنا هذا؟یقول المؤمنون:

أنظروا إلی هذه الأبواب،فینظرون إلی أبواب الجنان مفتّحه یخیّل إلیهم أنّها إلی جهنّم الّتی فیها یعذّبون،و یقدّرون أنّهم ممکّنون أن یتخلّصوا إلیها،فیأخذون فی

السّباحه فی بحار حمیمها و عدوا بین أیدی زبانیتها،و هم یلحقونهم و یضربونهم بأعمدتهم و مرزباتهم و سیاطهم،فلا یزالون هکذا یسیرون هناک و هذه الأصناف من العذاب تمسّهم حتّی إذا قّدروا أنّهم قد بلغوا تلک الأبواب وجدوها مردومه عنهم و تدهدههم الزبانیه بأعمدتها فتنکسهم إلی سواء الجحیم،و یستلقی أولئک المؤمنون علی فرشهم فی مجالسهم یضحکون منهم مستهزئین بهم،فذلک قول اللّه عزّ و جلّ:« اَللّهُ یَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »و قوله عزّ و جلّ:« فَالْیَوْمَ الَّذِینَ آمَنُوا مِنَ الْکُفّارِ یَضْحَکُونَ عَلَی الْأَرائِکِ یَنْظُرُونَ » (۱).

[۳۶]ما ذا ینظرون؟إنهم ینظرون إلی مجریات جزاء الکفار الیومیه،و عقابهم المتتابع الذی یتصل بجرائمهم المتتالیه فی الدنیا.

هَلْ ثُوِّبَ الْکُفّارُ ما کانُوا یَفْعَلُونَ أی ینظرون لکی یروا هل أنهم ثوّبوا و جوزوا؟و بالطبع:إنهم یجدون هذا الجزاء لحظه بلحظه،و لا ینتهی جزاؤهم لأنه مستمر،ذلک أن کل فعله خاطئه قاموا بها تجازی بمئات السنین،فیستمر النظر و یستمر الجزاء.أعاذنا اللّه من مثل هذه العاقبه السوأی،و جعلنا من أهل جنته و رضوانه.آمین.

۱- ۱) بحار الأنوار ج ۸ ص ۲۹۸.

سوره الانشقاق

اشاره

ص:۴۳۳

بسم اللّه الرحمن الرحیم

فضل السوره

عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السلام قال: من قرأ هاتین السورتین،و جعلهما نصب عینیه فی صلاه الفریضه و النّافله:«إذا السماء انفطرت»و«إذا السماء انشقت» لم یحجبه من اللّه حاجب،و لم یحجزه من اللّه حاجز،و لم یزل ینظر اللّه إلیه حتی یفرغ من حساب الناس.

تفسیر نور الثقلین/ج ۵ ص ۵۳۶

الإطار العام

قبسان من نور تشع بهما سوره الانشقاق:

/١قبس يرشه على واقع الإنسان عسى ان يعرف نفسه و يضعها فى المقام الأسمى الذى خلق له.فالإنسان كادح الى ربه كدحا فملاقيه..و هو يركب بالتأكيد طبقا عن طبق.

فهو إذا ذلك الإنسان المسؤول الذى سخرت له الأرض و أجرام السموات العلى، و أمامه عقبات كأداء لا بد أن يتحداها حتى يصل الى دار المقامه عند عند رب العزه، و إلاّ فيكون من أصحاب الشمال،يؤتى كتابه وراء ظهره،و يساق إلى جهنم ليصلى سعيرا.

/٢قبس يضىء به الطبيعه أنّها خليقه اللّه،و تستجيب لمشيئته النافذه، فالسماء حين تنشق،و الأرض حين تمتد تأذنان لربهما العظيم،و حق لهما ذلك أ و ليستا مخلوقتين!و يلتقى شعاع هذا القبس بذلك عند ما يستنكر السياق كفر هذا

ص:۴۳۶

الإنسـان:فما لهم لا يؤمنون،و إذا قرء عليهم القرآن لا يسـجدون؟!أ و لم يخلقوا كما خلقت السـموات و الأرض.أ هم أعظم خلقا أم ذاتـك؟! و كمـا فى السور القصـار تفتـح آيـات السوره منافـذ القلب على الحقيقه..و لكن قلب من؟انما قلب الـذين اسـتجابوا لربهم،فآمنوا به و عملوا الصالحات،فتبشرهم بأجر متصل غير منقطع.

ص:۴۳۷

[سوره الانشقاق (۸۴): الآیات ۱ الی ۲۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ . إِذَا اَلسَّمٰاءُ اِنْشَقَّتْ (۱) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهٰا وَ حُقَّتْ (۲) وَ إِذَا اَلْأَرْضُ مُدَّتْ (۳) وَ أَلْقَتْ مٰا فِیهٰا وَ تَخَلَّتْ (۴) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهٰا وَ حُقَّتْ (۵) یٰا أَیُّهَا اَلْإِنْسٰانُ إِنَّکَ کٰادِحٌ إِلیٰ رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاٰقِیهِ (۶) فَأَمّٰا مَنْ أُوتِیَ کِتٰابَهُ بِیَمِینِهِ (۷) فَسَوْفَ یُحٰاسَبُ حِسٰاباً یَسِیراً (۸) وَ یَنْقَلِبُ إِلیٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۹) وَ أَمّٰا مَنْ أُوتِیَ کِتٰابَهُ وَرٰاءَ ظَهْرِهِ (۱۰) فَسَوْفَ یَدْعُوا ثُبُوراً (۱۱) وَ یَصْلیٰ سَعِیراً (۱۲) إِنَّهُ کٰانَ فِی أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۱۳) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ یَحُورَ (۱۴) بَلیٰ إِنَّ رَبَّهُ کٰانَ بِهِ بَصِیراً (۱۵) فَلاٰ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (۱۶) وَ اَللَّیْلِ وَ مٰا وَسَقَ (۱۷) وَ اَلْقَمَرِ إِذَا اِتَّسَقَ (۱۸) لَتَرْکَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (۱۹) فَمٰا لَهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۲۰) وَ إِذٰا قُرِئَ عَلَیْهِمُ اَلْقُرْآنُ لاٰ یَسْجُدُونَ (۲۱) بَلِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا یُکَذِّبُونَ (۲۲) وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا یُوعُونَ (۲۳) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِیمٍ (۲۴) إِلاَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَیْرُ مَمْنُونٍ (۲۵)

اللغه

ص:۴۳۹

۱۴[یحور]کلمته فلم یحر جوابا:أی ما رد جوابا،و حار الماء فی الغدیر تردد فیه،و حار فی أمره تحیّر.

و معنی آخر ذکره أرباب اللغه:و هو التردد،و منه المحور للعود الذی تجری علیه البکره لتردده،و محاره الأذن لظاهره المنقعر تشبیها بمحاره الماء لتردد الهواء بالصوت فیه کتردد الماء فی المحاره،و القوم فی حوار:فی تردد الی نقصانه،و المحاوره و الحوار:المرادّه فی الکلام و أصل الکلمه الرجوع.

إِنَّکَ کٰادِحٌ إِلیٰ رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاٰقِیهِ

بينات من الآيات:

[١]هل تستطيع ان تتصور السماء كيف تنشق،و النجوم كيف تنتثر،و هذه السلاسل الجبليه التى تزن ملايين الأطنان من الصخور العملاقه كيف تندك اندكاكا؟ أ رأيت البحر حين يهيج فإذا بأمواجه كالجبال تتطلام فوق سطحه.هل لك أنّ تتصور لو أن بحار الأرض كلها سجرت.إنها أعظم من ألوف الملايين من القنابل الهيدروجينيه حين تنفجر معا..اننى اعترف بعجز قدره الخيال عندى من أن تتصور كل هذه الأحوال..فكيف بنا و نحن لا بد ان نشاهدها عن كثب؟عظيم إذا شأن هذا الإنسان الذى يستضاف لمثل هذا البرنامج بل المهرجان الكونى،لا-ان الإنسان ليس يومئذ ضيف شرف،بل متهم يساق الى المحاكمه،و يوقف للسؤال.حقّا إنه ذا شأن عظيم،و ان مسئوليته التى يتحملها اليوم جدّ عظيمه.تعالى-يا اخى-

نرتفع لحظات الی مستوی تصور الساعه کما یصفها ربنا.و انی لعلی یقین ان مجرد تصورها یجعلنا ننظر إلی الأمور بطریقه مختلفه،و نعرف آنئذ أننا لاـ زلنا فی ضلال بعید لاـ زلنا لا نعرف قیمه أنفسنا.من نحن،ما هی حکمه وجودنا،و الی أیّ مصیر نساق؟ لمحکمه الرب جوّ رهیب.انها لیست فی قاعه مفروشه بالسجاد. انها فی الفضاء الرحب..و أجرامها تصدع قلوب الجلامید.السماء یومئذ تنشق.و لعل النیازک السماویه تتساقط من خلال شقوقها فوق الأرض،و لا نعرف ما ذا تحدث من دمار و صعقات،أمّا الأرض فان جبالها تندک،و بحارها تتسجر،و تمتد الی ما شاء اللّه حتی تصبح کادیم مبسوط.

إِذَا السَّمٰاءُ انْشَقَّتْ و إذا کانت قاعه المحکمه فی الدنیا محاطه بجنود محافظین،فان جنود السموات و الأرض تقف یومئذ مستعده لتنفیذ أوامر الرب فورا.

[۲] وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهٰا وَ حُقَّتْ و هل تستطیع أن تتمرد السموات عن أمر ربها؟کلا..بل حق لها أن تأذن لربها،أی تقف انتظارا لأوامره الصارمه.

[۳] وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ فلا جبال و لا آکام و لا روابی و لا بناء و لا أشجار..انها فی ذلک الیوم قاع صفصف.

[۴] وَ أَلْقَتْ مٰا فِیهٰا وَ تَخَلَّتْ

ص:۴۴۲

فلا معادن و لا مقابر كلها اليوم فوق الأرض..فلا يستطيع أحد ان يبحث داخل الأرض عن مخبأ أو خندق.

[۵] وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهٰا وَ حُقَّتْ و كيف لا تنتظر أوامر الرب و هى مخلوقه مدبّره.أ فلا يحق لها الخضوع؟!بلى.

[۶]يومئذ و فى هذه الأجواء المرعبه يلقى الإنسان ربه ليسأله عما فعله،و ليعطيه جزاءه الأوفى،و لكن بينه و بين ذلك اليوم الرهيب عقبات و صعوبات تكون بمثابه إرهاصات و أشراط لما قد يلقاه الإنسان يومئذ.

يٰا أَيُّهَا الْإِنْسٰانُ إِنَّكَ كٰادِحٌ إِلىٰ رَبِّكَ كَدْحاً الولاده ساعه كدح لك و لأمك.تحديك للأمراض منذ نعومه أظفارك و الأخطار.و تعرضك لأعراض الجوع و العطش،و الحر و البرد،و الألم و الشدائد، و تواصل الإحباط و الحرمان عليك منذ أن ميّزت يمينك عن شمالك،ثم حينما نموت و ترعرعت واجهت ألوان الضغوط الجسديه و النفسيه،و دخلت معترك الحياه التى كلها صراع و صعوبات.ان كل هذه ألوان من الكدح فى حياه الإنسان.و لكن يا ليت كانت هى النهايه؟كلا..بعد كل ذلك يأتى يوم اللقاء مع من؟مع رب العزه، و لم؟للسؤال،و فى أى يوم؟فى يوم الطامّه.

ان كل ذلك يجعلنا ننظر الى أنفسنا باحترام بالغ.انها ليست كالشجره التى تنبت فى مزرعتنا ثم تمضى لشأنها بعد عمر محدود دون عناء التحديات،و ليست كالأنعام أو أى حى آخر يمضى دورته الحياتيه برتابه و دون تحديات أو كدح.انها النفس التى أكرمها اللّه و سخر لها الشمس و القمر و ما فى الأرض جميعا،و لهدف عظيم.إن ذلك الهدف هو لقاء الرب للمحاكمه فالجزاء،و هذه الحياه بما فيها من

كدح شاهد على ذلك المصير بما فيه من جزاء.

فَمُلاٰقِيهِ و إذا كانت الحياه سلسله متواصله من الكدح و النصب فلما ذا السرور و اللهو إذا؟و لما ذا يبيع الإنسان الآخره بالدنيا ما دمنا جميعا كادحون.أهل الصلاح و المفسدون كل فى طريقه؟و لعل المفسد يتعرض لكدح أكبر،لأنه يفقد أمل المستقبل و توكل المؤمن على ربه،

و يبدو أنّ الإمام زين العابدين يشير الى ذلك حين يقول فيما روى عنه:

«الراحه لم تخلق فى الدنيا و لا ـ لأهل الدنيا،إنما خلقت الراحه فى الجنه و لأهل الجنه،و التعب و النصب خلقا فى الدنيا،و لأهل الدنيا.و ما أعطى أحد منها جفنه الا اعطى من الحرص مثليها،و من أصاب من الدنيا أكثر كان فيها أشد فقرا،لأنه يفتقر إلى الناس فى حفظ أمواله،و يفتقر إلى كلّ آله من آلات الدنيا،فليس فى غنى الدنيا راحه.كلا ما تعب أولياء اللّه فى الدنيا للدنيا،بل تعبوا فى الدنيا للآخره » (۱).

[۷]و شتان بين لقاء المؤمن ربه و غيره.إن المؤمن يلقى ربه ليستلم جائزته بيمينه.

فَأَمّٰا مَنْ أُوتِيَ كِتٰابَهُ بِيَمِينِهِ [۸]يأخذه بفرح بالغ.لقد انتهى الكدح و الى الأبد.انها ولاده جديده، و مستقبل زاهر.

فَسَوْفَ يُحٰاسَبُ حِسٰاباً يَسِيراً

ص:۴۴۴

۱- ۱) تفسير نمونه ج ۲۶ ص ۳۰۴ نقلا عن خصال الصدوق.

فالحساب لا بد منه لكل إنسان إلاّ عدد محدود من الصديقين و الصابرين،بيد أن حساب أصحاب اليمين يسير،فاذا مروا بحسناتهم قبلت.و إذا وجدوا بينها هفوات غفرت، و لكن الحساب العسير يعنى عدم قبول حسناتهم،و عدم التجاوز عن سيئاتهم.

و فى الخبر المأثور عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: «ثلاث من كنّ فيه حاسبه اللّه حسابا يسيرا،و أدخله الجنّه برحمته»قالوا:و ما هى يا رسول اللّه؟قال:«تعطى من حرمك،و تصل من قطعك،و تعفو عمن ظلمك » (1).

و لعل السبب فى ذلك سلامه خطهم العام مما يشفع لهم فى الانحرافات الجانبيه.

[9]و يجتمع المؤمنون تحت ظلّ عرش اللّه،ينظرون إلى ساحه المحكمه، و ينتظرون رفاقهم الذين ينتهون من الحساب و يلتحقون بجمعهم المبارك،فاذا أخذ المؤمن كتابه أسرع إليهم مسرورا.

وَ يَنْقَلِبُ إِلىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً ان هذا السرور يلازم المؤمن منذ خروجه من قبره بسبب صفاته الحميده،و لعل أبرزها رضاه عن ربه،

فقد جاء فى الحديث عن الصادق عليه السلام: «و من رضى باليسير من المعاش،رضى اللّه منه باليسير من العمل » (2).

و جاء فى حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام: «إذا بعث اللّه عز و جل المؤمن من قبره خرج معه مثال يقدمه أمامه،كلما رأى المؤمن هولا من أهوال يوم القيامه قال له المثال:لا تفزع و لا تحزن،و أبشر بالسرور و الكرامه من اللّه جل و عز،حتى يقف بين يدى اللّه جل و عز فيحاسبه حسابا يسيرا، و يأمر به الى

1- 1) موسوعه بحار الأنوار ج 69 ص 406.

2- 2) مجمع البيان ج 10 ص 461.

الجنه و المثال أمامه،فیقول له المؤمن:رحمک اللّه.نعم الخارج خرجت معی من قبری و ما زلت تبشرنی بالسرور و الکرامه من ربی حتی رأیت ذلک،من أنت؟ فیقول:أنا السرور الذی کنت أدخلته علی أخیک المؤمن فی الدنیا،خلقنی اللّه جل و عز منه لأبشرک » (1).

[10]أما الکافر و المنافق و الفاسق فانه یستلم کتابه من وراء ظهره اما بعد أن تخلع یسراه و توضع الی ظهره،و إما لأن یدیه مغلولتان وراء عنقه.فیوضع الکتاب فی یسراه من خلف،و عموما فانه یصبح معروفا عند الناس بسوء العاقبه.

وَ أَمّٰا مَنْ أُوتِیَ کِتٰابَهُ وَرٰاءَ ظَهْرِهِ و تتلاحق لعنات الملائکه و الناس علیه،و یشدد علیه فی الحساب،و لا تقبل حسناته،و لا تغفر سیئاته،و أهم من کل ذلک تسقط عنه الأستار التی تزمل بها فی الدنیا حتی لا یعرف علی حقیقته،و یعلن للناس أسراره و خبایا نفسه الخبیثه [11]أ لیس من الأفضل أن نسعی جمیعا لإصلاح أنفسنا الیوم و لا نستمر فی خداع الذات حتی لا نبتلی بتلک الفضیحه الکبری؟! ما ذا یکون موقف هذا البئیس؟! انه یصیح:وا نفساه وا ثبوراه!!و لکن هیهات حیث لا ینفعه الندم،و لات حین مندم.

فَسَوْفَ یَدْعُوا ثُبُوراً و الثبور هو الهلاک،و دعاؤه به اعترافه بالجریمه و استسلامه للهلاک،و لو عرف

1- 1) تفسیر نور الثقلین ج 5 ض 538.

الإنسان هذه العاقبه و هو فی الدنیا و اتقاها بصالح الأعمال لما ابتلی بهذا المصیر الأسود.

[۱۲]و لا تنفعه دعوته للهلاک و اعترافه بالثبور لأنه سوف یدخل النار و یصلی حرارتها.

وَ یَصْلیٰ سَعِیراً نارا مستعره متقده ذات أوار و لهب.

[۱۳]لما ذا هذا المصیر؟لأنه کان فی الدنیا مسرورا،لاهیا عما یراد به،مستهزء بالدعاه إلی اللّه.

إِنَّهُ کٰانَ فِی أَهْلِهِ مَسْرُوراً و السرور هو إحساس الإنسان بأنه قد بلغ أهدافه.و الدنیا غایه علم الکفار، و لذلک تراهم یفرحون بما أوتوا فیها،و تغلق آفاق طموحهم دون الحیاه الآخره،فلا یقدمون لها شیئا.

[۱۴]کیف یتجاوز المؤمنون ظاهر الدنیا الی غیب الآخره؟انما بایمانهم بالنشور،بینما غیرهم یظن انه لا یعود.

إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ یَحُورَ ای یعود الی الآخره للحساب.قالوا:الحور:الرجوع،و قیل:کلمه فلم یحر جوابا:أی ما أرجع قولا،و لا رد کلاما،

جاء فی الدعاء: «نعوذ باللّه من الحور بعد الکور »أی من العوده إلی النقصان بعد الزیاده،و سمیت البکره ب«بالمحور»لأنها

تدور حتی ترجع الی محلها.

[۱۵]و کان ظنه باطلا.فانه لیس یحور فقط،و انما أیضا یحاسب بهذه من لدن ربّ بصیر بشأنه،محیط علما بظاهر فعله و غیب نیته.

بَلیٰ إِنَّ رَبَّهُ کٰانَ بِهِ بَصِیراً و لأن الإنسان یبرر جرائمه و ضلاله عاده؛فإن السبیل الوحید لإصلاحه هو تحسسه برقابه اللّه علیه،و أنّه بصیر بخبایا قلبه أنی برّر أو نافق.

[۱۶]هل راقبت یوما الغروب:کیف تسقط الشمس فی الأفق،و ینبسط علیه الشفق،و یلملم الظلام شمل الطیور فی أوکارها،و الوحوش و الهوام فی بیوتها و جحورها،و الناس فی مساکنهم،و إذا بالقمر یطلع علینا بنور هادئ.انه مثل للأطوار التی یتحول عبرها الإنسان منذ أن کان نطفه فی صلب أبیه،و إلی أن یضمّه التراب فی رحمه.انه فی رحله متواصله،یرکب فیها طبقا بعد طبق،أ فلا نؤمن باننا لسنا مالکی أنفسنا،و أن من یملک أمرنا أنشأنا لحکمه،فأین تلک الحکمه لو لم تکن فی القرآن؟!أ فلا نسجد لربنا حین نتلوا آیاته؟!احقا..إنها حکمه الخلق التی أشارت إلیها الآیه الکریمه «وَ مٰا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّٰ لِیَعْبُدُونِ » (۱).

فَلاٰ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ لغروب الشمس هیبه فی النفوس،و جلال عظیم،و ان منظر الشمس حین تغرب یثیر فینا أکثر من احساس؛انه یرسم علی الأفق لوحه متحرکه،بارعه الجمال،ذات ألوان تبهر الألباب،و لکنه لا یلبث أن یثیر فینا الحزن علی ینبوع النور الذی بلعه المغیب و لو بصوره موقتّه،مما یجعلنا نتساءل:أ لسنا نحن أیضا ننتظر الغروب عند ما

۱- ۱) الذاریات۵۶/.

يحين أجلنا.و متى يأتى الأجل؟لا ندرى.

و أخيرا يصل الإنسان الى قناعه:لا بد من الرضا بالواقع.تعالوا نرجع الى بيوتنا.

و قال المفسرون عن الشفق:انه امتزاج ضوء النهار بظلام الليل،و قيل:إن أصل الشفق الرقه،و انما سمى المغيب بالشفق لأنه ينتشر فى الأفق ضياء رقيقا.

و قالوا عن اللام فى«فلا اقسم»:انها زائده للتأكيد،و قيل:بل معناها تعظيم الشفق ان يقسم به،أو تعظيم الحقيقه حتى لا تحتاج الى قسم،و قد سبق منا:ان اللام هنا تفيد تأكيد القسم.

[۱۷]و بعد أن يلملم الشفق بقايا خيوط الضياء،يسوق ظلام الليل الناس ليهجعوا،و الأشياء لتنكمش،ذلك أن الضوء يبسط الطبيعه،بينما الظلام يجمعها..

أ رأيت أسراب الطيور عند الشفق كيف تعود الى أو كارها،و قطعان الأنعام تروح الى مرابضها،و الناس أيضا يعودون الى دورهم و مساكنهم؛إنّه منظر رائع حقا.

وَ اللَّيْلِ وَ مٰا وَسَقَ قالوا:الوسق:الجمع،و طعام موسوق أى مجموع.

[۱۸]و يطلع القمر،و يندفع الى كبد السماء،و يتجلّى بنوره الفضّى كسفينه من فضّه تسير فى بحر من الظلام،و يبعث من أفق السماء بنوره الهادئ فوق الآجام و الروابى بما لا يزاحم نوم النائمين،و فى ذات الوقت يكون سراجا للسارين ليلا و أنيسا للشعراء و الوالهين،و آيه مبصره لمن يحيى الليل من المتهجدين.

وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ

قالوا:اتسق:مشتقه من الوسق،بمعنى تجميع أطراف الشىء مما يوحى بكماله، و قالوا:انه كنايه عن القمر عند ما يكتمل بدرا،و يبدو لى أنه أعّم منه و المراد من أتساقه ارتفاعه فى كبد السماء،بعيدا عن كدر الأفق و اللّه العالم.

[۱۹]ان الإنسان ينتقل من حال الى حال..تلك هى الحقيقه التى لا بد أن يعيها الإنسان بعمق،و إلاّ فانه يخشى عليه أن يضل سبيله.

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ ما هو المراد من الطبق؟قالوا:الطبق فى اللغه بمعنى الحال،ثم ساقوا أمثله لذلك،فذكروا ان الدواهى تسمى أم طبق،و بنات طبق،و استشهدوا بقول الشاعر:

الصبر أحمد و الدنيا مفجّعه من ذا الذى لم يذق من عيشه رنقا

إذا صفا لك من مسرورها طبق أهدى لك الدهر من مكروهها طبقا

و يقول شاعر آخر:

انى امرؤ قد جلبت الدهر أشطره و ساقنى طبق منه الى طبق

و لعل أصل معنى الطبق التطابق،و انما سميت التحولات الأساسيه و المنعطفات الحساسه من الزمن بالطبق،لأنهم تصور وا الزمن طبقات كما الأرض طبقات أو العماره طوابق،فسموا كل مرحله طبقا،كما سموا كل طبقه من الأرض أو طابق من البيت،و لذلك قالوا:أتانى طبق من الناس أو طبق من الجراد،أى جماعه كأنهم قسم من الناس،و طبقه منهم، و مشهور فى أدبنا اليوم مصطلح الطبقات الاجتماعيه، و يسمى القرن من الزمان أيضا طبقا،كما قال العباس فى مدح النبى صلّى اللّه عليه و آله.

تنقّل من صلب الى رحم إذا مضى عالم بدا طبق

و يقال لضريع الليل و طرف النهار طبق،فيقولون مضى طبق من الليل أو طبق من النهار.

و إذا فان ظاهر الآيه يدل على ان الإنسان يتدرج فى طبقات الزمان،و مراحله، و تحولاته طبقا بعد طبق.

بلى.انه لاـ يملك التحولات الكبيره التى تجرى عليه.بالرغم من وجود هامش بسيط من الاختيار عنده،فهو يولد فى عصر لا يختاره،و فى مصر لم ينتخبه،و من والدين قدّرا له دون دخل له فيهما،و عشرات التقديرات الحتميه تصوغ حياته دون ان يكون له فيها صنع،ثم يتحول من نطفه الى علقه الى مضغه الى خلق سوى،يولد ليجتاز سبعه و ثلاثين مرحله منذ الرضاعه حتى يكون هرما فيموت،حسب الأسماء التى وضعتها العرب لمراحل حياه البشر.

و خلال هذه الفتره يتقلب عبر المرض و العافيه،و الفقر و الغنى،و الخوف و الأمنه، و الجوع و الشبع،و ترمى به حوادث الزمان من حزن الى سرور،و من قلق الى سلام، و من شده الى رخاء و هكذا..و قد تحمله الدواهى من أرض لأرض،و من قوم إلى قوم،و من دين إلى دين.

ان كل هذه التحولات جزء من الكدح الذى كتب على الإنسان فى هذه الدنيا،و لكنها لا تنتهى بالموت فما بعد الموت أعظم و أدهى.

و هكذا نقرأ فى روايه مأثوره عن النبى-صلّى اللّه عليه و آله-طائفه من هذه المراحل التى يمر بها الإنسان.

فقد روى عن جابر انه قال:سمعت رسول اللّه -صلّى اللّه عليه و آله -يقول:

ص:۴۵۱

إنّ ابن آدم لفی غفله عما خلقه اللّه-عز و جل-إن اللّه لا إله غیره إذا أراد خلقه قال للملک:اکتب رزقه و أثره،و أجله،و اکتب شقیّا أو سعیدا،ثم یرتفع ذلک الملک،و یبعث اللّه ملکا آخر فیحفظه حتی یدرک،ثم یبعث اللّه ملکین یکتبان حسناته و سیئاته،فاذا جاءه الموت ارتفع ذانک الملکان،ثم جاءه ملک الموت-علیه السلام-فیقبض روحه،فاذا أدخل حضرته ردّ الروح فی جسده، ثم یرتفع ملک الموت،ثم جاءه ملکا القبر فامتحناه،ثم یرتفعان،فاذا قامت الساعه انحط علیه ملک الحسنات و ملک السیئات فأنشطا کتابا معقودا فی عنقه،ثم حضرا معه:و أحد سائق و الآخر شهید،ثم قال اللّه-عز و جل-:« لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَهٍ مِنْ هٰذٰا فَکَشَفْنٰا عَنْکَ غِطٰاءَکَ فَبَصَرُکَ الْیَوْمَ حَدِیدٌ »قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم:« لَتَرْکَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ »قال:«حالا بعد حال»ثم قال:قال رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله و سلم:«إنّ قدّامکم أمرا عظیما فاستعینوا باللّه العظیم » (۱).

و إذا تأملنا سیاق سوره الانشقاق و تدبرنا آیه الکدح فیها،و لا حظنا هذه الروایه أیضا تبیّن لنا أن الجمله الأخیره فی هذه الروایه هی العبره التی ینبغی أن نعیها من السوره،ذلک أن عدوّ الإنسان هو حاله اللهو و اللعب التی تنزع إلیها نفسه،فتسول له العبثیه و الغفله أو الهروب من مواجهه الحقائق؛و انما ینساق البشر الی هذه الحالات بسبب غفلته عن نفسه و عما یراد بها،و عن الأخطاء التی تنتظره.أ فلا یفکر هذا المسکین أن الظلام یلف الضیاء،و یتسق القمر فی السماء بدل قرص الشمس،و أن التحول سنه یخضع لها کل شیء، فهل یبقی بعیدا عنها؟! و إذا لم نعتبر بالطبیعه حولنا أ فلا نعتبر بتاریخنا الحافل بالتطورات،فهذه الأمم کیف دار بها الزمن دورته و لعبت بها ریاح التغییر طبقا عن طبق،و حالا من بعد

۱- ۱) القرطبی ج ۱۶ ص ۲۷۹/۲۷۸.

حال..اننا أيضا سائرون فی ذات الدرب،و علی هذا جاء فی تأویل هذه الآیه

حدیث مأثور عن رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله و سلم-انه قال: «لترکبن سنن من کان قبلکم شبرا بشبر،و ذراعا بذراع حتی لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه» قالوا:یا رسول اللّه!الیهود و النصاری؟!قال:فمن؟ (1).

و فی حدیث عن أبی جعفر-علیهما السلام-رواه أبی الجارود ،فی قوله:«و لا یزال الذین کفروا تصیبهم قارعه»قال:هی النقمه« أَوْ تَحُلُّ قَرِیباً مِنْ دارِهِمْ » فتحلّ بقوم غیرهم،فیرون ذلک،و یسمعون به،و الذین حلّت بهم عصاه کفار مثلهم،و لا یتّعظ بعضهم ببعض،و لن یزالوا کذلک حتی یأتی وعد اللّه الذی وعد المؤمنین من النصر،و یخزی الکافرین (2).

و هکذا ینبغی للإنسان ان یعی آیات الطبیعه و عبر التاریخ،ثم ینظر الی نفسه عبرهما حتی یعرف قدرها،و لا یضیع فرصتها بالغفله و اللهو و الانشغال بالتوافه.

[20]

دخل ابن أبی العوجاء علی الصادق علیه السلام فلم یتکلم مهابه منه،فقال له الصادق-علیه السلام-:«یا ابن أبی العوجاء!أ مصنوع أنت أم غیر مصنوع؟» قال:لست بمصنوع،فقال له الصادق-علیه السلام-:«فلو کنت مصنوعا کیف کنت تکون؟»فلم یحر جوابا،و قام و خرج.

فعاد إلیه فی الیوم الثانی فجلس و هو ساکت لا ینطق،فقال-علیه السلام-:

«کأنک جئت تعید بعض ما کنّا فیه؟»فقال:أردت ذلک یا ابن رسول اللّه،فقال ابو عبد اللّه الصادق-علیه السلام-:«ما أعجب هذا!تنکر اللّه،و تشهد أنی ابن

1- 1) المصدر ص 279 و ذکر فی مجمع البیان حدیث قریب منه ثم قال:و روی ذلک الصادق-علیه السلام-راجع مجمع البیان ج 10 ص 462.

2- 2) موسوعه بحار الأنوار ج 6 ص 55.

رسول اللّه»فقال:العاده تحملنی علی ذلک،فقال له العالم-علیه السلام- (و العالم هو الامام الکاظم-علیه السلام-و الی آخر الروایه یسمیه بالعالم.الظاهر أنه الامام الصادق علیه السلام نفسه):«فما یمنعک من الکلام؟»قال:إجلالا لک، و مهابه،ما ینطق لسانی بین یدیک،فإنی شاهدت العلماء،و ناظرت المتکلمین،فما تداخلنی هیبه قطّ مثل ما تداخلنی من هیبتک،قال علیه السلام «یکون ذلک،و لکن افتح علیک بسؤال»و أقبل علیه،فقال له:«أ مصنوع أنت أو غیر مصنوع»فقال عبد الکریم أبی العوجاء:بل أنا غیر مصنوع،فقال له العالم-علیه السلام-:«فصف لی لو کنت مصنوعا کیف کنت تکون»فبقی عبد الکریم ملیّا لا یحیر جوابا،و ولع بخشبه کانت بین یدیه و هو یقول:طویل،عریض،عمیق،قصیر،متحرک، ساکن،کل ذلک صفه خلقه،فقال له العالم-علیه السلام-:«فإن کنت لم تعلم صفه الصنعه غیرها فاجعل نفسک مصنوعا لما تجد فی نفسک مما یحدث من هذه الأمور»فقال له عبد الکریم:سألتنی عن مسأله لم یسألنی عنها أحد قبلک،و لا یسألنی أحد بعدک عن مثلها،...الی أن اعترف أخیرا بأن له صانعا...و الحدیث طویل أخذنا الشاهد منه.

و قد صاغ المتکلمون الحجه التالیه من هذه الحقیقه فقالوا:العالم متغیّر،و کل متغیر حادث،فالعالم حادث.حقّا ان تطورات الخلیقه من حولنا،و تطورات حیاتنا،و تقلبنا حالا بعد حال(طبقا عن طبق)أفضل سبیل لمعرفه الرب و حکمه خلقه لنا،و لکن لیس کل الناس یسلکون هذا السبیل لأن بعضهم تراه یکذّب، و یبنی حیاته علی أساس التکذیب، فلا تنفعه الحجج و لا المواعظ و العبر.

فَمٰا لَهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ

و تأتی هذه الآیه فی سیاق بیان تلک الحقائق المفزعه لعلها تنفض من فؤاد الإنسان رواسب الغفله و التهاون.

[۲۱]حین یتّصل قلب الإنسان بشلّال النور لا تملک جوارحه إلّا الاستجابه لمؤثرات الوحی،فأیّ قلب واع لا یخضع لهذا الوحی الذی کاد یصدع الجبال الراسیات،أم أیّه جبهه لا تخر ساجده علی التراب أمام هذه الصعقات المتتالیه التی تنبعث من ضمیر القرآن.

وَ إِذٰا قُرِئَ عَلَیْهِمُ الْقُرْآنُ لاٰ یَسْجُدُونَ قالوا:السجود هنا بمعنی التسلیم و الخضوع للقرآن،و قال بعضهم:انه السجود المعهود الذی ینبأ عن التسلیم النفسی،و قد اعتبر أئمه أهل البیت-علیهم السلام- السجود عند قراءه هذه مندوبا.

[۲۲]انی کانت الحجج الإلهیه بالغه فإن الجاحد یظل یعاند و یکذب،لأنه قد قرّر سلفا عدم التصدیق بها،لذلک فإنّ موقفه لا یعکس ضعفا فی الحجه بل انحرافا فی نفسه.

بَلِ الَّذِینَ کَفَرُوا یُکَذِّبُونَ [۲۳]و تکذیبهم الظاهر لا یعکس واقعهم و مدی تأثرهم بالحجه،إذ أنهم بالتالی بشر،و تنفذ البراهین الواضحه فی أعماقهم،و لکنّهم یخدعون أنفسهم و یکذّبون بها طلبا لحطام الدنیا،و بحثا عن لذاتها،و اللّه سبحانه علیم بأنفسهم،و یحاسبهم علی ما فیها،و لیس علی مجرد ما یدعون من أنهم لم یقتنعوا بالحجه.

وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا یُوعُونَ

ص:۴۵۵

و الوعى بمعنى الحفظ،و يسمى الإناء:وعاء،لأنه يحفظ الطعام،و قال المفسرون فى معنى الآيه:اللّه أعلم بما يضمرون.

[۲۴]و على أساس ما يظهرون يحاسبهم اللّه،لأن الكافر يشهد قلبه على كذبه قبل أىّ شخص آخر.

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ صدقوا بالحساب أم كذبوا.

[۲۵]و انما يستثنى من هذا التعميم الذين آمنوا و عملوا الصالحات،فإنهم وحدهم الذين يعطيهم اللّه أجرا،دائما غير منقطع.

إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ قالوا فى معنى الاستثناء أنه منقطع إذ أن الكفار غير المؤمنين،فلا معنى لاستثنائهم منهم،و قال بعضهم:أن معنى«الا»هنا العطف،و لعل الأفضل أن يقال:بل الاستثناء متصل،و لكن المستثنى منه محذوف بدليل ذات الاستثناء،أى أن الإنسان أنى كان مبشر بعذاب أليم إلاّ المؤمنون.

لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ صحيح أن الأجر بقدر المشقه،و لكن أجر الآخره دائم،فلو أتيت على آيه ذكر فيها بيت الجنه فإن هذا البيت ليس كبيوت الدنيا،يتهدّم بعد حين،بل هو بيت دائم لا يزول،و كذلك سائر أجر الآخره.رزقنا اللّه ذلك بفضله.

قالوا:معنى كلمه«ممنون»أنه بمعنى القطع،و قد سأل نافع بن الأزرق ابن

عباس عن قوله:« لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ »فقال:غير مقطوع.فقال:هل تعرف ذلك العرب؟قال:نعم.قد عرفه أخو يشكر حين يقول:

فترى خلفهن من سرعه الرجز مع منينا كأنه أهبا.

و قال المبرد:المنين:الغبار،لأنها تقطعه وراءها (۱).

۱- ۱) القرطبی ج ۱۹ ص ۲۸۲.

سوره البروج

اشاره

ص:۴۵۹

بسم اللّه الرحمن الرحيم

فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى عبد اللّه-عليه السلام-قال:

من قرأ«و السماء ذات البروج»فى فرائضه فإنّها سوره النبيين كان محشره و موقفه مع النبيين و المرسلين و الصالحين نور الثقلين/ج ۵ ص ۵۴۰

الإطار العام:

جبّار سفيه تطغيه سلطه محدوده فی بلد متواضع فيتخذ قرارا خاطئا بإعدام جماعی لطائفه وعت الحقيقه فآمنت باللّه،فيلقيهم فی نار فی الأخاديد،و تشهد الجماهير سطوته لكی يكونوا لهم عبره..و ينتهی فی زعمه كلّ شیء.كلّا..إنّ السموات و الأرض و جنودهما و سكانهما ينتظرون محاكمه هذا السفيه فی اليوم الموعود،و إنّ سنن اللّه فی الخليقه التی تمتد من السماء ذات البروج فی عمق المكان إلی اليوم الموعود فی أفق الزمان و إلی الشاهد و المشهود تحيط بهذا الإنسان العاجز المسكين،فأين المفر؟! و هكذا تتواصل آيات سوره البروج التی تفتح باليمين،و تختم بأنّ اللّه من ورائهم محيط،و أنّ القرآن المجيد مصون فی اللوح المحفوظ،و فيما بينهما الحديث عن أصحاب الأخدود الذين بالغوا فی الجريمه فأوقدوا النار فی حفر ثم ألقوا المؤمنين فيها و جلسوا يتفرّجون علی مشهد احتراقهم.

و هكذا ابتلی المؤمنون(و ربما بصوره مكرّره و فی بلاد مختلفه)بهذا البلاء

ص:۴۶۲

العظیم،دون أن ینال من إیمانهم مثقال ذره،بل ازداد إیمانهم صلابه و صفاء.

أمّا أعداؤهم فما ذا کانت عاقبه جرائمهم؟هل بلغوا هدفهم؟و ما ذا استهدفوا من هذا العمل الوحشی الموغل فی الجاهلیه؟أ و لیس کسر مقاومه المؤمنین؟فهل أفلحوا؟کلاّ..فقد انتشر الدین بسبب مقاومه المؤمنین،و نزل علی الجبّارین العذاب الألیم،کما أنزل اللّه علی فرعون و ثمود العذاب الألیم.

و کلمه أخیره:إنّ هذه السوره الکریمه تتمیّز بإعداد المؤمنین لاجتیاز أصعب الامتحانات و مقاومه أکبر التحدیات.

[سوره البروج (۸۵): الآيات ۱ الی ۲۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ . وَ اَلسَّمٰاءِ ذٰاتِ اَلْبُرُوجِ (۱) وَ اَلْيَوْمِ اَلْمَوْعُودِ (۲) وَ شٰاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (۳) قُتِلَ أَصْحٰابُ اَلْأُخْدُودِ (۴) اَلنّٰارِ ذٰاتِ اَلْوَقُودِ (۵) إِذْ هُمْ عَلَيْهٰا قُعُودٌ (۶) وَ هُمْ عَلىٰ مٰا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (۷) وَ مٰا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاّٰ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَمِيدِ (۸) اَلَّذِي لَهُ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۹) إِنَّ اَلَّذِينَ فَتَنُوا اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذٰابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذٰابُ اَلْحَرِيقِ (۱۰) إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ جَنّٰاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ ذٰلِكَ اَلْفَوْزُ اَلْكَبِيرُ (۱۱) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (۱۲) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (۱۳) وَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلْوَدُودُ (۱۴) ذُو اَلْعَرْشِ اَلْمَجِيدُ (۱۵) فَعّٰالٌ لِمٰا يُرِيدُ (۱۶) هَلْ أَتٰاكَ حَدِيثُ اَلْجُنُودِ (۱۷) فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ (۱۸) بَلِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (۱۹) وَ اَللّٰهُ مِنْ وَرٰائِهِمْ مُحِيطٌ (۲۰) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (۲۱) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (۲۲)

اللغه

۱[البروج]:القصور،و سمّيت بذلك لأنّها ظاهره لعلوّها، و جاء فی مفردات الراغب:ثوب مبرّج صوّرت عليه بروج فاعتبر حسنه و قيل تبرّجت المرأه أی تشبّهت به فی إظهار المحاسن،و علی ذلك تكون بروج السماء هی الأجرام و المجرّات الضخمه الظاهره فی الآفاق.

و قال البعض:هی منازل الشمس و القمر و الكواكب و هی اثنا عشر برجا،يسير القمر فی كلّ برج منها يومين و ثلاث و تسير الشمس فی كلّ برج شهرا.

۴[الأخدود]:الشقّ العظيم فی الأرض،و منه الخدّ لمجاری الدموع،و تخدّد لحمه إذا صار فيه طرائق كالشقوق.

۱۰[فتنوا]:أی أحرقوا،و الفتین حجاره سود کأنّها محرقه، و أصل الفتنه الامتحان ثمّ یستعمل فی العذاب،و قال الراغب فی مفرداته:أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته.

۱۵[المجید]:المجد السعه فی الکرم و الجلال،و أصل المجد من قولهم:مجدت الإبل إذا حصلت فی مرعی کثیر واسع و قد أمجدها الراعی،و وصف اللّه نفسه بذلک لسعه فیضه و کثره جوده،و لجلالته و عظم قدره.

قُتِلَ أَصْحٰابُ الْأُخْدُودِ

بینات من الآیات:

[۱]الکائنات و الزمان و الإنسان ثلاثه شهود عظام علی مسئولیه البشر،فأنّی له الهروب،و أنّی له التبریر!و أعظم الکائنات حسب علمنا السموات بما فیها من وحدات من بناء عظیم یسمّیها القرآن البروج.

وَ السَّمٰاءِ ذٰاتِ الْبُرُوجِ ما هی البروج؟یبدو أنّها طبقات السماء المتمثله فی مجامیع المجرات،کل مجره فیها أعداد هائله من الشموس.

قالوا:أصل معنی البروج الظهور،و لأنّ البناء العالی ظاهر سمّی القصر برجا،کما سمّی موقع الدفاع عن المدینه بالبرج.و لعلّ انتخاب هذه الکلمه هنا کان لأنّ فی السماء حرسا اتخذوا مواقع لرصد حرکات الإنس و الجن و الشیاطین،ممّا

ينسجم مع السياق الذى يجرى فيه الحديث عن جزاء الطغاه على جرائمهم بحقّ المؤمنين،فإذا تحصّن الطغاه ببروجهم الأرضيه فإنّ للسماء بروجا لا يستطيعون مقاومه جنودها.

و قال بعضهم:البروج هى منازل الشمس و القمر و الكواكب و أفلاكها التى لا تستطيع أجرام السماء على عظمتها تجاوزها قيد أنمله،ممّا يشهد على أنّها كائنات مخلوقه مدبّره.

[۲]يوم القيامه رهيب ترتعد السموات و الجبال و البحار و سائر الكائنات خشيه منه و إشفاقا،و أعظم ما فيه مواجهه الإنسان لأفعاله،بلا حجاب من تبرير،و لا قوه و لا ناصر..و هكذا يحلف السياق به على ما يجرى الحديث عنه من مسئوليه الطغاه أمام ربّهم عن جرائمهم بحقّ المؤمنين.

وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ إنّه يوم لا ـ مناص منه،لأنّه وعد اللّه،و وعد اللّه غير مكذوب،و ليس الإنسان وحده بل الكائنات جميعا موعوده بذلك اليوم،فأىّ يوم عظيم ذلك اليوم؟ [۳]ثم يقدم الإنسان للمحاكمه،فقد حضر الشهود.كلّ مكان عاش فيه يشهد عليه،و كلّ زمان مرّ به يشهد عليه،و كلّ جارحه استخدمها تشهد عليه، و كلّ إنسان عايشه يشهد عليه،و فى طليعه الشهود الأنبياء و الأوصياء و الدعاه إلى اللّه،يشهدون عليه أن قد بلّغوه رسالات ربه فلم يقبلها.أىّ مسكين هذا الطاغيه الذى تجتمع عليه الشهود من كلّ موقع و كلّ حدب؟!ثم تراه فى الدنيا غافلا لاهيا سادرا فى جرائمه و كأنّه لا حساب و لا عقاب.

وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ

قال بعضهم:

الشاهد يوم الجمعه بينما المشهود يوم عرفه، و روى ذلك عن الإمام على-عليه السلام- ،و قال البعض:بل كلّ يوم يشهد على الإنسان بما يفعل،و

روى عن الرسول-صلّى اللّه عليه و آله-قوله: «ليس من يوم يأتى على العبد إلاّ ينادى فيه:يا بن آدم أنا خلق جديد،و أنا فيما تعمل عليك شهيد، فاعمل فىّ خيرا أشهد لك به غدا،فإنّى لو قد مضيت لم ترن أبدا،و يقول الليل مثل ذلك » (1).

[4]أ رأيت الذى خلق السماء ذات البروج فلم يدع فيها ثغره و لا فطورا، و جعل للناس اليوم الموعود ليجمعهم و يشهدهم على أنفسهم،أ رأيته سبحانه يترك الإنسان يعبث فى الدنيا و يقتل عباده المؤمنين بطريقه شنيعه ثم لا يجازيه؟كلاّ..

قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ الذين شقّوا فى الأرض أخاديد كالأنهر العريضه،و ملأوها نيرانا تستعر.

قال بعضهم:تلك لعنه أبديه تلاحق الظالمين،فالقتل هنا كنايه عنها.

و قال البعض:بل أنّ أولئك الظالمين قد قتلوا فعلا إذ خرجت شعله من نيران أخدودهم و أحرقتهم.و ربما قتلوا بعدئذ بطريقه أخرى.

المهم أنّهم لم يفلتوا من عذاب الآخره،و إن أمهلوا فى الدنيا لعدّه أيّام،ذلك أنّ نظام الخليقه قائم على أساس العداله،و لن يقدر الظالم الانفلات من مسئوليه جرائمه.

[5]كانت نيران تلك الشقوق التى صنعوا فى الأرض مشتعله تلتهم الضحايا بسرعه.

ص:470

1- 1) القرطبى ج 19 ص 284.

اَلنّٰارِ ذٰاتِ الْوَقُودِ و کم هی فظیعه جرائم الطغاه،و کیف یتوسلون بأبشع الأسالیب فی سبیل بقائهم عده أيّام آخر فی سدّه الحکم..أ فلا یستحق مثل هؤلاء نیران جهنم المتّقده؟ [۶]رهیب و مثیر منظر الإنسان البریء الوادع و هو یحترق بالنار و یجأر للمساعده دون أن یستجیب له أحد،و قد یکون شیخا کبیرا أو شابّا یافعا أو امرأه ضعیفه أو حتی طفله بعمر الورد.

ما أقسی قلوب الطغاه و أتباعهم و هم یتحلّقون حول النار ینظرون إلی المؤمنین یلقون فی النار فیحترقون!حقّا:إنّ الکفر یمسخ صاحبه،و الطغیان یحوّله إلی ما هو أسوء من وحش کاسر.

إِذْ هُمْ عَلَیْهٰا قُعُودٌ [۷]لقد دعوا الجماهیر إلی حفله إعدام جماعیه،لیشهدوا عذاب المؤمنین، و لیکون عذابهم عبره لمن بعدهم لکی لا یفکرّ أحد بمخالفه دین السلطان.

وَ هُمْ عَلیٰ مٰا یَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِینَ شُهُودٌ جریمه بشعه تقع فی وضع النهار و بعمد و قصد و بتحدّی سفیه لملکوت الرب حیث یستشهد علی وقوعها المجرم الناس..لا أظنّ أنّ جریمه تستکمل شروط الاجرام کهذه..فما ذا ینتظر المجرم غیر القتل و ملاحقه اللعنه؟ من هم أصحاب الأخدود؟و فی أیّ بقعه کانوا؟قال مقاتل:إنّ أصحاب الأخدود ثلاثه:واحد بنجران،و الآخر بالشام،و الثالث بفارس،أمّا بالشام

أنطياخوس الرومی،و أمّا الذی بفارس فبختنصّر،و الذی بأرض العرب یوسف بن ذی نواس (۱).

و حسب هذا القول یحتمل أن تکون جریمه الحرق بالنار عبر الأخدود شائعه فی الجاهلیه فی أکثر من بلد،و إذا لا یهمنا من کان یفعلها،إنّما العبره منها.

و جاء فی بعض الأحادیث أن القصه وقعت فی الحبشه حیث بعث اللّه إلیهم نبیّا فآمنت به طائفه فأخذوه و إیّاهم و ألقوهم فی النار.. (۲).

إلاّ أنّ النصوص استفاضت بقصه طریفه للاعتبار،و لا یهمّنا ذکر الاختلاف فی تفاصیلها:

روی مسلم فی الصحیح عن هدیه بن خالد عن حمّاد بن سلمه عن ثابت بن عبد الرحمن بن أبی لیلی عن صهیب عن رسول اللّه-صلّی اللّه علیه و آله-قال:

«کان ملک فیمن کان قبلکم له ساحر،فلمّا مرض الساحر قال:إنّی قد حضر أجلی فادفع إلیّ غلاما أعلّمه السحر،فدفع إلیه غلاما و کان یختلف إلیه،و بین الساحر و الملک راهب،فمرّ الغلام بالراهب فأعجبه کلامه و أمره،فکان یطیل عنده القعود،فإذا أبطأ عن الساحر ضربه،و إذا أبطأ عن أهله ضربوه،فشکا ذلک إلی الراهب،فقال:یا بنی إذا استبطأک الساحر فقل:حبسنی أهلی،و إذا استبطأک أهلک فقل:حبسنی الساحر،فبینما هو ذات یوم إذا بالناس قد غشیهم دابّه عظیمه،فقال:الیوم أعلم أمر الساحر أفضل أم أمر الراهب،فأخذ حجرا فقال:اللهم إن کان أمر الراهب أحبّ إلیک فاقتل هذه الدابه،فرمی فقلتها و مضی الناس،فأخبر بذلک الراهب فقال:یا بنی إنّک ستبتلی فإذا ابتلیت

۱- ۱) القرطبی ج ۱۹ ص ۲۹۱.

۲- ۲) تفسیر المیزان ج ۲۰ ص ۲۵۶ نقلا عن الإمام علی علیه السلام.

فلا تـدل عليّ،قال:و جعل يـداوی الناس فيبرئ الأكمه و الأبرص،فبينما هو كـذلك إذ عمی جليس للملك فأتاه و حمل إليه مالا كثيرا،فقال:اشـفنی و لک ما هاهنا،فقال:أنا لا أشـفی أحدا و لكنّ اللّه يشـفی،فإن آمنت باللّه دعوت اللّه فشـفاک،قال:فآمن فدعا اللّه فشـفاه،فـذهب فجلس إلی الملـک فقـال:يـا فلاـن من شـفاک؟فقـال:ربی،قال:أنا؟قال:لا،ربی و ربک اللّه،قال:أو إنّ لک ربّا غيری؟قـال:نعم.ربی و ربـک اللّه،فأخـذه فلم يزل به حـتی دلّه علی الغلاـم،فبعث إلی الغلاـم فقـال:لقـد بلغ من أمرک أن تشـفی الأكمه و الأبرص، قال:ما أشفی أحدا و لكنّ اللّه يشفی،قال:أ و إنّ لک ربّا غيری؟قال:نعم.

ربی و ربـک اللّه،فأخـذه فلم يزل به حـتی دلّه علی الراهب،فوضع المنشـار عليه فنشـر حـتی وقع شـقّتين، فقـال للغلاـم:إرجع عن دينک فأبی،فأرسل معه نفرا قال:اصـعدوا به جبل كذا و كذا فإن رجع عن دينه و إلاّ فدهدهوه منه، قال:فعلوا به الجبل فقال:اللهمّ اكفنيهم بما شـئت،فرجف بهم الجبل فتدهدهوا أجمعون،و جاء إلی الملک فقال:ما صنع أصحابک؟فقال:كفانيهم اللّه،فأرسل به مره أخری قـال:انطلقـوا به فلجّجـوه فی البحر،فـإن رجع و إلاّـ فـأغرقوه،فـانطلقوا به فی قرقور (۱)فلمّـا توسّـطوا به البحر قال:اللهم اكفنيهم بما شـئت،فانكفأت بهم السفينه،و جاء حتی قام بين يدی الملک فقال:ما صنع أصحابک؟فقال:كفانيهم اللّه،ثم قال:إنّک لست بقاتلی حتی تفعل ما آمرک به اجمع الناس ثم اصـلبنی علی جـذع ثم خـذ سـهما من كنانتی ثم ضـعه علی كبد القوس،ثم قل:باسم ربّ الغلام فإنّک سـتقتلنی،قال:فجمع الناس و صـلبه ثم أخذ سـهما من كنانته فوضـعه علی كبد القوس و قال:باسم ربّ الغلام و رمی فوقع السهم فی صدغه (۲)و مات،فقال الناس:آمنّا بربّ الغلام،فقيل له:

أ رأيت ما كنت تخاف قد نزل و اللّه بک من الناس،فأمر بأخدود فخدّدت علی

۱- ۱) القرقور-بالضم-السفينه الطويله.

۲- ۲) الصدغ-بضم الصاد-ما بين العين و الاذن.

أفواه السكك ثم أضرمها نارا فقال:من رجع عن دينه فدعوه،و من أبى فاقحموه فيها،فجعلوا يقتحمونها،و جاءت امرأت بابن لها فقال لها:يا أمه اصبرى فإنّك على الحق » (۱).

و روى سعيد بن جبير قال:لمّا انهزم أهل إسفندهان قال عمر بن الخطاب:

ما هم يهود و لا نصارى،و لا لهم كتاب،و كانوا مجوسا،فقال علىّ بن أبى طالب:

«بلى.قد كان لهم كتاب رفع،و ذلك أنّ ملكا لهم سكر فوقع على ابنته-أو قال:على أخته-فلمّا أفاق قال لها:كيف المخرج ممّا وقعت فيه؟قالت:تجمع أهل مملكتك و تخبرهم أنّك ترى نكاح البنات و تأمرهم أن يحلّوه،فجمعهم فأخبرهم فأبوا أن يتابعوه فخدّ لهم أخدودا فى الأرض و أوقد فيه النيران و عرضهم عليها فمن أبى قبول ذلك قذفه فى النار و من أجاب خلّى سبيله » (۲).

و روى عن الإمام الباقر-عليه السلام-قال: «أرسل على-عليه السلام-إلى أسقف نجران يسأله عن أصحاب الأخدود فأخبره بشىء،فقال -عليه السلام-:ليس كما ذكرت و لكن سأخبرك عنهم:إنّ اللّه بعث رجلا حبشيّا نبيّا و هم حبشيه،فكذّبوه فقاتلهم أصحابه،و أسروه و أسروا أصحابه،ثم بنوا له جسرا،ثم ملؤوه نارا،ثم جمعوا الناس فقالوا:من كان على ديننا و أمرنا فليعتزل،و من كان على دين هؤلاء فليرم نفسه بالنار،فجعل أصحابه يتهافتون فى النار،فجاءت امرأه معها صبى لها ابن شهر فلمّا هجمت هابت و رقّت على ابنها، فنادى الصبى:لا تهابى و ارمينى و نفسك فى النار،فإنّ هذا و اللّه فى اللّه قليل، فرمت بنفسها فى النار و صبيّها،و كان ممّن تكلّم فى المهد » (۳).

و جاء فى حديث مأثور عن الإمام الصادق-عليه السلام-قال: «قد كان

۱- ۱) نور الثقلين ج ۵ ص ۵۴۶.

۲- ۲) المصدر/ص ۵۴۷.

۳- ۳) المصدر.

قبلكم قوم يقتلون،و يحرقون،و ينشرون بالمناشير،و تضيق عليهم الأرض برحبها،فما يردّهم عمّا هم عليه شيء مما هم فيه من غير تره وتروا من فعل ذلك بهم و لا أذى،بل ما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا باللّه العزيز الحميد،فاسألوا ربكم درجاتهم و اصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم » (۱).

و هكذا يفعل الإيمان بالقلب الإنسانى فيجعله أقوى من زبر الحديد،أثبت من الراسيات،أسمى من القمم السامقه،أشدّ صلابه من كلّ ما يبتدعه الطغاه من وسائل الأذى و التعذيب و القتل!! و قد نتساءل:ما الذى جعل هذا الإنسان الذى لا يكاد يتحمّل أذى بقّه يقتحم النيران المتقده بجسده النضّ ليحترق أمام أعين الناقمين و الشامتين،دون أن يتنازل عن إيمانه؟ أقول:أولا-إنّ وضوح الرؤيه عندهم كان قد بلغ حدّا كانوا يعيشون(ببصائر قلوبهم)الجنه و نعيمها فيتسلون بها عن شهوات الدنيا،و يعيشون(بتقوى قلوبهم) النار و عذابها فتهون عليهم مصائب الدنيا و مشاكلها.

و إنّنا نقرأ قصه الأم التى تردّدت قليلا باقتحام النار مع رضيعها فقال لها ابنها:

يا أمّاه إنّى أرى أمامك نارا لا تطفأ(يعنى نار جهنم)فقذفا جميعا أنفسهما فى النار.

ثانيا:عند ما يقرّر الإنسان شيئا يسهل عليه القيام به،و بالذات حينما يكون الأمر فى سبيل اللّه يهوّنه الربّ له،و يثبّت عليه قدمه،و يرزقه الصبر على آلامه و تبعاته،و يقوّى إيمانه،و يشحذ بصيرته ليرى بها أجره فى الآخره..و هكذا ترى عباد اللّه الصالحين يقاومون عبر التاريخ مختلف الضغوط،و يتحمّلون ألوانا من

۱- ۱) المصدر.

الأذى بقلب راض و نفس مطمئنه،لعلمهم أنّ سنن اللّه واحده لا تتغير و لا تتبدل، و أنّ المؤمنين الذين احترقوا فى الأخدود هم سواء مع أىّ مؤمن يعتقل اليوم فى سجون الطغاه أو يعذّب أو يقتل أو يتحمّل مشاكل الهجره و الجهاد و مصائبهما،و كما خلّد اللّه أمجاد أولئك الصّدّيقين فإنّه لا يضيع أجر هؤلاء التابعين لهم،و كما أنّ اللّه قتل أصحاب الأخدود و نصر رسالاته فإنّه يهلك الجبّارين اليوم و يستخلفهم بقوم آخرين.

[۸]عند هيجان الصراع و ثوره الدعايه ضد المؤمنين.لا يعرف الناس ما ذا يفعلون،و أىّ جريمه يرتكبون،و لكن عند ما يرجعون إلى أنفسهم بعدئذ و يتساءلون:

لما ذا قتلوا المؤمنين،و لما ذا نقموا منهم،يعرفون أنّهم كانوا فى ضلال بعيد.

وَ مٰا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاّٰ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ فلا أفسدوا فى الأرض،و لا اعتدوا على أحد،و لا طالبوا بغير حق،و إنّما استعادوا حريتهم،و آمنوا بربهم اللّه العزيز المنيع الذى لا يقهر و الحميد الذى لا يجور و لا يبخل،و يعطى جزاء العباد،و يزيدهم من فضله.

[۹]و أيّهما الحق التمرد على سلطان السموات و الأرض،و الدخول فى عبوديه بشر لا يملكون دفع الضر عنهم،أم التحرر من كلّ عبوديه و قيد،و الدخول فى حصن الملك المقتدر القاهر؟ اَلَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ و بالرغم من أن اللّه منح الطغاه فرصه الإختيار ضمن مهله محدوده إلاّ أنّه شاهد على ما يعملون،و لا يغيب عنه شىء فى السموات و الأرض.

وَ اللّهُ عَلى كُلِّ شَیْ ءٍ شَهِیدٌ [۱۰]و شهاده اللّه لیست للتاریخ فقط،و إنّما للجزاء العادل،فإنّه یسوق الطغاه إلی جهنم ذات النار اللاّهبه و العذاب المحرق.

إِنَّ الَّذِینَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ و هذه حکمه اللّه فی إعطاء الطغاه فرصه الامتحان،لأنهم بعملهم هذا فتنوا المؤمنین و اختبروا إرادتهم،حتی ظهر للناس قیمه الإیمان و معناه،و کیف أنّه فوق المادّیات،و أنّ دعوه الرسول و أتباعه لیست من أجل مال أو سلطان.ثم إنّهم فتنوا المؤمنین فخلص إیمانهم من رواسب الشرک،و خلصت نفوسهم من بقایا الجهل و الغفله،و خلصت صفوفهم من العناصر الضعیفه،کما یخلص الذهب حینما یفتن فی النار من کلّ الرواسب.

تلک کانت حکمه الرب فی إعطاء الجبّارین فرصه ارتکاب تلک المجازر البشعه بحقّ الدعاه إلی اللّه.و لعل بعضهم عادوا إلی اللّه و تابوا من فعلتهم،و لذلک أشار ربّنا بقوله:

ثُمَّ لَمْ یَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِیقِ و فرق کبیر بین عذاب جهنم الأشد الأبقی،و بین عذاب الأخدود الذی یمرّ کلمح البصر،ثم ینتهی المعذّبون إلی روح و ریحان.

[۱۱]أمّا أولئک المعذّبون فإنّ الجنّات تنتظرهم.

إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ جَنّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِکَ الْفَوْزُ الْکَبِیرُ

سواء دخلوا التحدّيات الكبيره كأصحاب الأخدود أم كانوا من التابعين لهم.

و أىّ فوز أعظم لهم من انتهاء محنتهم و فتنتهم،و بلوغ كامل أهدافهم و تطلّعاتهم؟! [۱۲]قسما بالسماء ذات البروج و باليوم الموعود و بالشاهد و المشهود:إنّ أخذ اللّه شديد حيث يأخذ الطغاه و الظالمين.

إِنَّ بَطْشَ رَبِّکَ لَشَدِيدٌ قالوا:إنّ هذه الجمله جواب للقسم فى فاتحه السوره.و لعلّ قوله:« قُتِلَ أَصْحٰابُ الْأُخْدُودِ »أيضا جواب آخر للقسم،فيكون القسم إطارا لكلّ الحقائق التى تذكر فى هذه السوره.

و من هذه الآيه يظهر أنّ اللّه قد أخذ أصحاب الأخدود أخذا أليما كما أخذ سائر الطغاه.

[۱۳]و كيف لا يكون شديدا بطش جبّار السموات و الأرض الذى يبدئ خلق الإنسان و يعيده بعد الفناء؟! إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ [۱۴]و إنّما لا يأخذ أهل الأرض بما كسبوا عاجلا،و يعفو عن كثير من سيئاتهم لأنّه يستر ذنوبهم و يحبّهم.

وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ [۱۵]و ودّه للمؤمنين و غفرانه لذنوب عباده إنّما هو لعزّته و قوّته.

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ

ص:۴۷۸

و سواء قرأناه بالضم ليكون صفه للرب أو بالكسر ليكون صفه للعرش فإنّه واحد إذ عرشه هيمنته و سلطانه،و هو اسم من أسمائه الحسنى،و صفه من صفاته الكريمه.

[۱۶]و كيف لا يكون سلطانا عظيما من يفعل ما يريد دون ممارسه لغوب و لا علاج؟ فَعّالٌ لِما يُرِيدُ و إراده اللّه صفه قدرته المطلقه.و هذه الآيه تدل على أنّه لا شيء يحدّ إرادته، فليست إرادته قديمه كما زعمت فلاسفه اليونان،و تسربّت تلك الفكره إلى اليهود فقالوا:« يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ »!سبحان اللّه كيف يكون القادر أوّلا عاجزا آخرا؟!و هل يوصف الرب تعالى بالأول و الآخر فيكون متغيّرا؟! و انعكاس هذه الصفه علينا-نحن البشر-ألا يدعونا استمرار نعم اللّه و عادته الكريمه علينا إلى الغرور به،و التمادى فى الذنوب دون خشيه عقابه.

[۱۷-۱۸]فهؤلاء جنود إبليس اجتمعوا ليبطشوا بالمؤمنين فأين انتهى بهم المقام؟ هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ* فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ يسوقهما القرآن سوقا واحدا بالرغم من اختلاف أكثر الظروف،ذلك لأنّ سنه اللّه واحده فيهما كما فى غيرهما.

[۱۹]قد يبنى البشر بنيانا متكاملا من الكذب و يحشر نفسه فيه،فتراه يبحث لإنكاره لوجود ربه أو لقدرته أو لسنّته فى الجزاء عن فلسفه ذات أبعاد لعلّه يقنع نفسه و الآخرين بها،و يسمّيها-جدلا-فلسفه الإلحاد أو الفلسفه الماديه،و قد

يتجاوز كلّ الحقائق و يسـمّيها زورا بالفلسـفه العلميه،ثم يجعل أمام كلّ حق باطلا،و لكلّ صواب بـديلا من الخطأ،ثم يحكم-فى زعمه-نسج هذه الأباطيل ببعضها و يسمّيها نظريه أو مبدأ،و إن هى إلاّ سلسله من الأكاذيب.

و مثل هذا الإنسان لا يسـهل عليه الخروج من شـرنقه الكذب التى نسـجها حول نفسه،و لذلك يتحصّن ضد كلّ العبر و المواعظ حتى و لو كانت فى مستوى عبره العذاب الذى استأصل شأفه فرعون و ثمود.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ لأنّهم كفروا بأعظم و أوضح الحقائق(باللّه العظيم و رسالاته)و دخلوا فى نفق التكذيب فلم يخرجوا منه للاعتبار بمصير فرعون الذى اشتهرت قصته بين أهل الكتاب أو بمصير ثمود الذين عرفت العرب أمرهم.

[۲۰]و هـل ينفعهم التكـذيب شـيئا؟هـل يمنعهم جزاء أعمـالهم أو يخـدع من يجـازيهم فينصـرف عنهم؟كلاّ..لما ذا؟لأنّ الإنسان يواجه ربّه و اللّه محيط بهم علما و قدره.

وَ اللّٰهُ مِنْ وَرٰائِهِمْ مُحِيطٌ قالوا:وراء الشـىء الجهات المحيطه به الخارجه عنه،فيكون مفهوم الآيه أنّ اللّه محيط بكلّ بعـد من أبعاد حياتهم.

و هذا يتقابل مع كونهم فى تكذيب.

[۲۱]و لكن أ ينتظرون ما يذكّرهم و يخرجهم من نفق التكذيب أعظم من هذا الكتاب العظيم؟

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ عظيم المستوى،رفيع المجد،لا تناله أيدى التحريف،و لا يبلغ مستواه التافهون الحقراء الذين يعيشون فى حضيض الشهوات،و لا يمس جواهر حقائقه و لآلئ معانيه سوى المطهّرين من دنس الشرك،و من رجس العقد النفسيه،و من ظلام الأفكار الباطله.

لا بد أن ترتفع إلى قمّه المجد حتى تدرك بعض معانى الكتاب العظيم.

[۲۲]و من علامات مجده و عظمته أنّه محفوظ فى لوح عند اللّه لا يستطيع أحد المساس به.

فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ

جاء فى الدر المنثور عن ابن عباس قال:قال رسول اللّه-صلّى اللّه عليه و آله-: «خلق اللّه لوحا من درّه بيضاء دفّتاه من زبر جده خضراء،كتابه من نور،يلحظ إليه فى كلّ يوم ثلاث مائه و ستين لحظه يحيى و يميت،و يخلق و يرزق،و يعزّ و يذل،و يفعل و يشاء » (۱).

و هذا الحديث تفسير قوله سبحانه:« فَعّٰالٌ لِمٰا يُرِيدُ ».أمّا اللوح المحفوظ المذكور فى هذه الآيه فلعلّه إشاره إلى الآيه الكريمه:« إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ »،حيث أنّ ربنا يحفظ اللوح من أن يرسم فيه غيره.

۱- ۱) تفسير الميزان.

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسّس مركز القائمیة للدراسات الكمبيوترية فی أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامی عام ١۴٢۶ الهجری فی المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فی الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فی العلوم الإسلامية وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمیة للدراسات الكمبيوترية فی أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين فی العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهی منظمة فی برامج إلكترونية وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوی تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبیّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ فی المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين فی الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها فی ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فى نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فى مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فى الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.۴

PDF.۵

HTML.۶

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.۴

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فى تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزى

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزى ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فى طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.

مرکز القائمیة اصبهان للبحوث والتحريات الكمبيوترية



للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org

